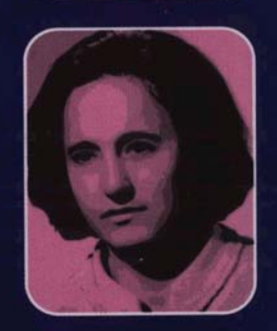
نساء الطغاة

12.5.2014







.....

ديان دوكريه

جرّوس برس ناشرون
Jarrous Press Publishers

نســاء

الطغـــــاة



Jarrous Press Publishers

يتضمن هذا الكتاب ترجمة للأصل الفرنسي

FEMMES de DICTATEUR

تنضيد وإخراج

ميشال إبراهيم ديب

الطبعة الأولى 2012، جرّوس برّس ناشرون

شارع جميل عدرة، باسل سنتر

ص.ب.:189، طرابلس، لبنان

تلفاكس: 208205-6-961+

info@jarrouspress.com

www.jarrouspress.com

ISBN : 978 - 9953 - 468 - 53 - 2

دیان دوکریه

نساء الطغاة

«أحببتك متقلّبا؛ فكيف لو كنت وفيّا؟
حتى الآن وفمك الذي لا يرحم ينبؤني بإرتياح بمماتي،
يا جاحد، ما زلت أشكّ في أني لا أحبك».

جان راسين (Jean Racine)، *أندروماك* (*Andromaque*)،
الفصل الرابع، المشهد الخامس

المقدمة

رسائل حبّ إلى طاغية

أيها القائد الحبيب،

«*يُعزى إنهيار الدولة بالضبط إلى قهركم النســاء. عزيزي هتلر، النســاء تتطلّع إلى مســتقبل أفضــل*[1]..». آمي هوفمــان (Emmy Hoffmann)، درسدن (Dresde)، 1932.

جاء كتاب امرأة مجهولة نذيراً لإفتتاح سلســلة مراســلات أدولف هتلر (Adolf Hitler) الخاصة في مستشارية الرايخ (Reich) أي المملكة. كانت الألمانيات يأملن مستقبلاً أفضل، ويطالبن هتلر ببنائه لهنّ. فهل كان لزعيم الحزب النازي الجســور أن ينخدع بكلام امرأة ريفية بسيطة؟ وكانت السنة التالية موعد الإنتخابات التي ستحملته إلى السلطة. عرف هتلر كيف يصغي

---

(1) الرسائل التي بعثت الى مستشارية هتلر الخاصة، والتي ترد هنا قد نشرها باللغة الألمانية هنريك أبرله (Henrik Eberle)، *Briefe an Hitler, ein Volk schreibt seinem Führer : un-bekannte Dokumente aus Moskauer Archiven zum ersten Mal veröffentlicht*، لوبه (Lübbe)، 2007. من ترجمة الكاتب. الترجمة الفرنسية : ملف هتلر. الملف السرّي الذي أمر ستالين بوضعه *Le Dossier Hitler. Le dossier secret commandé par Staline*، باريس، مطابع المدينة (Presses de la Cité)، 2006.

إلى النســاء ويأخذهنّ بعين الإعتبار في برنامجه. كان، بالنسبة للألمانيين، مستشــار الرايخ الجديد. أما في نظر الألمانيات، فقد كان الرجل المرسل من السماء، الرجل الكامل الأسمى.

ومن ثمّ، كانت الرسائل التي تصل المستشارية الخاصة بعيدة كل البعد عن شروط الأعراف المرعيّة عادة. فكانت تتدفق اليها يومياً، منها ما كان لتقديم التهانــي، والنصائح اللطيفة، ومنها ما كان يبوح بحــب أقلّه متّقداً. وإذا كان الرجال من سائر المهن يكتبون لهتلر، فقد كانت النساء هن صاحبات الرسائل الأكثر حميميّة. فلم يكنّ يتوجّهن إلى رئيس الدولة، ولا إلى الفكرويّ، بل إلى هتلر الرجل، الذي كنّ يأملن منه مبادلتهنّ المشاعر.

«*يا قائدي الحبيب،*

لا بــد لي أن أفكّر فيك كل يوم وكل ســاعة وكل دقيقة. لكنت أذهب بكل ســرور إلى برلين لألقاك! هل يحق لي هذا؟ مهما حصل، فإن حياتي ملك لك. أودّ لو أعرف مغزى كل ذلك. إذ لم يعد باســتطاعتي أن أعمل، لأني أفكر فيك دومًا. لا يسعني أن أحب غيرك أكثر منك. آمل أن تتحقق أمنيتي. أرجوك، أكتب لي إذا كان يحق لي المجيء».

ويصعب تخيّل الدكتاتور ذا الشارب القصير رمزاً لمثال جنسي أعلى. بل هو على الأخص شــيء مزعج. ومع ذلك، فقد تسلم هتلر رسائل معجبين أكثر من ميك جاغر (Mick Jagger) والبيتلز (Beatles) مجموعين[1]. وكان تدفق الرســائل المستمر إلى المستشــارية الخاصة للمملكة تبعاً لشعبيته:

---

(1) ألان هال (Allan Hall)، «مراسلات هتلر التي كُشف عنها» «Hitler's correspondence revealed»، دايليمايل (*Dailymail*)، 8 تشرين الأول 2007.

سـنة 1925، كان يكفي أن يهتمّ بتلك الرسـائل عامل محفوظات واحد. وقد تلقّى أكثر من 3000 رسالة بين كانون الثاني ونيسان 1933. في أواخر السنة، بلغ مجموعها 5000. وفي سنة 1934، وصل ما لا يقل عن 12000 رسـالة، وفاق عددها الـ10000 في 1941، مما أوجـب تنظيم العمل في المستشارية. كانت تحفَظ الرسائل في «الأرشيف»، الذي أُحدِث خصّيصاً لها، حيث كانت تودع تلك التي «خربشـتها نسـاء». بين 1935 و1938، لم يكن من بين آلاف هذه الرسـائل ولا حتـى بطاقة واحدة تحتوي على إنتقادات او لوم. كان الإعجاب على نسق واحد.

وقد أعطيت للضبّاط الذين أوكلت إليهم المراسلات تعليمات واضحة: لا جـواب على رسـائل المغرَمات بهتلر والمتعبّدات لـه. إلا إذا صرّحت صاحبة الرسـالة عن نيتها بالمجيء قريباً إلـى برلين لتقبيل قائدها الحبيب شـخصياً. في تلك الحال، كان مدير المستشارية الخاصة يُبلّغ السلطات الأمنيـة عن المُعجَبة. فيأتي جواب مقتضب ليضع حداً نهائياً لأي أمل في قيام علاقة غرامية:

«سيدتي، سيدي،

أفيد بهذه الرسالة بإستلام كتابك إلى القائد، وأبلّغك بأن هذا الأخير لن يورّط نفسه، من حيث المبدأ، في أي قضية خاصة.

سلام ألماني، ألبرت بورمان (Albert Bormann).

كان القائد النازي يتضايق كثيراً من آلاف هذه الرسـائل من نسـاء بلا حيـاء: تكزّزه التصاريح المجرّدة بالحب وتشـلّه. بيد أنـه كان يقرّ، وهو المناور، بأهمية مثل هذه المراسـلات من قبل الشعب. إنها مقياسه للرأي العـام «. لذلك كان يطّلع دائماً على مضمون آلاف الرسـائل التي تصله.

وكان رودولف هس (Rudolf Hess)، المسؤول عن المراسلات حتى 1931، وألبرت بورمان من بعده، يلخّصانها له ليسهّلا له قراءتها.

المراسلات الخاصة لهتلر، والمحفوظة في موسكو، مرآة تعكس صورة «المفتونات» بالقومية الإشتراكية بما فيه جسديّا. وتكشف عن طابع مجهول للأنظمة الدكتاتورية، ألا وهو أن السلطة فيها قائمة على طاقة الدكتاتور في الإغواء بقدر ما تقوم على الإكراه. هناك أيضاً قسط من الشهوة فيما يربط بين هتلر وشعبه. قد تبدو الحجّة فاضحة. إنها ببساطة من سمات البشر.

بناء على ذلك، كانت السيدة كلوز (Klose) تودّ المساهمة في نشر أسطورة هتلر. فأهدت له قصيدة سنة 1933، آملةً أن تصدُر في الصحف:

«كلّنا نهتف لهتلر
الذي يؤمّن لنا السلام والأمل
أنت، يا مخلّصنا!
تتحمّل الأعباء واللوم، ولا تنسى غايتك!
عاش أدولف هتلر!
العالم كله يصرخ، عاش هتلر.
البطل العظيم المحبوب، وفاؤك وفاؤنا.
لنحمده معاً، لنرفع سواعدنا ولنصرخ بصوت واحد «عاش هتلر»».

فتلقّت جواباً لم يكن في الحسبان هو التالي:

«السيدة كلوز العزيزة! يبلغك القائد شكره الصادق على رسالتك. مع الأسف، لا يمكننا أن نسمح لك بنشر هذه القصيدة، فإن القائد يرفض، من حيث المبدأ، أي شكل من أشكال التمجيد لشخصه».

خلال فصل الشتاء التالي، أرسلت له السيدة فون هايدن (von Heyden)، من مدينة بلوتز (Plötz)، كمية كبيرة من العسل، أرفقتها بنصائح بشأن صحته، شارحة له كيف ينبغي تسخين العسل بعناية، لكي لا يميع كثيراً، فيفقد «نكهته الفاخرة».

«يا قائدي، غمرني الرضى إذ علمت أنك تسلّمت عسلي... وأود أن أرسل لك منه من حين إلى حين، فأشارك هكذا بعض الشيء بوجبات طعامك... كم يسرّني أن يساهم هذا المنتج الطبيعي من أرضنا في بوميرانيا (Poméranie) بدوام الجهد الجسدي والفكري العظيم الذي تبذله. لك إعجابي ومحبتي،

السيدة فون هايدن - بلوتز.

وبالنسبة لبعض المعجبات، كان من المؤسف والمجحف جداً تكريس مثل هذه الطاقة للعمل السياسي وحده. وقد أوعزت إليه الكثيرات بنشاطات أخرى للقيام بها. هارتمانسدورف (Hartmannsdorf)، في 23 نيسان 1935:

«القائد العزيز أدولف هتلر!

تودّ إمرأة من إقليم ساكس (Saxe) كثيراً أن تنجب منك طفلاً. إنها بالتأكيد رغبة عارمة فارقة جداً، لكن فكرة أنه لا عليك أن يكون لك طفل تكفي لتزعجني. هذه هي الأمنية التي أردت أن أعبّر لك عنها في هذه الرسالة.

الرسالة مسألة طول أناة. يمكن قراءتها ثم تركها جانباً. يمكن ترك صداها يتردّد في النفس، كاللحن الجميل. يمكن أيضاً تلقّيها كرسالة وإتّباع ما فيها.

تختلط رغباتي بمخاوفي. قد لا تصلك رسالتي. ربما ليس لديك الوقت

لطفل. ربما تشعر بأنك طعنت في السنّ وعدلت منذ زمن طويل عن فكرة الإنجاب معتبراً إياه أمراً مستحيلاً .و بالرغم من كل شيء، ينبغي حقاً أن يبصر النور ولد منك. إنها كبرى أمنياتي، وأتوق إلى تحقيقها بكل عزيمة قلبي.

فريدل س. (Friedel S.)».

في 21 نيسان 1938، عبّرت ثلاث نساء من لودفيغسفلد (Ludwigsfeld)، في جنوب برلين، كتابياً عن إضطرابهنّ بعد مجرّد لمحه:

يا قائدي،

صدف أن كنا في محطة لودفيغسفلد يوم جرى الإستفتاء الشعبي. عندما إقترب قطار الساعة الواحدة والعشرين دقيقة من بعد الظهر، رأينا في القاطرة رفيقاً في الحزب في لباسه النظامي. ما جعلنا نظنّ أن قائدنا كان موجوداً في ذاك القطار. ولم نخطىء. تمكنت ثلاث نساء وقد غمرهنّ الفرح من رؤية قائدهنّ، الذي فاز بالإنتخابات في جو من التهليل، وكانت مكافأتهنّ أن حيّاهنّ بإشارة وديّة من يده. بهذه الرسالة، تشكر نساء ثلاث في منتهى السعادة قائدهنّ من كل قلبهنّ، ويرجون منه أن يرسل لكل منهنّ توقيعاً أصلياً، ذكراً لتلك اللحظة الرائعة التي لا تُنسى. نصر وتحية!

شكرا لقائدنا الحبيب!

مارتا إمسه (Martha Imse)، أنا لوبيان (Anna Loppien)، أليزابات باسلر (Elisabeth Pässler).

وفي أواخر الثلاثينات من القرن العشرين، بلغ الإعجاب بهتلر ذروته. ولم يعد يُعرف للتصوّرات الرومنطيقيّة حدّاً: «... *تأمل ما يمكن لمولود برج القوس أن يفعل بمولود برج الحمل. لقد جذبتك الأنثى الخالدة!!*

فإبتهـــج يا قلبي، ودع النجـــوم تعانقك! قولي لي مرة أخـــرى، أيتها المرأة الشابة،إمرأتي الشـــابة كما أحبّ. كيف تحبني؟ أنت الأزهار في الحقول. يا زهرة الأقحوان[1]!»

«لَم هذا الحياء في إتباع الوسائل السرية؟ لا يمكنني أن أحزر أفكارك. تواجدت أمس حتى الســـاعة الحادية عشرة والنصف في قاعة شركة الرماية في المدينة، لكنني، مع الأســـف، لم أرك هناك. أنت تبحث عن امرأة وأنا أبحث عن رجل. لَكنّا نعيش سوية منذ سنتين لولا تعاملك بهكذا سرّية».

«لســـت أنتظر منك جواباً منذ ما يقارب الســـنتين فقط، بل أنتظر منذ سبع أو ثماني سنوات».

الإسكندرية، مصر، 21 تشرين الثاني 1938:

«سيدي هتلر،

لست أدري كيف أبدأ هذه الرسالة. طالت السنوات، سنوات المصاعب والقلق والمشاغل المعنوية، وإنكار ذاتي، والبحث عن شيء جديد... لكن كل ذلك إنتهى، في لحظة، عندما أدركت أنني أجده فيك، ســـيدي هتلر. أعلم أن لك شـــخصية عظيمة قوية، وأني إمرأة بسيطة عديمة الشأن تعيش فـــي بلاد بعيدة، لن تعود منها أبداً في أغلب الظن، لكن عليك أن تصغي إلي. يا لها من سعادة كبرى عندما يصادف المرء أخيراً غاية حياته، عندما يخترق الغيوم شـــعاع من النور، ويتضح كل شـــيء! هذا ما يحدث لي...

---

(1) نشرت الرسائل غير الموقعة في: *Liebesbriefe an Adolf Hitler. Briefe in den Tod: Unveröffentlichte Dokumente aus der Reichskanzlei*، هلموت أولشوفر (Helmut Uls-höfer)، VAS- Verlag für Akademische Schriften، 1996. من ترجمة الكاتب.

حب عارم نوّر كل شـــيء، حبي لقائدي، لســيدي، إلــى حدّ أنني أتمنى أحياناً لو أموت وصورتك أمامي لكي لا أبصر بعد ذلك أي شـــيء غيرك. أنا لا أكتب إلى السيد مستشار رايخ كبير، أكتب بكل بساطة إلى الرجل الذي أهوى والذي سأتبع حتى نهاية حياتي...

لـــك حتى الموت، البارونـــة ألزا هاغن فون كيلفايـــن (Baronne Elsa Hagen von Kilvein)».

دعونا نوضح أن أية من هؤلاء النساء لا تعرف القائد شخصياً.

برلين، في 19 أيلول 1939:

«عزيزي أدولف اللذيذ،

عليّ أن أكتب لك، لأنني أحس بوحدة كبيرة. هنا، ذهب كلا الصبيَين في نزهة، وراح لانشـــان (Lenchen) يزور صديقه، وأنا جالسة أقوم بأشغال يدوية ومنزلية. فمثلاً، أرتق الجوارب وأغســـل الثياب. كان بودّي أن أخرج من البيت، لكن الســـماء ممطرة وأشغالي كثيرة. يجدر العمل دائماً، أليس كذلك يـــا حبيبي؟ [...] أتأمّل دائما في صور لـــك، وأضعها أمامي، ثم أقبلهـــا. نعم، نعـــم، يا حبّي، يا حبيبي، يا أدولفي الصالح، الحب شـــيء حقيقـــي كما هو الذهب. [...] ثم، أرجّح أنك قد إســـتلمت اليوم الطرد وفيه قرص الحلوى، وأنه طاب لك أيضاً. ما أرســـله لك، إنما لا أرسله إلا عن حبّ. ســـأختم الآن رسالتي. يا حبي، يا حبيبي، يا أدولفي الرائع، لك سلامي وألوف القبلات من عزيزتك المخلصة، ميل (Miele)».

معجبات ضاق بهنّ الوقت لإيقاع القائد في حبالهنّ فأرســـلن له بكل بساطة عقود زواج:

«بهذه الشـــهادة الموقعة، تتخذك الآنســـة آن مـــار ر. (Anne-Marie

R.) رســمياً زوجاً لها». لربما كنّ يأملن حقاً في أن تعاد اليهنّ الوثيقة وهي تحمل توقيع عزيزهنّ أدولف...

أما داغمار داســل (Dagmar Dassel)، فلم يأتها أبداً جواب من هتلر، غير أنها إســتمرت تبعث له بالعديد من الرسائل الحماسية المطوَّلة، يعادل مجموعهــا 250 صفحة. أرســلت أول رســالة لها في 25 شــباط 1940، لمناســبة الذكرى العشرين لتأسيس الحزب النازي. ووكان تبجيلها الكبير له يزداد تباعاً، إلى أن كانت رسالتها بتارخ 11 أيار 1941:

«قائدي، بإستطاعتي اليوم التأكيد على تعهّدي بالوفاء والحب المطلق، فأفكاري ومشــاعري ملكك وحدك، يا قائدي، أنــت الرجل الذي أحببته حباً جمّاً، الأشــرف والأعظم والأبدع، الذي لا مثيل له والعبقري، المرسل من الله، لك فقط، يا قائدي، فقط لمهمتك وفدائك الســلميّين، لك دون غيرك،أنت الإبن المنتخب، المقدّس، المتوّج والمحبوب من الله، رســول السلام السماويّ، المنفّذ للمشيئة الإلهية على الأرض، لشعبك ومملكتك الجرمانية الموحّدة (pangermanisme)، وجيشــك البطولي الباســل، لك فقــط، يا قائدي، أنت الجنــدي الأول والقائد الأعلى لهذا الجيش الرائع، الجنرال والخبير الإســتراتيجي الذي يفوق كل من سبقه في التاريخ عبقرية وهيبة، رئيس الدولة النابغة الأكبر، الألماني الأعظم، لك فقط، يا قائدي، أنــت البطل الأجلّ، وأكبر المنتصرين اليــوم وأبداً، لك وحدك، يا قائدي، الرجل الأطهر والأســمى، من أجلك فقــط أعمل، من كل قلبي، من أجل حبك المرح وحب شــعبنا والمملكة الجرمانية الموحّدة... ستبتهج روحي إلى الأبد. أنت قائدي، السيدة داغمار داسل».

برلين، في 17 تموز 1941:

«عزيزي أدي!

ستشتاق لي بعض الشيء بالتأكيد. أريد أن أرسل لك صورة أخرى، رمزاً لحبي. إذن طيّه صورة صغيرة لي. أشبه فيها السيدة العذراء في ملكوت السماوات. ينتابني أحياناً حزن عميق. في 23 من تموز، سأذهب إلى مسقط رأسي. لقد أبليتَ بلاءً حسناً في كارلسباد (Karlsbad)... وأنا هناك، سأفكر فيك أكثر.

قبلاتي الحارة لك، يا وحشي المفترس. ريتشي (Ritschi)».

تبدو بعضهنّ وكأنهنّ يطلقن العنان لقلمهنّ ويخفّفن عن قلبهنّ من أعباء همومهنّ وهنّ يكتبن رسالة إلى قائد ألمانيا. باد كروسناخ (Bad Kreuznach). في 30 أيلول 1941:

«يا حبيبي،

يا حبي الوفي، قائدنا العظيم والجنرال العبقري «تحية للنصر»، «تحية للنصر»، «تحية للنصر». أشرفت أكبر عملية إبادة في التاريخ على نهايتها فشكلت أبرع نصر. «تحية للنصر»، لقائدنا العظيم العبقري، قائدي العزيز وحبي الوفيّ. دعني أضمك اليوم إلى صدري وأشكرك خاصة على كل أعمالك، ومثابرتك وفكرك. لا يسعني إلا أن أصلي من أجل حبيبي وأتوسّل إلى الربّ لأجلك يا حبيبي، ولأجل أن يبارك عملك العظيم. تكرّس كل جهودك وعنايتك فقط لنا ولوطننا الكبير الجميل. [...]

هل تفكر أنت أيضاً كثيراً في التي هي لك، جوزيه (Jose)؟ نعم؟ نعم؟ حافظ عليّ جيداً، يا حبي الوفيّ، أبقى وفيّة لك صالحة إلى الأبد، ولا تهتمّ بي أبدا. اليوم، خرجنا مرة أخرى في نزهة ممتعة على ظهر الخيل وبالسيارة إلى سبرايتل (Spreitel). إنه بيت جميل يقع وسط الغابة. في طريقنا اليه،

أنشـــدنا كلنا أغانٍ جميلة، وبقي في السيارة مقعد خالٍ، كم كنت سعدت لو إســـتطاع حبيبي مرافقتنا. ولكن، لنبتهج بالحـــرب. نعم؟ نعم؟ حبيبي. أشـــكرك أيضاً لكل ما هو حب وإخلاص، لـــكل ما هو جميل. أنت في غاية اللطف والمَلاحة معي. هذا يغنيني إلى حدّ كبير ويســـعدني، يا حبي الكبير الوفيّ. أتأسّـــف جداً ومراراً لكثرة أعمالك، أنت حبيبي، لكن لا بدّ بعد الحرب أن يتحسن الوضع بالنسبة لك أيضا، يا حبّي. [...] علينا من الآن فصا عداً أن نســـتغني مجدّداً عن هذه الساعة القصيرة من المحادثة، يا حبيبي. رويت لك هذه المرة أيضاً كل شيء، فدعني أضمك بشدة إلى صدري وتقبّل تحياتي الصادقة الودّية، يا حبي الوفيّ، أدولف هتلر.

بنيّتك جوزيه».

أو. غرومباخ (U. Grombach)، في 29 آذار 1943:

«سيدي العزيز وزير الإمبراطورية!

... بات زوجي كالغريب بالنســـبة لي، لسبب بسيط هو أني أحمل في قلبي الأفضل. أراد ان يأخذ عطلة في 20 آذار، لكن مشروعه أرجىء، إلى متى، لا أعلم بعد. لكنها كانت فكرتي أنا كما دائماً، وإذا لم يأت ذلك أن الوضع سيء، ومع مرور الأيام، يقل الإنسجام بيني وبين زوجي. حتى لو لم أكن أعرفك، لكان الأمر كذلك. منذ أول ســـاعة سمعت فيها عن أدولف هتلـــر، بُعث إيمان جديد، وقوة، وقدرة وحب. إنه قدوة لي في حياتي إلى أن أغمـــض عينيّ للأبـــد، لذلك أريد ان أخاصم وأناضـــل من أجله حتى النهاية... أودّ أولا أن أشـــدّد على ما جرى من حديث يوم أمس بيني وبين معلمة روضة الأطفال. إســـتأت منها إذ ســـألتني عن رأيي بالحرب. أجبتها فقط أنه بفضل غواصاتنا أوبوت (*U-Boote*)، لا بد أن تنتهي على خير وأن

أميركا ستهزم يوماً.

[...] تشدّني إليك منذ الآن كثير من المشاعر، والحب بيننا نحن الإثنين قد ترسّخ إلى حدّ كبير في أعماقنا. تتناول معي دائما العديد من الأمور التي يجدر فهمها فأصبحت أعرف دلالة كل علامة. أرجو منك، بعد اليوم، وقبلا أي شيء، ألا تساورك الشكوك. لا أري أن أكون إلا لك. [...] ما زالت تملأ قلبي الرغبة المقدسة في أن يتحلّى دائماً قائدنا الصالح، مخلّصنا، بصحة جيدة وأن نحتفظ به لوقت طويل جدًا، لأنه لا شأن لنا من دونه.

بإخلاص ووفاء، أحييك بالقول «عاش هتلر».

السيدة روزا م. (*Rosa M.*).

برلين في 6 آذار 1944:

«السيد مستشار الإمبراطورية العزيز!

بما أنك لم توليني لا إهتماماً ولا حبّاً، وبما أن كتابتي لم تعجبك، لم يعد من الممكن أن تزداد ثقتي بك. مع ذلك، إشرح لي الأسباب، من فضلك. ولِمَ لا تثق بي؟؟ لا غاية من علاقتنا من غير ذلك. الرجل الذي يحب إمرأة شابة يحرز أيضا تقدّماً فتجري الأمور على ما يرام. مع الأسف، ليس الوضع كذلك معك، فتبقى لغزاً بالنسبة لي. الأفضل ان نتداول في الأمر وجهاً لوجه. لكنك لم تكتب لي ولا حتى مرّة، ولم تطلب مني المجيء. لا بد لي إذن أن أفترض أني لست المرأة المحظوظة التي إخترتها.

سأختم الآن وأدعك مع تحياتي الرقيقة.

أنا ن. (*Anna N.*)».

اللاوعي، أقصى مراحل الاغواء

كان إذن لإغـــواء هتلـــر يترك أثـــراً بليغاً في نفوس النســـاء. يكتبن له، يعاهدنه ويلتزمن بقضيته، يشـــاطرنه رؤياه للأمة الألمانية. ولكن، ألا تكمن غاية الإغواء والإغراء الجنســـي في التحكّم باللاوعي؟ بما ان ألمانيا رائدة في مجال التحليل النفسي، فهي تقدّم لنا مادّة ثمينة تكشف لنا عن العلاقة الحميمة بين هتلر والظواهر النفســـيّة التي تشـــكّل الهويّة الأنثوية: الأحلام التي ترويها المريضات لطبيبهم النفساني[1]:

«*أرى مـــراراً هتلر أو غورينغ (Göring) في منامي. يشـــتهيني ولا أجيبه «لكنني إمرأة شريفة» بل «لكنني لست نازية» فأعجبه أكثر فأكثر*».

خادمة منزل في سن الثلاثة والثلاثين:

«*أنا نفســـي جالسة في قاعة ســـينما، كبيرة جداً ومظلمة جداً. ينتابني الخـــوف، لأنه لا يحق لي في الواقـــع أن أوجد فيها، فقط الرفاق المنتمون إلى الحزب يحق لهم الذهاب إلى الســـينما. ثم يصل هتلر ويزداد خوفي. غير أنه، لا يكتفي بالسماح لي بالبقاء، بل يجلس إلى جانبي ويحيط كتفيّ بذراعه*».

مدبّرة منزل:

«*في طريقـــي إلى البيت بعـــد التحوّج، أرى قيام إســـتعدادات للرقص*

---

(1) في شارلوت برادت (Charlotte Beradt)، الحلم في عهد الرايخ الثالث (*Rêver sous le IIIe Reich*)، باريس، بايو (Payot)، «مكتبة بايو الصغيرة»، 2002، ترجمة *Das dritte Reich des Traums*، 1966.

في الشـــارع - كما في فرنســـا في ذكرى الإســـتيلاء على سجن الباستيل (*Bastille*) - لأنـــه عيد الإحتفال بحريق البرلمان (*Reichstag*). أرى نيران فرح مشتعلة في كل مكان. وهناك مربّعات سُوِّرت بالحبال يدخلها الأزواج مروراً تحت الحبال كما يفعـــل الملاكمون... أجد ذلك بمنتهى القباحة. وإذا بأحدهم يمســـك بي من الخلـــف بيديه القويتين ويقودني تحت حبل إلى الأرضيّة الخشـــبية. عندما نبدأ بالرقص أدرك أنه هتلر فأجد كل شـــيء جميلاً للغاية».

سيدة منزل أخرى:

«لقد نُصبت موائد طويلة في جادّة كورفورستاندام (*Kurfürstendamm*)، حيث إحتشـــد جمع غفير بلباس بني اللون. بدافع الفضول، أجلس بدوري ولكـــن على حدة، إلى طرف طاولة خاليـــة معزولة. عند ذاك، يظهر هتلر، مرتاحاً في لباسه الرسمي الأسود، وهو يحمل رزماً كبيرة من المناشير يوزعها بســـرعة وتهاون، فيرمي رزمة على طرف كل ســـفرة، ثم يتولّى الجالســـون حولها توزيعها. أما أنا فلا أستلم شيئاً. وفجأة، على عكس ما فعل من قبل، يضع هتلر بلطافة الرزمة أمامي. ثم يناولني منشـــوراً بإحدى يديه ويداعبني بالأخرى، ملامِسا شعري نزولاً إلى ظهري».

يوزع هتلر الدعاية بيد، ويداعب بالأخرى.

حباً للدوتشي (Duce)، أي المرشد

كان الدوتشي بالنسبة للنســـاء بمثابة إله يُعبد، وملك؛ الرجل المثالي. كانـــت النبيلات (comtesses) والفلاحات والراهبات كما العاهرات يكتبن

لـــه ليتقدّمن اليـــه بألف طلب وطلب، وليُطلعنه على أبســـط رغباتهن. إنه الأب، والمستشـــار والمعرّف، الذي يسهر على كرامتهنّ. وكانت تصله ما بين 3000 و4000 رســـالة شـــهرياً، تودع في محفوظات الدولة في حي *أور* (*Eur*)، المعرض العالمي في روما، لدى أمانة ســـر «الدوتشي» الخاصة. وقد حُرّرت بعضها على أوراق إنتزعت من دفاتر وضيعة، أخرى على بطاقات ثمينة من صنع اليد.

كانت تربط الإيطاليات بمرشـــدهنّ صلة متينة جداً. على عكس هتلر، كان موسوليني (Mussolini) مولعاً بذلك. كان يخدعهنّ، ويجيبهنّ ويحاول أن يستجيب لرغباتهنّ. ولقد حظيت بعض المتحمّسات المنفتحات ببادرة ودّ عابـــرة لقادتهنّ إلى قصر البندقيـــة (Venezia)، حيث أتيح لهن التعرّف بالدوتشي بشكل أوثق.

كان يتقبّل من الإيطاليات فقط اللوم على سياســـته أو تصرفاته، لوم كنّ يوقّعنها بإســـمهنّ. لو كنّ من الرجال، لربّما كـــنّ أوقفن في اللحظة؟ كان موســـوليني يقبل من النساء ما لم يكن يقبله من الرجال؛ كان يتقبّل حبهنّ وأن يشـــهدن بتَوْقهنّ كمـــا بحقدهنّ ويرضى بذلك. وعليه، فإن الرســـائل المبعوثة إلى الدوتشي ترسم معالم خريطة حبّ حقيقية للمشاعر الأنثوية.

البهجة

مودان (Modène)، 6 تموز 1929[1].

---

(1) صدرت الرسائل المبعوثة الى الدوتشه في *Caro Duce, Lettere di donne italiane a Mussolini*، روما، ريزولي (Rizzoli)، 1989. من ترجمة الكاتب.

«معاليك،

أجد نفسي حائرة أرتجف وأنا أكتب إليك. ولكن، عندما أفكّر في كلماتك، بوجوب الشجاعة وعدم التراجع، أصمّم على الكتابة إليك، إيمانا مني بأنك ستقرأ هذه الرسالة رغم قلّة شأنها. أكتب بإيمان وأتوهّم أنك ستقرأني فينتابني شعور كبير بالسعادة... أتمنى أن يأتي يوم تكون فيه متعباً تحتاج إلى ساعتين من الراحة فتسمح لي بمقابلتك عشر دقائق. إذا حدث ذلك، سأكون أسعد إمرأة في العالم... أرجو منك آنذاك أن تتفضل بتبليغي قبل عدة أيام كي أتدبّر أمري للسفر. أنا مطمئنة، وقلبي مفعم بالأمل، من قبل أكثر الناس ورعاً وطاعة لك،

أدال ر. (*Adele R.*)».

فلورنسا (Florence)، 8 أيار 1936:

«دوتشي، في هذا اليوم الذي تناولت فيه للمرة الأولى القربان المقدّس، وهو يوم شديد الأهمية بالنسبة لي، أوجّه أفكاري إليك، أنت الذي طالما إعتبرتك أباً ثانياً لي. كنت أودّ في تلك اللحظة المهيبة التي تقبّلت فيها يسوع المسيح لو أتت به إليّ يداك المباركتان. تخيّلت أنك هو! أنا، بصغر سنّي، وكل عيوبي... يا لها من أنانية: أن أتقبلك أنت والمسيح في الوقت نفسه! أن تدخل إلى فمي، أن أجعلك على صدري، أن ترقد على قلبي المسكين! كم كنت أشتهي ذلك!

مارغريتا ف. (*Margherita V.*)».

فراريه (Ferrare)، السبت 2 حزيران 1934:

«دوتشي،

طلب مني شخص يملك عدداً كبيراً من الكتابات بخط اليد، إعتباراً

لخبرتي الطويلة في هذا المجال،أن أقوم بتحليل إستدلالي خطّي... فكان أن قلت ما يلي:

الميـــل يميناً، والخط الموجّه إلـــى الخارج يدلان على الجرأة والحماس وقوة الشكيمة. ومنذ سنوات طوال، إنها المرة الأولى التي أشهد فيها خطاً تجتمع فيه ســـمات الذكاء البارع والإنســـانية بعلامات الشجاعة الجسدية (الميـــل يميناً وهو يعبّر عن إرادة لدى المرء فـــي إطلاق عنان قوته الذاتية على العالم)، والشـــجاعة النفسية (توسّع شـــكل الحروف الأخيرة وحركتها النابذة)، والشـــجاعة المعنوية (ســـطور منتظمة وعـــوارض الحرف ت (*T*) الحادّة والطويلة دائماً).

تخيّل إنفعالي، يا دوتشـــي، عندما كشف لي أن النصّ المختصر الذي حللته هو من خط يدك. أعترف لك بأن غريزتي الأنثوية كانت قد حدست، سرّاً في قرارة نفسي، أن ليس هناك إلا كائن واحد قادر على خطّ مثل هذه الحروف: الدوتشي! أرجوك أن تهدي لإمرأة متواضعة سطراً واحداً آخر من خط يدك. لأستمدّ منه الشجاعة والإيمان الباسل في إنجازاتك.

تحية فاشية،

أغوستينا ب. (*Agostina B.*).

الإجلال

روما، 29 تموز 1923:

معاليك موسوليني،

«اليـــوم عيد ميلادك. عندما كان أبي على قيـــد الحياة، كنت أعدّ له، كل ســـنة، رسالة جميلة، وأســـعى إلى أن يجدها مخبأة تحت قصعته أو

فوطتـــه. اليوم، توفي أبي، ورحلت أمي، وتقول لي جدتي مراراً في لحظات القنوط أنك أبونا، الملاك وولّي أسرتنا الكبيرة المجيدة إيطاليا: وعليه، فأنا أتمنى لك عيد ميلاد ســعيد. أودّ لو أنك تجد هذه الرســالة كما كان أبي يجدها على المائدة: كان ينظر إلي عند ذاك، ويبتسم، ثم تحمرّ عيناه وهو يقرأ، فيقف ويقبّلني. لا أدري متى ســتقرأ رسالتي، ولكن، إذا كان بوسعك الإســتجابة لرجائي بأن ترسل لي صورة لك، فيكون كما لو أن أبي ما زال يبتســم لي. لقد ملأت قبــل الآن ألبوما كاملا بصور لـــك، قصصتها في الصحف. لكن صورة لك تحمل إهداء ستملأ فراغاً في بيتنا له ثلاثة أعوام. أرسيليا ر. (*Ersilia R.*)».

ريجيو أميليا (Reggio Emilia)، 14 شباط 1935:

«يا مرشد إيطاليا،

لا حدود لإعجابي وإيماني بك منذ ســنة 1919 المشــؤومة؛ إن الرؤية الواضحة، ونور إيطاليا الغد، يوحيان لي، أنا المرأة الشــابة، ان أكتب لك. اليوم وقد تحقق حلمك العملاق السماوي، أسمح لنفسي بأن أرسل لك، دليــل إحترام وتقدير، قصيدة المرشـــد نظمتها أنـــا، وإن كنت لا أرقى إلى مســتوى موضوع بحثها، غير أنها نابعة عن قلـــب متّقد، عارف للجميل، لإيطاليّـــة تـــرى فيك كائنا فوق الطبيعة أرســـله الله علـــى الأرض من أجل خير البشـــرية. لك ولائي. فارا ب. م. (*Wera B. M.*) شـــارع دون جيوزابيه أندريولي (2 *Via don Giuseppe Andreoli*)، راجيو أميليا.

المرشد

قويّ يمتطي جواداً. منتصب أنوف،

له وجه شهم، كالرومي في القِدَم،
منحوت في البرونز (bronze)، وعينان مشرقتان
واسعتان، بنظرة آمرة، كعينيّ القائد،
جبين نيِّر، عريض، كجبين النابغة
العزيمة في ثغره وفكّيه: إنه الدوتشي!»

علّق موسوليني بالقول: «يبدو لي هذا رائعاً!»

فينيغونو سوبريوريه (Venegono Superiore)، 13 كانون الثاني 1940:

«دوتشي،

بما أني شابة فاشية، أريد أن يكون لي الشرف، إذا أمكن، بالحصول على كلمة واحدة منك في ذلك اليوم القريب المهم جداً، معاليك، لربما أطلب الكثير، غير أني أتمنى كل المنى أن تستجيب لي. أنا في سن العشرين، وسأتكلل في 3 شباط المقبل. كنت أودّ أن آتي إلى روما ليُتاح لي على الأقل أن أراك من قبل، لكن بما أني لا أستطيع المجيء، فإني أرسل لك مسكّراتي وأطلب منك على الأقل كلمة تعطيني الشجاعة لأستهلّ حياتي الجديدة التي أريدها أن تليق بامرأة فاشية... من لطفك، هلا لبّيت طلب إحدى بناتك البِعاد التي، بما أنها عاجزة عن ان تأتي لتراك، تكتفي بسطر منك، بكلمة. ر. سفرينا (R. Severina)».

كتب الدوتشي بيده ملاحظة: «لقد أرسلت علبة ملبّس من معدن أبيض مع ملبّس. لا مسكّرات، تبدو العلبة فارغة».

اليأس

فلكونارا (Falconara)، 9 آب 1942:

«دوتشـــي، أنا في وضع حزين جداً، فأتوجّه إلى عطفك الكبير، إذ إني أعتبرك ملاكي الحارس.

التقلبات الحياة التي مرّت بها أســـرتي قد حرمتني من آلة الخياطة التي كانـــت مورد رزقي، وبالتالي،إضطررت إلى العمل في مصنع زبدة لكســـب قوتي. لكن في كل مرّة يتوجّب علي الذهاب إليه، تنتابني الرغبة في البكاء، عندما أفكر أنني لا أستطيع مزاولة مهنتي التي أحبها.

... أنا بنت من الشعب، وأنت تحسن كثيراً إلى الشعب الذي تحبه إلى حد كبير. طلبي ضخم ولولا الحاجة الملحة لما كنت تشـــجعت وتقدّمت به، أهدني آلة خياطة وســـأبارك إسمك أكثر، إذا أمكن ذلك. المخلصة، جول أ. (*Jole A.*)، بالاتزو فروفياري (*Palazzo Ferrovieri*)، فلكونارا.

ملاحظة موســـوليني: «الإستعلام بشـــأن آلة خياطة». وأرسل لها مع محافظ أنكوم (Ancôme) نفسه آلة خياطة من نوع «ناتشي» (Necchi).

أكواكالدا (Acquacalda) (لوك) (Lucques):

«معاليك،

أنا المرأة الفاشـــية ج. ماريا باولينـــا دي أوليفيارو (*G. Maria Paolina di Oliviero*)، أســـكن في س. كاسيانو (*S. Cassiano*) في فيكو (*Vico*)، عاملة في أكواكالدا منذ حوالي عشرين سنة، أتقيّد دائما بسلوك حسن. قبل تســـع عشرة سنة، خطبت الفاشي ب. أنجالو (*B. Angelo*)، الذي يسكن هو أيضاً فيكو، والذي تطوّع بعد ســـنتين في جيش المشاة الملكي، الذي ما زال ينتمي إليه.

لقد طلب الزواج مني عدة مرات بعد تســـع عشـــرة ســـنة من الخطبة، ولكن طالما رُفض له طلبه. اليوم، لم يعد بإمكاننا تحقيق هدف حياتنا إلا

بباردة رؤوفة رحيمة. إن الضبّاط رؤساء خطيبي لا يسمحون لنا بالزواج. [...] سامحني على حدّة لهجتي! بإمكانك أن تفهم الألم الذي يرهق قلبي. إني أنتظر منذ تسع عشرة سنة كي أستطيع أن أتزوّج! [...] لكن عمري 35 سنة، وإذا انتظرت لأقترن به، سيحال زوجي إلى التقاعد، وأُضطرّ إلى العزوف عن فرح الأمومة! هلا إتخذت قراراً بسيطاً بالرأفة والإنسانية، ومنحتني سند عفو...

ج. ماريا باولينا».

ملاحظة أمينة السر: «طيّه شهادة حسن سلوك».

روما، 1935:

«إلى معاليه رئيس الحكومة،

لم أملك الشجاعة ولا الوقت كي أرمي بنفسي تحت دواليب عربتك، صباح اليوم في ساحة البندقية (*Piazza Venizia*)، عندما دخلت السيارة القصر الشهير سميّها.

معاليك، أنا معلّمة بديلة ولي ولد يتيم الأب، وأخوان عسكريان في إفريقيا، ولم أتقاض أي أجر منذ حزيران، وسنطرد من بيتنا. فإلى أين أذهب؟ وماذا أفعل؟ م. إلمينيا (*M. Ilmenia*)».

الغيرة

سيان (Sienne)، 14 كانون الأول 1925:

«دوتشي، رأيتك بالأمس خلال زيارتك الصاخبة إلى مدينتنا القديمة. تلاقت نظراتنا: عبّرت لك عن إعجابي وإجلالي وبحت لك بمشاعري. في صدري أنا قلب حقيقي ينبض، لا نوع من الإسفنج المرتخي كصفوف

الشـــابات اللاتي استقبلنك في الســـاحة، فكدن يعرّضن حياتك للخطر. فقد ذهبن إلى تكســـير زجاج ســـيارتك ليلمســـنك: يا لهنّ من حمقاوات مجرمات، كم أكرههنّ!

إلى أن أتيت إلى المدينة، كنت أتعس امرأة في العالم. مع زواجي البائس من رجل بارد كالحبل المشدود حول العنق، كنت أخشى ألا أعرف الحب أبداً في حياتي. اليوم أعرف أني أحبك. أقرأ في الصحف أنك تسترفع أكثر مما تعيش: تهب إيطاليا كل شيء، لا تأكل ولا تشرب، ولا تنام. أنا أيضا أســـترفع الآن: منذ أن رأيتك، عدلت أنا أيضاً عن الأكل والشـــرب والنوم. بالأمس، ركضت كثيراًلكي لا تغيب عن نظري.

قلقت إذ أحســـســـت بقوايَ تخور، وفي الوقت نفســـه، عرفت، قبل أن أفقد توازني، أنني تركت في قلبك أثراً عميقاً: عرفت من نظرتك الحارة إليّ.

هنـــا، في أرض ســـيان، زهرة تنتظر أن يقطفها أحـــد. لا تدعها تذبل، فإذا إقتربت منها إكتشفت حديقة من الحب والتفانيٍ والسكون في الوقت نفسه.

ميكالا س. (*Michela C.*).

الحيلة

بيز (Pise)، 14 تشرين الثاني 1927:

«الدوتشي الكريم،

أنا لا أعرف عنوان رومانو (*Romano*) الصغير، لذلك أرسل لك مباشرة هدية متواضعة لإبنـــك، و. (*W*). مع جزيل الإحترام، فلورينا د. (*Florina D.*)».

إذا لم يكن موسوليني يستسيغ كل طلبات تلك السيدات الملحّة، كان بالمقابل يهتمّ بالهدايا. فسالأمينة السرّ: «هل وصلت؟»

كانـــت فلورينا مثابرة، تعمد إلى الهديـــة كحصان طروادة، وها هي في 10 كانون الثاني التالي، تغيّر الحرف الأول من شـــهرتها، وتعود فتتقدّم إلى موسوليني بطلب جديد، أكثر جرأة:

«دوتشي، كم أودّ ان أتعرّف إليك، وكم سيشرفني ذلك. متى تستطيع مقابلتي؟ عاش موسوليني! المخلصة. فلورينا ده ف. (Florina de F.).

الغضب

ترنتو (Trento)، 15 حزيران 1940:

«فـــي خطابك الـــذي ألقيته في 16 أيار، وضّحت أنه، في السياســـة، «يجب ألا يُفسح للمشاعر مجال. في السياسة، للمصلحة وحدها أهميّة». فـــلا بد أنك تعلم أن الشـــعب الإيطالي لم ينجرّ أبـــداً للمصلحة الدنيئة. الشعب الإيطالي يحارب عن شـــرف. دوتشي، إعلان الحرب على فرنسا عمل سافل. الرجل الشريف لا يقتل جريحاً. سيعيّرك التاريخ بالسفالة...

لينا روماني (Lina Romani)».

الحكمة

رابالو (Rapallo)، 3 تشرين الأول 1934:

«دوتشي، لقد استلمت على التوّ برقية التهاني التي أرسلتها لي بمناسبة بلوغي مئة سنة، وأستمتع بقراءتها دون الإستعانة بنظّارات، بما أن الله وضع يده المجيرة على حياتي، فجعلها تمضي بيُسر وسط المصاعب التي طالما

تجاوزتها بشجاعة بهجة قلب...

سيكون كل يوم من أيام حياتك أخفّ وطأة لو شربت، قبل النوم، كوباً من نقيع العنب الأبيض (راتافيا *ratafia*)، كما اعتدتُ أن أفعل منذ ثمانين سنة. [...] النقيع يتحسّن مع مرور الزمن، لذلك أرسل لك، تقدمةً، حوالي مئة قارورة حافظت عليها بحرص شـــديد، وهي، إن لم يوازِ عمرها عمري، فهو يقاربه، بما أننا أعددناها أنا وزوجي يوم أصبحت روما عاصمة. [...]

يجب أن تنقع، مدة عشرة أيام، في قارورة من عصير العنب، قرفة وأزرار قرنفل وكزبـــرة. ثم تخضّ القارورة جيداً كل يوم، ما يســـاعد على إختلاط العقاقيـــر ودوفها على أتمّ وجه. في اليوم العاشـــر، تبتاع عنقودا من العنب الأبيض الناضج، حبّاته كبيرة، وتُزيل بزورها في كِفت تضعه على نار خفيفة: تخلط المزيج باستمرارمتجنّباً هرس الحبات التي تنفلق لوحدها في النهاية. بعد ذلك، تمحّص الخليط وبعد جمع العصارة تتركها جانبا حتى تبرد.

يُضـــاف إلى كل نصف ليتر مـــن النقيع نصف ليتر مـــن العصارة، في القارورة حيث العقاقير المغمورة في الكحول. عندئذ يكون مشروب الراتافيا جاهزاً تقريباً، ولكن ليس بعد. بعد مرور شـــهر، يُكرّر ويضاف إليه السكر. وكلما طال الإنتظار، كلما كان طعمه لذيذاً! كل كوب يزيد من عمرَ الذي يشربه يوماً. وعليه، أتمنى لك أنت أيضا أن تبلغ سنّ المئة!

المَدينة لك، كارمن ج. (*Carmen G.*)».

كيف يمكن تفسير هذا القدرة على إغواء نساء مثقفات مستقلات كما كان حـــال الأوروبيات في مطلع القرن العشـــرين؟ أجل، إن الطاغية يعرف كيـــف يتظاهر بالوداعـــة ليصل إلى غايته. يبدو بمظهـــر الخطيب العظيم

المهذب، الخطيب القوي الذي يُعنى أيضاً بأناقته. لم يكن أدولف او بينيتو (Benito) ليخرجا بشـــعر شعث أو بذقن غير محلوق. لكن إقتصار سلوك النساء السياسي على تأييد تسريحة جميلة إهانة لذكاء النساء.

فعلى طريق الإســـتيلاء على السلطة، ســـرعان ما أدرك الطغاة أنهم لن يتقدّموا إن لم يحظوا قبل أي شـــيء بتأييد النســـاء لهم، دون إشـــراكهنّ بمصيرهم. ومن أجل الإســـتيلاء على الســـلطة والإســـتمرار فيها، راح كل منهم يســـتعين بالنساء. سواء كنّ من بنات الهوى أو من كبار البرجوازّيات المثقفات، ســـواء كنّ محطّ نزوة عابرة أو موضع حب جارف كان يحسب لهنّ حســـاب في حياة الطغاة فـــي كل مكان وزمان. كانـــوا يعنّفونهنّ او يدلّلونهنّ، لكنهم يلتفتون إليهنّ دائماً.

يُدعون ماجدة، كلارا، ناديا، ألينا... بينهنّ قاســـم مشـــترك، سواء قمن بـــدور الزوجة أوالرفيقة أوالملهمة أوالمعجبة، ألا وهو التأثير في كل الأمور، من غير صفة رســـمية، والحكم أحياناً في كنف أستاذهنّ الذي رافقنه حتى في الموت.

هم شرسون، عنيفون، جائرون، عابثون. ومع ذلك، فهنّ يحببنهم. مهما خانوهنّ مع منافســـات لا تعدّ ولا تحصى، وضحّوا بهنّ على مذبح ولعهم الضاري بالسياســـة، وراقبوهـــنّ وإنتقدوهنّ وإحتجزوهـــنّ، فهنّ صامدات. لأنهم يَبهرونهنّ. لأنهم بحاجة إليهنّ.

فقـــد أصرّت المؤلفة على القيام بعمـــل محال ألا وهو تحليل الصلات الغامضة الوثيقة التي تربط بين هؤلاء الأزواج. من المأساة الفردية إلى جدليّة الســـلطة، نكتشـــف رجالاً فقدوا سيطرتهم على أنفســـهم، أسرى أهوائهم أكثر منهم أســـرى الدبلوماسية. جعلهم هاجس الإغواء يستبدّون بالنساء،

لكنــه قرض كل ما تبقّى. إصطيد من خال لــه أنه إصطاد. على ما يبدو، لا يمكن السـيطرة الكاملة على الآخرين إلا بالعدول تماماً عن أي سيطرة على النفس.

1

بينيتو موسوليني (Benito Mussolini)

حياة المرشد

«الويل لرجل الفكرة الواحدة،

خاصة إذا تعلّق الأمر بامرأة».

مرغريتا سارفاتي

(Margherita Sarfatti)

ثائر يتمتّع بأعضاء جذابة

إستنفار في ريتشيوني (Riccioni)

ريتشـيونه، لؤلؤة بحر الأدرياتيكـي (Adriatique)، يقلقلها صيفا اسـتعراض عجيـب يتكرّر فـي كل سـنة: تجتاح الشـطّ موجة من المعجبـات، يركضـن وراء رجل يرغبن أن يمتّعن بـه النظر وقد خلع عنه لباسـه النظاميّ. إذ يسـتعدّ بينيتو موسـوليني للسباحة. يلاحقه داخل المياه هذا السِـرب من النسـاء بأعمارهنّ المتفاوتة، لا يأبهن لملابسـهن التي لم يُتـح لهنّ الوقت لنزعها. ليسـت فقط إيطاليات أولائـك اللاتـي أتين لتأمّل الدوتشـه في لباس البحـر اللائق. على

حـــدّ قول كينتو نافارا (Quinto Navarra)، أحد خدمه[1]، الأكثر تحمّســا هنّ الألمانيات واليوغوســلافيات والمجريات، اللاتي لا يتورّعن من التعبير بصوت عالٍ عن آرائهنّ في «جسد الدوتشه الرياضيّ». كانت قد سرت في تلك الســـنة إشاعة عن مرض أصابه. فقرّر موسوليني الظهور وهو يخرج من البحر، وراح يقوم، أمام أعينهنّ المذهولة، بسلســـلة من التمارين الفروسيّة. اختتم المشـــهد بأن انتصب في ركابيـــه وصاح: «والآن، أيصحّ القول بأني مريض؟» فلا يجوز ان يشك الشعب في حيوية رئيسه، ولا النساء برجوليته.

تقع ريتشيون في منطقة رومانيا (Romagne) مسقط رأس الدوتشه، وهي المكان المفضل لديه للســـباحة الصيفية ولترويج أفكاره. كان موســـوليني قد دشّـــن وسيلة جديدة في التعاطي السياســـي محتجّاً بقوة وعزم «النخبة الجديدة» التي يقوم إصلاح البلاد على عاتقها. لم يكن موســـوليني يضنّ بشخصه، وكان يدري ان عضلاته وما يوحي به قوامه من قوة يجعل الشعب تعتريه الشـــعور بأن من يقوده بطل، وإنسان كامل. كان يعلم أن جسده هو أكثر حججه السياسية جلاءً.

ســـنة 1933، كان المستشار النمســـاوي أنغلبرت دولفوس (Engelbert Dollfuss) يبحث عمّن يحميه من الخطر النازي. أتى إلى ريتشيوني يلتمس دعم موســـوليني. وتم اللقاء الرسمي بين الرجلين على الشاطىء أمام جمع مـــن الصحفيين: ارتدى دولفوس، الذي كانـــت قامته قصيرة جدا، قميصا

---

(1) كينتو نافارا (Quinto Navarra)، *Memorie del camerieri di Mussolini*، ميلانو، لونغانازي (Longanesi)، 1946. الترجمة الفرنسية، فرّاش عند موسوليني (*Valet de chambre chez Mussolini*)، ترجمة جان ماري روزيه (Jean-Marie Rozé)، 1949.

وربطة عنق، فيما كان موسوليني، كعادته، يزهو بصدره العاري. وإذ كانت ألمانيا هتلر (Hitler) على وشك ان تضمّ إليها النمسا، جرت المفاوضات على قدم وساق في هذا الجو من الإرتياح. كانت المناورة بارعة ووقعها آنيّ. أبهر جسد موسوليني دولفوس: «ليكون المرء موسوليني، مصارعا يحكم ويستمر، يجب أن يكون قوي البنية كالدوتشه. [...] أنظروا إلى صدره وعنقه؛ تأمّلوا رأسه الملتفت إلى الرجل الجالس إلى يساره، تجدوا أن الشبه تامّ بينه وبين الرومانيين القدامى، كما تُظهرهم التماثيل الرخامية[1]».

البحث عن عيوب عند موسوليني كالبحث عن شائبات في تمثال موسى من نحت ميكيلانجيلو (Michel-Ange). تخضع الدبلوماسية وكذلك السياسة بقانون الدوتشه الأساسي: التأثير في الغير وإغرائه.

كان أنصاره يعجبون فكّيه «الرائعين النابوليونين» اللذين يوحيان بأحكام باتّة: لا يمكن لرجل كهذا إلا ان ينتصر أو يموت[2]. في صفوف الحزمات الفاشية، كان أعضاؤها يسهبون في الكلام عن ملامح القائد الرجولية.

بعد الفكّين، كانت شفتاه مثار كل الإهتمامات. شفتان «ناتئتان، متعجرفتان تمتطّان بغطرسة وعداء أمام كل ما هو متباطئ أو متحذلق او مُماحك أو متباكٍ»، كما يقول فيليبو ماريناتي (Filippo Marinetti)، الفنان

---

(1) بالنسبة لشواهد موسوليني المديحيّة، أنظر دينو بيوندي (Dino Biondi)، يحيا الدوتشة ! كيف يتكوّن الطاغية (*Viva il Duce ! Comment se fait un dictateur*)، باريس، روبار لافون (Robert Laffont)، 1969.

(2) أنريكو روكا (Enrico Rocca)، *Diario degli anni bui*، دار غاسباري للنشر (Gaspari Editore)، 2005.

المستقبلي والعضو المؤسس للحزب.

كـم علّقوا على عينيه! عينـاه التي قيل انهما تخترقـان كل محادثيه، بنظرتهما الحادّة الثاقبة، «بحدقتيهما الفاتحتي اللون والسـريعتين كحدقتي الذئب». في رأي الجميع، كان السـحر النابع عنهما يفرض نفسـه على المرء حتى لو أراد مقاومته.

إذن، كانـت كل ملامح وجهه تُعلّل وتُحلّل، حتى الأبسـط منها: كان موسوليني يمشي «باتجاه القمم، بكل أنفة طبعه المرتسم في قوس حاجبيه المحنيّ[1]».

كانت النساء أولى ضحايا فتنة هذه الأعضاء الطاغية. عندما كان بينيتو يتوجّه إليهنّ، «كنّ يشـعرن بضعفهنّ يتحوّل إلى قوة[2]»، كما لاحظ أقرب معاوني بينيتو. والأسوأ من ذلك، أنه كان يكفي لمن يراقب ان ينظر إليهنّ بتمعّن ليلحظ عندهنّ تأثيرا من النوع المغنطيسي يدفعهنّ إلى الإقدام على أي شيء. «شاهد العديد منا بعضهنّ يركعن لدى مروره؟»

وبالفعـل، لم تكن إحداهنّ تخـرج بملء صحوها مـن قصر البندقية (Venizia) الضخم حيث كان يقيم الدوتشـه. تواجـدت الممثلة الكبيرة الهرطوقية سيسـيل سـورال (Cécile Sorel)، الدائمة العضوية في المسرح الفرنسـي (Comédie Française)، في روما بمناسـبة عرض مسرحية كاره

---

(1) رينو ألاسي (Rino Alessi)، صحافي، في جريدة الصباح (*Giornale del mattino*) في بولونيا.

(2) غيدو مازا، أحد واضعي النظريّات المساهمين في إعداد مفهوم الفحولة الجديدة في الفاشية، *Mussolini e la scrittura*، روما، مكتبة دال ليتوريو (Libreria del littorio)، 1930.

البشر (Le Misanthrope) لموليار (Molière) التي كانت تمثل فيها. وكان لا بدّ للنسوة الشهيرات من زيارة قاعة الخريطة الأرضية (la Mappemonde) الفخمة وسيّدها، ضمن «الجولة الكبيرة» في روما. حدّد الموعد للقاء وجها لوجه في الساعة الخامسة من بعد الظهر. لندعها تسرد لنا الواقعة: «كان الدوتشه بانتظاري. في القاعة الكبرى التي تكاد تكون مقدّسة، لم ألحظ في بادىء الأمر إلا عينيه. كانتا تلمعان وتتّقدان بنار باطنية توحي بإرادة لا تُقهر، ويقين مطلق بالنصر».

فعل إذن السحر فعله على الفور، بمجرّد حضوره. لنرَ الآن إذا كان غاويا ماهرا: «ما أن بدأ يكلمني، ويستمع إليّ، حتى انشغفت بدراسة ملامحه. كان واقفا، مستجمعا فكره، غامضا، يترقّب دون أن يكشف عن شيء. أما إذا أثار زائره اهتمامه، هو او آراؤه، انعكست فورا أفكاره على أسارير وجهه، فتراه يكاد يكون في الوقت نفسه، تارة وقورا، وتارة أخرى ساخرا أو شجيّا. إنه ألف رجل برجل، تضمّ نفسه ألف رجل، يجد مشقّة في السيطرة عليهم، ولا يتحرّر منهم إلا بحركة ازدراء من فمه وبفعل إرادة ينتهي بضحكة».

أداؤه كأداء ممثل تتعارض تعابير وجهه مع إعتدال حركاته. وعدها موسوليني بحضور المسرحية في المساء بالذات. بدافع من حسّها النقديّ، استدركت الممثلة وسألته عن سبب تحمّس الإيطاليين لمرشدهم الجديد. فأجابها بجملة طويلة طنّانة لطالما تدرّب عليها: «يعلمون أني أنظر إليهم... يعلمون اني أحب وطني. لا يحكم المرء إلا بالحب». لم يُلازم فكر سيسيل سورال غير أمر واحد، وهي تخرج من بوابة القصر الحديدي: ابتسامة موسوليني خلابة أكثر من أي ابتسامة أخرى في العالم.

كانت كبريات النبيلات الأوروبيات يخرجن من قاعة الخريطة الأرضية

وفي أنفسهنّ وقع عميق. لم تخفِ الأميرة بولا ده ساكس-هولشتاين (Paula de Saxe-Holstein) ابتهاجها، بعدما استقبلها الدوتشي مرتين على الأقل:»إنه طيّب! الغول، الطاغية صالح! رجل له مثل هذه الإبتسامة لا يمكن أن يكون غير ذلك... أحسست بأنظاره تتتبّعني خلسةً، وأنا أبتعد حاملة في السرّ عذوبة هذه النظرات العميقة في قلبي».

حتى المثقفات كنّ يُسحرن به. كتبت ألن فورست (Ellen Forest)، أديبة هولندية، بطريقة أكثر من إيحائيّة ان موسوليني «ككوب من البلّور مليء بخمر مُثمِل». الصورة من الجراءة بحيث يتسنّى النسج حولها: «يودّ المرء ألا يخسر قطرة منه، وألا يتجرّعه دفعة واحدة، خوفا من أن يندلق. يودّ أن يتذوّق هذا الخمر، هذه الودادة، بكل حواسّه، في حين لا يأتي شيء ليعكّر صفو تأمّله».

كانت ذروة كل هذا المديح النسائي أن جرؤت الكاتبة مرغاريتا فازيني (Margarita Fazzini) على أقصى تشبيه، فقارنته بنابوليون (Napoléon)، قائلة ان موسوليني ورث عن الكورسيكي الكبير صفاته وتعابيره وإرادته التي لا تقهر. فالرئيس، على غرار القنصل الأول، يفتن الجماهير والنساء، «اللاتي تجذبهنّ دائما القوة، متى ما كانت ساحرة، عند الرجال على الأقلّ. والجمهور أيضا أنثوي، وهو كالمرأة، يعرف كيف يميّز الرجل، الرجل الحقيقي[1]».

إستشعرت ما أدركه موسوليني منذ البداية وما تبنّاه مبدأً سياسيا. بما أنه لم يكن يتوجّه إلى شعب، بل إلى جمهور، فعليه أن يُظهر ذات التودّد

---

(1) تحليق النسر (*Le Vol de l'aigle, di Predappio a Roma*)، ساكوني (Cecconi)، 1933.

والثقة بالنفس اللذين يعتمدهما مع المرأة، فكتب: «الجمهور كما النساء، وُجد ليُغتصب».

وعليه، راح ينمّي غريزة جنسية جامحة، ويلبّيها بشراهة تامّة. اتسمت بداياته في العشق كما في السياسة بتلك الرغبة الجامحة التي كانت تدفعه إلى الإ ستبداد بالآخر. عرف أول فشل عاطفي له في مطلع القرن العشرين، مع صبية اسمها فيتورينا (Vittorina)، كانت أخت أحد زملائه في المدرسة. كان يرسل لها مكاتيب مليئة بحماس فتويّ ويُرفقها بباقات بنفسج جميلة. لكنه تقهقر منذ أول محاولة للتقرّب منها. بعد ان انتظر خروج من يحبها من مكان عملها، تعذر عليه التفوّه بأبسط مديح، وتخاذل على نحو يُرثى له. فقرّر أنه لن تتسبّب له بعد ذلك أي امرأة بمثل هذه المذلّة.

كانت صاحبة الحظ التعيس فيرجينيا ب. (Virginia B.) أولى ضحايا منهجه العاجل في الإغواء. كان ذلك سنة 1901، في قرية دوفيا (Dovia) التي ولد فيها، وكان في السابعة عشرة من العمر. التقى هذه الجارة الشابة فاضطربت لها نفسه للمرة الأولى. بدت له القلعة غير حصينة. في يوم كانت خلت فيه القرية من السكان، جرّب حظه. أما التتمّة فقد رواها لنا بنفسه: «قدتها إلى السلم. رميتها في زاوية، خلف أحد الأبواب، وضاجعتها. لملمت نفسها تبكي وتتأوّه ذليلة، وشتمتني وهي تذرف الدموع. قالت إني سلبتها شرفها. لا أنكر ذلك. ولكن، عن أي شرف نتكلّم[1]؟»

(1) السيرة الذاتية سنة 1911 والتي استشهد بها بيار ميلزا (Pierre Milza)، موسوليني، باريس، فايار (Fayard)، 1999.

الحق انه، في أول علاقة جنسـية تحوّل بها موسـوليني إلى رجل، لم تؤخذ رغبة الشـريكة في الإعتبار. إذ فقد سذاجته في صفقة تجارية. كان قـد جرى ذلك في فورلي (Forli)، قبل سـنة، في حي البغايا، حيث جرّه أحد رفاقه، بينيداتو سـالي (Beneditto Celli). قاده رفيقه إلى بيت حقير كانت التعرفة المعمول بها حينذاك 50 سنتيم. ما ناله مقابل هذا المبلغ هو الحوز بشكل عابر على جسـد امرأة متقدّمة في السن نوعا ما: «أقعدتني علـى ركبتيها وبدأت تهيّجني بالقبلات والمداعبة. كانت امرأة قد أخذ بها الشـيب، واندلق شـحمها من كل جانب». غادر بينيتو دار البغاء مطأطئا برأسه، مترنحا كالرجل السكران. تذكر قائلا: «شعرت كما لو أني ارتكبت جريمة». كانت أول عملية غزو ناجحة قام بها، وإن لم يفتخر بها.

كازانوفا (Casanova) سابي القلوب

عندما بلغ بينيتو الثامنة عشـرة، تغلّبـت عليه رغبة الإبتعاد عن المنطقة التـي ولد فيها. كان قد أبصر النور فـي 19 تموز 1883 في دوفيا-بريدابيو (Dovia-Predappio)، فـي قلب رومانيا (Romagne) الإشـتراكية، وكان والده حـدّاد القرية. متبجِّح صلِف، كان يطمح إلى إغواء النسـاء، فيتردّد علـى المقاهي والحفلات الراقصة الشـعبية، حيـث كان بإمكانة محاولة التقـرّب إلى الجنس اللطيف. عندما أنهى دراسـته، اختار ان يحذو حذو أمه، وكانت قد توفيت قبل عدة سنوات، فالتحق بمدرسة المعلمين ليصبح أسـتاذا. في شـباط 1902، شـغل أول منصب له في قرية قريبة. في ذلك الوقت، كان كدِر الخلق، يرتدي ألبسـة سوداء، ونادرا ما ينزع قبعته برفرفها العريض ويخلع عنه مشلحه الطويل. وقد لاحظ ان مظهره الصارم هذا كان

يسترعي الإنتباه، خاصة من قبل النساء.

في تلك الفترة، اعتاد ان يسكر يوميا مفرطا من شرب الكحول، فيجد نفسه أحيانا في مواقف مضحكة. راح يصاحب الإشتراكيين الآخرين في القرية، ومرارا ما كان يوجد برفقتهم، مستلقيا غافيا في ساحة الكنيسة، عند طلوع الفجر، وقد تجرّع كميات هائلة من مختلف أنواع الكحول خلال الليل. كما كان ينصرف إلى شغفه الصبياني بالمشاجرة، فيشفي غليله باعتماد سلوك استفزازي عنيف في الحفلات الراقصة التي كانت تقام كل نهاية كل أسبوع. ولم يكن يرتادها أبدا إلا ومعه قبضته الأمريكية (poing américain).

كان سلوك المدرّس الشاب يثير الإستنكار في القرية: أغوى جيوليا ف. (Giulia F) بعد ان لفتت انتباهه في حفل راقص، وكانت قد ناهزت العشرين من العمر، غير أنها كانت أمّا لطفل، وزوجها متغيّب يؤدي خدمته العسكرية. لقد «تعاطفا»:، على حد قول موسوليني ثم راحا يتراسلان. كان يفترض ان تبقى علاقتهما خفية، وجرى أول موعد لهما في السرّ. وترك في قلب موسوليني ذكرى لذيذة: «كانت جوليا تنتظرني على عتبة البيت. كانت ترتدي صِدارا وردي اللون يرتسم بوضوح في العتمة. صعدنا السلم، ووهبتني نفسها طيلة ساعتين. عدت إلى المنزل، نشوان من الحب واللذة الجنسية».

غير ان الخائنة جيوليا تحمّلت عواقب هذه العلاقة الغرامية. فقد أخذ الزوج المخدوع علما بالأمر كما باقي سكان القرية في الوقت نفسه، فطلب من أهله، من حيث كان، طرد زوجته من البيت. فاستأجرت جيوليا غرفة، حيث أ طلقت العنان لحبها لبينيتو. «أصبحنا عند ذلك حرّين. كنت

القاها كل مســاء. كانت تنتظرني أمام الباب. لقد عشــنا أشهرا خلابة».
كان موسوليني يستمتع خاصة بسيطرته التامّة على تلك المرأة التي اكتشف بفضلها قوة الإغواء اللا عقلاني.

وبالفعــل، بعد أن هجرت زوجها من أجله، تعيل طفلها وحدها، كانت جيوليا تطيعه دون شرط، ووضعت نفسها تحت تصرّفه خلال تلك الأشهر. مــا لا يقوله، هو أنهما مع ذلك كانا يتشــاجران مــرارا. وفي أحد الأيام، جرحها بســكينه. مرة أخرى، هجم عليها في الشارع وعضها بذراعها لأنها عصت أمره وذهبت وحدها إلى حفل راقص.

كانت المرأة بالنســبة لموســوليني غرضا له التصرّف به كما يشاء. لم يكن حضن جيوليا الحسناء يكفي لكبح الرجل.

عاشقات الفاشية اليهوديات

في آذار 1904، ألقت أنجليكا بالابانوف (Angelica Balabanoff) في لوزان (Lausanne) خطابا بمناســبة الذكرى الثالثة والثلاثين للحكم الثوري في باريــس (la Commune de Paris). نظّم الحدث الحزب الإشــتراكي الإيطالي، وكان في الجمهور عدد كبير من العمّال الذين اختاروا الإقامة في سويسرا هربًا من بؤس الأرياف الإيطالية في مستهلّ القرن العشرين.

كانت تلــك الثائرة فــي السادســة والثلاثين من العمــر، تتحدّر من الطبقة الأرســتقراطية الأوكرانية الكبرى، وقددرســت في جامعة بروكســل (Bruxelles) الحرة. تناولــت الكلام أمام العمّال مفكّرة من الطراز الأول، تتكلّم بسهولة لغات عديدة، وتخالط شخصيات مهمة من نخبة الشيوعية

العالمية؛ امرأة متحرّرة، سمراء كثيرة للفضول، ترفع راية الفكر النسويّ في أوائل ذاك العصر. تضايقت من رجل في الجمهور، يفرض حضوره نفسه على الحواسّ. بالرغم من وجود رجل اسمه فلاديمير إيليتش أوليانوف (Vladimir Ilitch Oulianov) في الإجتماع، لفت نظرها رجل آخر، شاب لم يسبق أن رأته يوما. كان يتميّز عن بقية العمّال الحاضرين بوجهه العبوس وملابسه غير المرتبة وخاصة بالرائحة التي كانت تنبعث منه. «كانت أول مرة رأيت فيها كائنا بشريا بمظهر يرثى له كذلك[1]». كان موسوليني يعيش حقا كالمتشرّد، لأنه كان عاطلا عن العمل، ينام تحت الجسور. دفعها فضولها إلى الإستعلام عن الرجل الغامض. «يبدو أنه كان أستاذ مدرسة، لكن يقال إنه كان يفرط في شرب الكحول، وهو مريض جدا، يجلب دائما لنفسه المتاعب». كان انطباعها الأول عنه زريّا، وزادت الطين بلّة أول كلمات تبادلاها. «يقول إنه إشتراكي، لكن لا يبدو أنه يعرف عن الإشتراكية إلا القليل».

سنة 1902، قرّر موسوليني ان يغترب هربًا من حياة المعلم المهنية الوضيعة التي فتحت له أبوابها، ولأن فكرة تأدية الخدمة العسكرية لم تكن تروق له. فكّر حينذاك ببلدان عديدة، لا سيما بفرنسا وبالولايات المتحدة، وحتى بمدغشقر (Madagascar)، قبل ان يقع اختياره على سويسرا، وهي الأقرب، والأغنى بكثير، وحيث كان يوسعه الإندماج في الجالية الإيطالية الغفيرة. فوصلها مُعوزا، يكاد يتكلم الفرنسية، وعمل في العمار، وكان

---

(1) في حياتي الثائرة (*Ma vie rebelle*)، المحرّر سنة 1938، وقد أصبحت معارضة لنظام موسوليني. إننا نستخدم ترجمة بيار ميلزا التي تجعل منها دقتها مرجعا.

عتــالًا، وبائعًا في متجر للخمور، ومســاعدا في حانوت قصّاب. لم يكن يقتات جيدًا بهذه الوظائف البسيطة، فانتسب إلى نقابات العمّال الأجانب حيث لفت الأنظار بقريحته.

بــات يُلتمس حضوره أكثر فأكثر في النــدوات واجتماعات النقابات في كل أرجاء سويسرا. وسرعان ما أصبح أمين سر الحركة وراح ينشر مقالات في صحيفة الحزب، مستقبل العمّال (*L'Avvenire del Lavoratore*)، بالرغم من انه كاد لا يفقه شيئا بشأن النظرية الإجتماعية، التي كانت تصف سويسرا على أنها «جمهورية بائعي مقانق يحكمها رعاع البروتستانتية».

اتخذت بداية ارتقائه هذه أهمية كبرى حســب موســوليني نفسه. وقد أسرّ لاحقًا لبعض الصحافيين: «لربما كانت الفترة الوحيدة في حياتي التي لم أشــعر فيها بالوحشــة». ولعلّه كان لوجود أنجليــكا أثر في ذلك. فقد أُخِذت على الفور بســحر هذا الناشــط الذي كان يصغرها بخمسة عشر عاما. أجمع الأشــهاد، بدءا منهما الإثنين، على اتفاقهما الفكري العميق ودور المدرّبة الذي قامت به أنجليكا:

«ربما لأنه كان يعرف في أي بيئة ترعرعتُ، وربما جزئيا لأني كنت امرأة لــم يكن بحاجة البتة ان «يبرهن» لها أنه كان يســاوي الآخرين بل يتفوّق عليهــم، ولم يكن يغتاظ من نصائحي او لوائمي، حتى عندما كان يضرب بها عرض الحائط. لم يكــن يحاول ان يخفي ضعفه أمامي. [...] طوال أيام تعاوننا، احتفظت بصداقتي له، لأني أدركت أني كنت الشخص الوحيد الــذي كان يمكنه ان يكون على طبيعته، الشــخص الوحيد الذي لم يكن يضطرّ إلى مخادعته».

لقد اشــتمّت أنجليكا سرّ ضعف بينيتو الباطني والذي ستقوم عليه قوة

موسوليني: «كان يحتاج إلى شخص يتبع له، لكن غروره لم يكن ليتحمّل أبــدًا العكس». وقد عرفت، هي المرأة ذات الخبرة، كيف تتعامل مع هذه الحاجة إلى التفرّد العاطفي بالمرأة لدى موسوليني، دون أن يتخلى عن أقلّ قسط من اســتقلاليته. إلتقى لأول مرة في حياته بامرأة لم تكن مجرّد مثار رغبة. وللمرة الأولى ايضا، بشــخص متفوِّق عليه فكريا. وكان ذاك الكائن امرأة، وكان هو أول من اســتغرب ذلك. لعلّه لــم يتكلم يوما عن رفيقة له بهذا القدر من المديح:

«أعيــد وأكرّر، لأنجليكا فضل عليّ يتعدّى ما تعتقد أني مَدين لها به. كانت تملك الحكمة السياســية. كانــت تخلص للأفكار التي تناضل من أجلها. لقــد تخلّت عن دارتها الفخمة وعن أســرتها البرجوازية، من أجل الدفــاع عنها. لم يكــن لكرمها حدود، ولا لصداقتهــا، ولا لكراهيتها. لو كانت للإشــتراكية طقوس وشــعائر دينية، لكان يجدر ان تحظى القديسة أنجليكا في الإشــتراكية بمكانة رفيعة في عالم سياســي خَلق فيه ماركس (Marx) الأرض والسماء. لو لم ألتق بها في سويسرا، لبقيت ناشطا بسيطا في الحزب، وثائرا هاوياً[1]».

وبالفعل، كان كرم أنجليكا تجاه موســوليني أشبه بحسنات مريم عذراء مترفّعــة. فقــد جنّبته، على حد قولها، «الهســتيريا والبــؤس واليأس» بأن فتحت أمامه أبواب الإشتراكية. قد تكون حقيقة الأمر أكثر ابتذالا: اعترف موســوليني أنه لم تكن تجذبه تلك «الأســتاذة» بمظهرها الخشــن. قال لزوجتــه لاحقا: «لو كنــت في الصحراء، وكانت أنجليــكا المرأة الوحيدة

---

(1) في إيفون ده بانياك (Yvon de Begnac)، *Taccuini Mussoliniani*، ترجم في بيار ميلزا، سبق ذكره.

الموجودة، لآثرت مغازلة قردة». هل يعود الفضل إلى انعدام الرغبة هذا في ان تمكّن موسوليني البقاء على علاقة معها دامت حوالي عشر سنوات؟

لم تؤثر أنجليكا فقط في نفس بينيتو. لقد غيّرت أيضا نمط لبسه. ففي سنوات 1910، تحسّن فعلا ملبسه، بقبّة جامدة مستعارة وقبعة من القش. بعدما أمضى سنتين ونصف تدرّب خلالها في منفاه السويسري، عاد أخيرا إلى إيطاليا حيث دُمج مدة سنة في كتيبة مشاة. أثمرت تعاليم أنجليكا، إذ بات مصيره ان يكون صحافيا.

بعد ان أغرق كل الصحف الإشتراكية بمقالاته، نال أخيرا، في 1912، منصبا ذا مسؤولية، فأصبح مدير تحرير *لافانتي* (*L'Avanti!*)، *إلى الأمام!*، جريدة الحزب الإشتراكي الإيطالي اليومية. ولكن، نسبة إلى طبقة المفكرين الإيطاليين الجديدة، بقي المعماري السابق فلاحا. لم يكن أسلوبه مرضيا بالرغم من فاعليّته. هل ساورت موسوليني الشكوك بشأن مؤهلاته عند ارتقائه إلى المستوى الوطني؟ كان أحد شروطه ليقبل هذا المنصب أن تشغل أنجليكا منصب معاونة رئيس التحرير. كان يحتاج إلى دعم مدرّبته التي كان يطمئنّ إلى وجودها. فلحقته إلى ميلانو (Milan) المرأة التي علّمته في لوزان (Lausanne) وبطول أناة أصول الكتابة الصحفية الأوليّة، وساعدته في اختيار مطالعاته وفي توثيق فكره. فترأسا سوية الصحيفة الإشتراكية الأكثر رواجًا في إيطاليا.

لعب في صفحاتها دور نبي الإشتراكية. كان أسلوبه إتهاميًّا. لم يكن بينيتو يفوّت فرصة للتنديد بجرائم السلطة، بدأت أفكار الفاشية الجذرية تظهر في مقالاته: كانت مفاهيم نيتشه (Nietzsche) أو برغسون (Bergson) المنحطّة، مرتبطةً بنظرية تطورّ (darwinisme) اجتماعي بدائي، تؤدّي إلى

نقد متجدّد للجمهور «المنقاد والأنثوي».

كان الإقرار بموسوليني الصحافي شبه فوري، أما الإعتراف به كخطيب فسار بطيئا. أثارت مداخلته في مؤتمر ميلانو سنة 1910 ضحك الحضور، الذي وجدوا صوته المتوسّط (baryton) مخنّثا. وقف وحده على المسرح، ولم تكن إلى جانبه أنجليكا لحصر طاقته الفيّاضة.

عندمـــا صعد إلى المنبر، كان كلامـــه غير مترابط، بقدر ما كانت ربطة عنقه الســـوداء معوجّة. لم يحظ كلامه بالمصداقية بســـبب ورأسه الأصلع ووجهـــه المكلّح بلحية لها ثلاثة ايام. كان أشـــبه بفزاعة تدافع عن العدالة الإجتماعية. تمتم الحشد يقول «إنه لمجنون!».

لا بـــأس ان يقارنه رفاقـــه بالمجنون والأقرع والفزاعة؛ كانت النســـاء يريـــن واقعـــا مختلفا تماما. كن يحبّذن أســـلوبه الثائر المســـتفز. كانت الطريقـــة التي يتوجـــه بها إلـــى الجمهـــور باتهاماته الحـــادّة وادّعاءاته بالدفـــاع عن العدالـــة والإنصاف تجلب وراءه مقاتـــلات (amazones) مطلـــع ذاك العصـــر. فـــي ميلانـــو، وللمـــرة الأولى، حضـــرت امرأتان تســـتمعان إلـــى خطابه وهمـــا ترتديـــان الســـروال، الأمر الـــذي أثار الإستنكار.

مفاتن الشرق

خلال خطاب ألقاه في آذار 1913، استحوذت أيضا أعضاء موسوليني الجذابة على ليدا رافانالي (Leda Rafanelli) الغريبة الأطوار. فنشرت مقالا وصفته فيه «باشتراكي أزمان البطولة... لم يزل يحسّ، لم يزل يوقن، باندفاع كله رجولية وقوة». واختتمته بالرزانة نفسها: «إنه رجل».

أرسل لها موسوليني كلمة شكر مقتضبة، أجابته عليها بدعوة. لم يمانع، شرط ان يبقى لقاؤهما سرّياً. وصل بينيتو عند تلك المرأة التي لم يكن يعرف شيئا عنها بعدُ في لباس أنيق جدا: سترة طويلة وجزمة قصيرة وبرنيطة. كانت مضيفته، الشخصية الشهوانية «بمظهرها الإستفزازي، وشفتيها الغليظتين وجسدها الذي يغري باللذة»، تكاد تعيش على هامش مجتمع إيطاليا ما قبل الحرب. بعد اعتناقها الإسلام، اعتمدت نمط حياة شرقية وتعممت، وكانت تتزيّن بأساور فضيّة عريضة وأقراط ثقيلة. لم يكن يحتوي منزلها ذات الطابع الشرقي أيضا إلا على أثاث وأدوات أتت كلها من مصر. واكتمل المشهد بأن كانت الغرفة تفوح بالعطر ورائحة البخور المستورد، وفي وسطها كانون نار انبعث منه رائحة القهوة التركية الزكية. أحسّ بينيتو بالضيق، فتعثر بكلامه، ثم غادر دون ان يتاح له القيام بأي مناورة للتقرّب.

بعد مرور عدة أيام اعتذر اليها في رسالة تحجّج فيها بحيائه و«حساسيته الكبيرة من العطور الشرقية». لعلّه تذكر في ذلك الحين قداديس الأحد أيام طفولته، حيث كان يزعجه البخور إلى درجة أنه أغمي عليه عدّة مرات. عرف كيف يختار الكلمات الصائبة: «لقد أمضيت ثلاث ساعات لذيذة. نحن الإثنان نحب الوحدة. أنت تبحثين عنها في إفريقيا، وأنا وسط لفيف مدينة صاخبة. لكن الهدف واحد. متى احتجت إلى فترة استراحة فسآتي لأزورك. ونقرأ معا نيتشه والقرآن».

قبلت السيدة ولم تضمر له حقدا على ذلك التقصير. تقابلا عدة مرات وجها لوجه، لكن موسوليني لم يتوصل إلى النيل من مقاومة طريدته. في محاولة لترويضها، باشر بعملية إغواء واسعة، فاشترى ثيابا بدويّة. لبس البرنس والطربوش وعقدا من العنبر. وبالطبع، كذب عليها فيما يخص وضعه

الشـــخصي، مدّعيا انه غير متزوج، وأدّى دور المُغوي الفاســق ذي القلب المتحجّر الذي ينتظر المــرأة الكاملة: «صدقيني، إن كل رجل يحسّ بأنه قادر على عيش حياة صعبة، غير عادية، يحتاج إلى من تلهمه، من تؤاسيه. هــل تفهمينني؟» كان يعرف المداهن كيف يتملّق للمرأة. يقول إنه يبحث عن ملهمة، لا عن عاشــقة فقط. «أتمنّــىّ ان تفهمني حتى أعماق قلبي، أتمنّى الإسرار لها، وأن تحثني أيضا على العمل، ان تنصحني، ان تستنكر إذا ارتكبت أخطاء، هل تفهمينني؟»

إلا ان ليدا كثيرا ما ســمعت كلاما من هذا النوع. لم تكن توقن بالمرأة الملهمة، فلم تُجدِه الحجة نفعا. كرّر موســوليني أنه حرّ كالريح، وأتى ردّه سريعا، فقال لها بلهجة المُسارّة: «هناك امرأتان تعشقاني درجة الجنون». وادّعــى أنه لا يحبهمــا. «إحداهما قبيحة، ولكن لها روح شــهمة نبيلة. والأخرى جميلة، لكنها بســجيّتها محتالة وطمّاعة: بل هي بخيلة. والأمر طبيعي، فهي يهودية».

كانت الأولى المخلصة أنجليكا. والثانية المســؤولة عن الصفحة الفنية في *لافانتــي!*. إلتقاها عندما التحق بالصحيفة. وأصبحت توّا لا غنى عنها لجمالها وذكائها.

«الجميلة البخيلة والمحتالة بقدر ما تكون الأولى مخلصة، هي الكاتبة مرغريتا سارفاتي.

زوجة المحامي؟

نعــم، إنهــا تلاحقنــي بحبها، لكــن لا يمكــن أبــدا أن أحبها. تشــمئز نفســي لدناءتهــا. إنهــا ثرية وتســكن قصرا كبيــرا في جادة البندقية.

إذن لا ترى فيها الملهمة التي تحلم بها؟

لا، لن أدعها أبدا تتدخل في شؤوني الشخصية».

انتهـــى أمر ليـــدا المتمرّدة والتي أفرط بالتملّـــق لها. هكذا كان يقوِّم بينيتو حياته الغرامية ســـنة 1913. لا شك في أن الحقيقة كانت مختلفة. ولكن، من هي هذه الهائمة الأخرى بموســـوليني، زوجة المحامي؟

إبنة البندقية الجميلة

عودة إلى الماضي قبل عدة ســـنوات، إلـــى البندقية، في 1905. كانت تدعى أنجليكا بالابانوف (Angelica Balabanoff)، كونها مفكرة روســـية، لتصـــف حالة الفقر لدى شـــعبها، وكان موضوع نقاش مســـتمر في أوروبا بعدما فشلت الثورة في ذاك الوقت. دفع الفضول شابة من مدينة بندقية، في الخامسة والعشـــرين من العمر، تدعى مرغريتا، إلى الإنضمام إلى الحضور للإســـتماع إلى الخطيبة الآتية من الشـــرق، النبيّة التي كانت تعرف مواقفها المنحازة للمرأة. «رأيت آنذاك تلك المرأة، نشش حبر طباعة سماوية ترتسم فيها الأحرف الروســـية، رأيتها تتحوّل ملامحهـــا بفعل الفكر والكلمة[1]». أُخذت مرغريتا بعينيّ الخطيبة الدامعتين اللامعتين اللاتي كانتا تتســـعان إلى درجة التهام وجهها الرمادي المثير للشفقة.

لقاء أوّل بين أنجليكا ومرغريتا، امرأتان ســـتغيران حياة بينيتو، وتحوّلان المدرّس الرومانيولي الأهوج إلى قائد سياســـي واثق من نفســـه. سُـــحرت

(1) فرانسواز ليفران (Françoise Liffran)، مرغريتا سارفاتي (*Marguerita Sarfatti*)، باريس، لوسوي (Le Seuil)، 2009.

مرغريتا بالسلاسة والقناعة التي كانتا تنبعثان من أنجليكا، واقشعرّ بدنها في الوقت نفســه من مظهرها الخارجي المُهمل. وقد شــاب اللقاء طرف من الغيرة النســائية. «كان صوتها الثاقب المتصدِّع، الذي يدفأ بنبرات حَلقيّة غريبة، يطعنك في الأحشاء، بقوة إقناع المتصوّفين والمهسترين». لم تُخفِ الكراهية التي نشــأت بينهما منذ اللحظات الأولى النواحي المشــتركة بين المرأتيــن: كانت الإثنتان يهوديتين، تتحدران من الطبقة الراقية، وقد حظيتا بتربية أرســتقراطية، وقاطعتا بيئتهما وأحكامها ورموزها وقيمها السياســية. كانت مرغريتا قد تخلّت قبل عدة ســنوات عن السياسة المعتدلة الليبرالية التي كان يتميّز بها التجار البندقيون، إذ أغرتها الأفكار الراديكالية الشــهمة التي كان ينادي بها الإشتراكيون، أولئك الثوار الجدد.

تطرّقت أنجليكا في كلمتها إلى روســيا الأم، «روســيا المقدّسة» التي كانت تعاني آنذاك الألم وتتطلّع بشــغف إلى مستقبل أفضل. ثم انهارت منهكة على كرســيها، شاحبة الوجه، تذرف الدموع. وتشير مرغريتا بالقول: «حول الطاولة، بكينا جميعا، مضطربين شاحبين ايضا».

الأثر الكبير الذي تركه ذاك النهار في نفس الشابة البندقية أعمق من أن يبقــى بلا عاقبة. بعد ان دافعت أنجليكا عــن العمّال الإيطاليين الأجانب في سويســرا، اســتقرّت في ميلانو، حيث انتخبت بعــد فترة وجيزة عضوا في اللجنة الإدارية للحزب الإشــتراكي الإيطالي. فكانت لها فرصة سانحة لمواصلة شجاراتها مع مرغريتا.

ســنة 1912، أتاحت لهما مقاتلة ثالثة تمثل الحركة النســويّة الناشــئة، أنــا كوليســيوف (Anna Kuliscioff)، الفرصة للإجتماع حــول التزامهما المشــترك. فأسســت الثلاث «*الدفاع عن العاملات*» (*La Difesa delle*

Lavoratrici)، مجلة كان هدفها توعية الإيطاليات إلى الشـأن السياسي. وقد موّلتها مرغريتا بقسط كبير من دوقاتها (ducats) الخاصة.

عملت في هذه المجلة الصغيرة ثلاث من أكثر النساء نفوذا في الحزب الإشـتراكي. كنّ كلهـنّ يلتقين على نقطة، إعجابهنّ بقائد ريفي شـاب: خطيـب صاحب ذو لكنة صريحة وحركات نزقة. هكذا نُصِّب موسـوليني علـى رأس *لافانتي!*. إقتنعت النسـوة الثلاث بشـخصيته القوية، وعباراته القادحـة، وقريحته التي لا تكلّ، وعينيه الباهرتين، فحصلن على تأييد قادة الحزب الإشـتراكي الإيطالي، وعيّنّه رئيس تحريـر الصحيفة. وكان لتأثيره فيهن واسـتهواهنّ الحقيقي دور أكيد في ذلـك. متدرّبًا على يد أنجليكا، التي كانت معاونته في منصبه الجديد، وبمساندة ثلاث مثقفات، راح بينيتو يترقّى تدريجيًّا.

غيـر ان العلاقـة بين المقاتلات الثـلاث لم تكن ودّية. فسـرعان ما تتحوّلت اجتماعات لجنة التحرير إلى مشـاجرات عنيفة. كان أمل مرغريتا في نشـر مقالاتها في المجلة مشـروعًا، وعرضت بعضهـا على زميلتيها. لكن المسـاهمة في التمويل لم يكن ليضمن الإمتيازات بالنسـبة لأولائك النسوة الشابات المثاليّات المتشـدِّدات. فرُفضت كليّا المقالات المتطرّقة إلى مسـألة اقتراع النساء. وذهبت أنا كوليسيوف إلى طرد مرغريتا من قسم التحريـر بسـبب إلحاحها. «حملت علي حملة عشـواء حقيرة، أمام كل المحرّرين المذهولين، كقيصرة تحمل سوطها في وجه فلاح متمرّد. فغادرتُ وانا أضم إلى صدري شظايا مثال أعلى قد تحطّم».

بعد صرفها من المجلة النسويّة، عملت مرغريتا جاهدة لطرد أنجليكا من منزلتها في قلب وفكر بينيتو. إذ عدا عن السِمات التي كانت تجمع بينهما،

كان لكل من الناشطتين طبع مختلف تماما. فلم تكن تتقبّل جميلة البندقية ذات الذوق الرفيع مظاهر الراهب الفرنسيسكاني (franciscain) المتجوِّل عند أنجليكا. كانت تدرك ان لها ذكاء فذ، لكنها كانت «قصيرة وقبيحة».
كانت أنجليكا في نظرها مزيجا غريبا: «بعدما اختارت ماركس واعتنقت مبادئ الماركسية ديانة تَيْميّة هاجسية، كانت تنشر كلمة الأستاذ في لغات عديدة، بذاك الحماس المعدي الخاص بالإيمان الجامح، والذي يتفشّى كالحمّى القِرمزية. أتصوّرها تماما وسط مطافات العصور الوسطى، أو في مغارة لورد (Lourdes)، وهي تضرب بالسوط لإحداث المعجزة[1]..».

تفكّك الفريق الصغير. فقد تحوّلت المنافسة الفكروية إلى منافسة غرامية. كانت مرغريتا مصممة على نشر مقالاتها، فذهبت تطرق باب رئيس تحرير *لافانتي!* الجديد في أواخر 1912. تهيّأت الشقراء المثيرة ذات العينين الزرقاوين للمقابلة، فلبست معطفًا أسود طويلاً واسعًا له قبة من فروة القاقُم، وقلنسوة من الفرو. عندما وصلت إلى مقرّ الصحيفة، التي كانت تساهم ايضا بتمويلها، توجهت مباشرة إلى مكتب موسوليني. قرعت الباب ودخلت قبل ان يدعوها إلى ذلك فوجدته يقرأ مسوّدة الطبع. رفع نظره ورأى هذه الكائنة المجهولة، فسارع إلى جلب كرسي ورجا الزائرة الفاتنة أن تجلس. كانت تريد ان يقدم لها عرضا بالتعاون المنتظم في الصفحة الفنية. فاقت نتائج المقابلة كل توقعات الشابة البندقية بلباس الفرو. سردت له خطابها المعتاد في الدفاع عن مكان الفنون في صحيفة نضالية وأعلنت:

---

(1) في مرغريتا سارفاتي، حياة بينيتو موسوليني (*The Life of Benito Mussolini*)، مؤسسة فريدريك أ. ستوكس (Frederik A. Stokes Company)، نيويورك، 1925، من ترجمة الكاتب.

«يمكن للفنّ، وهو المعبِّر عن العصريّة، أن يشكّل اليوم دعما ممتازا للعمل السياسي..». لم ينخدع موسوليني، فقاطع اللازمة على الفور: «ليس الفن حجة إشـتراكية. أما فيما يخصّ المقالات السياسـية فـي الصحيفة التي أديرها، فأنا أكتبها بنفسي».

مـا ان بدآ بتبادل الكلام حتى فقدت السـيطرة على الموقف. حاولت بعصبية إجراء مقارنة بصحيفة إشتراكية أخرى، *الصوت* (*La Voce*)، تكرّس هـي حيّزا كبيرا للمحليّات الفنية. مـرّة أخرى، أتى الجواب مختصرا جافا: «أنا لا أقرأ إلا المقالات السياسية والفلسفية». ارتبكت مرغريتا. تركته يقود النقاش الذي سـرعان ما دار حول المفكريـن الكبار الذين تأثر بهم بينيتو الشاب، مثل جورج سورال (Georges Sorel) او فريدريك نيتشه (Frédéric Nietzsche). أخيرا، حدّق موسـوليني في وجه هذه السيدة البرجوازية التي اقتحمـت مكتبه، وألقى العبارة السـحرية التي طالما أنعم النظر فيها: «أنا رجل يبحث».

وسـرعان ما جرى الحوار حول مفهومه لدور المرأة وكيف يمكن للرجل اسـتخدامه. تعذر على مرغريتا وصف حدّة النقاش، وما حملته الكلمات حينـذاك من وقع، والإرتعاش العميق الذي انتاب روحها. كانت ببسـاطة، هي ايضا، تحت تأثير عينيه الصفراوين النيّرتين اللتين كانتا تدوران بسـرعة في محجريه، و«فمه الذي كان في حزمه شـيء من القساوة، واستشهاداته النيتشية وقوة شكيمته».

تكاد الجملة لا تخفي التوتر الجنسي الذي نشأ بين هذين الكائنين منذ الدقائق الأولى. اعتادت مرغريتا على أن تكون لها الكلمة الفصل، فختمت الحوار بحكمة غامضة: «إن حشـمة النساء الحسناوات تتحصّن بوعيهنّ

لجمالهــن الخارجي». عرض عليها ان تكتب بعض المقالات، «مجّانا»، كما قال. فأجابته دون ان يرفّ لها جفن: «لا أكتب مجانا، أريد 30 ليرة (lire) عن كل مقال[1]».

بعد مــرور عدة أيــام على المقابلة فــي مكاتب *لافانتــي!*، حضرت مرغريتا حفلة موســيقية. أحسّت بأمر ما، بوجود من يعرّيها بنظره: «شعرت بعينين واســعتين تتقدان فتحرقاني وتثقباني، قبل ان أفهم أنهما كانتا عيني موسوليني». أخذ حبها لبينيتو يذيبها. وسرعان ما أصبح الناشطان عاشقين وبدأت بينهما علاقة فكرية متميّزة. بذلت جهدها، خلال لقاءاتهما المطوّلة وجها لوجه، لتصحيح نمطه، للتخفيف من قسوته، لتمحيص بلاغته وثقافته. لم يعد عمل البندقية منحصرا على الصفحة الفنية، بل راحت تدير الصحيفة معه، وتشرف على التحرير، وتسهر على التماسك الفكروي بين المحررين.

واكبته كل يوم في إعداد ونشــر الرواية الأولى للمذهب الفاشــي. لكنّ علاقاتهمــا الحميمة كانت متقطعة. كانــت مرغريتا تتغيب مرارا فتقيم وقتا طويلا في الخارج حيث كانت تُعنى بشبكاتها الإجتماعية.

في باريــس، كانت تقيم في جــادة كليبــار (Kléber) وتخالط طليعة المفكرين. في صالة المســتقلين، كانت تلقى دوشان (Duchamp) وليجيه (Léger) ودولوناي (Delaunay). بانضمامها إلى روّاد باريس الفنية، كانت ترتاد عالم الحفلات الصاخبة والأنماط الوقحة، في منتهى الإستفزاز. كان يجمع العرض الذي تقدّمه على مســرح الشان يليزيه (Champs-Elysées) بين الرقص والرسم والموســيقى والغناء والشعر والسينما. وكانت تتنزه وهي

---

(1) في يوميّات كلارا بيتاتشي (Clara Petacci)، *Mussolini Segreto*، ريزولي، 2009.

تتأبط ذراع الكاتبة الراقصة فالانتين ده سـان بـوان (Valentine de Saint-Point)، فتشكلان زوجين لوطيّين، ترتدي إحداهما ألبسة رجالية، قبعة عالية وطاقمـا من ثلاث قطع، والأخرى حلّة رومانية. في هذا الجو الإنحطاطي من نهاية القرن، كانت تزور، في شـارع سوربون (Sorbonne)، شارل باغي (Charles Péguy) الـذي موّلت نشـر أحد مؤلفاته السـابقة، في حانوته الوضيع *دفاتر الأسبوعين* (*Cahiers de la Quinzaine*).

إذن، كانت مرغريتا تترك بينيتو وحيدا ينغمس في الدعارة. كانت عاشقاته متعدّدات، وذرّيته تكثر. في 1913، أنجبت ناشـطة يهودية روسـية التقاها في ترانت (Trente)، فرناندا أوس (Fernanda Oss)، بينيتو روبال (Benito Rebel)، الذي رفض الإعتراف به، بالرغم من طلبات الأم البائسة المتكررة. لم يكنّ له أي شـعور، فلم يقم بأي بادرة لمساعدتها عندما أصيب الطفل وهو في سنّ الثانية بمرض خطير. وعندما بلغه أن هذا الإبن غير الشرعي قد لقي حتفه في النهاية، لم يتأثر أبدا قلبه المتحجر. على العكس، قال لمرغريتا ان هذه الخاتمة كانت بمثابة «فرج كبير» بالنسبة له.

دع الفاشيين في البندقية

لم تكن هفـوات بينيتو لتهمّ مرغريتا، إذ كان بالنسـبة لها رجل العمل الكامل، وضمان إنتصار الأفكار الإشتراكية الطليعيّة. كانت تؤمن بمستقبله السياسي بقدر ما كان يحتاج إليها من أجل تحقيقه.

إمتعضت أنا كوليسـيوف من الإقبال الكبيـر الذي كانت تحرزه أفكار الزوجان موسوليني–سارفاتي. قالت: «كانت هذه الدعوات صادرة عن غير مسـؤول، عن مجنون». وكتبت (اسـتنادا إلى قاطع طرق صقليّ من القرن

التاســع عشر) ان «موســوليني هذا رجل طائش خطير. وكل هذا الجنون يترأس الحزب اليوم! إنه كابوس». كان الإنفصال قد تمّ بين حلفاء الأمس. لكنه لم يصبح رسميا إلا مع إعلان الحرب.

فــي خريف 1914، كانت إيطاليا تتســاءل. هــل عليها دخول الحرب إلى جانب ألمانيا وامبراطورية النمســاوية-المجرية؟ أم عليها ان تتقرّب من فرنسا وانكلترا من أجل استرجاع آخر الأراضي الإيطالية التي ما زالت تحت السيطرة النمساوية؟ في أيار 1915، اختارت إيطاليا أخيرًا التحالف اللاتيني وأعلنت الحرب على النمســا. لم يعد بينيتو صحافيا، أصبح جنديًا. أرسل فــي أيلول 1915 إلى الجبهة الألبيــة (alpin)، حيث كان الجيش الإيطالي يحاول إحكام ســيطرته على الممرات الجبلية في وجه النمســاويين. بقي الجندي موســوليني بخدمة العلم مدة سنتين، لكنه لم يُمضِ منها إلا شهرا واحد على الجبهة، وبضع أيام فقط في الخنادق. خلال مهماته، كان يقاتل بشــجاعة، وحتى بشراسة. وعمل على ان يعلم الجميع بذلك، ساهرا على حياكة أســطورته الخاصة. في شباط 1915، خلال احد التمارين، انفجرت القذيفــة التي وضعها في مدفعه من نوع بتيــكا (Bettica)، فقتلت خمس رجال كانوا تحت أمرته، وأصيب هو ايضا بجروح خطيرة. استقرّت الشظايا في أماكن مختلفة من جســده. فخضع لعــدة عمليات جراحية، حتى انه كادت الغنغرينــة تودي بحياته. من أجل إنقاذ جنبه، كُشــطت الأنســجة الفاســدة وصولا إلى العظــم. بعد العملية، بقي على حالة من التخشــب الجســدي والإنفصام دامت عدة أســابيع. وكانت مرغريتا تزوره وهو طريح الفراش.

بعد خروجه من المستشــفى في شــهر آب من تلك الســنة، استأنفا

علاقتها الجنسية، بيد انها لم تخلُ أحيانًا من التجارب الفاشلة. لاحقًا، روى موسوليني القليل الحياء لعشيقة له حادثة عرضية معبِّرة. ذات مساء من سنة 1918، في ميلانو، وكان الضباب كثيفًا إلى درجة حجب كل شيء، رافق مرغريتا لتستقلّ سيارة أجرة. فباحت له بالقول: «ألم تفكّر يوما أني قادرة على حبّك؟ فأنا أحبّك».

عندما سمع بينيتو هذا الكلام، أجابها بالفعل: «فركبنا في السيارة [...]. بعد ذلك، حصل في تلك الأمسية أمر فظيع في غرفة الفندق. لم أستطع ان أفعل معها شيئا. اعتقدت ان السبب كان في الوضعيّة، فغيّرتها عدة مرات. دون جدوى. لا بدّ أنه كان في رائحة جسدها[1]».

بعد ذلك أمضى العشيقان معظم أوقاتهما معًا، في مقرّ الصحيفة كما في الأماكن المشهورة في ميلانو. كانت تحتاج إلى رعاية وحنان رجل أكثر من أي وقت مضى. فقد كانت 1918 بالنسبة لمرغريتا سنة صعبة فعلا، سنة الإنفصالات. إذ هجرت أنجليكا، صديقة بداية الشغف الإشتراكي، إيطاليا لموافاة رجل آخر، قائد آخر ذي هيبة، لينين (Lénine). كان هذا الرحيل أشبه بالخيانة بالنسبة لمرغريتا. قالت: «لم يكن لها روح الفكاهة، ولا حسّ الجمال - هنيئًا لها -، وإلا لرمت بنفسها في أقرب بئر صادفته، بالرغم من أنها لم تكن تألف المياه كثيرًا». مع ذلك، كان يستحيل لها نسيان تلك الرفيقة التي كانت من أقرب الناس إليها. كانت مرغريتا تتمادى دائما في السخرية، بحفيظتها النسائية المتأصّلة، فتستعيد ذكرى قدّها الدميم، وصدرها الرِهل، وتنانيرها التي تلامس التراب، وشعرها المزيَّت، «الذي

---

(1) الكتاب نفسه.

كان يؤاوي كل حشــرات الخليقة». واســتمرت تذكر، كحجتها الوحيدة، «بشاعتها الكالميكيّة (المغولية) المسحاء».

خاصــة وأن مرغريتا كانت قد فقــدت ابنها في كانون الثاني 1918، في حرب الخنادق. بلغها نبأ موته عندما تســلّمت خصلة من شعره الأصهب أرســلها جندي من رفاقه. تدفقت إليها عبارات المؤاســاة من كل صوب. أرسل لها غبرياله دانونزيو (Gabriele D'Annunzio)، بطل الطيران الإيطالي ومنافس موسوليني على رأس الحركة الفاشية فيما بعد، هذه الكلمة القصيرة:

«كنت أجهل هذه الميتتة الرائعة. ألم أكن أتوجه إليه أيضا عندما كنت أخطب في المتطوّعين الجدد، هناك في الأعالي؟ ألم يكن يســمعني؟ لمَ لم ألتق به؟ لا شــك في أني كنت عرفته من بين ألف. لا أريد تعزيتك. أنا أيضا لن أتعزى أبدا. ولكن، أليس حاضراً الآن، حضورا متواصلاً، أحيا مما كان عليه وأصابعك تعبث بشعره البديع؟»

كانت مرغريتا تعرف دانونزيو منذ عشر سنوات، وكانت من غواته. فقد أثر في نفســها الرجل الوطني والشــاعر بمآثره وبسالته في الأجواء كما في الخنادق. بلغت شعبيته ذروتها بعد الحرب، فقررت ان تقوم بدور الوسيطة بين بينيتو الفظ وغبرياله الشهم. تمّ اللقاء بينهما في حزيران 1919. ونشأت الغيرة على الفور بين فيلســوفَي الثورة الوطنية التي كان يُعدّ لها. إضافة إلى ذلك، لم يــرُق لبينيتو ان يعرض دانونزيو على مرغريتا مرافقته في أول رحلة جويــة بين روما وطوكيو. كانت تتشــوّق إلى ذلك، تاركة بينيتو مرغما على الإســتيداع، إذ كان ما زال يتلقّن دروسا أولية في الملاحة الجوية. أضيفت إذن على المنافســة للتفوّق السياسي أســباب كانت شخصية. لكن، في نهاية المطاف، لم يتمّ المشروع.

كانت لدانونزيو مشاغل أخرى. وبالفعل، استولى، في 11 أيلول، على مدينة فيومه (Fiume) على رأس سرايا من المقاتلين القدماء. وكانت معاهدة فرساي (Versailles) التي أقرّت نهاية الحرب العالمية الأولى لم تُعِد إلى الوطن الأم هذه المدينة التي كان سكانها من الإيطاليين. لم يسع موسوليني، الذي فوجىء بهذه المبادرة، إلا تقديم دعمه لمنافسه. ووعد في صحيفته ان يحصّل الأموال لأجله، وأن يقوم بزيارته في أسرع وقت. فاتّجه بحرا إلى البندقية، بصحبة مرغريتا، بحجّة الذهاب سرّا إلى فيومه المتمرّدة، التي أُعلنت جمهورية مستقلّة.

لدى وصولهما إلى المدينة، انصرف الزوجان، وكانا ما زالا في عزّ الغرام، إلى كل أنواع اللهو التي كانت تتوفّر في مدينة البنادقيين (cité des Doges). كانا على علم بأن الشرطة تراقبهما، فأمضيا الوقت في التملّص منها في الزقاق والأقنية الصغيرة التي كانت مرغريتا تعرفها عن ظهر قلب. استمتع موسوليني كثيرا بلعبة الهر والفأر مع هذه الرفيقة الجريئة، فأخّر الإبحار إلى فيومه. فيما عُرض عليه ان يركب سفينة حربية، ثم طيارة بحرية، رفض متحججا تارة برداءة الطقس، وتارة بمخاطر أخرى. لم يعُد يرغب إلا بإطالة إقامته تلك التي تحوّلت إلى شهر عسل حقيقي، حتى انه رفض ان يستقلّ سيارة لزيارة دانونزيو. تغيّر الهدف، فأصبح المقصود التسلّي فقط قبل بدء الحملة الإنتخابية النيابية الآتية.

حظيت النملة التي أمضت الصيف تزعق بعدد زهيد من الأصوات في انتخابات تشرين الثاني 1919 النيابية. كانت أول صفعة سياسية يتلقاها موسوليني. فعرف حالة من الإنهيار الحادّ. وراح يستعرض أمام مرغريتا المهن الغريبة التي فكّر في تعاطيها: «قبل اي شيء يمكنني العمل في

البنــاء، أنا معماري ماهر! [...] كما يمكننــي ان أقوم بجولة حول العالم وأعزف على الكمان: مهنة الموسـيقار المتجـوّل رائعة! [...] وقد أصبح ممثلاً وكاتبًا! مسرحيتي بثلاثة فصول، «مصباح بلا نور»، حاضرة، لا يبقى لي إلا أن أكتبها».

وقــع هذا الهذيان لرجل ضائع في مســمع مرغريتا القوية. شــرعت في الأشــهر التالية تعمل على رفع معنويات بينيتو فاســتصحبته إلى كل أرجاء إيطاليا وهي تستكمل الخطوط العريضة للثورة التي كانت تدعو اليها الحركة الفاشــية. اصطحبته إلى نابولي (Naples) على شاطىء البحر، ثم مجددا إلــى البندقية عدة أيام، لزيــارة تجار العاديّــات (antiquaires) في الحي اليهودي، والذهاب إلى مســرح غولدوني (Goldoni)، أو للإســتجمام في فندق دانيالي (Danieli) الفخم.

اســتهلّ موســوليني ســنة 1920 بهدف جديد ومعنويات عالية جدا: الإســتيلاء على السلطة، بفضل حركة المحاربين القدماء الذين توحدوا في منظمة «جنود الشــعب» (Arditi) العسكرية او رابطة الحِزم (Fasci). إلى جانبه، كانت مرغريتا هي التي تقوم بصياغة الفكروية التي كان يحتاج اليها.

إذ ان عزيزتــه «فــالا» (**«Vela»**) لم تكن تكتفي بــأن تقدم له دعما معنويا، بل رسمت أيضا خطة حقيقية لتدفع به إلى الواجهة السياسية. كان عليهما أولا مضاعفة الوســائل من أجل نشر مبادئهما. فأسسا، إضافة إلى صحيفة شــعب *إيطاليا* (*Il Popolo d'Italia*) التي بدأت تصدر في اواخر 1914، مجلة سياســية، *التراتب* (*Gerarchia*)، ترأستها مرغريتا. واختارت بنفســها المســاهمين فيها من بين المقربين منها وأفسحت المجال واسعا أمام القضايا الثقافية. فجمعت حولها عددا مهمّا من الفنانين المستقبليين،

كماريو ســيروني (Mario Sironi). فقد كان على الفاشــية أن تكون حزبًا طليعيًّا، في كل ما في الكلمة من معنى.

لكن بقي ان تتوفّر الإمكانيات المادّية لتغذية الآلية الفاشــية التي بدأت عملها تحت إشــرافها. فلا بأس، قررت تأمينها بنفســها فسلّفت الحزب الوطني الفاشي مليون ليرة.

ومن أجل اســتيفاء دينها، رأت ان الوقــت كان مؤاتيا وأنه قد لا يعود، فحثــت مرغريتا بينيتو على اســتباق الأمور بتنظيم مســيرة على روما. لم يكن يرغب موســوليني بسلطة يحوز عليها بإراقة الدماء. كي يكون نجاحه كاملا، أراد لنفســه ان يكون شرعيا فيأخذ بزمام الحكم في البلاد بالطرق القانونية. كانت الحكومة قد ســقطت، لكن الملك كان يتردّد في تســليم الســلطة للدوتشه. حثته مرغريتا وكذلك معاونوه على الإستمرار في ممارسة الضغوط، بتنظيم استعراضات قوة تقوم بها «حزمه» في المدن الكبرى. فيما تردّد في إرســال فِرقه لاقتحام العاصمة، أقنعته بردٍّ استوحته من الإمبراطورة البيزنطية تيودورا (Théodora): «*الســير أو الموت*، لكنني على يقين بأنك ستسير».

عندما علم بأن الثورة الفاشية قد بدأت، أراد موسوليني أولاً أن يتقدّم إلى الخارج. مساء 26 تشرين الأول، فيما أصبح عسكره على أبواب روما، كان العشــيقان في مســرح فارم (Verme). خلال العرض، تلقى مخابرة هاتفية أطلعته أن العملية قد بدأت. وقف بينيتو مذهولا، وخرج من مقصورته مُعلنا: «آن الأوان، الوداع». لحقت به مرغريتا. أســرّ إليها بخشــيته من أن يتبوّأ الحكم بعد انقلاب عســكري، ثم ضمّها بشدة وهمس في أذنها: «دعينا نذهب إلى الســولدو (Soldo)، ونُمضِ بضع أيام في سويســرا، بانتظار ما

ســيحدث». ألقت عليه الشقراء نظرة ساخطة. لم يكن من الوارد الهروب. الإلتجاء إلى الخارج فيما يحارب الآخرون من أجله سيســربله بالعار. وإذ لم يجد ما يجيب به عشــيقته القوية الشــكيمة، عاد إلى مقصورته صامتا. تشــجّع بفضل نظرة هذه المرأة التي كانت ترى فيه زعيم إيطاليا، ونشر في صحيفته افتتاحية كتبها هو، طالب فيها بالســلطة المطلقة لنفسه. في 29 تشرين الأول 1922، وصلته برقية تعلن له ترئيسه.

حدســت مرغريتا ان الوقت كان مؤاتيا وعرفت كيف تقنعه بالمواجهة، بالرغم من شــكوكه وكآبته التي كانت تفســح المجال امام دانونزيو الذي كان يحظى بمحبة الناس له. فقد أقصي الخصم. غير انها تسبّبت بتسارع الأحداث التي ستبعدها عن بينيتو. فوظائفه الجديدة تقتضي ان يذهب إلى روما دون إبطاء. رحل في اليوم نفســه، مستقلا قطار الساعة الثامنة مساء. بعد استعراض أقيم في شوارع ميلانو ودام كل فترة بعد الظهر، ركب الزوجان ســيارة مرغريتا التي صحبته إلى المحطة. فيما توافدت الحشود في الخارج تهتف لرحيله، افترق العاشقان متأثرين ولكن متمالكين. لقد ولّى زمن رابط المشاركة اليومية.

موسوليني روما

كانت أول أيامه في روما كلها همّة ونشاط. طيلة شهرين تقريبا، انكبّ تماما على عمله. كانت أعياد آخر الســنة وحدها تتيح له الفرصة للذهاب إلى ميلانو والعودة إلى حضن مرغريتا. ما ان كاد يصل حتى يتلقى ســائقه الخاص الأمر بقيادته إلى بيتها:

«أمرني الدوتشــه، في ســاعة متأخرة من الليل، ان أصطحبه إلى جادة

البندقية (Corso Venezia): أوقفت السـيارة أمام بوابة أشـار لي إليها. ثم ترجّـل وطلب مني أن أنتظره. بقيت أتسـاءل عمّا يثير اهتمامه في ذلك البيت، فقد سبق ان طلب مني، خلال النهار، ان أتوقف عند ذلك العنوان [...]، وإذا بالخادمـة تتقدم نحـوي وقد نزلت للتعرّف إلـيّ. [...] ثم أعلنت لي دون تحفظ ان هذا النوع من الزيارات سـيتكرر دائما، وأن ذاك كان منـزل موسـوليني الحقيقي... أي منزل السـيدة س. (S.). وأبلغتني أخيرا أننا سـنذهب، في اليوم التالي، إلى دارة تقع على ضفاف بحيرة كوم (Côme). وبالفعل، في اليوم التالي، أمضى موسـوليني فترة قبل الظهر في مركـز المحافظة، ثم توجّهنا بعد الظهر باتجاه بحيرة كوم، إلى دارة وضيعة تملكها السـيدة س.، وكان يقود السيارة بنفسه. [...] بقينا هناك يومين. [...] روت لي الخدمة عدة وقائع من حياة العشـيقين، وقالت إن السـيد س. كان يغادر المنزل كلما دخله موسـوليني. أرادت ان تخبرني ايضا عمّا كان يحدث في الداخل بين الحبيبين، أمور لا يمكنني ان أسـردها، كانت تليق ببيت دعارة[1]».

كان أركوله بوراتو (Ercole Borrato)، سـائق موسـوليني الخاص بين 1922 و1943، شـاهدا ثمينا على حياة سـيّده العاطفية. وكان يعتبر، وهو يصحبـه في كل تنقلاته، أنه وصل إلى الحكم، نعم ليدير شـؤون شـعب بأكمله، لكن بالأخصّ مع عدد من النسـاء ليحبهن ويرضيهنّ. وكشف لنا في يومياته ان «أول رغبة كان يلبّيها موسـوليني، ما ان يخرج من وزارة ما،

(1) يوميّات سائق موسوليني، أركوله بوراتو (Ercole Boratto)، الذي نشر في جريدة إل بيكولو (*Il Piccolo*) اليومية (ترياست Trieste)، آذار 2008.

كانت في لقاء إحدى عشيقاته وتأدية واجبه بمعزل عن عمله الرسمي».

بيد ان النزهات السريعة التي كان يقوم بها بينيتو إلى ميلانو لم تكن تكفي مرغريتا، التي كانت تتشوّق إلى رؤية الدوتشه. إضافة إلى ذلك، كانت تعلم ان بينيتو غير قادر على كبح زخم حيويّته، وأنه لا بد أن يُقيم علاقات عاطفية عابرة. كان الخطر، بالنسبة لها، يكمن في ان تفقد مكانتها المميّزة في قلب قائد إيطاليا الجديد.

كانت هناك امرأة تثير غيرتها على الأخص، روميلدا روسبي (Romilda Ruspi). كانت تعلم أنها عشيقته في روما. استغلت مرغريتا عطلة قصيرة أمضتها معه وجها لوجه على شاطىء كستال بورزيانو (Castel Porziano)، في دارة كان يضعها الملك تحت تصرفه، لتحمله على التخلّي عن تلك الفاسقة. معا، مارسا السباحة، وتشمّسا، واستعادا علاقة عاطفية خالصة كان قد محاها زمن المسؤوليات. بيد ان العاشقات كنّ يتسللن إلى تلك الخلوة، فيُبدّدن طمأنينة مرغريتا. يروى سائق موسوليني:

«في أحد الأيام، كان الدوتشه منشغلا مع ر. (R.) فتبلغت هاتفيا بأن س. (S.) عند البوابة، تتوجّه نحو الشاطىء. [...] قرّرت ان أحلّ المشكلة على خير ما يكون، فذهبت لملاقاتها كي أبعدها. حاولت أن أفهمها أنه كان من المستحيل مقابلة الدوتشه لأنه كان بصحبة موظف من وزارة الخارجية، أتى بشأن قضية ملحّة جدا. رأيت على الفور انها لم تكن تصدّقني [...]. سألتني عن إسم الزائر فاضطررت ان أكذب ثانية، مدّعيا أنني لا أعرفه. سألتني أخيرا إن لم يكن الآنسة ر. (R.) وإذ أجبتها أن لا، اغتاظت وأدارت السيارة ورجعت أدراجها وهي تشتمني».

كانت شكوك مرغريتا مبرّرة. وسرعان ما تجسّدت أمرّ مخاوفها تحت

أنظارها. روى موسوليني الحادثة وهو يبتهج: «ضاجعت نساء غيرها أمامها. مثلا أستار لومباردو (Ester Lombardo)، وأيضا تاسا (Tessa). نعم، ضاجعتهما هنا، هكذا. وكانت هي موجودة. لقد رأتني تماما في النكاح، واكتفت بأن رمت الشرفة بقبضة من الحصى[1]».

راحت مرغريتا تحضّر لهجوم مضاد على هذه الخيانات المكشوفة. في آذار 1923، انتقت منزلا جديدا لموسوليني، الذي كان يقيم حتى ذلك الحين في الفندق الكبير، في قصر تيتوني (Tittoni)، شارع رازالا (Rasela). كانت مظهرغرفة موسوليني، كباقي الشقة، جنائزيا نسبيا، زيّنها سجف أحمر وأسود. كانت الغرفة مفروشة، يتصدّرها مركع إلى جانب سرير الإشتراكي السابق المعادي للإكليروس، وواجهة صغيرة مليئة بأيقونات القدّسين. كانت المناورة بارعة: ألحقت مرغريتا بخدمته مدبرة منزل صارمة حازمة، سزيرة كاروتشي (Cesira Carocci)، التي عملت فترة من الزمن بخدمة دانونزيو. اختارت مرغريتا شخصيا تلك المرأة الأمينة، وكلّفتها بمهمة صدّ محاولات كل باقي الطامحات. وعندما كان بينيتو، مع ذلك، يدعو بناتا لمضاجعته، كانت تلك الجاسوسة المنزلية الحقيقية تبلّغها فورا بالأمر.

سيطرت مرغريتا في تلك السنوات على الحياة الخاصة لسيّد روما الجديد. وبدت اكثر فأكثر تلعب دور الخليلة الرسمية. بقيت راشيليه (Rachele)، قرينة بينيتو، تقيم في ميلانو. توفّي سزاريه سارفاتي (Cesare Sarfatti) في أيار 1924، ولم يعد هناك ما يمنعهما من العيش سوية.

---

(1) كلارا بيتاتشي، سبق ذكره.

كانت مكرّمة بفضل مقامها شـبه الرسـمي والمعروف من الجميع. عندما كانت تدخل قاعة عرض او متحفا، كان الجمهور يقف ويهتف للمحظيّة. اختارتها الملكة ألانا (Elena) وصيفة لها، وكانت تفتخر بصداقتها. كانت تنزل بانتظـام ضيفة على القصر الملكي في كيرينـال (Quirinal)، حيث كانت تشارك في كل الإحتفالات الرسمية.

كان موسـوليني بحاجة لمن ينظم حياته الخاصة. كان وجوده في روما يشكل معضلة يومية، وكانت أعباء عمله كرئيس للحكومة مرهقا. كان عليه أن يواجـه كل يوم خصومه، الذين كان لهم حق التعبير والمعارضة في تلك الحكومة التي لم يخترها والتي كان فيها الفاشـيون أقليّة. إضافة إلى ذلك، اسـتأثر بوزارتي الداخلية والخارجية، دلالة على انه القاطرة الحقيقية داخل البلاد كما خارجها. لم يكـن بعد زمن الحكم الدكتاتوري، هيهات. لكن خطف زعيم المعارضة، جياكومو ماتيوتي (Giacomo Matteotti) في وضح النهار وقتله بوحشـية، سنة 1924، شكّل صدمة كبيرة لدى الشعب. لا بد ان الفاعل كان موسوليني، ذاك الرومانيولي النزق الفاسق. أساء هذا الحدث إليـه، وعُزل، وتخلّى عنه المعتدلون والمتطرفـون ممّن كانوا يدعمونه، فلم يعودوا يفهمون أصول لعبته، فكان عليه إما ان يسـتقيل أو ان يفرض نفسه بالقوة. فالتفت إلى مرغريتا. دار بينهما حوار رسميّ:

«كيف حالك؟

كيف تريدينني ان أكون، عزيزتي فالا (Vela)؟

هل هناك من جديد؟

لا شـيء. لن يفاجئني بعد اليوم اي عمل. مهما كان مُحالا أو مشينا. مـا يؤلمني خاصة، هو اني أجهل كل شـيء ممّا يفكـر فيه أصدقائي-

أعدائي. الذين خانوني!

لا عليك، ستتحسن الأمور؛ لكني أنصحك بالحفاظ على هدوئك، وبتمالك أعصابك. عليك ألا تغضب.

ليست المسألة مسألة أعصاب؛ أنا لا أكره أحدا، ولا في قلبي ضغينة! مع الأسف، حالف القدر أعدائي، وفي حال خسارة شبه أكيدة للمبارة، لن يكون هناك اي إمكانية للهرب!

لكنك برهنت دائما عن مهارتك في التنافس، وانت تعلم تماما ان كثيرا من المباريات التي تبدو خاسرة في البداية تصبح رابحة في النهاية، في آخر لحظة، او بيد اللاعب الأخير[1]».

كان في الرهان مجازفة. والمأرب بغاية الأهمية: وجوب انتزاع السلطة من المعارضين. في كانون الثاني 1925، تحوّل موسوليني، الذي كان حتى ذاك الوقت رئيس المجلس، إلى دوتشه الفاشية. طيلة السنة، عمل على توطيد نفوذه الشخصي، وفرض قوانين جديدة تشبهه. لكن، هل ترى سينصاع الشعب الإيطالي للحكم الموسوليني؟ كانت البنية السياسية الجديدة تحتاج إلى ترويج في مستوى طموحات الدوتشه الجديدة.

فقامت مرغريتا بدور مديرة الإعلام لصالح بينيتو. كان عليها ان تجعل منه رجلا محبوبا من شعب لم يكن يقدّره. كان يجب حياكة أسطورة، اسطورة الذكر الكامل. موسوليني المراهن الماهر، مرغريتا المراوغة الماكرة. الثورة الوطنية سائرة. إنه الرجل الذي يعمل خمس عشرة ساعة في اليوم، بقدرة هائلة على التركيز وقوة جسدية لا تضاهى، يسهر باستمرار على

(1) حوار اكتشفته الشرطة صدفة، رواه بيار ميلزا، سبق ذكره.

مصيـــر إيطاليا. رجل لا تتكامل طاقاته إلا بالتفرّغ، روحا وجســـدا، لبلاده. علـــى الأقل، هذا ما كانت قد صمّمت مرغريتا على إبرازه. من أجل ذلك، كتبت ســـيرة مفصّلة عن حياة وأعمال بينيتو موســـوليني، أصرّت فيها على مآثر بعلها، فتحول تحت قلمها إلى إله. كان بينيتو قد حاول، قبل ســـنين عدة، ان يكتب بنفسه سيرة حياته، مستغلا إقامته في السجن. لكن النتيجة لم تكن مقنعة، فأدرك انه، في الثماني والعشـــرين من العمر، ليس للمرء ما يرويه عن نفسه إلا القليل.

لجأت مرغريتا إلى وســـائل مستحدثة. أولا، نشر في الكتاب عدد كبير مـــن الصور ظهر فيها موســـيليني في أوضاع مختلفة: أيام شـــبابه، بلباس الفاشـــي، وهو يروّض لبوته، او يمتطي فرســـا، او يحيي الجمهور. غير انه كان يستحيل على بينيتو أن يبقى على ظهر دابة، بالرغم من الجهود اليومية التي كان يبذلها معلمه في الفروسية؛ أما لبوته، فكانت، بعدما مضت عليها فترة في شـــقته، غالبا ما تستقبله بمخالبها. أدركت مرغريتا أمرا أساسيا: ما عدا موهبة بينيتو في الخطابة، كان له جســـد، وحضور جذاب. وجب إذن ان يظهـــر، في كل الوقت ومكان، وفي كل الوضعيّات. كما أبرزت جوانب غير مألوفة عند الزعيم السياســـي، تتعلق بحياته الشخصية: لم تتردّد مرغريتا في وصف نواحي الضعف العرضيّة لدى عشـــيقها، ليكون مؤثرا بإنسانيته، كنوبات الغضب الكبيرة أو أوقات الإحباط التي كانت تنتابه.

صدرت أول نشـــرة في لندن بالإنكليزية، لا بالإيطالية. إذ انها اختارت اولا ان تحبّب موســـوليني إلى العالم أجمع. كانت خطتها الإعلامية فعّالة. لقـــي الكتاب إقبالا كبيرا، وســـرعان ما تُرجم إلى حوالي عشـــرين لغة منها التركية واليابانية.

لكن مرغريتا ســقطت ضحية نجاح فكرتها: وُفّقت برسم صورة جديدة لبينيتو، السجين السابق، زير النساء،، صورة رجل مرسل من السماء، يتحلّى بأخلاق حميدة. كان لوجود عشــيقة رســمية في ذاك المشهد النزيه وقع سيء.

تغيّرت الأوضاع. لم يعد من الممكن ان تكون خليلة الدوتشه المفضلة. فقد ولّى زمن المســاكنة على مرأى ومســمع من الجميع. لكن مرغريتا لم تكن مســتعدة للتخلي عن بينيتو. كان عليهما إلتزام الحذر، والمباعدة في الزيارات. فطرأت بعض المشــاكل اللوجســتية. يكشف لنا أركوله السائق: «لم يكن منزل الدوتشــه في شارع رازالا ملائمًا لاســتقبال الزوّار خلسة. فاقترحت س. (S.) على الدوتشه ان ينتقل إلى دارة تورلونيا (Torlonia).

أخذت على عاتقها التفاوض على الشروط مع المالك، الأمير تورلونيا. اتفقــا على بدل إيجار رمزي قدره 50 ســنتيم في الشــهر. بعد ان أمّنت مرغريتا منزلا لائقا لبينيتو، قررت ان تنتقل بدورها إلى روما نهائيًا، على أمل استعادة ألفة السنوات الغابرة بفضل هذه المجاورة الجديدة، وتجنّب تفتّت علاقتهما بفعل السياسة وتحت وطأة نوع من السأم بالطبع.

اســتقرّت شارع نومنتانا (Nomentana). وجلبت من ميلانو كل ما كان ينقصها في منزلها الوضيع في روما: لوحاتها الزيتية، ومجموعة كتبها النادرة، كل تحفهــا الفنية، وكذلك أثاثها الفخم. بذلك، كانت على بعد خطوات من دارة تورلونيا التي كانت تتمنى أن يسعها الإستفادة من حديقتها الرحبة، بمــا كان فيها من اصطبــلات وميدان لترويض الخيل، وشــجر ومطْيَرات وبحيرات يسبح فيها التِّمّ والبط، وملاعب لكرة المضرب (tennis).

في بداية إقامتها في روما، اعتقدت مرغريتا انها استعادت بينيتو: «كان

موسوليني يعرّج على منزل س. أحيانا، فيخرجا معا للعشاء في كازينا فالاديبه (Casina Valadier)، او للتنزّه بالسيارة في شوارع روما».

بيد ان هذه العيشة المثالي لم تدم. سرعان ما غبدّليّر موسوليني في مكان إقامته فتفرّد بهيكله الرئيســـي. ثم أصبح يتجافى. لم يســـبق ان كانا جغرافيا قريبين إلى ذاك الحد، ومع ذلك كانت المسافة بينهما حينذاك شاسعة.

في حزيران 1934، عاد الدوتشـــه من البندقية حيث التقى هتلر. وعادت هـــي من الولايـــات المتحدة، حيث قابلت روزفلـــت (Roosevelt). كان، فيما مضى، يرهقها بالأســـئلة كلما رجعت من الســـفر. تقول: «كان يمثل موســـوليني بالنسبة لي أكثر الحضور إصغاء، وأشده رغبة في الإستماع إلي [...]. بالإضافة إلى ذلك، كنت متأكّدة بأني سأجد بعد أيام في خطاب له او أقرأ في احد كتاباته، بعضا من ملاحظاتي، مقوَّمة تلمع كالماس».

أما هذه المرة، حصل تغيير، فلم يُصغِ إلا لنفسه ولحدسه. كانت تتوق إلـــى ان تروي له محادثتها في البيت الأبيض، لكنها وجدت نفســـها امام رجـــل أخرس أصمّ: «انتظرت، لكنه لم يطرح علي أي ســـؤال. فانطلقت. دون جدوى. كان قد بدأ تأثير هتلر يفعل فعله. هو الذي كان يحكم عليه دون تورّع، أصبح أول من انتقلت إليه العدوى. لم يكن موســـوليني يصغي. لكـــن، ما ان نطقت ببعض الكلمات حتى تناول قبعته ومذكّرته، كمن يريد ان يغـــادر». تظاهرت بأنها لم تلحظ اســـتياءه، وحاولت اســـتبقاءه: «ألا تودّ حقا ان تســـمع شـــيئا عن أمريكا؟ [...] يعلم روزفلت أشياء كثيرة عن إيطاليا، قال لي، لأنقله لك، أمرا مهما عن خطته الكبيرة بشـــأن الإصلاح الإقتصـــادي. إنه يقترح أن..». أضجره كلامهـــا، فقاطعها فجأة متملّصا: «نعم...، نعم، حسنا جدا، لكن الوقت تأخّر. يجب أن أغادر. ثم إن هذا

لا يهمّني. ليس لأمريكا أية أهمية عسكرية. لا جيشها ولا أسطولها ينفعان بشـــيء!» لم تعد تتعرّف إلى الرجل التي تحبّــه. «إرتميت، منهارة، على الأريكـــة في مكتبي، وبكيت بمـــرارة. [...] كان قد غيّر إلى درجة كبيرة، وسقط إلى أسفل مستوى، كنت مروَّعة[1]».

السياسة التي جمعت بينهما في الماضي، ففرّقتهما تماما حينذاك. كاد الميل المتبادل الذي اســتمرّ طيلة تلك الســنوات يُنسي أن مرغريتا كانت يهوديــة، قبل ان تكون فاشــية. حتى الثلاثينات من القرن العشــرين، كان موســوليني لا يعرف اللا ســامية، ثم أخذته النزعة الرائجة الآتية من ألمانيا وفرنســا، والتي كانت تندّد بهؤلاء الأعداء من الداخل. حسم بينيتو الأمر، دون مراعاة لأي شعور كان. أسرّ في 1938 إلى أحد معاونيه، قبل عدة أيام من اتخاذ اول ترتيبــات اضطهادية ضد اليهود: «إتخذت تدابير لأتخلّص منها. عملت على ان تُصرف من صحيفة شعب *إيطاليا* (*Popolo d'Italia*) ومــن إدارة مجلة *التراتب* (*Gerarchia*)، مــع دفع التعويضات القانونية لها طبعا. بعد إنشــاء لجنة الديموغرافية والعِرق، حُرم اليهود المتجنســين منذ 1919 من هويتهم الإيطالية وطردوا. وبعد مرور عدة أشهر على ذلك، أقصي اليهود الإيطاليــون الأصليون عن التعليم والمعاهــد والوظائف الحكومية، وحُظّر عليهم تملّك العقــارات. طُردت مرغريتا من قبل الرجل الذي أحبّته والــذي درّبته فكريّا واجتماعيا، وأقصيت عن الصحف التي أسّســاها معا، وحُرمت من ثمار علاقتهما. صودرت منها قصتها، ولم تعد تملك شيئا.

---

(1) مرغريتا سارفاتي، *Mussolini como lo conoci*، بيونس آيرس، آيرس كريتيكا (Aires Critica)، 1945، ترجم في ف. ليفران، سبق ذكره.

مغادرة إيطاليا. لم يبق على مرغريتا إلا الرحيل، بعدما فقدت كل نفوذ على بينيتو، كما هدّدتها القوانين اللاسامية. غير انها ما كانت لترحل قبل ان تؤمّن أيضا مقرّا لائقا لابنها، الرجل الثاني في حياتها، الذي دُفن في ستوكاريدو (Stoccareddo) في مقبرة جماعية. أرادت مرغريتا ان تقيم للبطل صرحا عظيما مشرفا على جبال الألب. كان الضريح أشبه بكتلة صخرية بشقين بينهما سلّم يعلوه نصب تذكاري إحياءً لذكر المآثر أودت بروبرتو سارفاتي (Roberto Sarfatti)، ففارق الحياة وهو لم يتعدَّ بعد السابعة عشرة من عمره. كان عليها ان تنجز هذه المهمة قبل التخلّي عن بينيتو وإيطاليا. حضر الملك يوم أخرجت جثة روبرتو من المقبرة، علامة دعم صامت لمرغريتا، التي تحوّلت بذلك إلى معارضة. بعدما برهنت عن صفاء مشاعرها الوطنية، متحدّية الفاشية وزعيمها، أصبح بإمكانها الذهاب إلى المنفى. سافرت إلى الأوروغواي (Uruguay)، ثم إلى الأرجنتين لكي تنساه.

وبقيت مئات الرسائل التي تبادلاها تشهد على علاقتهما. مرّت عشر سنوات ودّعت بعدها مرغريتا موسوليني نهائيا بأن باعت تلك الرسائل إلى طبيب تجميل، مصرّة على ان تترك أثر أحمر للشفاه على المغلف الذي كان يحتوي عليها. نشرت الصورة في الصحف. تصحفت إحداها امرأة تخالجها غيرة قديمة. زوجة موسوليني. إذ ان بينيتو كان منذ البداية زوجا وربّ عائلة.

المرأة والدجاجة، أسطورة موسولينية

ليلة خطبة طويلة

«أنذرك، ما زالت راشاله (Rachele) قاصرة. إن لم تتركها وشأنها،

رفعت عليك دعوى، فتدخل السجن!

حسنا[1]».

جرى ذلك في رومانيا (Romagne)، في خريف 1909. خرج بينيتو من الغرفـــة متظاهرا بالقبول. ظنت الأرملة غيـــدي (Guidi) أنها تخلصت من طالـــب يد ابنتها العنيد. كانت قد اضطرت هـــذه الجارة لمنزل والد بينيتو إلى النهوض ليلا لحلّ المشـــكلة: فاجأ بينيتو راشـــاله في حفل راقص مع رجـــل آخر وكان عازما على القتال. كانـــت الصبية تخدم منذ وقت قصير في خمارة والد موســـوليني. وكان يرغب كل الزبائن في ان تقدّم لهم طلبهم النادلة الشابة الشقراء. لكن بينيتو لم يكن يرضى بذلك.

كان رب العمل، أليســـاندرو (Alessandro) موسوليني قد عرض عليها حضور اجتماع نظمه ابنه. قال لها: «نستمع اليه، ثم نذهب معا للرقص». كانت راشـــاله تعلم ان بينيتو، الذي عرفته منذ نعومة أظافرها، لا يحب ان تســـتمع اليه وهو يخطب. برّر الأمر بالقـــول: «لا أعود قادرا على التكلم عندما أعلـــم بوجودك». أما أن تذهب إلى حفل راقص، إضافة إلى ذلك! لكن رغبتها بذلك كانت كبيرة. تحايلت، طيلة خطابه، لألا يكشف بينيتو أمرها. كانت راشـــاله فخورة جدا، أثار حميّتها هذا الجمهور التي كان يردّد إسم مغازلها في السرّ. انتهى الخطاب وعزفت الموسيقى، فقبلت فورا دعوة أحد الشـــباب ليرقصا فالســـا (Valse). فحلّت الكارثة: «ما أن قمنا ببضع الخطوات حتى وجدت نفســـي وجها لوجه مـــع بينيتو. رماني بنظرة تقدح

---

(1) حادثة روتها راشيليه (Rachele) موسوليني، موسوليني بلا **أقنعة** (*Mussolini sans masques*)، إلتقطها ألبار زارقا (Albert Zarka)، باريس، فايار، 1973.

شررا». نزعها من أيدي مراقصها بحركة غاضبة، وشدّها بين ذراعيه، وواصل الرقص معها بطريقة جنونيّة، «وهو يرمقني بعين الوعيد».

لـــم يكن بينيتو ليتوقّف عند هذا الحد. فقد أثار تحدّي راشـــاله هيامه في ذلك المســـاء. فقرّر ان يحسم الأمر نهائيا. كان يغازل منذ عدة أشهر ابنـــة الفلاح الصبية التي كانت ينوّر وجودها خمارة أبيه. لم يعد يتحمل ان يراها تبتســـم للزبائن، وتبدو أمام أنظارهـــم «بثدييها الرائعين». إنه أول من رآهـــا ق. بعد وعود غير صريحة بالـــزواج، قابلتها إجابات بالرفض مماثلة، قرّر أنها لن تفلت منه بعد اليوم. قبل عدة أســـابيع، غيّر نهجه فاســـتبدل محـــاولات إقناعها بالإغراء والوداعة، بتهديـــدات كان يرفقها بجمل على نحو: «إذا رفضتِني، رميتُ بنفسي تحت حافلة كهربائية»، أو أفضل منها: «إذا صدّيتِني، ســـأرمي بك معي تحت عجـــلات الحافلة». كان إذن من المنتظر ألا تنتهي السهرة على خير.

جرّ بينيتو إلى الخارج تلك التي كان يعتبرها خطيبته، واســـتوقف عربة. في طريق العودة، لم ينبس ببنت شـــفة. «أما أنا، فتكوّمت في زاوية، وهو يقرصي بذراعي طول الوقت».

وصـــولا إلى المنزل، بدأت المنـــاورة الكبرى: عاتب بينيتو الأهل لأنهم سمحوا لابنتهم بالذهاب للرقص. رفض الإصغاء إلى أي توضيحات. أمام هذا العناد العنيف المبهم، رفعت الأرملة غيدي صوتها وأنذرته. وكم كانت دهشة الحاضرين أمام سهولة إذعان بينيتو. لكنهم كانوا مخطئين.

عـــاد الهائم الهائـــج بعد لحظات، حاملا في يده مسدســـا. لم يغادر المـــكان إلا ليأتي بســـلاح أبيه، وراح يلوّح به أمـــام أعينهم: «وأنا بدوري أنذركم. أترين هذا المسدس، سيدة غودي؟ فيه ست رصاصات. إذا صدّتني

راشاله مرة أخرى، تكون لها رصاصة ولي خمس رصاصات. الخيار لكم!»

هكذا كان نهج موسوليني: إخضاع القدر لمشيئته وكذلك النساء، مع اللجوء إلى أعنف السبل. تمّ القرار خلال دقيقتين: قبلت المتردّدة ان تخطبه. وبدت كأنها مسرورة من منحى الأمور: «أعتقد اني كنت مغرمة به منذ سن العاشرة. كنت فقط بانتظار ان يساعدني أمر ما على تجاوز تردّداتي».

أهي مساعدة أن يصوب الهائم بها السلاح في وجه عائلتها؟ أم ان هذا التعبير مجرّد استعارة؟ وهل باحت لنا راشاله حقا بكل ما دفعها إلى الإقتران ببينيتو؟ لنستمع إلى الرواية المبتكرة التي أسرّ بها صاحب العلاقة إلى إحدى عشيقاته بشأن الحدث، بعد مرور حوالي عشرين سنة عليه: «كانت تلك الفتاة في المنزل: كانت في زهرة العمر، صحتها جيدة، جميلة، لها نهدان رائعان. فلاحة ولكن جميلة. كنت أجري وراءها، كنت أغازلها، كانت تعجبني. وفي أحد الأيام، رميتها على مقعد وسلبت بكارتها... بعنفي المعتاد. واستمرت الأمور على هذا النحو فترة لا بأس بها، إلى ان قالت لي: «بينيتو، أنا حامل». فأجبتها: «لنتزوّج إذن[1]».

لم يسع حينذاك الأرملة غيدي، وهو يهددها بالمسدس، ان ترفض. لكن، في اليوم التالي، عادت إلى صوابها فقررت «إبعاد» راشاله بإرسالها إلى منزل أختها بينا (Pena)، على بعد حوالي عشر كيلومترات من القرية. زادت محاولة إبعاد راشاله من عزيمة بينيتو. فقطع كل يوم ممتطيا دراجة المسافة التي كانت تفصل بينه وبين خطيبته. كانا طبعا يمسكان بيد

(1) كلارا بيتاتشي، سبق ذكره.

أحدهما الأخر، ويتبادلان القبلات، غير ان راشاله لاحظت ثمة خلل: «لم نكن من العشـــاق الخجولين الذي ينظـــرون في أعين بعضهم البعض طيلة ســـاعات، او من الذين ينبطحون في العشب، كما رأيته يفعل مرة منذ أيام على مقربة من منزلي».

كان بينيتو محبطا. فقرر ســـريعا ان يضع حدّا لتلـــك المهزلة العائلية، إذ لم يكن ركوب الدراجة على مســـافة كيلومترات يشبع لواعجه. في نهاية بعد ظهر احد أيام كانون الثاني 1910، وصل باكرا على غير عادةه، وأعلن لشـــقيقة خطيبته بلهجة مازحة انه وجد شقة لهما الإثنين. «أريدها ان تأتي للعيش معي وأن تكون أم أطفالي». واستأنف بلا ما يدعو إلى الرومنطيقية: «قولي لها ان تسرع، هناك أمور أخرى علي القيام بها..».

انفجرت بينا بالبكاء. جمعت راشاله بعض حوائجها وتبعت بعلها الذي كان ينتظرها بقدم ثابتة. حذاء عتيق عمره ثلاث سنوات، منديلان، قميص، وِزرة، وسبعة قروش، هكذا بدأت حياتهما المشتركة.

لاحقـــا، اعترف بينيتو بأنه لم يغوِ رشـــاله إلا لأن الآخرين حاولوا منعه مـــن ذلك، وانه «كلما حاول الناس منعك، كلما أصررت». راح الخطيبان يحصيان أملاكهما: لم يكونا يملكان شـــيئا. قـــررا النزول في فندق، وأن يحـــاولا في طريقهما اليـــه ان يجدا بعض المال. لا بـــد أن يصدفا أحدا يســـتدينان منه! فمشـــيا، هي بلباســـها المهمل عارية الرأس، وهو بمعطفه القصيـــر الفاتح اللـــون، باتجاه فورلي (Forli). حيـــث وجدا رجلا صالحا ومـــأوى. وكانت أول ليلة يناملن بها معـــا. ينامان، إذا صحّ القول... «في لحظة من اللحظات، كانت حوالي الساعة الثالثة صباحا، قالت لي زوجتي: «بينيتو، ألا تشعر بأن شيءا غريبا في هذا السرير؟» قلت لها: «أضيئي».

نظرنا فوجدنا فيه بقّا كبيرا بهذا الحجم. بدأت تصرخ على البقّ، لم يتواجد منه في جهتي من السرير، لكني لم أستطع ان أغفو بسبب صرخاتها هي».

بعد واقعة البق، قرر الزوجان ان يسكنان معا. لكن، لم يكن مت الوارد بالنسبة لناشط إشتراكي ملتزم ان يراعي التقاليد البرجوازية، لا سيما القِران. فعاش الزوجان معاشرة حرّة، بغنىً عن اي مباركة او عقد.

منذ أول لقاء بينهما إتضح نموذج علاقتهما: جنسية، خشنة. في الحادية عشرة من عمرها، كانت راشاله تلميذة في صفّ أم بينيتو، روزا مالتوني (Rosa Maltoni)، وكانت ورشة. عندما مرضت المعلمة، أتى ابنها بينيتو، وكان في الثامنة عشرة من عمره، ليحلّ محلّها. فيما انصرفت إلى حماقة ما، لم تنتظر الضربة التي سدّدها لها بالمسطرة على أصابعها. «بين البكاء والغضب، رفعت يدي إلى فمي، فاسترعت انتباهي عينان سوداوان واسعتان، عميقتان، كانت تنبعث منها إرادة قوية إلى حد اني هدأت على الفور، دون ان أفهم ما كان يقوله لي المعلم». فيما بعد، وجدت صفة تنعت بها عينيه: «يمضان كالفوسفو».

طيلة سبع سنوات، لم تتمكن التلميذة من نسيان ذاك الأستاذ الذي انقطعت عنها أخباره. في 1908، فيما كانت تعمل في مزرعة قرب فورلي، تكهّنت لها غجرية بمستقبل غامض: ستغمرين بالمجد والتكريم، وتصبحين ندّا لملكة. ثم تنشقّ الأرض تحت أقدامك وتحلّ بك الأحزان». ثم وضعت لها الغجرية بحصة في كفّها وأضافت: «احتفظي بها، لكن أعطيني كيسا من الطحين». كادت راشاله تطير فرحا، فناولتها الكيس دون تفكير. لم يرق ثمن هذا التكهن لأصحاب المزرعة فعاقبوها عقابا مرا. لم يمرّ على الحدث غير أيام حتى ناداها أحد في الجمهور وهي تخرج

من الكنيســة: كان بينيتو، المعلم الشاب. كانت له لحية صغيرة وشاربان، ويلبس طاقما أســود باليا، وربطة عنق وقبعة سوداء أيضا، قحّمها في رأسه: «لفتت نظري أولا عيناه، وكانتا متسعتين تلمعان بالوميض نفسه». بالنسبة للــذي أصبح فيما بعد خطيبها، لم تكن مقدمته متميّزة: «صباح الخير، يا شيلاتا (Chiletta)، لقد كبرت. أصبحت الآن صبية».

كان هــذا اللقاء الجديــد المتكلّف بداية علاقة بينهما. بدأ الشــاب والشــابة يتعاشــران. وهكذا، عرض بينيتو على راشــاله، في أحد أيام ربيع 1908، ان تعمــل في نزل أبيــه. أجابته باختصار: «ســأفكر في الأمر». وهرولت منذ اليوم التالي إلى نزل أليساندرو، فوظّفها.

عشــية رحيل بينيتو إلى ترانت (Trente)، في شباط 1909، سال الخمر بوفرة وعزف نحيب الكمان في الخمارة العائلية. تعهّد بينيتو للمرأة الشــابة بعهد غريب: «أنا راحل غدا، لكن عندما أعود، ستصبحين زوجتي. عليك انتظاري». ظنا منها أنــه يمازحها، أجابت: «وإن لم تعد؟» واصل جادّا: «ســترين أني ســأعود». لم يكن ذاك مشروعا، ولا فرضيّة، ولا اقتراحا، بل كان قرارا اتخذه عنهما الإثنين. كان الأمر بالنسبة له قد حسم. لكن، هل يمكن ان يُطلب الإنتظار من صبية في السادسة عشرة من العمر! قلت في نفسي: «تكلم ما تشاء، الآن انت راحل، ولكل حادث حديث!» وما أن حطّت راشــاله رأسها على الوسادة حتى غابت عن أفكارها هذه المشاريع الزوجية.

إلى ان أتى يوم طلبَ يدها، في السنة التالية، وفي قبضته مسدس. بعدما استقرّا سوية، أدركت مع أي نوع من الحيوانات أصبح عليها ان تتعامل كل يوم. كان خطيبها يشارك دوما في اجتماعات سرية كان العساكر يداهمون

فيها شـــاهرين الرماح. كانت تخاف عليـــه ان يُمزّق يومًا إربًا إربًا: «هذا ما اعتقدته في إحدى الليالي. انتظرته حتى الفجر. كنت أبكي، ورأســـي بين يديّ، متأكدة انه أنه في الســـجن أو في معرض الجثث». وإذا بها تسمع صخبا في السلم. فتحت الباب ترتجف فرأت رجلين غريبين يساندان بينيتو وهو شـــاحب اللون وعيناه شـــاردتان. قالا لها: «لا تقلقي، يا سيدتي، لا بأس. لقد تكلّم مطوّلا هذه الليلة، وشرب، دون ان يدري كميات هائلة من القهوة والكونياك (coganc).

خلال لحظات، شـــعرت راشـــاله بإنفراج أشـــبه بالذهول، لتواجه بعده مجنونا هائجا. «بدأ يكسّـــر كل شيء، ويصرخ كالممسوس». لم يُبقِ على شيء: الأثاث، الصحون المتوفّرة... وحتى المرآة. ارتعبت فأيقظت إحدى جاراتها ثم اتصلتا بطبيب. ســـاعدهما على تكبيله فوق السرير، فهدأ شيئا فشيئا. بعدما صحا من السُكر، كاد موسوليني أن لا يصدّق انه كان سبب كل ذاك الدمار.

ارتبك خجلا وهو يصغي إلى خطيبته تؤنبه غاضبة: «تأكّد من أمر. لن أقبـــل يومًا أن يكون لي زوجي ســـكّير. عندما كنت طفلة، كانت لي خالة تفرط من شـــرب الكحول، وقد عانيت ما فيه الكفاية. أعلم ان حســـناتك كبيرة، وأنا على اســـتعداد لغضّ النظر عن مغامراتك مع النساء، ولكن إذا عـــدت بعد اليوم ولو مرة واحدة وأنت على هذه الحال، فســـأقتلك». لم يكن بينيتو وحده من يتوعّد. عملت الفلاحة القوية على ان تجنيب نفسها قدَر البائســـة جرفـــاز (Gervaise)، امرأة عرجاء أنجبت اولادا من عشـــيق تخلى عنها، تزوجت بعده بعامل نزيه أصيب بحادث أعاقه، فحطم مغسل البياضـــات مورد رزقها فأدمنت بدورها على المســـكّرات وماتت بائســـة.

بإســتثناء بعض المناسبات الإجتماعية التي بلّل فيها شفتيه في كأس خمر، عدل بينيتو نهائيا عن شــرب الكحول. في تلك الليلة نشأت أسطورة رزانة واعتدال سلوك الدوتشه.

تخللت إذن بدايات الحياة المشــتركة أحداث مفاجئة وظروف طارئة. يتصــوّر المرء ان الهيام ربط بين هذين الكائنين اللذين طردتهما أســرتاهما وأعوزعمــا المال. على حدّ قول بينيتو، كانت الحقيقة مختلفة تماما: «لم يجمعنــا الحب أبدا، أو يكاد. جاذب جنســي لا غيــر. فقد كانت فتاة جميلة، من النساء النواعم، امرأة ذات قامة طويلة، وقدّ رشيق. مسألة حواسّ فقط. لم يكن بيننا لا تفهّم ولا اتّصال أبدًا».

إذن كان بينيتويعتبر ان المســألة مجرّد ميل جنســي، وشغف لا بد ان يتبدّد ســريعا على مرّ الزمن. خاصة وان موســوليني كان يكثر من مغامراته العاطفية. حُرمت راشــاله من الحنان. بدأ يرتقي كصحافي وإلى جانبه امرأة متســامحة تغض النظر عن غيباته المتكرّرة ورعونته الجديدة بزير النساء. إلا أنّ بعض العشيقات كنّ ينكّدن عيشه أكثر منها.

أسيرة بينيتو

إيــدا دالــزر (Ida Dalser) مثلا، تلك النمســاوية التــي التقى بها في مدينــة ترانت. بعد علاقة وجيزة قامت بينهما في 1909، فتحت في ميلانو معهدا للتدليك أســمته «صالون الآنســة إيدا الشرقي للصحة والتجميل». كانــت الحرب قد بدأت وكان موســوليني منهمكا فــي الزوبعة التدخّلية، عندما اكتشــف حبا صافيا متجرّدا كنّته له تلك السيدة التي كانت مستعدّة للقيام بأي عمل من أجل ان تضمن ســعادة عشيقها. كانت صور «بان»

(«Ben») تكســو جدران شــقتها الواقعة في شارع فوسكولو (Foscolo). صحبته يوما في أحد تنقلاته، فرمت بنفســها عليه لتحميه من ضربة خنجر ناشط إشــتراكي اتّهمه بخيانة قضيته الأولية. وفي خلال اجتماع، لم تجد وســيلة لإسكات خوار ناشــط معادٍ إلا بصفعه بقوة. لكن المأساة ذهبت بهــا إلى أبعد من ذلك بكثير. عندما أســس موســوليني صحيفة شــعب *إيطاليا*، كان بحاجة ماسّة إلى المال. تعامت «إيدا» إلى درجة أنها باعت مجوهراتها، وباعت صالون التجميل بسعر بخس، تخلّت عن شقتها لتقيم يوما فيوما في غرفة وضيعة. بالمقابل، وعدها «بان» بأن يأتي ليسكن معها قريبًا. لكن ســرعان ما علمت بأن ثمة من ســبقها وشغل المكان. قرّرت مقاطعته ونســيان هذا المتشدّق بالكلام. فكتب لها: «أرجوك بإلحاح ألا تتســرّعي، ستبقين جميلة ســعيدة ظريفة. انت تعلمين كيف تسير الأمور. لماذا هذا التخاذل؟ لماذا هذا اليأس؟» لكنه أجبر على إســناد كلامه على أفعال. فوجد لها شقة صغيرة وبعث لها «بعض النقود» أرفقها برسائله. إذن عاش موسوليني حياة شبه مزدوجة قبل ذهابه لخدمة العلم. وفيما كان يقاتل فــي جبال الألب (Alpes) ولد له طفل، بينيتــو ألبينو (Benito Albino). وعندما دخل المستشــفى مصابا بالتيفوس (typhus)، زارته إيدا وقدّمت له الطفل وطلبت منه الإعتراف به، وذكّرته بالمناسبة بأمر كان لا بدّ أنه نسيه: وعده بالزواج منها لدى عودته من الحرب. أصبح من الصعب عليه التوفيق بين حياتين، فضطر بينيتو على الإختيار. إما ان يتزوّج بالغاوية النمســاوية، او ان يبعدها ويقترن أخيرا براشاله. راح موسوليني يلتمس النصح من عشيقة ثالثة... مرغريتا سارفاتي، التي كان قد التقاها سنة 1912 وأصبحت معاونته في عمله الصحفي.

دفعتــه هذه الأخيرة إلى إختيــار الفلاحة الوفية من قريته، إذ كانت ترى فيها امرأة «جاهلة فظة»، لا منافسة في اي حال من الأحوال.

وبذلك، أقيم في مستشــفى ترافيليو (Treviglio)، في 16 كانون الأول 1915، احتفال رســمي بزواج مدنيّ بين راشــاله غيدي وبينيتو موسوليني. جُنّ جنون إيــدا، ورفعت دعوى ضده. طالبت والد بينيتو ألبينو بالإعتراف بالطفل، فأذعن لذلك بعد مرور شهر أمام كاتب عدل في ميلانو. لم يهمد حنق إيدا. راحت تدّعي امام الســلطات الرســمية بأنها السيدة موسوليني، فمنحتهــا بلدية ميلانو مســاعدة زهيدة. بعد أن سُــرِّح، تعرّض بينيتو من جديد لهجمات المرأة المُهانة. على أثر دعوى قضائية جديدة، حُكم عليه بدفع نفقة شهرية قدرها 200 ليرة. وقد فوجىء في مساء أحد الأيام بسماع صوتها عبر نافذة مكتبه في مقرّ الصحيفة. كانت إيدا في الخارج، وطفلها على ذراعها، تشــبعه شتما. عيل صبر موسوليني، فلجأ كعادته إلى العنف. خرج إلى الشرفة شاهرا مسدّست هدّدها به. تصدّى له معاونوه على الفور. ثــم قيدت إيدا إلى المخفر، حيث أخضعها رجال الشــرطة لاســتجواب مطوّل شاقّ على أمل ألا تعيد الكرّة. لكنها لم تكفّ ولم يتمكن موسوليني من منعها. إلى أن إســتولى على السلطة. تدبّر الأمرحينذاك بأن حصل من طبيب موافق على تشــخيص أعلنها مختلّة العقل، فحُبست في مأوى في البندقية. لم يطلق ســراحها أبدًا وتوفّيت أســيرة بينيتــو في 1937، بعد ان حفرت اســم عشــيقها القديم على الجدران. أدخل الولد معهدا للأيتام، واتخذت تدابر عاجلة من أجل تبنيه، ليفقد بســرعة شهرته الذائعة الصيت. ثم أرسل إلى الصين خلال الحرب، ولم ينجُ من المعارك ليُدخل بدوره إلى مأوى لقي فيه حتفه سنة 1942.

لقد ربحت راشـــاله المعركة: كانت رســـميا الســـائدة على قلب بينيتو. لكن، بعدما تخلّصت من إيدا، بقيت مرغريتا ســـارفاتي. كان على راشـــاله مواجهة الإشاعات القذرة التي كانت تروّجها الأرستقراطية البندقية. لا شك في ان مرغريتا خاب أملها بشـــأن ترسيخ علاقتها القديمة العهد ببينيتو بعد ترمّلها، فحاولت النيل من راشاله. أثارت الشكوك غدرا بشأن صدق محبة الزوجين المتبادلة، فأكّدت على ان راشـــاله كانت أخت الدوتشه من أبيه. من أجل ســـند هذه النميمة، كانت تصرّ على انها ســـمعته يقول بغموض: «إن روابط الدم تقوّي أواصر الزواج».

علـــى اي حال، لم تكن روابط الأبوّة لتوثّق القران بين راشـــاله وبينيتو. كانت تعيـــش هي في ميلانو، وحدها مع أولادها، فيما كان هو يتردّد إلى شوارع وقصور روما. كان بينيتو قد كفّ عن الإهتمام بها منذ سنوات عديدة إلا في الإحتفالات الرسمية، حرصا منه على صورته ربّ العائلة الصالح التي كانت تروّجها الدعاية. ولم تعد في نظره إلا مجرّد أنثى.

منذ ولادة طفلهما الثالث، ســـنة 1918، شابت علاقتهما مرارة حقيقية. إذ لم يتمكن من حضور الولادة الســـابقة، أنـــذر زوجته قبل ان يتغيب كل النهار، وتوعّدها بنظره: «أتمنى ألا تستغلّي غيابي لتضعي الصغير. لم أعد أطيق ان اكون آخر من يدري بولادة أبنائي». عندما رجع مساء إلى مكاتب شـــعب *إيطاليا*، استقبله المدير بابتسامة عريضة. إنه صبي، وراشاله بصحة جيدة. لكنها خضعت لغضب المرشـــد المستقبلي: استقلّ بينيتو توّا سيارة أجرة، وصعد الســـلم وهو يركض، وقبـــل ان يلقي نظرة واحدة على الطفل، قال لها بصرامة: «قلت لك ان تنتظريني، لماذا لم تفعلي؟»

ثم سارت الأمور من سيء إلى أسوأ. بعد مرور عشر سنوات، في 1929،

وبمناسبة ولادة طفلهما الأخير، راح الزوجان يقومان بلعبة تنكيدية غريبة، لعبة «لِنرَ لمن تكون الغلبة». قرّرت راشاله تحميل بينيتو المسؤولية بسبب تغيّبه وتخلّفه عن الحضور في فترة حملها. «قلت له انه من المحتمل ان يتأخر موعد النفاس عن الوقت المتوقع». وعليه، وضعت راشاله وحدها، دون مساعدة طبيب نسائي او قابلة، ثم كلمت بينيتو على الهاتف وكان في روما:

قالت له بهدوء: «أبصرتِ النور.

من؟

الصغيرة.

أية صغيرة؟

صغيرتنا. والآن إنتقِ لها عن إسم».

حوار ملؤه حنيّة وتأثر... اعتقدت راشاله انها احتالت على زوجها، إلا أنها تلقّت الردّ في اليوم التالي: «تصفحت الجرائد، وعلمت انني أمّ لطفلة اسمها أنا-ماريا (Anna-Maria). كان بينيتو قد احتال عليّ بدوره، لكنني سررت لذلك: أنا-ماريا كان إسم أمي..».

لا علينا الإنخداع بهذه المراعاة اللطيفة. لم يعد يهتمّ لها بتاتا. لم تكن راشاله تغفل الأمر: «مغامرات زوجي العاطفية، كانت مشكلتي. أقرّ بأن ثلاثا منها آلمتني: إيدا دالزر، مرغريتا سارفاتي وكلارا بيتاتشي (Clara Petacci)». نعلم ما كان مصير الأولَيَيْن. تبوّأ بينيتو موسوليني السلطة وهو يعيش حياة مزدوجة، مع راشاله غيدي، قرينته، من جهة، ومن جهة أخرى مع مرغريتا سارفاتي، البندقية المثقفة الجميلة. لن يمرّ وقت طويل قبل ان تظهر امرأة ثالثة وتزيد من تعقيد هذا التوازن الهشّ.

إبنة البحر

في 24 نيسان 1932، كان بينيتو يقود سيارته ألفا روميو (Alfa Romeo) بغطائها القابل للطيّ، متجها نحو البحر. على مستوى مدينة أوستي (Ostie) أدركته سيارة لانسيا إمباريا (Lancia Imperia) مسجّلة في دولة الفاتيكان (Vatican). إنها سيارة أسرة بيتاتشي. كان على متنها كلاريتا (Claretta) مع خطيبها، ريكاردو فدريتشي (Ricardo Federicci)، واختها الصغيرة مريم وكذلك أمها. كان موسوليني متخفيا وراء نظارات شمسية كبيرة، ويرتدي سترة للرياضة، لكن الصبية في العشرين من عمرها عرفته. صرخت «إنه الدوتشه!!!» وحيّته بحماس ملوّحة بقبعتها. ثم أمرت السائق بملاحقة سيارة الدوتشه. فبدأ بينهما السباق. أخيرا، توقف موسوليني عند مستديرة أوستي؛ فقد أثارت فضوله تلك الفتاة المتهيّجة. ترجّلت كلارا وساقاها يرتجفان. «سامحني، دوتشه، أنا كلارا بيتاتشي. وهذا خطيبي..». احمرّ وجهها. أخذ هو يفحصها بصمت. لقد سخت الطبيعة على الشابة: جسد رشيق، وجه نيّر، عينان كئيبتان، وعلى الأخص نهد بارز. وقد ظهرت بفستانها الأبيض الرقيق، وبرنيطتها العريضة، بمظهر ملائكي.

تظاهر باللامبالاة وردّد وهو يحدّق في عينيها: «كلارا بيتاتشي... هيه؟» تابعت بصوت واثق اكثر: «دوتشه، لقد أرسلت إليك أشعارا منذ بعض الوقت». «أشعار... هيه؟ اعتقد اني أتذكرها. احتوت أبياتك على روح عميقة، ومشاعر كثيرة[1]». كان يكذب. ثم اعتذر. فأمامه الطريق طويلة، وهناك من هم بانتظارهم. «دوتشة، سررت سرورا جمّا برؤيتك..».

(1) تطلعنا المرأة الشابة على وثيقة ثمينة بشأن علاقتها بموسوليني، في يوميّاتها، سبق ذكره.

استدارت لتنصرف، فعلق فستانها بغصن. ساعدها على التخلص منه. كان الجاذب فوريا. هي في سن العشرين، وهو في التسع والأربعين، لكنها بمجرّد نظرة أشعرته بالشباب. لم تكن تلك الفتاة عادية.

في المساء، حول مائدة أسرة بيتاتشي، لم تجد كلاريتا موضوعا آخر تتحدّث عنه: «يا له من رجل! يا لهما من عينين! قلّما يطرأ في الحياة حظ سعيد كهذا..». كانت تنام منذ عدّة سنوات وصورة بينيتو تحت وسادتها.

في اليوم التالي، فيما باشرت برسم لوحة بحرية تهديها للدوتشه، نال موظفو المحفوظات في قصر البندقية نصيبهم من العمل. فوجدوا ما يشبه الشعر في رزمة من الرسائل الطنّانة اللاهبة. كان قد صدف ان قرأ إحداها موسوليني وعلّق عليها: «لكن، من هي هذه المجنونة؟» إلا أن الجاذب في ذاك اليوم كان هو الأقوى: في تاريخ 26، بعد الظهر، اتصل بينيتو هاتفيا بمنزل بيتاتشي العائلي. سأل:

«هل الآنسة موجودة؟

أجابت مريم، في سن التاسعة: «أية آنسة؟»

الآنسة كلارا.

من يطلبها؟

قولي لها السيد الذي التقته بجوار أوستي».

عندما تناولت كلارا السماعة، اكتفى بالقول «الساعة السابعة مساء، في قصر البندقية». دعوة آمرة.

يوم ولدت كلارا بيتاتشي، في 28 شباط 1912، كان الإشتراكي الثوري بينيتو موسوليني، وهو في التاسعة والعشرين من العمر، محبوسا في سجن فورلي. ولدت في أسرة برجوازية محترمة تسكن حي لونغوتفيريه

(Longotevere)، فـي روما. كان أبوها طبيب البابا بيوس الحادي عشـر (Pie XI) الخـاص في الفاتيكان، فكانت لأسـرته مكانة مرموقة في بداية القرن العشـرين. كانت كلارا موسوسة تخشـى الأمراض والآلام الجسدية على غرار الدوتشـه. كانت تفرط من أكل الشوكولاتا، تكاد لا تأكل شيئا آخر، مسـببة لأمها اليأس. تلميذة لا تحب الدرس، ضعيفة الإرادة، كانت تفضل الموسيقى، على الكمان او البيانو، ما كان يزيد من طيشانها. كانت شغفة بليوباردي (Leopardi) وشوبان (Chopin)، وتزيّن في صغرها الكعك من صنع أمها بأن تكتب عليها كلمة «دوتشه» باللغة اللاتينية.

في 29 نيسان 1932، قاربت الساعة السابعة مساء. دنت كلارا من قصر البندقيـة وقلبها منقبض. كان بانتظارها في قاعة الخريطة الأرضية ويدور في فكره ألف سـؤال وسؤال عن شغفها بالرسـم والأدب والموسيقى. باح لها بوقـار عن حبه لبترارك (Pétrarque) وليوبـاردي. كانت أمها تنتظرها على أحرّ من الجمر في السـيارة خـارج المبنى، والقلق يسـاورها. كان اللقاء أفلاطونيا، وتكرّر مرات عديدة فيما بعد. خلال عدة أشـهر، أتاحت لهما هذه المقابلات الفرصة للمناجاة. شكا لها: «هل تشتمّين الربيع؟ أنا أعاني منه كثيرا في هذه المدينة حيث أعيش، بالرغم من كل شـيء، وحدي دون اي صديق». تحدّث اليها ايضا عن مُضيّ الأيام الذي لا مفرّ منه، وعن أبيه الراحل. كان يسـمّيها «بيكـولا» (*Piccola*)، أي «الصغيرة» او «البُنيّة»، ويعاملها بلطف واحترام، سلوك لم يسبق ان اعتاده هذا المفترس.

نشـأ بينهما نوع من الطقوس، في لعبة إغواء لا لُبس فيها: كانت ترسل له يوميا مكاتيب لاهبة.

22 شـباط 1933: «رأيتك في منامي، فسـرَت في أعضائي المتراخية

نفحـة حيـاة وجمـال. تكلمني فـي المنـام، ولصوتك عذوبـة النغم، ولابتسامتك دفء دغدغة الشـمس... لا تعتب علي، فأنا أفكّر فيك... أشتهيك».

وعدته بانتظار مكالمته اليومية في منزلها، بين الساعة الخامسة والسادسة من بعد الظهر. أخذ بقولها جدّياً:

«آه، أنت هنا؟ حسنا! أردت التأكّد من أنك حقا تنتظرين مكالمتي بين الساعة الخامسة والسادسة، كما قلت.

أنـا هنا، كما ترى، موجودة دائما بين الخامسـة والسادسـة. لماذا لم تصدّقني؟

علينا ألا نصدّق ابدا أحدا. من يدري؟

يا لم من خبيث!

آه... إذن، أعتقد انه يمكننا ان نلتقي هذا الأسبوع».

فـي اليوم التالي، راحت تزوره في قصر البندقية. بعد التحية والسـلام، سألها:

«كيف حال خطيبك؟

هذه الأمور تتوقّف على سعادتك.

عليّ؟ لا! تعلمين ان هذا مستحيل».

اسـتمر بينيتو يخابرها على الهاتف كل يوم في منزل أسرة بيتاتشي. بيد انه كان ينكر تضمّن علاقته بالمرأة الشابة أي صفة عاطفية.

«لماذا أتيتِ؟ هذا محال. تثيرين السخرية.

ولكن... واعدتني لهذا الأسـبوع. ثم، لا شيء. لماذا؟ إنه في الحقيقة تعذيب.

ماذا تريدين؟ أنا مسنّ وأنت ما زلت فتيّة.

وإذا كنت متزوجة؟

في تلك الحال تختلف الأمور.

إذن، زوّجني!»

قالت ذلم، اعتقادا منها أنه سيعارض. غير أنه قبل.

«هـــا أنت تبكيـــن الآن! لماذا تبكيـــن؟ يا لك من فتـــاة غريبة! لماذا تبكيـــن؟ ما خطبك، هـــل تحبينني أم مـــاذا؟ ما الـــذي يعجبك عندي؟ قولـــي لي، ما الذي يعجبك عندي؟ أنا لا أعـــرف. أنت مجنونة، أو انك غبيّـــة. [...] لو كنت شـــابا، لو كنت أعـــزب. [...] على عكس ذلك، أنا عبد».

اقترنت إذن كلارا بخطيبها، ريكاركو فدريتشـــي، في 27 حزيران 1934، في كنيسة سان ماركو (San Marco)، مقابل قصر البندقية تماما. لم يحضر موســـوليني الحفل، لكنه اســـتحوذ على أفكار العروس. هو ايضا لم ينسَ فتاة شـــاطيء البحر. كان حفل الزفاف باذخا، لكن شهر العسل مريرا، إذ لم تتفاهم كلارا مع ريكاردو. انفصلا بعد أقل من ســـنتين، فاستدعى بينيتو والـــدة كلارا إلى القصر في تشـــرين الأول 1936. اســـتقبلها بلباس عرّيف الميليشيا العسكري، وتقدّم إليها بطلب صريح: «سيدتي، هل تسمحين لي أن أحبّ ابنتك؟» منذ طلبه الأول لأمّ راشـــاله، كان قد عرف كيف يطوّع الحموات.

إلا انه اســـتغنى حينذاك عن موافقة الوالـــدة لإقامة علاقات حميمة مع ابنتها. قبل عدة أشـــهر، في 6 أيار 1936، لم يكتف بينيتو بغزو أثيوبيا، بل جعل ايضا من كلارا عشيقة له.

الحب الجارف

كانت كلارا الموسوسة تبدأ نهارها كما يلي: «ماما! ماذا أرتدي[1]؟ ثم تتباطأ كعادتها في النهوض من السـرير، وتتناول الفطور، وتتبرّج بعناية في حمّامها الفخم، لا توفّر لا البودرة ولا الكحل، وتطلي أظافرها بتأنٍّ وتنفش شعرها بمهارة. فتصبح أخيرا مستعدّة لتلقي أولى مكالمات الدوتشه الإثنتي عشـرة اليومية، فتشعل أول سيجارة وتستلقي على أريكتها، وتنتظر. وركّبت قربها هاتفا صغيرا ورديّ اللون شـريطه طويل، كرّسـته للمخابرات «معه». قالت أمها: «تحوّلت حياتها إلى انتظار مديد». نشأت بينهما إلفة نفسية وجسدية عميقة. وضع موسـوليني تحت تصرّفها داخل قصر البندقية شقة سـيبو (Cybo)، التي احتوت على غرفة دائرة البروج (Zodiaque) التي كان سـقفها المقوّس مدهونا بلون السماء، مزينا برموز ذهبية للكواكب الإثنتي عشرة.

كانت تنتظره فيها كلارا، كل يوم، في الساعة الثالثة من بعد الظهر تماما، فيصل على متن عربـة جانبية (side-car) حمراء لقّبهـا الحراس «بدرّاجة الحب النارية». نقلت كلارا إلى تلك الشقة رسومها، وأسطواناتها ومراياتها. نقلت دنياها الصغيرة الضيقة إلى مِخدع بينيتو. فيصل أخيرا، حوالي الساعة السـابعة او الثامنة، او التاسـعة أحيانا. كان توّاقا إليها، فيمارسان الجنس أيضا فأيضا حتى حلول الليل. «كانت مؤاساتي أن أمحو غضون القلق عن

---

(1) ماركو إنوسانتي (Marco Innocenti)، ، مورسيا (Mursia)، 2003. ماركو إنوسانتي هو من أهم الإختصاصيين بتاريخ كلارا بيتاتشي وكذلك بشخصيتها. أنظر أيضا في هذا الموضوع *Telefoni bianchi, amori neri*، 1999.

جبينه». إلا ان متعتهـــا كانت وجيزة الأمد. كان الوقت يدرك بينيتو، فعليه العودة إلى دارة تورلونيا، حيث كانت راشاله تنتظره بقدم ثابتة.

في الســـاعة العاشرة مســـاء،كانت تعود هي إلى منزلها، تتناول العشاء على عجلة، تدوّن ما جدّ في يومياتها، ثم تنتظر مكالمته الأخيرة.

فـــي أوائل 1937، كانت مفكّرة الدوتشـــه العاطفيـــة، التي تولّت كلارا أمرها، مشـــحونة جدا. بالنســـبة لكانون الثاني، كان وقته محدودا. «20: أتيت الساعة الثالثة، وأردتني معك... بقينا سوية حتى السادسة. 21: بقينا ســـوية قبل الظهر وبعده. 22: فقط قبل الظهر. في الســـاعة الثانية من بعد الظهر، رحلت إلى روما. 23، مساءً: شاهدتك في مسرح الأوبرا (opéra). كنت بديعا، يا حبيبي. 24: أتيت إلى منزلك، ومارسنا الجنس.[...] 27: لأول مرة، مارســـنا الجنس في بيتي أنا. لن أنسى أبدا كم تأثرت. قلت لي انك انفعلت كالشاب».

بيد ان كلارا شعرت، منذ بداية علاقتهما، انها ليست الشريكة الوحيدة وانها ستواجه كثيرا من المتاعب مع عشيقات الدوتشه الأخريات.

فقد تبعته زوجته إلى روما، لتضع حدا لحياة العزوبة التي كان يعيشـــها. كانت علاقاتهما، التي تدهورت أواخر سنوات 1920، قد أصبحت جليدية. يبدو ان راشـــاله خانته. هذا ما قاله بينيتو لكلارا: «طبعا، نفت كل شيء. ســـامحتها، من أجل الأولاد، ولتفادي الفضيحة. أردت ان أصدّقها. لكني كرهتهـــا منذ ذاك الوقت، كما أكرهها الآن. لا يمكن ان تفكّر زوجتي في الســـنوات ما بين 23 و 27 دون ان تخجل وتشـــمئز من نفسها. يكفي ان أتذكر ذلك لكي تعاودني القرحة». غريب ان يجاهر بهذا الأمر لعشـــيقته. «لم تعتبر زوجتي يوما أني رجل مهمّ، لم تشـــاركني حياتي يوما من الأيام.

لـم تبـالِ بي أبدا في اي ظرف من الظروف. نعـم، لقد خانتني، لن ينفع نفيها. كان الجميع على علم بذلك. لا تستضيف امرأة رجلا في منزلها ليلا دون سببٍ ما».

أمـا الرجل الذي تكلم عنه، كـورادو فالوري (Corrado Valori)، فكان يهتمّ حينذاك بإدارة شـؤون الأولاد ومسـاعدهم. اعتقد موسوليني ان لديه دليل علـى الإثم: «دعيني أروي لك إحدى الوقائع. ليلة عيد الميلاد، كنا جالسـين حول المائدة. كل العائلة، وكانـت أختي أدفيج (Edwige) معنا أيضا. لا أدري كيف، في لحظة من اللحظات، لفظ احد الأولاد اسم ذاك الرجل، كورادو فالـوري. [...] فاحمرّت وجنتا زوجتي إلى درجة حرج لها الجميع».

يؤكّد لنا سائق موسوليني، أركوله بوراتو (Ercole Borrato)، على شكوك هذا الزوج المجروح في شرفه. فقد لاحظ بسرعة انه، في ذلك المنزل، حتى شـريكة موسوليني الشـرعية لم تكن تخلص للعلاقة الزوجية، فتعامل طبعا زوجها بالمثل: «الدليل على ذلك أنه، في أحد الأيام، إذ غادرنا روما على متن السيارة دون سـابق إنذار، وصلنا إلى دارة كاربينا (Carpena) – منزل موسـوليني بالقـرب من ميلانو – في منتصف الليل. لم أفهم سـبب هذا الرحيـل المفاجىء، ولكن أتاني الجواب فـي اليوم التالي، من قبل إحدى الخادمات المطلعات. أسـرّت لي انه، قبـل دقائق قليلة من وصولنا، أنذر أحدهم عبر الهاتف السـيدة راشـاله بأن زوجها يتجه إلى الدارة، ما أتاح للمدعوّ ف. (V) الهرب متجنبا لقاء مزعجا». لم يحسّـن العشيق وضعه، إذ تبيّن أنه اختفى هو وبندقية صيد الدوتشـه في الوقت نفسه. بحث عنها هـذا الأخير في كل مكان دون جدوى، وكان يجهل ان السـيدة راشـاله

أعطتها عمدا لصديقها العزيز.

لم يبق من هذا الشغف الجنسي، الذي جمع على الأقل بينه وبين راشاله، إلا النفور، والإشمئزاز الجسدي. انحرف الدوتشه في البوح، فروى لكلارا كل التفاصيل: «بقيت مع زوجتي حتى الساعة التاسعة إلا ربع. وأعترف اني اشتهيتها بعض الشيء. لكن، عندما ذهبت إليها، وجدتها... ألا تحزرين؟... في المغطس تستحمّ، وعند ذلك، همد كل شيء. انتهى! امّحت عندي كل رغبة».

مع ذلك، بدا موسوليني يتألّم من تفكك الروابط بينه وبين راشاله ومن لا مبالاتها. كان يريد أن يكون وحده ينفر منها، وراح يشكو أمره إلى كلارا الحليمة: «لا تكترث لي حتى عندما أنكحها، سبع او ثماني مرات في السنة. أعتقد أنها لم تعد تشعر بشيء معي، او تكاد. خمدت لديها كل رغبة جنسية، على الأقل معي أنا. ما يذكّرني بذينك الزوجين اللذين، كانت هي تقرأ مجلة فوغ (*Vogue*) فيما كان هو ينكحها. كانت تجلس في متكأ، فيركع أمامها، الخ، وهي تواصل قراءة المجلة. أمر تشمئز منه النفس. إلا ان زوجتي، هي، لا تجيد القراءة».

فتنتابه ومضة وعي، سرعان ما كان يكبتها: «صحيح اني أسأت معاملتها. أنجبتُ أولادا خارج نطاق الزواج، واتخذت العشيقات. لكن لي ظروف مخفّفة. في الحقيقة، رجل مثلي، تتاح له فرص كثيرة... كيف لي اتباع سلوك قويم؟ كل الرجال يخانون زوجاتهم، حتى أبناء الحلاقين. كلهم، وبدون مبرّر. أما أنا، فعندي على الأقل مبرر».

بيد ان سنة 1937 كانت بالنسبة لكلارا وبينيتو موسم حب دام حتى شهر آب. كانت تدوّن كلارا بعناية فائقة في يومياتها كل أفعالهما وتحركاتهما:

«كنا نتهيأ لتناول الطعام. راح يداعبني ويقبلني من وقت إلى آخر، ثم وقف وصرخ: «أحب كلارا». وردّد بصوت أعلى: «أنا أحب كلارا. أتسمعينني يا حبي؟ أحبك. [...] لا تقولي إنك تريدين ممارسة الحب مرة في الأسبوع، كأولئك البرجوازيين، فيما عوّدتك وتعوّدتُ على علاقات أكثر تواترا. أتمنى ألا ترغبين بتغيير مجرى الأمور». ثم تحدّثنا قليلا، ومارسنا الحب بهَوَج. قمنا بنزهة قصيرة قبل ان يغادر، وذهب في الساعة الرابعة والثلث بعد ان ساعدته، كالعادة، على ارتداء ملابسه». كان موسوليني يكالمها هاتفيا كل ساعتين مرة، إلى ان ينام.

باح إليها: «أنت آخر صفحة من قلبي. تختتمين حياتي الغرامية ببراعة فائقة». كانت تنجح في حمله على بعض التنازلات، كأن يشرب الشاي وكان يكرهه، او يضع زهورا على الطاولة، وكان يكره ذلك اكثر. تغييرات في محيطه بسيطة بالنسبة له، ولكن علامة ملموسة على التقدّم التي كانت تحرزه تلك التي كان يدعوها «ربيعي الجميل».

كان الحوار بين العاشقين أحيانا جديرا بأفلام روجيه فاديم (Roger Vadim). يسألها: «أتحبين جسدي؟ قيل لي انه من أجمل الأجساد في إيطاليا». تسأل: «من قال ذلك؟» فيجيب: «قال لي رجل على شاطىء البحر: «موسوليني، صدرك أكمل صدر على هذا الشط»، فأجبته أنا «لا، في إيطاليا كلها». لكن ساقيّ المعوجّتين تفسدان المجموع. كانت تقول مرغريتا الغبية إنهما قبيحتان».

من بين كل أولئك النساء العابرات، وجد امرأة متميّزة، تؤاسيه ويناجيها. كلارا هي الوحيدة التي نقلت إلينا شواهد عن حنان موسوليني: «ينظر إلي، يطبع قبلة على عنقي، ويحطّ رأسه على كتفي، ثم يغمض عينيه».

الحنان، نعم. أما الوفاء، فلا! كان يقول لها:

«سيأتي يوم تحبينني فيه اكثر، ستتيّمين بي، ويوم نعيش سوية، سأكون واثقا منك ومن حبك إلى درجة أني سأخونك.

لا، لن تخونني، قل لي انك لن تفعل ذلك؟

صحيـــح، لا حاجة لذلك. وأنت، لـــن تخونيني أبدا، أليس كذلك؟ لا أدري كـــم امرأة أحبّتني حقا. أدرك اليـــوم، عندما أنظرإلى الماضي، أنه لم تهبني إحداهنّ حبّا».

كانت كلارا امرأة تعرف أن تحجم أنانيتها لتحسّ بحاجته إلى الحنان. أدركـــت أكثير مـــا كان يخفيه بينيتو عن العالـــم، اي وحدته. «كان رجلا يعيش في عزلة تامة، دون أصدقاء، يسأم المتملّقين له. حاولت ان انظر في أعماقه، بحثا عمّا حرمته منه الحياة دوما... رأيت فيه وحدة يائسة، ومرارة فظيعة لأنه يعيش بين جدران كثيفة[1]».

فيما بلغت شعبية ونفوذ موسوليني في ذروتهما، كانت كلارا تشعر أنها تؤالف عملاقا. تشـــرين الأول 1937، عيد ذكرى المســـيرة على روما. رأت كلارا بينيتو وقد ألهبه حماساً وجود العوامّ امام القصر، وهو واثق من نفسه اكثر من اي وقت مضى. أراها صورة شمسية أخذها أمريكي: «أنظري. يا له من فكّ قوي كله عزيمة! أفهم ان تقع امرأة في حب رجل كهذا، ان تنام وتحت وســـادتها صورة لي، كما تفعلين انت. ليس من الغرور ان أقول اني جميـــل. أنظري إلى هذا الأنف، وهذا الفم. قولي لي، أيمكن ان تقع امرأة

---

(1) عشية وفاتها، في دونغو (Dongo)، فتحت كلارا قلبها لبيار لويدجي داله ستاله (Pier-Luigi Delle Stelle)، *Claretta. La donna che morì per Mussolini*، ريزولي، 1982.

في حب رجل كهذا؟»

انصاعت كلارا: «أنا أحبك».

لا، ليس أنت، إمرأة.

أنا أحبك، وأعتقد أنه يمكنهنّ ان يحببنك.

اختبئي في الزاوية، سأطلّ من النافذة».

نادى كينتو نافارا (Quinto Navarra)، كبير خدمه، كي يفتح النافذة. تعالت الصيحات حماسيّة إلى درجة النشوة. وتطايرت القبعات والمناديل، وتنوّرت الأوجه. عندما عاد إلى الداخل، كان قد هدأ. اما كلارا فكانت ترتجف. إذ ان حماس الجمهور هزّها في الأعماق، فأصيبت بدوار. لم تعِ يوما انها شريكة رجل صاحب أعظم سلطة في إيطاليا، ولربما في العالم: «تعالي على صدري القوي، وضمّي إليك ماردك، يا حبي الصغير الكبير. [...] أنا نسرك، الذي يبسط فوقك جناحيه ويحميك».

لكنه لم يكتفِ بالتصريح والقول للبرهنة عن حبه. بالنسبة لبينيتو، كانت تكمن دلالة الحب في مكان آخر: «هل تفكرين فيّ كل الوقت؟ في كل ساعة، في كل لحظة؟ وأيضا عندما تبوّلين؟» يبدو ان موسوليني كان يرى علاقة جدليّة بين الحب والبول: «باستثناء السياسة، أحتاج إلى من يرشدني في كل الأمور. أحتاج لامرأة تقول لي «كُلْ الآن، تغطّ، إشرب هذا، إذهب وبوّل». وإلا حبست بولي ساعتين او ثلاثة، ثم أنسى أن أبوّل». بالنسبة لمرشد الفاشية، يجب مرافقته حيث لا يمكن الحلّ محلّه: «إني أفكر فيك باستمرار. مثلا، إذا استيقظت ليلا ونزلت لأبوّل، وإذا حصل ان بوّلت على الأرض أحيانا من شدة الإرهاق، أقول لنفسي: «لو كانت هنا لتبوّل معي، أما كان ذلك ظريفا؟»

بالنسبة لكلارا، كان الدليل الحقيقي عن الحب هو الوفاء، وكان موسوليني قد أطلعها منذ البداية على فرفرته: «كم تحمّلت؟ في بداية إقامتي في روما، كانت تتتإلى النساء في الفندق باستمرار. أربع كل يوم». في 12 أيار 1938، وصلت كلارا إلى القصر فوجدت زنّارا نسائيا بنّي اللون. لم تعلّق على الأمر، لم تصرخ، لم تطرح أسئلة، بل اكتفت بأن حدّقت في عينيه. حاول بينيتو تبرير نفسه يكذب برعونة: «لا أدري أبدا ما قد يكون هذا. لا بد ان أحدا وضعه هنا عمدا». أمام هذا النظر الملحّ الذي لم يضطرب، استدرك. «لو لم تعاني بسببي كثيرا، لما تمكنت ان أكون لك فقط. لم أتصوّر يوما نفسي رجل امرأة واحدة. حتى انه كان لي في فترة ماضية 14 عشيقة، كنت أنكحهنّ الواحدة تلو الأخرى. [...] هذا يعطيك فكرة عن طاقتي الجنسية. لم أكن أحبّ إحداهنّ، كنت أنكحهنّ من أجل اللذة. لو لم تكوني بهذا الجلد، لو لم تتحمّلي كثيرا، لربما كنتِ حتى الآن تنتظرين دورك كما من قبل، حتى لو كنت أحبك».

غيّر حب كلارا غير المشروط له من سلوك الأسد الكهل. كان يلبّي كل رغباتها. بدا ان السعادة وحب الدوتشه الحصريّ في متناول يدها. لكنها لم تنجُ من أشباح بينيتو. قال لها في أحد الأيام: «أنا مزدوج، والرقم الثاني شرير». كان غيورا أنانيا، يُخضعها لاستجوابات، دون ان ينال منها إلا الدموع. كان حبه قبل كل شيء عنفا، كان عليها ان تتعايش معه وتخضع له. «أحبك لدرجة الجنون... أودّ أن أدمّرك، أن أولمك، ان أكون شرسا معك. لماذا يتخذ حبي مظهر العنف هذا؟ أشعر بحاجة لسحقك، لتفتيتك، بدافع عنيف. إني حيوان مفترس».

كانت تطمئنه: «لك كفّا أسد صغيران». فيُزايد: «فكّري فيّ، في ليثك،

في ذئبك»، مزهوّا بكونه ملك الغاب، إضافة إلى ملك القوم. في بعد ظهر احـد الأيام، بعد ان مارس معها الحب، راح يتباهى بالقوة التي أكرمها بها لتوّه: «الثور حيوان مخيف. يجدر مشـاهدة سفاده فهو يعطي المرء فكرة عـن الطبيعة... يقترب من البقرة، يقفز فوقها بقائمتيه الأماميتين ويزرع فيها قضيبا يكاد يكون بطول الذراع. تتمّ العملية خلال عدة ثوان. [...] ثم ينزل في الحال، خجولا كما لو ضُرب».

غيورا ومدمّرا، كان موسوليني أولا يمتهن الكذب. كان بحاجة إلى كبير المهـارة ليوفّق، في حياته الخاصة المتعددة، بين زوجته، راشـاله، وخليلته المفضلة، كلارا، وبعض العشـيقات اللاتي كان يلقاهنّ من وقت إلى آخر. يلعب بالغميضة في شوارع روما ليتجنب ان تتلاقى نساؤه وان يتشاجرن.

كانت راشـاله، منذ بعـض الوقت، تقـوم بحملة انتقاميـة في منزل موسـوليني. «قبل خمس سـنوات، كان لي هاتف خاص بي. في مرة من المرات، كنت أخابر فيه بهدوء، فشـعرت بيد تحطّ على كتفي، وقالت لي زوجتي: «توقف عن مخابرة هذه القـ... (الصَحباء) سارفاتي. إنها تريد النوم في مثل هذه الساعة». [...] ثم نزعت مني هاتفي الخاص».

بعد التخلّص من المرأة سـارفاتي، راحت راشاله تراقب مخابراته الليلية مع المرأة بيتاتشـي. «مساء أمس، اعتقدت انها ذهبت إلى الفراش، وكنت علـى وشـك ان أكالمك، عندما دخلت فجأة إلـى الغرفة. كانت ترتدي لباس حمّام وردي اللون، وأنا، لحسن الحظ، لم يبدُ عليّ شيء، كنت أقرأ الصحف. [...] فوقفت ولبست بذلة، وعليه غادرت. سمعت صوت مياه جارية قوية في الحمام. سـألتها: ماذا تفعلين؟ هل تسـتحمّين؟» أجابت: «لا، لا أستطيع، أنا حـ... (حائض)». قلت: «آه، حسنا. مع السلامة».

انتظرت حتى ذهبت إلى الفـــراش ثم كالمتك. انتابني الرعب. فلو انتبهت لنزعت مني الهاتف».

كانـــت تتجاوز المشـــاجرات احيانا الحدود فتتحوّل إلـــى مهزلة. مرة أخرى، كان سائقه الشاهد المحظوظ: «في أحد الأيام، كان الدوتشه برفقة كلاريتا الشهيرة، فإذا بسائق شـــخصية مرموقة، الأميرة س. (S.)، يحضر، وكانـــت تريد مقابلة موســـوليني فطلبت مني ان أبلغه بوصولها. اســـتقبلها موسوليني على الفور وطلب من كلارا ان تجمع حوائجها الخاصة وتختبىء في دورة المياه. دامت المقابلة حوالي ساعتين، فتصوّروا بأي حال خرجت كلاريتا من مخبئها حيث تعرضت كل الوقت لحرارة الشـــمس في أوجها. كانت مبللة بالعرق. [...] عادت الأميرة تزور الدوتشـــه مرارا، فأدركتُ انه كان لتلـــك الزيارات طابع حميم. كانت تصل مرتدية معطفا، فتخلعه على الفور وتبقى بلباس البحر».

لكن العدوّة الحميمة الحقيقية لكلارا كانت تلك التي لم تحترس منها، أختها بالذات، وكانت لا تزال قاصرة. عبّرت عن شكوكها في دفتر يومياتها: «كانـــت ميمي (Mimi) موجـــودة، توقف عن الكلام وألقـــى عليها نظرة مختلفة، نظرة الذكر، كما لم يســـبق ان فعل أبدا من قبل. أنا محتارة بعض الشـــيء. عاد يتنزه، ويتصرف بطريقة غريبة، كالرجل الذي يعتقد انه جذاب ويمكنه الحصول على من يريد. ارتســـمت على وجهه ابتسامة ماكرة. وإذ أدرك أني فهمت، راح يركض، ويقفز فوق حفر صغيرة».

كان قلق كلارا مبررا. فقد لاحظ الســـائق المناورة: «عندما كانت كلارا متوعّكة في المســـاء، كانت مريم هي التي تبهج ساعات موسوليني الليلية. وكمـــا أخبرتني صاحبة الفندق، كانت تخرج في الصباح قبل الفجر، فتنوب

هكذا عن أختها».

أفول علاقة عاطفية

في أيلول 1938، بدأ خريف سنتين من الهيام المتواصل. قبل ذلك، كانت كلارا لا تكترث للإعتبارات السياسية. وها هي تواجه تحوّلا عميقا لدى عشيقها: إنقلاب فجائي بشأن موقفه من اليهود. تأثر موسوليني كثيرا بهتلر، فسنّ القوانين ضدهم.

«مع المرأة سارفاتي [...] عجزت للمرة الثانية. لم أتوصّل إلى شيء بسبب الرائحة، الرائحة المقرفة التي تنبعث منهم. [...] إنهم يستغلوننا، ويكرهوننا، وليس لهم لا وطن ولا ربّ. فهم اليوم بولنديون، وغدا أتراك، او فرنسيون. يوجدون حيث يحلو لهم، ويضغطون عليك. إنه عرق ملعون. [...] لن أسيء إليهم، لكن عليهم العيش منفصلين عنها، كالغرباء».

ما ان مرّ أقل من شهر على ذلك حتى تغيرت لهجه. أسرّ إلى كلارا: «آه! هؤلاء اليهود! سأدمّرهم جميعا. [...] إنهم خنازير بالفعل... سأبيدهم كلهم، كلهم». لكنها عارضت الدوتشه للمرة الأولى والأخيرة من عمرها: «سترتكب بذلك خطأ كبيرا، يصمك بوصمة العار». لم يكن هذا الحقد المفرط تجاه اليهود أمرا منفردا. فقد أظلمت شخصية موسوليني بالكامل خلال شهر واحد.

لم يعد الليث المسنّ في عنفوان الشباب. كان يحاول تعزيم مرّ الزمن، دون جدوى: «أنت شابة، وستهجرينني [...]. أنا متقدّم في السنّ، وانت لا تزالين في عزّ الصبا، وستقولين في قرارة نفسك «لقد وهبته شبابي في الحقيقة». ستصبحين خليلة رجل شاب، كثيف الشعر، قوي البنية.

وستقولين له: «آسفة يا حبيبي، علي، كما تعلم، ان أزور ذاك الشيخ. بات يكتفي بذلك، لم يبق له إلا النزوات. إنه مملّ، أعرف، أنت اليوم من أحب». ثم تأتين لزيارتي، ولكن باشمئزاز».

ليلا، كان ضمير بينيتو يهتزّ. يرى في منامه كوابيس أنه يُقتل. «أطلق أحدهم علي النار. مرتين، بوم، بوم. مرة في رأسي ومرة في ظهري. ارتميت على السيارة. أحسست حقا بالطلقات. ما معنى ذلك في رأيك؟»

بدأ النقص في النوم عند هذا الرجل المحبّ للحياة والمنكبّ على ملذاتها يؤثر جدّيا على أعصابه. باتت الشجارات فظيعة، شبه يومية: «لماذا تمطين بشفتيك، هيه؟ أنا لا أضاجع غيرك. صحيح، لو أردت، لفعلت، لكني لا أريد». كان يهيج، فيضرب الكرسي، ويرفس الصحف. كانت كلارا تنظر خائبة إلى ذاك التمزّق الداخلي: «أحاول بلا جدوى ان أهدّىء من روعه، لكنه كالمسعور يستشيط غضبا وقد فقد السيطرة على نفسه. إنه يرعبني، وأنا أبكي». فتعود إلى منزلها. في الساعة التاسعة مساء، يكلمها بينيتو على الهاتف ليستأنف الشجار. «ماذا تريدين؟ لا يمكن ان تستمر الأمور على هذا النحو، ليس هذا حبا، إنه سمّ. أنا منهك. أنذرك، في المرة الثانية التي أنفجر فيها هكذا، لن تدخلي بعدها القصر. نعم، أعترف انك لم توجهي لي كلاما سيئا. لكن، بعد الساعة الثامنة مساء، تتلف أعصابي، تنهار، ولا عليك حينذاك إلا ان تبتسمي. [...] عليك ان تكوني أكثر وداعة، اكثر حنانا، أكثر ترحيبا. لم أعد أقوى على العيش بهذه الطريقة».

أشرفت سنة 1938 على نهايتها، فأصيب «بان» (**«Ben»**) بانهيار عصبي سحيق. قال لها: «أشعر بحزن عميق يرهقني. أحس كأني قد

متّ». لم يعد يتقبّل اي شـــيء. وهو في هذه الهوّة، كانت كلارا الوحيدة القادرة على تحريك مشـــاعره. وحدها كانت تدرك هذه الإنفعاليّة الخفية. كانت هي ايضا تكبر في الســـنّ، ولربما قبل الأوان. قال لها: «يسرّني ان يشيب شعرك ايضا، ما يحثني على حبّك اكثر».

فيما كانـــا معا، بعد ظهر احد الأيام، بثت الإذاعة موســـيقى لا بوهام (*La Bohème*). دمعـــت عيناه وابتعد قليلا. لحقت به كلارا فتظاهر بقراءة الصحف. ازداد انفعاله فرفع نظره ورأت الدموع تسيل على وجنتيه. «ضمّيته إلى صدري وبكينا معا».

من موسيقى الزفاف إلى اللحن الجنائزي

غرفـــة البروج، قصر البندقية، في أواخر ربيـــع 1939. قبل أيام قليلة من اندلاع الحرب في أوروبا. أحســـت كلارا بحاجـــة إلى التكلم إليه، حاجة إلى الإطمئنان. قاطعها بينتو، بلهجة حاسمة: «حماقات نساء». صمتت، مذلولة، فكتبت له. «تتحكم الغريزة في حياتك الشـــخصية. شـــأنك شأن السنّوري الذي يسدّد الضربة، فتجرح وتترك طريدتك تحتضر دون الإكتراث بالألم الذي تلحقها به. لم يهمّها ان يحضّرعشيقها بحثاث قدوم الإمبراطورية الرومانية الجديدة، فلم تقبل منه التملّص من مطالبها الرومنطقية. بدأ يتفتت الحب الأشـــد ســـرّية في إيطاليا، بعد مرور ثلاثة أعوام عليـــه. كان بينيتو منهمكا بالوضع الدولي. وكان صامتا متهيجا عنيفا انفعاليا.

في 10 حزيران 1940، زاد توتر موســـوليني اكثر. عاش ليلة عصيبة: ليس شـــن حرب أمر إعتيادي. كلم كلارا على الهاتف مرتين قبل الظهر، الأولى ليشـــاجرها والثانية للتصالح معها. كان يشعر بحالة نشوة مرضيّة، وبحاجة

ماســة إلى التواصل، لبّاهما بالتوجه إلى مئات الآلاف من الإيطاليين الذي كانوا يستمعون إلى خطاباته. سألته كلارا غافلة: «ما بك؟ ألم تعد تحبني؟ ألم تعد لي؟» فصبّ عليها توتره أمام نهار كان ســيكون معقدا، ولم يكن فــي تلك المرة على خطــأ: «أيعقل التكلم في مثل هــذه الترّهات عندما سيكون مصير ايطاليا على المحك بعد بضع ساعات!»

ثــم قطع الإتصال فجأة. بكت كلارا. ندم على كلامه، فعاد ليتصل بها ملاطفــا. وعــاد فاتصل بها مجددا في بعد الظهر، قبل نصف ســاعة من إعلان الحرب رسميا. تلقّت مريم المكالمة، فقال لها بشكل غير مؤات:» ســأعلن الحرب بعد نصف ســاعة». صُدمت الصبية، فسألته: «ولكنها ستكون قصيرة؟» أجاب: «لا، بل ستطول».

شنت الجيوش الإيطالية الهجوم على فرنسا ويوغوسلافيا، وكذلك على مصــر الإنكليزية انطلاقا من ليبيا. وفي اليوم ذاته، كان لدى كلارا أيضا نبأ كبير لتعلن عنه. كانت حاملا. هزمت جيوش الدوتشه على كل الجبهات. كانت بداية حرب يرثى لها بالنســبة لموســوليني. أما صيف كلاريتا فكان أكثر إشــراقا. أمضته مع أســرتها فــي الفندق الكبير الفخــم في ريميمي (Rimimi)، أخيرا ســعيدة. كان موســوليني يتصل بها يوميا، ملحاحا كما في بداية حبهما. لكنها عانت، مع الأســف، في 19 آب، من آلام حادّة، جعلتها تتلوّى في فراشها. جاء التشخيص كضربة خنجر: كان الجنين ينمو خارج الرحــم. خضعت حالا لعملية جراحية فــي روما، في 27 آب. قال لها موسوليني ببساطة: «صلّيت من أجلك». كانت علاقتهما العاطفية قد شحبت على مرّ الزمن.

لم يعد الجمهور يجهل وجودها، لكنها كانت لم تزل مضطرة للإختباء.

إنها القرينة الأخرى للدوتشه، المرأة التي يكرهها الجميع. ألقي عليها لقب «المَعولة»، «الجشعة» او «البومبادور (Pompadour) الصغيرة». لم تكن تغفل ما سيكون مصيرها: «سأموت من الحب. أنتحر او أُقتَل. الكل ينظر الي أو يتخيلني على طريقته. كأني أرى صورتي في احدى المرايا المشـــوهة التي توجد في الأعياد الســـوقيّة، والتي يظهر فيها المرء نحيلا او قصيرا او معوجّا مشوّها. أنا البومبادور؟ ولم لا كيلوبطرا؟ ماذا يعرفون عني؟»

لم تعد كلارا تعتمد إلا على رجل واحد، بينيتو، الذي تحوّل إلى طيف، يعبر من وقت إلى آخر بخطى سريعة غرفة البروج. أصبح موسوليني صموتا، لا يجيـــب بأكثر من كلمة. أخيرا، أتت الضربـــة القاضية. مات ابنه برونو (Bruno)، في الثالثة والعشـــرين من العمر، وهو يحلّق فوق بيز (Pise)، في آب 1941. تأثرت معنويات موســـوليني بشـــدة من هذه المأساة، فلم يعد قادرا على التفاعل مع القدر.

بعد الهزمات على الجبهة الروسية خلال سنة 1942، شعر بنفسه مذلولا، وفقد من ثقته بنفســـه. أصبح حب كلارا له خانقا. لم يعد يتحمل تفانيها، ولا دموعها، ولا ذراعيها وهي تعانقه دائما. كان الحلم، بالنسبة له، قد تبدّد ولم يعـــد بمقدورها ان تطمئنه. أراد ان يهجرهـــا، وطردها من القصر عدة مرات، لكن كلاريتا بقيت متمسّكة بقفصها الصغير الأزرق الذهبي.

فـــي أول نيســـان 1943، بعد مكالمـــة هاتفية وجه فيهـــا إليها لطمة: «أحتاج للبقاء وحدي» كتبت له بمرارة: «ضحيت من أجلك باثنتي عشرة ســـنة من حياتي». فهمت كلارا ان ربيعها شـــبيه بربيع النظام، نذير شـــؤم وظلام. كتبت: «لم تكفّ عن خداعي. تحوّل حبي إلى رصاص وانطفأت حياتي... اتساءل ما الذي يســـتأهل العيش، ما الذي يستأهل الحياة، ما

الذي يستأهل الحب». في أول أيار، فيما خسرت إيطاليا آخر ممتلكاتها الإفريقية، أعطى بينيتو لكينتو نافارا (Quinto Navarra) أمرا قطعيّا: «لا أريد أن تدخل هذه المرأة قصر البندقية بعد اليوم». ثم مزّق كل صورها.

صرّحت لأحد أصدقائها: «لقد دمّر صحتي بشراسـته». في 20 تموز، نجحت كلارا في الدخول إلى القصر وسلّمت رسالة هدّدته فيها بالإنتحار: «أنـذرك، يا بان، لا تذلنـي، وإلا تعرّضت لمآسٍ تعقّـد لك حياتك. إذا أهنتني من جديد، لن أخرج مرّة أخرى من هنا وأنا حيّة. سـأبقى هنا جثة هامدة إلى الأبد».

تردّد بان ثلاثة أيام، ثم استدعاها. كانت المقابلة قصيرة بقدر ما كانت مؤثرة. كان أعيان الحزب الوطني الفاشـي يتآمرون عليه وسيعون لإسقاطه في الغـد. كان يحتاج إليها. في 24 تموز 1943، أقاله المجلس الفاشـي الأعلى من منصبه. عاد إلى مكتبه واتصل بكلارا. كانت الساعة الرابعة إلا ربع صباحا.

«كيف جرت الأمور؟

كيف تعتقدين انها جرت؟

إنك تخيفني.

لا داعي للخوف بعد الآن. لقد وصلنا إلى الخاتمة، إلى أكبر منعطف للتاريخ، لقد أفل النجم. [...] عليك ان تجدي لك ملاذا».

فـي 25 تموز، عند الظهر، عاد فاتصل بكلارا، منذ قصر البندقية للمرة الأخيـرة. قـال لها ان الملك لا بد ان يقف إلـى جانبه وإنه ذاهب للقائه بعد الظهر. أحسّـت كلارا داخليّا بالخطر: «لا تذهب. لو كنت مكانك، لما اطمأننت. ثم، خذ حذرك،[سـيضعونك] في قفص كالفأر. لا أريد ان

يلعبوا برأسك كالكرة». ضحك بينيتو. لكنه أخطأ. عندما وصل دارة سافوا (Savoie)، أمر الملك بالقبض عليه فورا.

في 12 آب، أوقفت ايضا أســرة بيتاتشــي (Petacci)، بأمر من النظام الجديــد. كل ما وســع كلارا الإحتفاظ به كان مِنجــدا حفرت عليه هذه الكلمات: «كلارا، أنا أنت، وأنت أنا. بان». أطلق سراحها في 17 أيلول، بعد فرار موســوليني عن طريق الجوّ. ولم يلتقيا إلا في 28 تشرين الأول في غاردون (Gardon)، قرب بحيرة غارد (Garde)،حيث كانا رهينين في أيدي الألمانيين. كانت نهاية نفق طويل. «إنه» عاد. كان موســوليني يعيش آخر فصول حياته، وكانت كلارا إلى جانبه. جعله ثباتها هذا يتعاطف معها. فيما تخلّى عنه العديد من الفاشيين، بقيت هذه المرأة البائسة تسانده بحضورها اكثر من أي كان. «إنها مخلوقة ضعيفة أخلصت لي... أنا مدين لها».

كانت كلارا هي أيضا أســيرة الألمانيين، الذين أمنوا لها دارة تبعد بضع كيلومتــرات فقط عــن دارة فينيتو. أبدت عماية أشــبه بالجنون، فأحييت شــعيرة غرفة البروج. كانت ترتدي منذ الصباح ألبسة أنيقة، وتتبرّج ثم تنتظر مجيء الذي بقي رجلها.

تنبــأ لها المنجــم مصطفى عمري، الــذي كان يرتــاد صالونات روما الفخمــة،: «عليك ان تحتمي من قدر مأســاوي، بــأن تكتفي بالملذات البرجوازية البسيطة. فمصيرك مرتبط نهائيا بمصير رجلك».

ولكن، أين كانت راشــاله من أمرها؟ كانــت تعلم ان امرأة غيرها، تلك البيتاتشــي اللعوب، تصحب زوجها في عزلته. في 18 تشرين الأول 1944، دخلت بيتها تشــتمها وتشــاجرت معها. بين الزعيق والشتائم والدموع، لم تعد الغيرة هي موضوع الخلاف. فقد أتت راشاله لتشارك منافستها اليأس.

بلغها أن بينيتو بين أيدي الألمانيين، وكانت تخشى ألا تتمكن من إنقاذه.

انهار الصنم الإله، لكن لم تتخلّ لا راشاله ولا كلاريتا عن الرجل الذي كانتا تتقاسمانه.

في 18 نيسـان 1945، غادر موسوليني سـجن غاردون المظلم الحزين إلى ميلانو، وتبعته كلارا.

قال لها: «إذهبي إلى اسبانيا».

لا، أنا باقية».

كان خيارهـا نهائيا. «كثيرون أداروا لـه ظهرهم فلا يجدر بي ان آذيه انا أيضا». برهنت عن تفانٍ مؤثر انتحاري. قالت في آخر رسـالة كتبتها له وسـلّمتها لمريم، طالبة منها ألا تفتحها إلا بعد أن وصولها اسـبانيا: «من يحـب يموت. أنا اتبع قـدري، وقدري هو». كانت تلـك وصيتها. «لن أتخلى عنه أبدا، مهما حصل. أدرك اني لن أسـتطيع مساعدته... أرجوكِ، مهما حدث، إسعي من أجل ان تقال أخيرا الحقيقة عني، وعنه، وعن حبنا الرائع، الجميل، الذي يتعدّى الزمن، ويتعدّى الحياة. «

مساء 25 من الشهر، لحقت كلارا بموكب الدوتشه الذي غادر ميلانو. كانـت ترتدي فروة ثمينة، ومعها حقيبة يد سـوداء، وأخـرى صغيرة فيها المساحيق والأدوية.

في طريقهمـا إلى بحيرة كوم (Côme)، في اليوم التالي، حاولا الوصول إلى سويسرا. قيل عنها إنها كلبة موسوليني. وقبلت بذلك في النهاية: «اينما يذهب السيد، يذهب الكلب».

أما راشاله، فكتب لها رسالة وداع بشكل توصية:

«عزيزتي راشاله،

ها أنا قد وصلت إلى آخر مرحلة من حياتي، إلى آخر صفحة من كتابي. ربما لن نلتقي بعد اليوم. لذلك أكتب اليك وأبعث بهذه الرسالة. أطلب منك السماح لكل سوء سببته لك عن غير قصد. لكنك تعملين انك كنت المرأة الوحيدة التي أحببتها. أقسم بذلك باسم الله وباسم ابننا برونو في هذه اللحظة الأخيرة. تعلمين ان علينا الذهاب إلى فالتيلين (Valteline). أما أنت، فحاولي مع الأولاد بلوغ الحدود السويسرية. يمكنكم ان تؤسسوا هناك لحياة جديدة».

انتهت القصة على طريق بحيرة كوم. كان الألمانيون يواكبون موسوليني. أما الحلفاء والحكومة الإنتقالية التي شكلوها، فكانوا يريدون استرجاعه. حاول التخفي وسط طابور كتيبة الحماية أس. أس. (SS)، مرتديا لباسا عسكريا ألمانيا، واعتمر خوذة، وصعد إلى خلف حافلة نقل حيث جهّز بمسدّس رشاس. كان بينيتو مطلوبا، فتنكر بملابس جندي ألماني من الدرجة الثانية، متذرعا بنابوليون (Napoléon) الذي اضطر هو أيضا إلى انتحال شخصية جنرال نمساوي وهو يُقاد إلى جزيرة ألب (Elbe).

عند الوصول إلى قرية دونغو (Dongo)، تعرّف على موسوليني أحد المناصرين الإيطاليين من الذين كانوا يراقبون الطابور الهارب. كانت كلارا قد منعت من الصعود إلى الحافلة. لكن القدر جمعهما في مشهدهما الأخير.

في الساعة الرابعة من بعد الظهر، قيدا عبر الحقول. بكت كلارا دون تقطّع. كان بينيتو خاملا غير مبالٍ. قبل ان تطلق ضربات النار، همست في أذنه: «هل أنت سعيد لأني تبعتك حتى النهاية؟» فلم يُجبها. بوم بوم بوم.

2

لينين (Lénine)، الثلاثي الأحمر

«يعجّ البعوض هنا... [...] لا أدري لماذا،
لكنه يطارد خاصّة فولاوديا (Volodia)».
ناديا أوليانوف (Nadia Oulianov)

ناديا «الرَنْكة»

أوديب (Œdipe) عند ماركس (Marx)

سان بيترسبورغ (Saint-Pétersbourg)، 1894. فلاديمير إيلتش أوليانوف (Vladimir Ilitch Oulianov)، 24 سنة من العمر، رجل قانون يوما فيوما، يجد صعوبة في جلب الزبائن: «لقد أنفقت ما كان لديّ من المال، ولا أتوقّع تدبّر أمري بمواردي الخاصة. أرسلي لي أيضا حوالي مئة روبل (rouble) [1]، إذا أمكن ذلك». كانت أمه، السيدة أوليانوف، تدعم ابنها ماديّا منذ ان قرّر الذهاب إلى سان بيترسبورغ لمتابعة دراسته الحقوقية وممارسة مهنة المحاماة. بعد ان سئم من انتظار العقود، قرر في السنة

(1) مراسلة بين لينين ووالدته ذكرها جيرار والتر (Gérard Walter)، لينين، باريس، مارابو (Marabout)، 1950.

التالية مغادرة روسـيا ليقيم للمرة الأولى في أوروبا. فإذا به يكتشف الفرص المغرية الكثيرة التي كانت المدن الغربية الثرية تتيحها للمفكرين الشـباب. من حسـن حظه ان الوالدة أوليانوف كانت دائما مستعدة لمساعدته: «يا للهـول، ها أنا من جديد في وضع مادي صعب. لذتي في شـراء الكتب كبيرة إلى حدّ ان المال ينفد لا أدري كيف. فأنا مضطرّ لطلب المعونة مرة أخرى: أرسلي لي 50 أو 100 روبل إذا أمكن».

كان فلاديميـر يعلـم تماما أنـه يمكنه الإعتماد على مسـاعدة ماريا ألاكسـاندروفنا أوليانوفنـا (Maria Alexandrovna Oulianovna) غيـر المشـروطة. وقد سـبق ان حاولت، في كانون الأول 1887، أن تأخذ على عاتقها مصير المشـاغب المُبَكِّر عندما طُـرد من جامعةِ كازان (Kazan). فاشـترت مزرعة كبيرة بالقرب من سامارا (Samara)، على بعد 900 كيلومتر جنوبي شـرقي موسـكو، لتضمن لنفسـها مدخولا لم يكن يؤمّنه معاشها كأرملة، وكذلك من اجل توفير عمل يومي لفلاديمير. كانت تأمل في قرارة نفسـها ان يخفّـف العمل الزراعي والعيش بجـوار الفلاحين من الحماس التمرّدي لدى ابنها العنيـد، فيعدل عن أفكاره الغريبة. دفعت ثمن المزرعة 7500 روبل حصيلة بيع المنزل العائلي في سيمبيرسك (Simbirsk)، والذي أبصر فيه أولادها النور.

لكن فلاديمير لم يجد منهاجه في الخدود التي شقتها له أمه: «أرادت أمي ان أشتغل في مجال الزراعة. حاولت، ولكن لم يلائمني ذلك[1]». لم

---

(1) مقتطفات من ذكريات (*Mémoires*) لناديا كروبسكايا (Nadia Krupskaïa)، ترجمة جيرار والتر، سبق ذكره.

تكن إدارة المزرعة تناسب أبدا ذاك الشاب الأخرق الهزيل. وتغلّبت بعض الخيبات مع الفلاحين (*koulaks*) [1] - الذين اعترف بأن «العلاقة معهم باتت غير طبيعية» - على إرادته التي لم تكن حازمة أصلا.

فانتقل إلى العاصمة يجرّب حظه فيها، بعد أن تقدّم كمرشح حر للامتحان، ونال شهادة في الحقوق. لم تكن ممارسة المحاماة لترضيه، غير ان المدينة الكبرى بهياجها الخفيّ ضد سلطة القياصرة قد أثارت في نفسه ميلا إلى النضال السياسي واستنفدت نشاطيّته قسطا كبيرا من وقته. فلفت أنظار بعض القادة الإشتراكيين في سان بيترسبورغ. بعد ان كان فلاحو سامارا يسخرون منه، اصبح موضع اهتمام شبكة من المتخفّين من كل حدب وصوب كانوا يشاطرونه رؤيته للعالم، او على الأقلّ قوة شكيمته. مهما كان الموضوع الذي يعالجه، كانت خطاباته تلهب رفاقه حماسا، بفضل اسلوبه المميَّز ودقته في البلاغة. كانت عباراته الخطبية حاسمة فأكسبته سُمعة مُقلقِلٍ للضمائر. وسرعان ما استقطب هذا المهر الإشتراكي انتباه الشرطة السياسية السريّة، أوكرانا (Okhrana).

فلدى عودته من أوروبا في 1895، ألقت عليه القبض شرطة القياصرة السياسية. ألقي في السجن في بيترسبورغ بانتظار محاكمته الأولى. تخيلت أمه انه كان يجوع، ويُحرم من الضروريات، فراحت ترسل له بكثرة من كل أنواع المعونات: ثياب، بياضات، أغطية، صِدارات من الصوف. كان السجين مغمورا بالمعنى الصحيح. كتب لأخته: «عندي كمية هائلة من المؤن، يمكنني مثلا ان أفتح متجرا لبيع الشاي... لا آكل إلا القليل من

---

(1) فلاحون روسيون ميسورون.

الخبـز، أحاول اتّباع نظـام غذائي معيّن. وقد جلبتِ لـي منه كمية كبيرة أحتاج إلى اكثر من أسبوع لأنتهي من أكلها». وعن البياضات: «كُفي عن إرسالها لي، لم أعد أعرف أين أضعها».

وجدت ماريا ألكسـاندروفنا من يُعينهـا. كانت أخت فلاديمير البكر، أنا (Anna)، تنوب عنها بالقرب من الأسـير. فقد غادرت هي ايضا منزلها في موسكو وذهبت إلى بيترسبورغ لدى توقيفه، لتسهر عليه بشكل أفضل. اسـتغل فلاديمير عزلته وباشر بكتابة مؤلفات طامحة، كانت تستلزم وثائق ومستندات متنوعة. بعيدا عن جمهوره، كانت تصرفه الكتابة عن حاجته إلى نشـر أفكاره. كانت أنا هي التي تزوده بصناديق مليئة بكتب كان يلتهمها. كانـت فعّالة متكتمة، أخلصت له تماما، حتـى انها ضحت بزواجها من أجله. بدا فلاديمير كأنه لم يلحظ شـيئا. كتبت في يومياتها أنه طلب منها يوما بسذاجة وهي تزوره في بهو السجن: «هلا تُخبريني أخيرا، ماذا تفعلين هنا في بيترسبورغ؟»

بدا له هذا الإهتمام النسائي الذي طالما أحيط به طبيعيا مؤمنا إلى درجة انه لا تكاد الجهود المبذولة تسـتحق عرفـان الجميل من الولد المفضل. يجدر القول ان النسـاء، في أسرة أوليانوف، لم يكنّ يبخلن بعواطفهن من أجـل حماية الرجل الوحيد في العائلة. لقـي الأب حتفه، بعد ابنه البكر، عندما كان فلاديمير في الخامسة عشرة من العمر.

أضطرت أنا إلى العودة إلى موسكو وتركت لينين في سجنه في بيترسبورغ. كانت قلقة بشـأن إيجاد من يهتم به خلال الأشـهر التي كان سيمضيها في السـجن بعد. فلم يكن يحق في زيارته إلا لمقرّب منه او لخطيبة. بيد انـه لم يكن مرتبطا حينذاك بأحد، وإن كانـت «المعجبات به» كثيرات.

ســـارعت نادجدا كونستنتسنوفنا كروبســـكايا (Nadejda Konstantinovna Krupskaïa) إلى عرض خدماتها للقيام بهذا الدور. غير انها كانت معروفة من قبل قســـم الشـــرطة. أخيرا، وقع الإختيار على غاوية أخرى أقل تورّطا منهـــا: أبوليناريا ياكوبوفا (Apollinaria Yakubova). اختارتها أنا بنفســـها لتُعنى بفلاديمير. فجدّت من اجل تلطيف إقامته في السجن.

عندما بدأ التحقيق في قضيّته، بعد مرور ســـتة أشـــهر، وصلت السيدة أوليانوف برفقة ابنتيها ونزلت في دارة تقع في ضواحي بيترســـبورغ، لتتقرّب قـــدر الإمكان من هذا الإبن الضالّ فـــي محنته. كانت تطبّق بعناية خاصة نظام صغيرها «فولاديـــا» الغذائي، وتطهو له المآكل التي يطلبها وتجهّزها حســـب ذوقه. حاولت ماريا ألكسندروفنا استعطاف وزارة العدل على أمل تحســـين مصير ابنها، دون جدوى. أتى رفض المحكمة قاطعا حاســـما. أرسِـــل فلاديمير لمدة ثلاث ســـنوات إلى سيبيريا (Sibérie)، على ضفاف نهر اللانا (Lena) الكبير جدا، في منطقة مقفرة.

فـــي عزلة غابة الصنوبر، اكتســـب طبع قائد ثـــوروي. أصبح فلاديمير «رجل اللانا». بدأ يوقع باســـم «لينين»، مستوحيا من إطار منفاه. العزلة، نعـــم، ولكن ليس مـــن دون امرأة إلى جانبه لتدلّلـــه. طبعا لم يكن المنفى خاتمة سعيدة، لكنه نجا من الأعظم. كان يُخشى في بدء الأمر من حكم بالإعدام: فألكسندر، أخو فلاديمير، كان قد شنق في أيار 1887. ما كانت ماريا ألكسندروفنا لتتحمّل ان تفقد إبنا ثانيا. كيف سينجو ابنها فولوديا من مثل ذاك الإبعاد؟ قررت ان تصحبه. ما كادت تنتهي من حزم حقائبها حتى نجح لينين في إقناعها بالعـــدول عن ذلك، ووعدها بالإقتران قريبا بإحدى المخلصات، فتســـهر على راحته هناك. لكن، لم يكن يلوح في الأفق اي

زواج. فاتفقـا على تسـوية: تصحبه أمه وأخته حتـى منتصف الطريق، ثم يواصل رحيله وحده.

قران على الطريقة السيبيرية

أيار 1897. ذهب لينين يصطاد السـمك على مسـافة نهار من السير من شوشنسـكوي (Chouchenskoïe). لم يكن في سيبيريا التي نفي اليها تسـليات أخرى. في طريق العودة، رأى نورا يخـرج من نافذة غرفته. أنذره الفـلاح الذي كان بصحبته: لا بدّ ان يكون قد تسـلل أحد المنفيين إلى غرفته محاولا سـرقته. لا شـك ان المنزل قد نهـب. فركض غاضبا، يتهيّأ للوثـوب على اللص. وإذا بـه يفاجأ وهو يندفع: ظهرت امرأة شـابة عند عتبة المنزل. وقفت هناك، تسـتقبله بابتسـامة لا ارتباك فيها. إنها نادجدا كروبسـكايا، الملقبة بناديا. التي أرادت القيام بدور خطيبة لينين قبل عدة سنوات قد نحّت تلك التي اختيرت في النهاية لتلعب دور الزوجة، أبوليناريا ياكوبوفا.

بالرغـم من الفراق، لـم تعدل ناديا عن إغـواء فلاديمير. فقد ترك في نفسها أثرا عميقا خلال نشاطاتهما السرية والليالي التي أمضياها في مناقشة مستقبل الشعب الروسي. لم يكن إقناع الأم والأخت أوليانوف أمرا سهلا. بعـد تفاوض حادّ، كسـبت ناديا قبولهما، وقررت ان تقسـر القدر فتضع فولوديا امام الأمر الواقع. وصلت إلى سـيبيريا، بصحبة أمها، منهكة ولكن واثقة من نفسـها، بعدما قطعت مسافة 8000 كيلومتر على متن القطار، ثم ثلاثة أيام في زلاجة. كانت الأشهر الثلاثين التي عاشتها دون ان تراه أطول أشـهر في حياتها. أمام المنزل الوضيع، كان اللقاء محتشـما: تأملته وبدا

لها «وجهه بديعا جدا». أما هو، فحدّق بها، ببرودة أعصاب. ثم أدرك ما مرّت به من أجله. عرف لينين انه كان ينظر للمرة الأولى في عينيّ زوجته المستقبلية. أنهت أم ناديا العجوز، التي لم يُعمِها الحب، المواجهة بين الكائنين، فلم تتمالك عن القول: «لقد سمنتَ كثيرا، يا عزيزي».

تم الإتفاق على تسوية مع صاحب المنزل، فسمح لناديا بالبقاء. نامت المرأتان مؤقتا في الغرفة المحازية لغرفة لينين. ما ان استراحت ناديا من عناء السفر حتى وجب التحضير للزفاف سريعا: فقد منحت السلطات المرأة الشابة إجازة مرور شرط ان تتزوّج فور وصولها. أعجب لينين بهذا العمل الجريء وقبل بلا تذمرّ بوضعه الجديد كرجل متزوج.

قبل المجيء، كانت ناديا قد قصدت موسكو في زيارة لحماتها المستقبلية. رحّبت بها السيدة أوليانوف بحرارة. وكعادتها، حمّلتها كمية كبيرة من المؤن والملابس وطرودا أخرى لفولوديا، إضافة إلى مجموعة كبيرة من الكتب اضطرت نقلها إلى أقاصي روسيا.

فقد طلب منها لينين مرة أخرى في رسالته الأخيرة: «أرسلي لي أكثر ما أمكن من المال». عند تعريف عائلة العريس على فرد الأسرة الجديد، تصرّفت أنا بلطافة ولكنها بقيت متحفظة: كانت تكن لأخيها منذ البدء حبا أنانيّا غيورا. وجدت ان المرشحة «تشبه الرّكنة»، ولم تتردد في التصريح عن رأيها هذا لأخيها. لكن مباركة ماريا ألكسندروفنا كانت كافية. بعد مرور ثلاثة أسابيع على وصولها إلى سيبيريا، سارعت ناديا إلى سرد «مغامراتهما» إلى حماتها الجديدة:

«عزيزتي ماريا ألكسندروفنا،

فولوديا جالس إلى جانبي، يقود نقاشا حامِيا مع الطحّان بشأن لا

أدري أي بيــوت وبقرات. وها أنا أباشــر بالكتابة إليك قليلا. لا أعرف بمَ أبدأ. الأيام تتشــابه، دون اي حدث خارجي. أشعر كأني أعيش في شوشا (Choucha) منــذ الأزل؛ لقــد تأقلمت تماما. فــي الصيف، يحس المرء بالإنشراح. نقوم بنزهة كل مساء. نمشي مسافة طويلة... التنزه شيء لذيذ. ولكن، يكثر هنا البعوض، وقد اضطررنا إلى صنع شبكات لنحمي أنفسنا. لا أدري لماذا، إلا انه يطارد فولوديا على الأخصّ».

ولدت ناديا في 5 شــباط 1869 في بيترسبورغ، وكانت تكبر لينين بسنة وأطول منه ببعض الســنتمترات. كانت أســرتها، المتحدرة من طبقة النبلاء الفقراء، تصرّح بأفــكار تقدميّة. كانت الفتاة تتشــوّق للمعرفة: «منذ ذاك الزمن، كنت اســمع مــرارا أحاديث عن الثورة، وكنــت أتعاطف تلقائيا مع الثوار[1]».

بعد الثانوية، تخصصت بالعلوم التربوية. كانت لها مؤهلات حقيقية في هذا المجال، وكانت تدرّس بجديّة وطول أناة. بعدما تعذر عليها الحصول علــى منصب في الريــف كما في العاصمــة، راحت تعطي دروســا ليلية للعمال في مدرســة الأحد في بيترسبورغ. كتبت المرأة الشابة في مذكراتها ان الســنوات الخمس التي قضتها في التعليــم قد «ألحمتها نهائيا بالطبقة

---

(1) في المؤلفات الكاملة (Œuvres complètes) لناديا، ذكرها ميخاييل س. سكاتكين (Mikhaïl S. Skatkine) وجورجي س. تسوفيانوف (Georgy S. Tsovianov)، «نادجدا كروبسكايا» (« Nadejda Kroupskaïa »)، آفاق. مجلة فصلية تعنى بالصلات بين مختلف النماذج التربوية (*Perspectives. Revue trimestrielle d'éducation comparée*)، باريس، يونسكو، المكتب العالمي للتربية ، الجزء الرابع والعشرون، رقم 1-2، 1994.

الكادحة». اكتشفت بفضل تلامذتها كتابا كان محظورا: «سمعت الإعلان عن انهيار *الرأسمالية* (*Capital*)، ونهاية المستغِلين والمستغَلين [...] نبض قلبي قويّا بحيث سُــمعت خفقاته». كانـــت ناديا مثالية رومنطيقية قبل ان تكون ماركسية.

كان العروســـان قد التقيا مساء أحد أيام شباط 1894، بمناسبة اجتماع شـــباب ماركســـيين من بيترســـبورغ، انعقد في شـــقة المهندس كلاســـون (Klasson). اســـتقبل هـــذا الأخير في ذاك المســـاء محاميـــا واعدا. وقد استحوذت عليها قريحة ذلك الخطيب المندفع.

ما كان رأيه يا ترى في تلك الناشطة المتكتمة التي طرحت عليه بخجل بعض الأســئلة في نهاية الإجتماع؟ لا شـــيء يذكر، علـــى ما يبدو. كان مظهـــر ناديا الخارجي مطابقا للنمـــوذج الصقلبي (slave)، عينان صافيتان فاتحتا اللون، وشـــعر أشـــقر، وفم مكتنز. لكن لم يكـــن احد ليقول عنها انها جميلـــة. عندما تعرّف إليها لينين، كانت لهـــا ملابس وضيعة، وطراز معلمة مدرســـة صارم نوعا ما. كانت تبدو اكبر من عمرها. وصف الكاتب إيليا أهرنبورغ (Ilia Ehrenbourg)، بأســـلوبه الحادّ، باختصار مظهر السيدة أوليانوف المســـتقبلية بإلحاح: «يكفي ان ننظر إلى كروبســـكايا لنقول إن لينين لا يولي النساء اهتماما».

قليلون الذين كانوا يعرفون الحقيقة: كانت ناديا تعاني من مرض المناعة المضادّة، داء بازدو[1] (Basedow)، ومن أعراضها الأســاســية تورّم العينين،

---

(1) رواه شارل رابوبور (Charles Rappoport)، في حياة ثوروية (*Une vie de révolutionnaire*)، 1883-1940، باريس، دار علوم الإنسان، 1991.

ومشـــاكل في الوزن، وحتى اضطرابات نفسية. كانت تتضايق من التصوير، ولا نملك إلا صورا نادرة لها.

عاشـــت ناديا في المنفى فترة من الراحة، خفّت خلالها وطأة مرضها. خاصة وان فولوديـــا هناك كان لها وحدها: «حياتنـــا الحالية بمثابة عطلة حقيقية من كل النواحي». في ســـيبيريا، كانت تحسّ بنفســـها وكأنها في شـــهر العســـل، في خلوة ريفية مفاتنهـــا طبيعية. في الســـنة التالية، كتبت لماريا:

«الهـــواء ربيعي. تغطّي المياه النهر المجلد باســـتمرار. في أشـــجار الصفصاف الأبيض، تتراقص عصافير الدوريّ بحركات ســـريعة، تتمشى الثيـــران فـــي الطرقات وهي تعجّ، وتحت موقد صاحبـــة المنزل تصخب الدجاجـــة كل صباح فتوقظ الجميع. الطرقـــات موحلة، وفولوديا يتكلم اكثـــر فأكثر عـــن بندقيته وجزمته للصيد. أنا وأمـــي بدأنا نفكر في زرع الأزهار».

لا تذكر ربة المنزل الســـيبيري اليقظة إلا أوقات التســـلية والتلهّي. ففي المساء، يتعإلى الغناء بحماس بصحبة الفلاحين:

«كان فلاديمير يضفي على لهونا الموســـيقي شـــغفا، وحيوية رائعة: ما ان نباشـــر بأغنياتنا، حتى ينتابه نوع من الحنق، فيأمرنا بحزم: «دعونا نغني *تشجعوا يا رفاق، وامشوا الهوينا!*»»

حتى في أوقات التســـلية، كان لا بدّ للينيـــن ان يكون القائد، ويهيمن على اللعبة:

«كان يبدأ بإعطاء الإيقاع، وعيناه لاهبتان، يضرب برجله بعصبية، ويرفع صوته إلى أقصى حدّ، غير مكترث بالتناغم الموســـيقي، صوته المتوسّـــط

(baryton)، الذي كان يطغى على صوت الباقين[1]».

كانت تلك فترة الهدوء والسعادة الزوجية الوحيدة التي تشاركا فيها. سرعان ما خفتت الشهوة الجنسية. بدا لينين وكأنه لجم شبقه خلال عدة سنين، آثرا تكريس طاقته للعمل الثوري. كانت ناديا تعيش أنوثتها بصعوبة. كان ذاك المرض الذي يشوّه جسدها يمنعها من إنجاب الأولاد للينين.

هناك واقع آخر، اكثر ظلمة، يظهر من خلال رسالة كتبتها للسيدة أوليانوف: «إنه قلق جدا على أمننا. طلب من احد المنفيين الذي يسكن القرية ذاتها ان ينام عندنا. ودرّبني على الرماية بالمسدس». فذكرياتها المتأثرة عن الإلفة السيبيرية كانت تخدع العروس: كانت الحياة في المنفى منهكة، وتركت لديهما الإثنين أثرا بليغا. فإذا كان الصيف في «إيطاليا الصغيرة» هذه على ضفاف نهر لانا رحيما، فقد كان عليهما، في فصل الشتاء، ان يلزما المنزل لمقاومة الصقيع. وكانت وطأة العزلة كبيرة. كان لينين يتلهّى بقراءة الفلاسفة الألمانيين - كانت (Kant)، هيغل (Hegel) -، ويعطي سرّا من وقت إلى أخر مشورات قانونية ايام الأحد.

هكذا مضت سنوات المنفى الثلاث بالنسبة للينين، سنوات سعادة زوجية ثلاث بالنسبة لناديا. لقد قضت سيبيريا على حياتهما الخاصة، لكنها منحتهما بدلها رابطة شراكة للحياة وللموت. بعد ذلك، لم يعد لينين قادرا عن مفارقتها ولو نهارا واحدا. وبقيت بالنسبة له تلك المرأة التي عبرت الأقطار الجليدية من أجله.

---

(1) ذكريات (*Souvenirs*)، بقلم الشرطي لبشينسكي (Lepechinsky)، ذكره جيرار والتر، سبق ذكره.

زوجان في المفرّ

سـنة 1900، أطلق سـراح لينين. قصد منزل والدته التي كانت تسكن بالقرب من موسـكو. أحس بأنه مراقب أينمـا ذهب في المدينة، فاضطر إلـى الرحيل. لربما حظيت خطاباته فـي أوروبا بقابليّة اكبر. في 16 تموز، ركب القطار متوجها إلى زيورخ (Zurich)، حيث اسـتقبلته جالية المُبعَدين السياسـيين الروسـيين وكانت كبيرة في ذلك البلد المحايد[1]. بعد ثلاث سـنوات من الغياب عن واجهة المسـرح السياسي، باشـر بإعادة تنظيم الفصائل الماركسـية الصغيرة المتبعثرة في البلاد. شـرط لازم في السـعي للإسـتيلاء على السلطة. كانت الإنشغالات كثيرة. أسّس فلاديمير المجلة السياسـية *إيسكرا* (*Iskra*)، («الشـرارة»)، التي بلغ بفضلها صوته روسيا. اهتمت أخته أنا، التي باتت تسكن في برلين، بالعمل على طبع المجلة في ألمانيا. وماذا عن ناديا؟

تركها لينين في سيبيريا، حيث كان لا يزال عليها ان تبقى ستة أشهر في المنفى. خلال هذه الفترة الطويلة، غافلت مراقبة الشـرطة السياسية السريّة، أوكرانا (Okhrana)، فتوصّلت إلى إيداع رسـائلها في صندوق للبريد موجود في براغ (Prague). كان هذا الرابط الضعيف الوسـيلة الوحيدة القائمة في تلك الفترة. عندما أطلق سـراحها بدورها، سـارعت إلى ركوب أول قطار متجه إلى براغ، وراحت تبحثت عن زوجها أياما عدّة. لم ينجح لينين فقط

---

(1) بالنسبة للفترة التي قضاها لينين في سويسرا، أنظر موريس بيانزولا (Maurice Pianzola)، لينين في سيويسرا (*Lénine en Suisse*)، مكتبة روسو للنشر (éditions Librairie Rousseau)، جنيف، 1952.

في التملّص من الشـــرطة، بل أيضا من زوجته. كانت وحيدة، ضالّة، لكنها التقت اخيرا بعامل تشيكي (tchèque) كان يأتي لجمع الرسائل في صندوق البريد، وعرفت منه ان لينين كان يســـكن زيـــورخ. عزمت العثور عليه مهما طالت المسافات التي ستقطعها.

وصلـــت ناديا إلى زيورخ، وباشـــرت بالمهمة الأكثـــر إلحاحا، معافاة لينين واســـتعادة حيويته: «أدركت ان فلاديمير كان يحتاج إلى غذاء صحّي وفير. فبدأت أطبخ بنفســـي في غرفتنا». كانت الغرفة بلا حمّام ولا مطبخ، وكانا يســـتأجرانها أسبوعا فأسبوعا. من حسن الحظ ان كانت الطرود التي استمرّت الوالدة أوليانوف ترسلها تضفي على حياتهما اليومية الوضيعة متعة مـــا. كان على ناديا الســـهر على عدم إحداث اي ضجيـــج. إذ بدأ لينين بتحرير كتابه، ولم يكن يستطيع الكتابة إلا في صمت كامل:

«عندما كان يعمل، كان يجتاز الغرفة بســـرعة من طرف إلى آخر وهو يردّد جمله. لم أكن أنبس ببنت شـــفة حينذاك. ثم، خلال النزهة، يطلعني علـــى ما كتبه. في النهاية، كانت حاجته إلى ذلك بقدر حاجته إلى تركيب جمله ذهنيّا قبل وضعها حبرا على ورق».

لـــم يكن فولوديا في غنـــىً عن ناديا التي كانت تشـــارك في تمحيص أفكاره، ويســـاعده وجودها على إبانتها. وجد لينيـــن من يعاونه في إنجاز هدفه الأســـمى، شـــخص يوكل إليه قســـما من عمله. وها هي ترتقي إلى منصب أمينة سر التحرير في مجلة *إيسكرا*. فراحت توظّف باقي الماركسيين في المدينة، وتنظم هذه المجموعة الهامشية المرحة، التي قامت بإدارتها:

«كنـــا نتناول الغداء عنـــد الظهر. ويصل مارتـــوف (Martov) حوالي الســـاعة الواحدة من بعد الظهـــر، ثم يتبعه الآخرون. فتبـــدأ لجنة التحرير

أعمالها. كان مارتوف يتكلم دون انقطاع ويتطرّق إلى كل المواضيع. كانت هذه النقاشـــات اليومية تتعب فلاديمير إيليتش كثيرا، إذ كانت تطول أحيانا خمس او ســـت ســـاعات متتالية. كانت تلهيه عن العمل. طلب مني يوما ان أقـــول لمارتوف ان يتخلّف عـــن المجيء. فاتخذنا بعد ذلك القرار بأن أذهب أنا إلى عند مارتوف فأطلعه على الرســـائل التي تصلنا وأســـتقي منه المعلومات لديه».

بيد ان ناديا كانت تعرف كيف تســـتغل هـــذا الوجود المزعج، فأوكلت لمارتوف دورا لم يكن في الحسبان، دور معاون الطاهي. كان يسهل على ناديا توظيف الماركســـيين في الطبخ وكذلك حث النســـاء على المطالعة، فكُلِّفت بمهمة جديدة، اكثر طموحا: تأســـيس مجلـــة موجّهة إلى المرأة الروسية. حملت النشرة الدورية ببساطة اسم *رابوتنيتسا* (*Rabotnitsa*)، أي «المـــرأة العاملة»[1]. كانت تقوم ناديا بتحريرها بالكامل، ولم يقبل لينين ان يساهم بمقال فيها إلا بعد صدور عددها الخامس. لم يشأ ان يضيع وقته مع أولئك النسوة هاويات الحياكة اللاتي يدّعين الإشتغال بالشأن الإجتماعي. غير ان ناديا كانت مقتنعة بفائدة هذه النشـــرة. وضعت نصب عينيها تنبيه النســـاء إلى نمط حياة جديد. كانت مجلتها تقدّم دروســـا في الماركسية وكذلك نصائح تطبيقية لكي تمارس النساء أنوثتهن على أكمل وجه: ترتيب المنزل، تربية الأولاد، فن التســـريح والتبرّج. كانت بعض النساء المتصنّعات

---

(1) دوروتايا ل. ميك (Dorothea L. Meek)، «مجلة المرأة السوفياتية» (« A Soviet Women's Magazine »)، الدراسات السوفياتية (*Soviet Studies*)، الجزء الرابع، رقم 1، تموز 1952.

ببساطة أنيقة يعرّفن عن محاسن المستحضرات التجميلية الجديدة. كانت تبرع ناديا في هـــذا المجال، فأصدرت موجَز المرأة الشـــيوعية المكتملة. ســـرعان ما حظيت المجلة بشعبية كبيرة، وعزّزت اهتمام الجمهور النسوي بالزوجين أوليانوف. وتعدّى فعلها كل آمال مؤسســـتها. فعبرت كل العصور وبقيـــت صامدة حتى بعد انهيار الشـــيوعية. وهي اليـــوم بمثابة مجلة هي (*Elle*) في البلدان الناطقة باللغة الروسية.

ســـرعان لم تعد زيورخ لتكتفي فلاديميـــر. فانتقل الزوجان إلى ضواحي جنيف (Genève). استأجرا بيتا صغيرا، يتناسب أكثر ومستوى القائد الذي كان يريد ان يكون من غرفتهما الوضيعة في زيورخ. كان في الطابق الأرضي مطبـــخ كبير، وثلاث غرف فـــي الطابق العلوي. بعدما عاشـــا المنفى في أماكـــن عدّة، لم يكونا يملكان أثاثـــا. لكن ناديا كانت مدبّرة منزل ماهرة: تحوّلت الصناديـــق التي احتوت على كتب لينين الكثيرة إلى موائد ومقاعد في المطبخ وفي غرفة الســـفرة. ما لم يمنع الزوجين أوليانوف من اســـتقبال العديد من الـــزوّار. كان المنزل يعجّ دائما بالنـــاس. للتمتع ببعض الفترات الحميمة، لم يبق لناديا إلا خيار جرّ لينين إلى الحديقة المجاورة.

كانـــت المعنويّات تنهار احيانا. في احد الأيـــام، وصل فلاديمير إلى محطة جنيف، عائدا من كابري (Capri). كانت الريح جليدية. في طريقهما إلى المنزل، كانت اول كلمات وجهها إلى زوجته في غاية الكآبة: «أشـــعر كأني أتيت أحتجز نفســـي في قبـــر». إذ كان الزوجان يدوران في جنيف في حلقة مفرغة ويعيشـــان فوق إمكانياتهمـــا المادية. فيما كان لينين يعقد إجتماعاته «ويتشـــبّع من الفلسفة»، كانت ناديا تملّ الإنتظار. اضطرا إلى ترك منزلهما الأنيق وإخلائه متســـرّعين. وها هما يسكنان مجددا في غرفة

صغيرة فـــي طابق علوي. حاولت ناديا التلهّي عن ســـأمها بدراســـة اللغة الفرنســـية بعد ظهر كل يوم، قبل العودة إلى زوجها لقضاء أمســـيات مملّة: «في المســـاء، لم نكن نعرف ماذا نفعل لتمضية الوقت. لم يكن يروق لنا البقاء في غرفتنا الباردة غير المريحة، فكنا نخرج كل مساء ونذهب إما إلى السينما او إلى المسرح».

الحقيقة انهما كانا يملان وحدتهما. لم يكن لينين يتكلّم إلا عن الثورة. كان في نزاع مع العديد من النشـــطاء الروسيين الذين لم يكونوا متضامنين معه. أصبح الجو خانقا. فقرر ان يهاجر إلى فرنســـا. كتب إلى والدته قبل مغادرة سويســـرا بأســـبوعين: «نأمل في ان تعيد لنا جميعا المدينة الكبيرة طاقة جديدة. سئمنا من البقاء نتعفّن في هذه القرية الصغيرة الريفية[1]».

وصلا باريس في 3 كانون الأول 1908. انطرحت مســـألة الســـكن- إذ كانوا أربعة: ناديا وأمها، لينين وأخته ماريا. كانت هناك، رقم 24 من شارع بونييـــه (Baunier)، قرب بوّابة أورليان (Porte d'Orléans)، شـــقة معروضة للإيجار، في الطابق الثاني من احد المباني البرجوازية. أربع غرف، مدخل، مطبخ، غرفة مهملات وخزانة للملابس، كما كانت مجهّزة بإمدادات الغاز والمياه الجارية. أعجبت كروبســـكايا بأحد التفاصيل: المرايات التي كانت تعلو المداخن. كان بدل الإيجار السنوي 840 فرنكا، تضاف اليه النفقات المشـــتركة. ومرة أخرى، لم تنس الوالدة أوليانوف صغيرها الحبيب. كانت ترسل من روســـيا طرودا تحتوي على شـــحم الخنزير، والسمك المدخّن،

---

(1) بشأن الفترة الباريسية، أنظر جان فرافيل (Jean Fréville)، لينين في باريس (*Lénine à Paris*)، باريس، المطبوعات الإجتماعية (Editions sociales)، 1968.

والجنبـــون (jambon) والخـــردل، لألا يموت فولوديا مـــن الجوع في تلك المدينة التي لا ترحم.

خلا التدرّب على الحياة الباريســـية من المتعة بالنسبة لناديا. أضجرتها المعاملات الإدارية: «كانت تســـتغرق كل الأمـــور وقتا طويلا. فمن أجل الإشـــتراك بالغاز، مثلا، اضطررت إلـــى الذهاب ثلاث مرات إلى مكان ما وسط المدينة قبل ان أحصل على الوثيقة الضرورية». خلاصة الأمر: «فرنسا بلـــد مكتبيّة فظيعة». في باريس ايضا، نظّمت ناديا شـــاءت ام أبت منزل الزوجية مع بعض الفرش، طاولة من الخشب الأبيض وعدة مقاعد.

مع اقتراب صيف 1909، بعد أشهر الشتاء السويسري المظلم، اعتقدت ناديا انها ستســـتعيد الحميميّة التي عرفاها في إيطالياهما السيبيرية الصغيرة ومن ثمّ فقدتها. كانا يقيمان في بونبون (Bonbon)، في مقاطعة ســـان إيه مارن (Seine-et-Marne)، فـــي نزل صغير للعائلات. كانت نزهاتهما على الدراجة تساعدهما على التلهّي قليلا عن معاكسات القضية. قالت: «كنا نتجنب حتى الكلام عن شؤون الحزب في أحاديثنا». خلال عدة أسابيع، تذوّقا ســـوية الريف الفرنسي، في جو ســـاكن، بعيدا عن النشطاء وزعيقهم المتواصل.

لم يكن لينين مرتاحا تماما في شـــارع بونييه. استغل فرصة مغادرة أخته لينتقـــل إلى منزل آخر، في الحي نفســـه قرب بوابة أورليان. وجد، شـــارع ماري روز (Marie-Rose)، شقة من ثلاث غرف، توفّرت فيها وسائل راحة إضافية، كهرباء وتدفئة مركزية، مما أرضى رغبات كروبســـكايا. كان التوزيع فيها عاديا: غرفتان تطلان على الشارع، صالون وغرفة سفرة، يفصل بينهما باب زجاجي عريض؛ وغرفة للنوم تطلّ على الفناء، وكذلك المطبخ. تحوّل

الصالـــون، وكان غرفة كبيـــرة تنيرها نافذتان، إلى مكتـــب للينين. في غرفة السـفرة، نُصب تختان ضيقان من حديد، كانـــا ينامان فيهما. أما الحماة العجوز، فخُصّصت لها غرفة النوم، وكان المطبخ يصلح صالونا وغرفة سفرة في الوقت نفسه.

أخيرا عرفا الراحة. كانت ناديا سعيدة بأن تسكن اخيرا شقة من أحدث الشـــقق الباريســـية. كان بإمكانها ان تعيش فيها حياة ربة منزل حقيقية من أجل فلاديمير. غير ان لينين كان قد باشر بعلاقة عاطفية اخرى مع غيرها.

الثلاثي (Troïka) الآخر

بوشكينو (Pouchkino)، كانون الثاني 1909. بعد فترة إقصاء قاسية في مزن (Mezen)، على ساحل بحر الأركتيك (Arctique)، كانت إيناسا أرمان (Inessa Armand) تحاول اســتئناف حياتها كما كانت قبل ان تُكتشـــف نشـــاطاتها الثورية. عادت إلى زوجها ألكســـندر، الرفيق المخلص، الذي انتظرها بطول أناة خلال أشهر. لكن كان هناك غائب: فلاد (Vlad). كان ســـلفها قبل ان يصبح عشـــيقها. كان أمله في العيش ضئيلا بسبب مرض الســـل الذي أصابه في السجن قبل عدة سنوات. ثم تدهورت حالته فجأة خلال الأسابيع الأخيرة من فترة استشفائه في نيس (Nice)، جنوبي فرنسا، حيث كان لا يزال هناك أمل في إنقاذه. كان لا بدّ ان يخضع لعملية الفرصة الأخيرة، فقررت إيناســـا ان تتواجد إلى جانبـــه مهما كلف الأمر، حتى لو زُجّت في الســـجن من جديد. إذ كان محجـــورا عليها الخروج من البلاد، فلم يبق لها إلا ان تحاول مغادرة الأراضي الروســـية سرا، لتلازم من تحبّ.

تسـلّلت عبر الحدود الفنلندية، واجتازت البحيرات السويدية الجليدية في زلاجة، وركبت على متن قطار متجه إلى ستوكهولم (Stockholm)، ووصلت إلـى نيس خلال بضع أيام فقط. لكنها تأخـرّت فلم تحضر عملية فلاد. وتدهـورت حالة هذا الأخير بشـكل فجائي جعل الأطباء يتسـاءلون عن احتمال حدوث تسمّم قد يكون له علاقة بنشاطاته الثورية. لكن لم يكن يزوره أحد، باسـتثناء إيناسا التي كانت تشهده يحتضر. ثم قضى فلاد بين يديها في أوائل شهر شباط.

دمّرهـا فقدان الـذي عرّفها على القضية، فوافت ألكسـندر الذي كان ينتظرهـا في فرنسـا، في مدينـة روبيـه (Roubaix) الصناعيـة. لم يكن باسـتطاعتها التعويض عن موت الذي كانت تعجـب به للغاية بمضاجعة غيره، فآثرت ان تلبس الحداد لوحدها وغادرت الشمال متجهة إلى باريس. كتبت لصديقتها أنا أسـكانازي (Anna Askanazy): «إن وفاته خسارة لا تعوّض بالنسبة لي. كان كل فرح حياتي. ومن غير فرح النفس، يصبح درب الحياة شـاقا جدا[1]». وبالفعل، كانت الحياة في باريس صعبة في البداية، لكن سرعان ما شفيت إيناسا من وحدتها.

في العاصمة الفرنسـية، كانت إيناسا ترتاد مقاهي جادة أورليان، حيث تلتقي العديد من المنفيين الروسيين، وتساعدهم من حين إلى آخر للحصول على عمل او شـقة، بفضل معرفتها التامة للغتين الروسية والفرنسية. كانت تثير مودّة رفاقها بسـهولة، فراحت تتقرّب اكثر فأكثر من المحافل البلشفية

---

(1) في مايكل بيرسون (Michael Pierson)، عشيقة لينين. حياة إيناسا أرمان (*Lenin's Mistress. The Life of Inessa Armand*)، لندن، راندوم هاوس (Random House)، 2002.

(bolchevique). وقد تقاطع قدرها بقدر رجل اللانا (Lena) في تلك الفترة المظلمة من حياتها.

فتاة مقهى المانيور (Manilleurs = لاعبي الورق)

في احد الأيام، قادتها صديقة لها إلى اجتماع شبه سرّي، في القاعة الخلفية لأحد المقاهي. استمعت، وكانت لا تزال شاحبة كئيبة، إلى خطاب مشاغب كانت له هالة لا تضاهى، ويحمل إسم حبّها الراحل: فلاديمير. لم تتأثر تلقائيا بالخطيب الذي كان كعادته يرتدي ملابس مجعدة واسعة، أكبر من قياسه. كان أشبه بالفلاح الميسور، «عبد أرض صغير ماكر[1]». أما هو، فقد جذبته هذه المرأة الشابة التي كانت تصغره بأربع سنوات - كان في التاسعة والثلاثين من العمر وهي في الخامسة والثلاثين - اللابسة على آخر طراز، مع قبعتها الداكنة اللون المصطنعة التي زينتها ريشة حمراء. تحت كثافة من الشعر الكستنائي اللون، لاحظ عينيها الواسعتين، وفمها الكبير الحساس، ودقة ملامحها. كانت إيناسا سريعة الخاطر، ذكية، توحي بثقة ذاتية راسخة استمالت الفكروي المتحمّس أكثر. حدّد لها موعدا في المساء، في مقهى المانيور. شوهدا فيه مرارا لاحقا. من كانت يا ترى تلك المرأة الشابة التي ظهرت يوما في محفل الثوار الروسيين المهاجرين الذي كانوا يسكنون المنطقة الإدارية الباريسية الخامسة عشرة، والتي تبناها قائدهم؟

كانت أمها، الموسكوفية من أصل أنكليزي، قد هربت لتعيش قصة

---

(1) على حد قول أحد أقاربه، غلاب كرزهيزهانوفسكي (Gleb Krzhizhanovsky).

حب مع تيودور ستيفان (Théodore Stéphane)، ممثل مسرح منوّعات في باريس: والد إيناسا. ولدت أولى الأطفال الثلاثة لهذين الفنانين الزوجين بجنسية فرنسية، ثلاثة أشهر قبل اقتران والديها. كان أبوها يعمل حينذاك في مسرح لاغاتيه (la Gaîté)، ويُشرك أمها في حياة هامشية صاخبة. افترق الزوجان بعد خمس سنوات. فقررت جدة الصغيرة وخالتها، خلال زيارة لهما إلى باريس، التخفيف من أعباء الأم العزباء، فعادتا بإحدى البنات. وهكذا وصلت إيناسا إلى بوشكينو، في الريف المجاور لموسكو. وفّرت لها المرأتان تربية رفيعة المستوى، في الموسيقى والأدب واللغات. وكانت أسرتها الجديدة هذه بغنىً تامّ عن اي حضور ذكوريّ: كانت الجدة تهتم بإدارة شؤون المنزل، فيما تؤمّن الخالة الدخل بأن تعمل كمربية لدى عائلات الطبقة الموسكوفية الراقية. لكن وصيّتي إيناسا الجديدتين كانتا تتطلّعان إلى مصير أفضل لها: قران برجوازي مَجيد. فقررتا سنة 1891، وكانت في السابعة عشرة من العمر، توظيفها في إحدى العائلات التي كانت خالتها تعمل عندها: عائلة أرمان (Armand).

كان إبن العائلة، ألكسندر، على وشك العودة اليها بعد غياب دام طويلا. كانا يعرفان أحدهما الأخرى قبل ان تقيم إيناسا في المنزل العائلي، إذ كانا يتشاركان في ألعاب الصيف وهما طفلان. كان ألكسندر يتسلّى بوجود الطفلة، وها هو يعجب بالمرأة التي يلقاها الآن. فراح يبحث عن عذر ليدعوها إلى مرافقته. لكن ذريعته أتت منقوصة: كتب لها يسألها عن عنوان صديق مشترَك، مستغلا الفرصة لدعوتها إلى حضور عيد ميلاده: «تعالي، نحن بانتظارك، ستحضر شابات كثيرات مقابل أربع او خمس شبان فقط».

بقي عليه ان يبرهن عن مهارة أكبر. فقد كانت إيناسـا وحشية الطباع، تسـتخف بالرجال. في سن الثامنة عشـرة، كتبت إلى الذي سيصبح يوما زوجها تعطيه رأيها بمعشـر الرجال: «يعتقدون انهم أسياد الخليقة. يكنّون للنساء ازدراء تاما، يعبّرون عنه باحترام الضعف الأنثوي. يعتقد هؤلاء الرجال انهـم في غاية الشـهامة لأنهم يتعاملون مع النسـاء بلطافة واحترام مزيّف وصبـر، كما يفعلون مع الطفل». وإذا بها تلخّص خبرتها الحديثة بالرجال بنظرية: «النسـاء يصدّقن اي شـيء والرجال يكذبون باستمرار». ما كان لألكسندر أن يتخوّف من ذلك. كان يعرف ان إيناسا كانت من النازحين. فلم تفهم يوما، بين الشـعور بالذنب وبين التمرّد، لماذا أقصيت فجأة عن فرنسا، إلى روسيا البعيدة:

«صحيح أني لا أثق بك تماما. لأنك لا تعرفني. تعرف فقط حسناتي. لا سـيئاتي [...]. أتصوّر انه، لو خيّبتك، لوضع ذلك حدّا لصداقتنا. وهو أمر قد يؤسفني لو حصل. أنت ترى كم أنا صريحة معك[1]».

مـن الصعب الوثوق بأحد. فقد عرفت إيناسـا توّا خيانة جديدة: أتت أمها في النهاية إلى موسـكو لملاقاتهـا. لم يطل اللقاء بينهما. فبعد مرور عدة أشهر، عادت الأم فهربت مع عشيق جديد، شارل لويس جوزيف فور (Charles Louis Joseph Faure)، الذي كانت تملك أسرته المسرح وُظّف فيه زوجها في الماضي.

لكن ألكسـندر أدرك كيـف يتغلّب على الخوف والتراجـع بالمثابرة.

---

(1) رسائل إيناسا مأخوذة عن نشرة حديثة لحوالي ستين من رسائلها الى زوجها ألكسندر وأخيها فلاديمير. إي ف. أرمان (I. F. Armand) *Stat'i, rechi, pis'ma*، موسكو، 1975.

تزوجت به إيناسا في بوشكينو، سنة 1893. أصبحت ربة منزل بدت نزاعات طفولتهـــا قد هـــدأت. ومنحتها هذه الحياة الجديـــدة الكثير: كان عندها خدم، وكان بإمكانها شراء كل الملابس التي تشتهيها. كان ألكسندر زوجا لطيفا مراعيا، يدعها تســـافر إلى الخارج متى شاءت. أخيرا، أصبحت لها أسرتها، وعرفت استقرارا طالما افتقرت اليه... كان ألكسندر يهبها الكثير، أجل، باستثناء إثارة الخطر. كان مركزه وطيدا ولا رغبة لديه في التعرّض إلى أهوال حياة تخريبية.

كان أخوه، فلاد (Vlad)، هو الميّال إلى الثورة. معه، سيتغير كل شيء. ســـنة 1902، كان الشاب، وعمره 17 سنة، يسكن الشقة العائلية الواقعة في حي *أربات* (*Arbat*) في موســـكو، حي الفنانين والمفكّرين. شـــأنه شـــأن العديد من الطلاب الموسكوفيين، كان فلاد يقيم اجتماعات في منزله. كان هادئا، جادّا، ذا لحية صغيرة شعثة، وعينين صغيرتين بنيتي اللون صادقتين، وكان للشـــاب النحيف في نظر رفاقه «بساطة رسولية لا مثيل لها». كانت إيناسا تكبره بعشر ســـنوات وتحضر مرارا هذه الإجتماعات السرّية. تغيب ســـاعات طويلة عن المنزل، لتلتقي «فلادي»، وتعود في ساعة متأخرة من الليل. لم يســـع ألكسندر، بين الحيرة والغضب، إلا ان يُعجب بتلك المرأة ذات الفكر المســـتقل الذي لا يقهر. قـــال متذكرا تلك الفترة: «يا لها من شخصية كانت!»

لكن ســـرّ كهذا داخل الأســـرة الواحدة لا يمكـــن ان يبقى خفيّا لمدة طويلة. وجب على إيناسا إختيار أحد الرجلين. في أحد الأيام، كان الثلاثة معا في ألديجينو (Eldigino)، في مزرعة ألكســـندر الحرجيّة. جلسوا على أريكة، إيناســـا في الوســـط، وهي تبكي. كان إيفان (Yvan)، الأخ الثاني

لألكسندر، موجودا، فوصف المشهد في يومياته: «راحت تردّد: «لا أقدر ان أشطر نفسي شطرين. أنا آسفة».» عرف ألكسندر الحليم أنه فقدها. استمر يعيلها، ويدفع عنها بدل إيجارها طالما احتاجت إلى ذلك. أخلص لها بالرغم من خيانتها، فضمد جراحه، وترك أبواب بيت بوشكينو مفتوحة أمامها تلجأ إليه متى شاءت. انتقلت إيناسا لتسكن مع فلادي، باسم الحب الحرّ. وجدت إلى جانب هذا المتمرّد الشاب الذي كان يريد تغيير العالم مهمّة أولى تقوم بها: إعادة الإعتبار للعاهرات وتحسين أوضاعهن.

لكن الحرية لم تدم، مع الأسف. في 4 شباط 1905، اغتيل حاكم موسكو، الدوق الأعظم سارج (Serge). وعلى الفور، ألقت الشرطة القبض على الطلاب الإصلاحيين المتطرّفين. دفعتها نشاطات فلادي إلى القيام بتفتيش منزله الواقع رقم 8، شارع أوستوزهنكا (Ostozhenka)، في الساعة الرابعة صباحا. تذكرت إينا (Inna)، إبنة إيناسا البكر، وكان عمرها أربع سنوات، ان ضجة فجائية أيقظتها. كانت الشرطة تعمل على تفتيش الشقة، فتقلب كل الموجودات، بما فيها أسرّة الأطفال. وقفت أمها إلى جانبها، هادئة تماما، ابتسمت وأومأت إليها ألا تبكي، وقالت: «لا تظهري أنك خائفة ولا تقولي شيئا. إذا احتاج الأمر، اهتمي بالأصغرين».

وجدت الشرطة في غرفة الأولاد رسائل اعتبرتها مشبوهة ومسدسا. همست لها أمها وهي تُقاد: «لا تقولي لأحد أني أوقفت». نقلت إلى سجن *باسمانايا* (*Basmannaia*) في موسكو، حيث وصفت ظروف إقامتها: «الوضع أسوأ من كل ما كنت انتظره. أنا وسط السكارى [...]. خلال الليل، يُقاد هؤلاء السكارى إلى الداخل، ويُضربون بلا رحمة ثم يُرمون في الزنزانة. عندما وصلت، صرخ رئيس الحرّاس في وجهي «إخلعي سروالك»،

وبدأ التفتيش الجسـدي. انتقلت من الفـردوس إلى الجحيم. ثم أدخلتني ضربة قوية فوق أذني في النظام الجديد».

كان ألكسـندر قد وعدها بالسـهر عليها. فسعى بلا انقطاع من أجل إخراجها من السـجن. بالرغم من المعاملة السيئة، لم تكن إيناسا مستعدّة للتخلي عن مبادئها. كتبت له تقول: «يا لها من علاقة رائعة بيننا. بالنسـبة لعرضك مسـاعدتي على إطلاق سـراحي، لا تفرط في السعي... إن كان ذلك للجميع على حد سـواء، فهيّا، أما إذا كان يعني التعامل معي كحالة استثنائية، فأرجوك ألا تفعل».

بالرغم من رجائها، لم يكفّ ألكسندر عن المحاولة حتى شهر حزيران حيث توصّل أخيرا إلى ان يُطلق سـراحها. غير انه اشـترِط عليه ان يكون كفيلا عن سـلوكها، وألا تغادر إيناسـا الأراضي الروسية، فكانت لم تزل متهمة بالإرهاب وبصنع المتفجّرات.

في السجن، أصيب فلادي بمرض السلّ. أرسله الأطباء إلى نيس (Nice) ليتعالج. رفضت إيناسا اللحاق به: كانت حميّتها الثورية قد اشتدّت منذ ان سُـجنت، فلا مجال للذهاب للإستجمام على الساحل اللازوردي (Côte d'Azur) الفرنسـي. ولم تعدّل موقفها بعد إقامة جديدة في السجن دامت تسـعة أشـهر. على العكس، فأوقفت إيناسا من جديد، وهذه المرة بتهمة تقديم المسـاعدة للتمرّد المسلح. ونفيت إلى مزن (Mezen)، على ساحل بحر الأركتيك، مع السجناء السياسيين الأكثر تصلّبا.

هربـت بعد مرور عدة أشـهر، متنكرة بلباس فلاحة، وسـط جمع من المنفييـن البولنديين. كانت خطتها للهرب متقونة. أصبحت إيناسـا حرة. ولكـن دون فلادي، الذي لحقته إلى نيس، ولكن بعد فوات الأوان. هكذا

وصلت المتمرّدة إيناسا أرمان إلى مقهى المانيور، في باريس، وجلست إلى طاولة مع لينين، بعد ان أرهقها هذا العدو الجنوني الذي دام ستة أعوام.

قصة غرامية باريسية

كان عمرهـــا 35 ســـنة عندما التقـــت رجل اللانا، وكانـــت حياتها قد تحطّمت. كان قد تخلّى كل منهما عن حياة هادئة ليعيش عيشـــة مضطربة خفيّة. رأت فيه إيناسا رمزا لعزيمتها وأملها في إنسانية جديدة. أحب لينين الإســـتماع إلى تلك المـــرأة المتصلبة بقدر ما كانت أنيقـــة. ففي باريس، أرضت شـــغفها بالقبعات المزينة بالريش. فبعد محن الســـنوات الماضية، بدت لها العاصمة الفرنســـية مثالا للأناقـــة والرومنطيقية. لاحظت: «كان الرجال يلبســـون البرانيط، والنساء قبعات ضخمة مزينة بالريش. على أرصفة المقاهي، كان العشاق يتبادلون القبل بلا رويّة».

ســـرعان ما استوعبت إيناســـا قواعد الأناقة الباريسية، وبالسهولة نفسها قواعـــد جماعة مقهى المانيور: في أحد الأيـــام، انضمّ اليهم الكاتب إيليا أهرنبورغ[1] (Ilia Ehrenbourg)، ولم يعرف ما يطلب، فأجابت إيناسا عنه: «شـــراب الرمّان. كلنا نشرب شراب الرمان. وحده لينين يشرب دائما كأس جعة كبيرة».

في الصيف التالي، في تموز 1910، فوجئت بأن ســـجّل لينين إســـمها

(1) إيليا أهرنبورغ (Ilia Ehrenbourg) (1891-1967)، كاتب وصحافي روسي من أصل يهودي. كان أحد أول من ندّد بأعمال العنف المرتبطة ببداية الشيوعية، ثم بالمعاملة ستالين السيئة وتقتيل اليهود خلال الحرب العالمية الثانية.

على لائحة الدعوات الرسـمية للمؤتمر الإشـتراكي الدولي في كوبنهاغن (Copenhague)، مع روزا لوكسـمبورغ (Rosa Luxemburg) وتروتسـكي (Trotski) وبليخانـوف (Plekhanov). كانـا حينذاك يـكادان لا يعرفان بعضهمـا. كانا متفقين على الصعيد الفكـروي، ولهما طبعان متكاملان، فتطوّرت علاقتهما بسرعة وتحوّلت إلى تقارب تامّ في الرأي.

بعد ثلاثة أعوام، باحت له بالمشاعر التي خالجتها خلال الأشهر الأولى التـي تلت لقاءهما: «كنت لا أعرف ماذا أفعل بنفسـي، كنت متضايقة، غير مرتاحة، أحسـد أولئك الناس الطيبيـن الذين كانوا يدخلون ويتكلمون معك[1]». استلزمت علاقتهما فترة لا بأس بها من الوقت قبل ان تنعقد، كما جرى مع ألكسندر، ثم مع فلادي. فلم تزل إيناسا تخشى الوثوق بالرجال.

وبسـرعة، لم يعد يسـتغني عنها منظِّـم الثورة المسـتقبلية، فانتقلت إلى جـادة راي (Reille) مع ولديها، فارفارا (Varvara)، إبنة ألكسـندر، وأندريه (André)، إبن فلاديمير، في شـقة تشـرف على حديقة مونسوري (Montsouris)، على مقربة من شـقة لينين، شارع بونييه (Baunier). غير انهـا كانت لم تزل متزوجة من ألكسـندر أرمان، كمـا كان لينين من ناديا كروبسـكايا. يتصوّر المرء حرجا في التعرّف بين المرأتين. مع ذلك، وعلى غير انتظار، نشأت بين إيناسـا وناديا صداقة متينة. كان التزامهما بالحركة النسـويّة جامعـا بينهما، وأقوى من الغيرة التي كان مـن الممكن ان تفرّق بينهما.

---

(1) في روبارت سرفيس (Robert Service)، لينين. سيرة حياة (*Lenin. A Biography*)، لندن، دار نشر ماكميلان (Macmillan)، 2000.

تقاســمتا المهمّات في جوار لينين: أخذت ناديا على عاتقها المراسلة مع الناشــطين في روسيا، وإيناسا المراسلة مع بقية الناشطين الشيوعيين في أوروبا. كانت المرأتان تتعاونان تعاونا وثيقا. كانت ناديا، التي لم تســتطع تأسيس أسرة مع زوجها، تحب ان تكون بصحبة إيناسا وأولادها.

أنجليــكا بالابانــوف (Angelica Balabanoff)، الشــيوعية المناصرة للحركة النسويّة، والتي هجرت موسوليني لتلحق بلينين، لم تكن تحب هذه الدسّاسة. قالت: «لم أرحّب بها». ثم شرحت موقفها: «كانت متحذلقة، بلشــفية 100% في لبســها، ذي النمط الصارم دائما، وكذلك في طريقتها في الكلام وفي التفكير[1]». بالنسبة لأنجليكا، كانت إيناسا لينينية متصلبة اكثر من لينين نفسه. إذ ان القائد كان في تلك الفترة يعيش حالة اضطراب وحيرة كبيرين. كان يطلّ على خرائب. أحبطه تملّص الناشطين «المُصفّين» الذين راحوا يشــيدون بالعودة إلى النشــاطات الشرعية. كان يدرك ان عليه ان ينظّم أموره لينشر فكره. كان يحسّ بالإنهاك اكثر فأكثر، ويصعب عليه احيانا متابعة مجرى الأمور دون عصبيّة.

كانت ناديا قلقة عليه. استنجدت بأمه، الوالدة أوليانوف، وأخته الشابة، أنا. فاستخلصن وجوب إرساله إلى مكان استجمام مناسب، لمدة اسبوعين علــى الأقل. واخترن نيس. أرســلنه وحده، لكي ينعــم براحة كاملة. كتب إلى أنا: «أســتريح في نيس، شــيء لذيذ، الهواء فيها حارّ، ننعم بالشمس وبالبحر». غير ان أيام التعطّل العشــرة كانت تشــكل أقصى حدّ بالنسبة

---

(1) أنجليكا بالابانوف (Angelica Balabanoff)، حياتي كلثوروية (*Ma vie de rebelle*)، باريس، بالاند (Balland)، 1981.

للينين صاحب النشاطات الكثيرة.

بمساعدة ألكسندر المعتادة، استأجرت إيناسا في تلك الأثناء بيتا في الشارع الكبير للونجومو (Longjumeau). كان نشر فكر لينين يستوجب تدريسه. فأنشئت هناك أول مدرسة إجتماعية ماركسية. كان المكان - الذي تحوّل اليوم إلى مطعم أطباق تركية منقولة، اسمه كباب لينين (*Kebab Lénine*) -يتسع لثلاثة تلاميذ. استأجرت ايضا مشغل حدادة، والبيت المجاور له، حيث ستُقام الصفوف. أمّنت الأثاث، وأشرفت على البرنامج يوميا. افتتحت المدرسة في 11 حزيران، «والجو حارّ لا يطاق»، على حدّ قول ناديا، بحضور 18 طالبا. كان بينهم أبرز وجوه الشيوعية، ما لم يمنع المعلّمين من المشي حفاة القدمين في الصفوف.

كان لينين وناديا يعيشان في الطرف الثاني من البلدة، لكن يتناولان العشاء عند إيناسا كل مساء. احيانا، كان الطلاب يستلقون في الحقول وينشدون الأغاني. وكان لينين ينضمّ اليهم. وثق العمل سويا على تحقيق هذا المشروع المشترك الروابط بينهم. بالرغم من الشكوك التي نشأت في باريس، اعتقد كثير من الرفاق ان «الصفقة» بين لينين وإيناسا قد تمّت في لونجومو. أدلت هي بروايتها الخاصة في رسالة وجّهتها إلى لينين سنة 1914:

«فقط في لونجومو، خلال الصيف الذي كنت أنجز ترجماتك، اعتدت عليك قليلا [...]. كنت أحبّ الإستماع اليك، وخاصة النظر اليك وانت تتكلم. أولا، كانت ملامح وجهك تنتعش إلى حدّ كبير، وكنت تنشغل إلى درجة انك لم تكن تلاحظ اني أراقبك. [...] حينذاك، لم أكن مغرمة بك،

لكني كنت احبك كثيرا[1]».

لم تفت هذه العلاقة العاطفية أحدا. ذكر الإشتراكي الفرنسي شارل رابوبو (Charles Rappoport) الذي كان يرتاد المدرسة: «لا يكفّ لينين، بعينيه المغوليتين الصغيرتين، عن النظر إلى تلك الفرنسية الشابة». استنكرت والدة ناديا ذلك الوضع غير اللائق. حاولت ان تقنع ابنتها بالخروج منه. فاقترحت ناديا على لينين ان تهجره في صيف 1911، ليعيش قصته مع إيناسا. لم تكن المرة الأولى التي تقدمت فيها اليه بهذا العرض. طلب منها ان تبقى. إذ لم يكن يستغني عنها هي ايضا. كانت ناديا تشاركه الرؤيا. كانت تفهمه حق الفهم، وتؤمّن له، في مسارهما المستمر، استقرارا ومعالم. كانت إيناسا ترضي فكره وشغفه، وتعيده إلى مستوى مجرّد إنساني، مستوى المشاعر. كان الإثنان يحبان بيتهوفن (Beethoven)، وقد كيّفا شخصيتيهما على شخصيات رواية شرنيشفسكي (Chernyshevsky)، *ما العمل*؟ كانا يتصوّران نفسيهما في دور البطل والبطلة[2].

في أواخر صيف 1911،عادوا إلى باريس بعد إقامتهم في لونجومو، واستأجرت إيناسا شقة في 2 شارع ماري روز (Marie-Rose)، في بناء

---

(1) كارتر ألوود (Carter Elwood)، «لينين وأرمان. شهادة جديدة بشأن قضية قديمة» (« Lenin and Armand. New Evidence on an Old Affair)، *Canadian Slavenic Papers*، آذار 2001.

(2) بشأن العلاقة بين لينين وإيناسا، أنظر برترام د. ولف (Bertram D. Wolfe)، «لينين وإيناسا أرمان» (« Lenin and Inessa Armand»)، المجلة السلافية (*Slavic Revue*)، الجزء الثاني والعشرون، رقم 1، آذار 1963.

يجاوز الذي سيسكنه لينين وناديا بعد ذلك. وإذ لم ينجب الزوجان، عوّضا عن ذاك النقص بأولاد إيناســـا. كانا يقولان لأندريه، إبن إيناسا من فلادي: «أنت بلشفي».

نشـــأ التكافل بين الأسرتين شيئا فشيئا. فقد توصل لينين إلى إقناع ناديا انه لن يهجرها أبدا. وعليه، فقد قبلت بوجود إيناسا في حياتهما، طيلة ست سنوات من حياة مشتركة بين ثلاثة.

الزوجان والعاشقة

لكن امرأة واحدة – ولا حتى اثنتين – لم تكن تكفي لإرضاء فلاديمير إليتش. فقد ضاعفت تجربة لونجومو من طموحه. كان عليه إيجاد وســيلة أخرى لإفهام فكره، وصولا إلى روسيا. في الصيف التالي، ذهب لينين وناديا إلى كراكوفي (Cracovie)، التي كانت حينذاك تابعة لبولندا النمســاوية. لم تكن الشرطة النمساوية تتعاون مع الأوكرانا، الشرطة السريّة الروسية، فيتمكن لينين بحرّية أكبر من نشـــر رسائله الهجائية. كانت ناديا قد مهرت في فن محو آثارهما، فاتفقت مع الفلاحات في الســوق من أجل إيصال رسائلها إلى داخل روســيا. شرع لينين في تأســيس صحيفة *برافدا* (*Pravda*)، أي «الحقيقة». في ســان بيترسبورغ (Saint-Pétersbourg)، لم يكن الناشرون متحمسون. فلم يكن بعد بالنسبة لهم إلا مشاغبا من المشاغبين. كان عليه ان يوفد مرسولا لمحاولة إقناعهم. فاختار إيناسا، التي كانت لا تزال تبحث عنها الشرطة السرية بجدّ.

مهــرت هي أيضا في فـــن التنكّر. كـــرّرت نموذج هربهـــا الناجح من المنفـــى، حينما تنكّرت بشـــكل بولندية، فعبرت الحدود الروســية بجواز

سـفر فلاحة اسمها فرنسيسـكا (Francisca)، تلبس جزمة قديمة وشالا. لم تنخدع الشـرطة، لكنها لـم توقفها. الآن وقد باتـت مقرّبة من لينين، أصبح لإيناسـا أهمية أكبر وهي حرّة طليقة مما لو كانت سجينة. فضلت الشـرطة اتباعها. لربما قادتها إلى الناشـط المتطرّف. لم يتأثر الناشـرون قطّ بفصاحة الفرنسـية الروسية. لم تكن الشـرطة لتتركها تغادر البلاد دون اسـتنطاقها من أجل الحصول على معلومات بشـأن دسائس لينين. فألقي القبض على إيناسا في 14 أيلول بمناسبة اجتماع نسويّ. وخضعت لتحقيق دام أسـبوعين. لكنهـا لم تتراجع وبقيت تدّعي انها الفلاحة فرنسيسـكا. سـجنت في عزلة تامة خلال ستة أشهر. اضطرت إلى المجاهدة من أجل الحفاظ على نظافة جسـدها، وعلى هويتها، وحتـى على صحتها العقلية الأساسية. كان ألكسـندر، الدائم الوفاء، يزورها بانتظام. ونجح مرة أخرى في أن يُطلق سـراحها بشكل مؤقت، في 20 آذار 1913، مقابل 5400 روبـل، مبلـغ باهظ، كان يفوق عشـر مرات الأحـكام المرعيّة. لم يكن هناك ما يدعو للإبتهاج إذ كانت سـتتمّ مقاضاة إيناسا بعد عدة أشهر. لم تنتظر محاكمتها وهربت سـرًا. فوافت أسـرتها الجديدة، لينين وناديا، في كراكوفي:

«يا عزيزي، أنا الآن في النمسـا وقد قرّرت البقاء فيها لفترة من الزمن. ليس هناك ما أرويه بهذا الشـأن. سـأبقى في الجبـل... تأتي الغيوم إلى نافذتي. كم أنا نادمة لأني أطعتك».

إذن كان ألكسـندر هـو من دبّـر هروبها. تذكرت ناديـا تلك الفترة: «كنا نتمشـى كثيرا، وقد زرنا كزارنيستاو (Czarnystaw)، وهي بحيرة فائقة الجمال. تعلّقنا جميعنا كثيرا بإيناسا، التي كانت تبدو دائما مرحة. كان كل

شيء يبدو أكثر حرارة وحياة في حضور إيناسا[1]».

كان الجو بين الثلاثي دائما مشرقا. قبل وجبة الغداء، التي كانت تقدّم عنـد الظهر، كان كل منهم يعمل في مـكان منعزل مختلف من الحديقة. كانت إيناسـا تعزف للينين *سـوناتة في ضوء القمر* (*Sonate au clair de lune*)، للموسيقار بيتهوفن، فيما كانت ناديا تتأمّل فيها، وتسجّل أنه «كان من الممتع جدا العمل في جو موسيقي».

كانت ناديا تقدّر ان تكتشـف إيناسـا في إطـار اكثر حميمة. كانت المرأتـان قد التقيتا في باريس، لكن الجمع هناك كان غفيرا. في كراكوفي، كانتا تعيشان في حلقة ضيقة من الرفقة المعزولة. شرحت تقول: «تروي لنا أمورا كثيرة عن حياتها وعن أبنائها. أبرزت لي رسائلهم وبدت، وهي تتكلم عنهم، كأنها تشعّ حرارة وحماسا».

كراكوفي، النهاية...

في عيد الميلاد من سـنة 1913، بدت السـعادة فـي خطر: تدهورت صحة ناديا التي كانت تعاني من مرض بازدو (Basedow). وجب استئصال تـورّم دَرَقي لها. جرت العمليـة الجراحية في برن (Berne)، دون بنج. كان من المنتظر ان تكون فتـرة النقاهة صعبة. فقرّر لينين ان يضع حدّا لعلاقته بإيناسـا. كان عليه ان يحمي ناديا التي كانت أضعف من اي وقت مضى. قضت إيناسا أعياد نهاية السنة في باريس، حيث كانت تتشوّق اليه كثيرا:

(1) فيما يخص ذكريات ناديا بشأن إيناسا أرمان، أنظر ن. ك. كروبسكايا (N. K. Krusp-kaïa)، *Pamiati Inessy Armand*، موسكو، 1926.

«عزيزي،

أنـا في مدينـة النور، وأول انطباع لي يثير اشـمئزازي. كل شـيء هنا يغيظني. الشـوارع تحت سماء غائمة، النساء المتصنعات للغاية... عندما وصلت إلى شـارع أورليان، عاودتني الذكريات من كل جانب. حزنت إلى درجة الخوف. أتذكر مزاجي في الماضي، ومشاعري، وكم آسف أن تكون قـد ولّت أبدا [...]. أعرف أنك لن تعود أبدا. سـألتني إذا كنت غاضبة لأنـك أنت من قـرّر الإنفصال. لا، لأني لا أعتقـد انك فعلت ذلك من أجلك أنت».

يبدو أن لينين لم يكن وحده من تفتقده. فتابعت:

«في باريس، كان هناك حسـنات كثيرة فـي علاقتي مع ن. ك. (ناديا كروبسـكايا). قالت لي في نقاشاتنا الأخيرة إنني أصبحت عزيزة جدا على قلبها، وقريبة بالنسـبة لها، وأنا أيضـا أحببتها منذ أول لقاء تقريبا. كان لها كثير من الفتنة والوداعة. عندما كنت في باريس، كنت أحب أن أزورها في مكتبها، أن أجلس إلى طاولتها وأن أتحدّث معها عن شـؤون الحزب، ثم عن أمور كثيرة متنوعة».

ثـم تكفهرّ الأفـكار. بعدما انتحرت إحدى الرفيقات، فكرت إيناسـا بالأسوأ: «كان موت تامارا (Tamara) أمرا فظيعا لا قدرة لي على تجاوزه. وفي الوقت نفسه، هناك ما يثير الرغبة». كان عليها ان تهجر تلك المدينة حيـث كانت ذكرى لينين تحوم في كل مـكان، وتعرّضها للهلاك في كل حين:

«أزور الأماكـن التي ألفناها، وأقدّر، أكثر من أي وقت مضى، المكانة الكبرى التي كنت تشغلها في حياتي، هنا، في باريس. كل نشاطاتنا ملأى

بآلاف من أفكارك. لم أكن مغرمة بك كل الوقت، لكن بلى، كنت أحبك. حتـــى الآن، قد أســتغني عن قبلاتك لو أســتطيع فقــط ان أراك. كم قد يفرحني أن أكلمك احيانا، دون التســبّب بالأسى لأحد. لمَ عليّ التخلّي عن ذلك؟»

فـــي حزيـــران 1914، أمر لينين إيناســـا ان تعيد له «رســـائلهما» لكي يحرقها. أراد ان يمحي كل أثر لمشاعرهما. أسرّت إليه في رسالة كتبتها في باريس ولم ترسلها: «إننا مفترقان... هذا يجرحني كثيرا». غير انه في بداية الحرب، ألقي القبض على لينين بتهمة التجســـس. نالت إيناســـا أن يُطلق ســـراحه بدفع مبلغ مالي جمعته في سويســـرا. لحقت بها ناديا، فاستأجرتا معا شـــقة تقع في 11، شارع ديســـتلفاغ (Diestelweg)، في برن. استأنف الثلاثي عيشـــه حيث كان توقف. أفضت ناديا بالقول في مذكّراتها: «كنا نتنـــزه في أطراف الغابة خلال ســـاعات. كنا نشـــكل ثلاثيا، أنا وفلاديمير إيليتش وإيناســـا. كنا نجلس أحيانا على جِذل شـــجرة يكسوها الطحلب. كان إيليتش يعيد قراءة نصوصه، فيما كنت أدرس الإيطالية. كانت إيناســـا تلبس تنورة وتتنعّم بحرارة الشمس».

اســـتغلّت إيناسا فرصة هذه الإقامة في الجبل أولا لتحرير رسالة هجائية عـــن الحب الحرّ. أرادت المدافعة بحمـــاس عن حرية المرأة. فبعد حدث حصل قبل ســـنوات، وكانت لا تزال تعيش مع ألكســـندر، قرّرت ان تتبنى قضية المرأة. كانت حاملا بطفلها الثالث عندما مُنعت من دخول كنيســـة بوشـــكينو. إذ حسب المعتقدات الأرثوذكســـية، كان حملها نجاسة، فلا يمكنها تلقي البركة. هي التي طالما كانت مؤمنة، شـــعرت مرة أخرى بأنها منبوذة، بل أسوأ من ذلك، محتقَرة لما كانت.

بعثت برسالتها الطاعنة إلى لينين، على أمل ان تجد فيه قارئا ألمعيّا. لكن كانت لإصغائه حدود معيّنة: دمّر استنتاجاتها، وعمل على إخماد اي رغبة لديها في إعادة الكرّة. كان لينين يمارس الحب الحر دون ان يؤمن به. ردّ يقول: «القبلات الزوجية من دون حبّ نجسة. فما هو العكس حسب تعريفك؟ هيام متقلّب؟ أي، بالتحديد، ما يفتقر أيضا إلى الحب. وبالتالي، فإن هذه القبلات الخالية من الحبّ، بما أنها متقلّبة، فهي منطقيا عكس القبلات التي يتبادلها الزوجان من غير حبّ. أمر غريب، أليس كذلك[1]؟»

غريب خاصة من قبل رجل يعيش بين زوجته وعشيقته. وعليه، حاول إقناعها دون أي مراعاة بعدم معالجة هذا الموضوع:

«17 *كانون الثاني* 1915،

صديقتي العزيزة،

أنصحك برسم خطة لرسالتك الهجائية تكون مفصّلة قدر الإمكان. وإلا بقيت أشياء كثيرة غامضة. ثمة رأي آخر أودّ التعبير عنه هنا. أنصحك بإلغاء الفقرة 3 *بأكملها، «مطالبة النساء بالحب الحرّ». فهذه مسألة لا تهمّ الطبقة الكادحة، بل هي مطلب برجوازي. ومن ثم، ماذا تعنين بهذه الجملة؟ ماذا يجدر الفهم منها.*

1. *الحرية تجاه الحسابات المادية والمالية في المسائل الغرامية؟ [...]*

3. *تجاه الأحكام المسبقة الدينية؟*

تجاه ما يحظّره الأب، الخ؟

---

(1) نشرت بضع الرسائل التي كتبها لينين لإيناسا في الجزء الخامس من *Leninskii Sbornik*، المؤلفات الكاملة، في موسكو.

5. تجاه أحكام «المجتمع» المسبقة؟ [...]
7. تجاه قيود القانون، والمحاكم والشرطة؟
8. تجاه العامل الجدّيّ في الحبّ؟
9. تجاه الحمل؟
10. حرية الزنى؟ الخ».

لم تكن هذه الإعتبارات النسائية فيما يخص الحق في الحب الحرّ بالنسبة للينين غير «هراء وغباء». ليس إلا. ولِمَ لا تنظّم «نقابة للبغاة[1]»! ها هي تكتشف عند لينين بعدا لليلينيّة أقلّ شهرة، ألا وهو حدّه لحرية النساء الجنسية.

وخلق لينين المرأة

بعد عدة سنوات من الفرار عبر القارة الأوروبية وعدد مماثل من سنوات السجن، نشأ للينين صيت لدى ناشطات القضية الشيوعية: صيت «منوِّم مغنطيسيّ»، يتعذر الإنفصال عنه، لكن من الأفضل الإبتعاد عنه[2]. أعجبت

(1) ر. ألوود (R. Elwood)، إيناسا أرمان، ثوروية مناصرة للحركة النسائية (*Inessa Armand, Revolutionary and Feminist*)، مطبعة جامعة كمبريدج (Cambridge University Press)، 1992، ص. 130.

(2) جورج برداويل (Georges Bardawil)، إيناس أرمان، المرة الثانية التي سمعت عنها (*Inès Armand, la deuxième fois que j'entendis parler d'elle*)، باريس، ج.-س. لاتاس (J.-C. Lattès)، 1983.

روزا لوكسمبورغ، رئيسة الإشـتراكية الألمانية والحركة النسويّة الناشئة، سنة 1907، في مؤتمر الدُوليّة الثانية في شـتوتغارت (Stuttgart)، بمظهر ناشط كان ما زال مجهولا. همست في أذن صديقة كانت برفقتها: «أنظري جيدا إلـى هذا الرجل، إنه لينين. تأملي في هذه الجمجمة التي كلها قوة وإرادة. جمجمة فلاح روسـي حقيقي، لها بعض الملامح الآسيوية الطفيفة. هذه الجمجمة عازمة على هدم الجدران. قد يُدمَّر، لكنه لن يرضخ».

كان لينين يعرف منذ طفولته كيف يسـتميل دعم وعون النساء، اللاتي كـنّ كثيرات حوله. لم يكـن يثق لينين إلا بهنّ. كان يحتاج إلى ان يحيط نفسـه بجوّ ودّي يختلف عـن جوّ أخصامه السياسـيين. وإذ أدرك باكرا جدا أهمية الرهان الـذي تمثله هذه المجموعة المنكّدة، ادّعى انه مناصر للمرأة، قال: «لا يمكن ان تقوم حركة جماهيرية حقيقية من دون النساء... لا يمكننا تطبيق دكتاتورية الطبقة الكادحة دون وقوف ملايين النسـاء إلى جانبنا». بالنسبة للينين، على *المرأة* ان تتحرّر بصفتها عاملة؛ اي بالإنتقال من الحقل إلى المصنع. وهكذا، أصبح الطفل المدلّل لدى النسـاء بفضل رغبته في ضمّهنّ إلى حركة تحرير الطبقة الكادحة، وكنّ يتسامحن معه في كل أمر.

غير أن أفكار لينين فيما يخص المرأة لم تترك مجالا للمخيّلة. إلى درجة اننا نشـك في موهبته بمشاطرة شعور الإناث. كان يبدو له استغلال جنس للجنس الأخر مسألة تافهة جدا، لا بل مضرّة:

«أنا احذر من النظريات الجنسية ومن كل تلك الكتابات المختصة التي تنمـو بوفرة فوق زبل المجتمع البرجـوازي. [...] أعتبر ان هذا الفيض من النظريات الجنسية، ومعظمها فرضيات، وفرضيات كيفيّة في اكثر الأحيان،

مصدرها حاجة شخصية لتبرير حياة خاصة غير طبيعية او متضخمة أمام القيم البرجوازية». فالإهتمام الكبير بالمسائل الجنسية هو في أقصى الحالات مضادّ للثورة: «قد يبدو ذلك عملا تخريبيّا قدر ما نشاء، لكنه، في حقيقة الأمر، برجوازي في الصميم. إنه قبل اي شيء دُرجة لدى المفكرين».

بيد ان لينين كان يعرف كيف يستميل «تعاطف» الوجوه الرمزية المبكرة للحركة النسوية، منها إيناسا أرمان وألكسندرا كولونتاي (Alexandra Kollontaï) وأنجليكا بالابانوف. سيساعدنه على استمالة النساء سياسيا، بالتوفيق بين نظريته للثورة والحركات النسوية لمطلع القرن العشرين.

كانت ألكسندرا كولونتاي، التي عملت فترة كمعاونة للينين، تسعى من أجل تغيير العقليّات: اقترحت نوعا من «الشيوعية الجنسية». أرادت ان تسقط الحواجز التي تحدّ من الحرية والإنفراج الشخصي في عهد القياصرة.

بالرغم من مخالطة لينين لعدد كبير من النساء، فقد كان يستخفّ بعض الشيء بالمسائل الجنسية وبالحياة الزوجية. كان قد بتّ منذ زمن طويل بمفاهيمه، ولم يكن من الوارد ان يغيّرها. عندما كان يقترح عليه ان يشمل في برنامجه هذه المسائل، كان يشهرعلى الفور أقوى حججه:

«أرجوكم، هل الوقت ملائم لمحادثة العاملات طوال أشهر بشأن معرفة كيف نحب وكيف يجب ان نُحَبّ؟ حاليا، يجب ان تتجه كل أفكار الرفاق، ونساء الشعب الكادح، نحو الثورة العمّالية. فهي وحدها تؤسس قواعد تجديد حقيقي للممارسات الجنسية. حاليا، هناك مشاكل يجب حلّها، هي أهمّ بكثير من مسألة أشكال الزواج عند زنوج أستراليا او مسألة الزواج بين أقرباء العصب في العصور القديمة».

في بداية ذاك القرن، كانت كتابات رجل اسمه سيغموند فرويد (Sigmund Freud) تشــغل أفكار الكثيرين. لم يكن فلاديمير منهم بالتأكيد: «الكتابة الأكثر انتشـــارا في هذه الأيام كرّاسة عن المسألة الجنسية لرفيقة شابة من فيينـــا (Vienne). هذا هراء! النقاش حول فرضيات فرويد تعطيك ســـيماء «الثقافــة» وحتى العلــم، لكنه ليس في الحقيقة إلا عمـــلا مبتذلا لتلميذ مدرسة».

وإذا ما بالغ الشباب الإشتراكيون، المهتمّون كل الإهتمام بهذه الوجهات الجنسية الجديدة، في دراسة اللاوعي، تعرّضوا لتوبيخ لينين:

«إن حركة الشـــباب مصابـــة، هي أيضا، «بالحداثـــة» في موقفها من المســـألة الجنسية. هذا الموضوع يشغلهم بشكل مفرط. [...] هذا الخطأ مســـيء وخطير بنوع خاص. لأنه قد يؤدي بســـهولة عند بعض الرفاق إلى المبالغة من الناحية الجنسية، وإلى فقدان الصحة والنشاط».

كالمعلم الروســـي في أواخر القرن التاسع عشـــر، كان لينين يوصي - الآخرين - بكبح الأهواء، والكبت الجنسي:

«بالرغـــم من أني لســـت أبدا متنســـكا، فإن هذه «الحياة الجنســـية الجديدة» المزعومة للشبيبة - وأحيانا ايضا للناضجين - تبدو لي برجوازية محضة، كامتداد لبيت الدعارة البرجوازي. [...] لا بد انكم تعرفون النظرية الشـــهيرة التي تقول إن إرضاء الحاجات الجنســـية سيكون، في المجتمع الشيوعي، أمر بسيط كشرب كوب من الماء، ولا يزيده أهمية. نظرية كوب الماء هذه جعلت شبيبتنا تجنّ بالكامل».

بالنســـبة لـــه، لم تكـــن الخطابـــات التي كانـــت تلقيها النســـاء في المؤتمـــرات السياســـية إلا ترّهات. ســـالكلارا زاتكيـــن (Clara Zetkin)،

النظريّة الألمانية الكبيرة للحركة النسوية منذ نشأتها: «هل يمكنكنّ ان تضمنّ لي جدّيا أنكنّ تعالجن، في اجتماعاتكنّ النسائية، المسألة الجنسية من وجهة المادّية التاريخية؟ إنه أمر يقتضي معارف عميقة ومتنوعة، وكذلك الحوزة على معلومات هائلة. أتملكن الطاقة لذلك؟»

كان لينين بالفعل يردّد باستمرار انه لم يلتق أبدا بامرأة قادرة على قراءة *الرأسمال* (*Le Capital*)، ولا على فهم جدول مواعيد القطارات، ولا حتى على لعب الشطرنج.

فيما يخصّ مسألة الجنس، يبقى متزمّتا رافضا لتحرير النساء جنسيا، ومشاكسا بشأن حتى مفهوم اللذة:

«أنا لا أثق أبدا بصواب وثبات نضال النساء، اللاتي تختلط لديهنّ الرواية الشخصية بالسياسة. ولا بالرجال الذين يلاحقون كل النساء ويغرمون بهنّ جميعا. لا، لا، هذا لا ينسجم مع الثورة[1]!»

استنكر برنامج المنفي السابق في سيبيريا بشدة اي شكل من أشكال الزهد: «أجساد سليمة، أدمغة سليمة: لا ناسك، ولا زير نساء، ولا ألماني فظ، كحال وسط. يدّعي لينين المحتشم انه لا يُفسَد. لقد حاول على الأقل ان يقنعنا بذلك. فهو لم يستبقِ لنفسه من «لا زاهد ولا زير نساء» إلا الوصية الأولى.

---

(1) كلارا زاتكين (Clara Zetkin)، «ذكريات عن لينين، كانون الثاني 1924» (Souvenirs « sur Lénine, janvier 1924)، منشورات البلشفة (*Cahiers du bolchevisme*)، العدد 28 (أول تشرين الأول 1925) والعدد 29 (15 تشرين الأول 1925).

فريق قلعة الكرملين (Kremlin) الثلاثي

بـــرن (Berne)، آذار 1917. كانت أســـرة لينين تجلي الصحون عندما أتى أحد الرفاق ينبىء ببداية الثورة. ركض فلاديمير إلى المكتبة الروسية في المدينة. أدرك ان لحظة الإنجاز، هدفه، هدف كل حياته، قد حانت الآن. كتبت إيناسا: «نحلم جميعنا بالرحيل[1]».

كان على لينين ان يعود إلى روسيا بكل الوسائل. حاول دخول ألمانيا، حاملا جواز سفر سوَيْديّ أخرس، لألا يضطر إلى الكلام وإثبات جنسيته. لكنه فشـــل. فإذا لم يتمكن لينين الذهاب إلى ألمانيا، فلتأتِ ألمانيا إليه: اتصلـــت به الإســـتخبارات الألمانية بواســـطة الرفيق الرأســـمالي جاكوب فورســـتنبرغ (Jakob Fürstenberg)، وعرضت عليه تنظيم نقله إلى روســـيا. غير ان الرحلة في نظرالألمانيين كانت تقتصر على تســـيير شخصين فقط. أبـــرق لهم زينوفياف (Zinoviev)، وكان معـــه، قائلا: «يريد العمّ مزيدا من المعلومات. مرور رســـمي فرديّ غير مقبول[2]». فـــي نهاية الأمر، تمّ نقل إثنين وثلاثين شخصا.

كتب لينين إلى إيناســـا: «آمـــل ان نبدأ رحلتنا معـــك. معك، أتمنى ذلك». إذا كان يريد الإستيلاء على السلطة، كان عليهما الإثنتين ان تكونا إلى جانبه. خُتم القطار، وأعطي وضعا قانونيا أجنبيا، لألا يتعرّض للتوقيف.

---

(1) في لاريسا فاسيليافا (Larissa Vasilieva)، زوجات الكرملين (*Kremlin Wifes*)، نيويورك، منشورات أركاد (Arcade Publishing)، 1992.

(2) مايكل بيرسون (Michael Pierson)، القطار المقفل (*The Sealed Train*)، نيويورك، فونتانا (Fontana)، 1975.

كان لينين قلقا إذ رمى بنفسه كليّا بين أيدي العدوّ، القيصر فيلهلم الثاني (Guillaume II)، إبن عمّ القيصر الذي كان ذاهبا لخلعه. وصلوا إلى سان بيترسبورغ دون عائق. ألكسندرا كولونتاي، الشديدة الإعجاب بلينين، هي التي أتاحت استئجار القطار المختوم الذي أعاده من منفاه السويسري عبر خطوط الجبهة الألمانية، بفضل مهارتها في جمع الأموال. وهي التي استقبلته بباقة من الزهور في محطّة فنلندا (Finlande) في 11 نيسان 1917، وسط جمهور مبتهج.

في الحكومة الناتجة عن ثورة أوكتوبر، وظّف لينين رجاله. ونساءه. شغلت أخته ماريا موقعا استراتيجيا في إدارة تحرير صحيفة *برافدا*. ترأست إيناسا مجلس موسكو السياسي (Soviet). تألفت الحكومة الجديدة من مفوَّضي الشعب، الذين كانت لهم رتبة وزير. عُيّنت ألكسندرا كولونتاي وزيرة الإغاثة العامّة. لم تفهم إيناسا، التي كانت تلتمس هذا المنصب، لماذا فُضّلت كولونتاي عليها، وارتابت في قيام علاقة بين هذه الأخيرة ولينين. سجلت ألكسندرا ذكرياتها في رواية، *الحب الكبير*. هل كانت فعلا من نسج الخيال؟ وهل العلاقة المتقدة المرويّة فيها كانت علاقتهما؟ من الممكن جدا ان تكون علاقة بين لينين وكولونتاي نفسها هي التي أوحت بحبكة القصة. فهي شاطرته بالفعل العيش اليومي سنة 1915، في سويسرا، وعرف الإثنان فترة من الإختلاط لا يُنكر.

امتعضت إيناسا، فرحلت إلى بوشكينو. استقبلها ألكسندر بكلّ ترحاب، وكان ما زال زوجها الشرعي.

في أيلول 1918، أطلقت امرأة من الأقلية المنشفيك (menchevique) النار على لينين، فكاد ان يموت. سهرت عليه إيناسا خلال نقاهته،

فأهملت ألكســندر من جديد. وأعاد التاريخ نفســه. شــكّل فلاديمير ونادنيا وإينا ســا إئتلافا أدّى إلى ولادة الإتحاد الســوفياتي، وحكم أول دولة شــيوعية، انطلاقــا من الكرمليــن. ولكن، لم تغــب ناديا، ذات الصحــة الواهنــة، ولا لينين، الــذي أضعفته جراحه، عن الســاحة في الطليعة.

فــي بداية 1920، كانت الحياة في الكرملين والوظائف السياســية التي كانت تشــغلها قد أنهكت إينا ســا. إذ كانت بالفعل مســؤولة عن قضية الفلاحين في اللجنة المركزية البلشفية. المهمة يمكن تصوّر حجم ومشقّتها في بلد واســع الأرجاء كان فيه ثلاثة أرباع الســكان من الفلاحين. أجبرها لينين على الذهاب في عطلة إلى سوتشــي (Sotchi)، على شــاطئ البحر الأسود، «للإستجمام». عند وصولها، باشرت بكتابة يومياتها: «سأكتب كل يوم بالرغم من اني أحس بثقل في رأســي، وأشــعر كأني تحوّلت إلى معدة تجترّ طيلة النهار». عاودتها الأفكار السوداء التي انتابتها في باريس: «أتذكــر لعازر الإنجيل، الذي فاق من بين الأموات، وقد بقيت سِــمات الموت ظاهرة على جســده. فكان يُرعب الناس. أنا أيضا كالميت الحي، وهذا أمر فظيع[1]».

أعياها حبها لذاك الرجل الــذي أخلص كليّا لقضيته، فدوّنت ملاحظة أخيرة: «لم أعد أبالي اليوم بأحد. سئمت كل الناس. لم يبق لي من المشاعر الوديــة إلا تجاه الأولاد وف.إي. (V.I.). عداهم، فإن قلبي كالميت. كما

---

(1) نشر بافال بودلياشوك (Pavel Podliashuk) آخر نصوص كتبتها إينا سا أرمان، *Tova-rischch Inessa*، موسكو، 1984.

لـو ان كل أربِعة الحب قد جفّت داخلي، لأنــي تخليت عن إرادتي، عن شغفي بـ ف.إي وعمله».

غير انها وجدت القوة أو السأم لتكتب، بشأن الرومنطقيين، ان «الحب يحتــل المرتبــة الأولى في حياتهم، وأنه يتقدّم على أي شــيء آخر». مع الأسف، لم يكن لينين رومنطقيا.

فــي 11 تشــرين الأول، في الســاعة الثالثة صباحا، اســتيقظت بولينا فينوغرادسكايا (Polina Vinogradskaïa) على رنين الهاتف، وكانت احدى صديقات إيناســا. كان لينين يخابرها ليبلّغها بوصول جثة إيناسا أرمان إلى محطة كازان (Kazan). إذ انها ماتت في 24 أيلول 1920، عند الفجر، بعد احتضار دام كل الليل.

كان الوقت ما زال ليلا عندما وصلت بولينا إلى المحطة. وجدت هناك لينين وناديا، بصحبة أولاد إيناســا. وقد حضرت نســاء شيوعيات كثيرات ينتظــرن الموكب الجنائزيّ[1]. حوالي الســاعة الثامنــة صباحا، بدأ الجمع الصغير يسير باتجاه الكرملين. أصرّ لينين على ان يسير وراء التابوت مسافة ثلاثة كيلومترات.

دُفنت في أحد جدران الكرملين. وكانت الشاهدة عبارة مقتضبة: «إلى الرفيقة إيناسا، من ف. إي. لينين».

كان لينيــن متأثرا. وقف إلى جانبه ألكســندر وناديا وهما يبكيان. من يــدري اي مــن الثلاثة كان حزينــا اكثر. حضرت أيضا الجنــازة أنجليكا

---

(1) ب. س. فينوغرادسكايا (P. S. Vinogradskaïa)، *Sobytiia I pamiatnye vstrechi*، موسكو، 1968.

بالابانوف، التي لم تتقبّل تدخّل إيناسا في محيط القائد السوفياتي. كادت لا تتعرّف على لينين من شدّة ألمه: «ليس فقط وجهه، بل كل جسده كان يعبّر عن شجن كبير، حتى اني كدت لا أعرفه. من الواضح انه كان يريد البقاء وحده مع حزنه. كان كأنه قد انكمش. غطّت قبعته كل وجهه تقريبا، وبدت عيناه غارقتين بدموع كان يحبسها بصعوبة[1]». لم يسع ألكسندرا كولونتاي، الحاضرة ايضا، إلا ان تعاين أساه: «كان يمشي مغمض العينين، وكنا نتوقع ان يهوي في كل حين[2]».

بكت ناديا جهارا. ارادت ان تكرّم رفيقتها، فحرّرت بنفسها وَفَيات التي رافقتها ايضا جزءا من حياتها. أصبح لينين وناديا وليّيْن على أندريه، الذي كانا يعتبرانه كإبنهما.

خلال كل الفترة الستالينية، بقيت أسرة أرمان موضع احترام، واحتفظت بمزرعتها الشاسعة في بوشكينو، وكذلك بشقتها في 9، شارع ماناج (Manège)، التي أعطاها لينين لإيناسا بعد الثورة. أتاح لهم العيشُ في حميمة المؤسس ان يكونوا في مأمن من حنق خلفه، ستالين (Staline): بقي شخص إيناسا، عشيقة مؤسِّس الشيوعية المحبوبة، لا يُثلب.

---

(1) أنجليكا بالابانوف (Angelica Balabanoff)، إنطباعات عن لينين (*Impressions of Lenin*)، أن أربور (Ann Arbor)، مطبعة جامعة ميشيغان (University of Michigan Press)، 1964.

(2) ذكره مارسال بودي (Marcel Body)، «ألكسندرا كولونتاي» (« Alexandra Kollontai »)، دلائل (*Preuves*)، الجزء الثاني، رقم 4، نيسان 1952.

طاقم سيّدات في الكرملين

أمينات سرّ خاصّات

الكرملين، أيار 1921. أصيب فلاديمير بنوبة[1]. كانت نساء لينين يُدرن ببراعة شؤون الدولة الإشتراكية الجديدة، فعملن على مساندته بعد النزيف الدماغي الذي أصابه وشلّه خلال سنة ونصف السنة. فقد حرم من نصفه الأيمن، وفي بعض الأحيان من القدرة على الكلام، فلم يعد يستطيع الكتابة او العمل. بعد فترة اعتزل فيها الأعمال بالكامل، سمح له الأطباء استئناف نشاطاته عن طريق الإملاء. قامت نساء فقط بهذا العمل الذي كان يفترض ثقة وأمانة: زوجته ناديا، وأخته ماريا وأمينة سرّه فوتيافا (Fotieva). وبالفعل، ما أن وصل إلى الكرملين بعد استيلائه على السلطة، حتى أحاط لينين نفسه *بأسطول* أنثوي حقيقي من أمينات السرّ. كانت من بينهنّ ليديا ألكساندروفنا (Lidjia Aleksandrovna)، السكريتيرة الرئيسية، التي كانت تهتم باستقبال الضيوف الأجانب، وناديا أليلويافا (Nadia Allilouyeva)، زوجة ستالين الشابة. كن يقدّمن له مزيدا من التنظيم والوداعة، ويُتِحن له متابعة عمله الجادّ على رأس دولة مفلسة كانت مهدّدة بحرب أهلية.

إذن، كانت قوى لينين قد ضعفت، فحام حوله الخلفاء. كان تروتسكي

---

(1) موشيه لوين (Moshé Lewin)، «الأشهر الأخيرة من حياة لينين حسب يوميّات أمينات سرّه» (Les derniers mois de la vie de Lénine d'après le journal de ses secrétaires)، منشورات العالم الروسي والسوفياتي (*Cahiers du monde russe et soviétique*)، العدد 2، 1967.

(Trotski) وزينوفيـــاف يطمحان إلى ترأس الحزب. أما ســتالين، صاحب الحلول المتطرّفة، فكان يمنّي النفس بمشـــاريع أخرى. كان يتحفّظ بشأن لينين. لم يعد «الشيخ[1]» يمسك بزمام الأمور، فيصلح إحالته إلى التقاعد، إذ لـــم يعد له ضلع في أمر. غير انـــه كان لا يزال يحتاج اليه: كان يريد ان يعيّنه كخلفه الرســـمي على رأس الحزب. إذ كيـــف يحكم مملكة مترامية الأطراف كروسيا الشيوعية دون موافقة مؤسّس الثورة؟

في تشـــرين الأول 1922، عاد لينين لقيادة شـــؤون البلاد. لأي مدّة من الزمـــن؟ كان ضعيفا يعلم انه على حافّة الموت. مســـاء عيد الميلاد، أملى على إحدى سكرتيراته «رســـالته إلى المؤتمر»، وكانت في الحقيقة بمثابة وصيّته السياســـية: «أعتقد ان وجود أعضاء مثل ســـتالين وتروتســـكي في اللجنة المركزية يشكل خطرا على الإستقرار [...]. بعدما أصبح أمينا عاما، حصر الرفيق ســـتالين بين يديه ســـلطة فائقة، ولست أكيدا انه يدرك دائما كيفية استعمالها بما يكفي من الحذر». بعد مرور عدة ايام، طلب إضافة التنويه التالي: «ســـتالين فـــظّ للغاية [...] أقترح علـــى الرفاق [...] عزل ستالين عن هذا المنصب». بعدما نُشرت، لم يعد هناك سبيل للرجوع عن المهانة.

وحدها ناديا كروبسكايا كانت مؤهلة لفتح هذه الرسالة بعد مماته. هل

---

(1) رسائل ستالين الى أقاربه، هنا أوردجونيكيدزيه (Ordjonikidzé)، محفوظة في المركز الروسي للحفاظ ودراسة الوثائق في التاريخ المعاصر، وقد ذكرها سيمون س. مونتفيور (Simon S. Montefiore)، بلاط القيصر الأحمر (*La Cour du tsar rouge*)، باريس، دور نشر سيرت (éditions des Syrtes)، 2005 [كتاب الجيب، 2010، بجزئين، لدى تامبوس (Tempus)].

حدّثها قلبها بالرهان الكبير الذي كان يشكّله إرث زوجها السياسي، والذي كان في حوزتها للحين؟ كانت زوجة ستالين، بصفتها سكرتيرة لينين، تعلم ايضا مضمون الرسالة. ما كان رأيها يا ترى في كل ذلك؟

ناديا في وجه ستالين

في 22 كانون الأول، بعد عدة ايام من تعيينه مسـؤولا عن حسـن سير النظام، تشـاجر ستالين بعنف مع ناديا كروبسـكايا. لامها بفظاظة لأنها تركت زوجها «يتعب» وهو يحرّر الرسائل، وهددها بمحاكمتها امام اللجنة المركزية. كان كلامه معبّرا مفيدا: «لماذا يتوجّب عليّ الإنتصاب على قائمتيّ الخلفيتيـن من أجلها؟ إن مضاجعة لينين لا تضمن فهم الماركسـية الينينية تلقائيا. فقط لأنها تستخدم نفس المرحاض الذي يستعمله لينين..».

إذن، بأسـلوب كله رقّة، كشـف سـتالين لناديا بصراحة عن المتاعب التي سـتواجهها بعد مـوت لينين. ثم وضّح قوله، مهدّدا إياها بأسـوأ من محاكمتهـا: إن لم تنصع له، اختلق للتاريخ أرملـة أخرى للينين، وعيّن له زوجة رسـمية أخرى: «إذا لم تغلق فمها، سيدفع الحزب راتبا للعجوز ألانا ستاسوفا (Elena Stasova) - التي كانت صديقة حميمة لإيناسا - بصفتها أرملة لينين الرسمية بدلا منها».

انتظرت ناديا 5 آذار 1923 قبل ان تخبر لينين بالمشـاجرة. جُنّ جنونه، فكتب فورا إلى ستالين:

«الرفيق ستالين المحترم.

لقد تجرّأت على مخابرة زوجتي على الهاتف وإهانتها. وإن هي وافقت على نسيان ما قيل، إلا انها بلّغت الأمر إلى زينوفياف وكامناف (Kamenev)

[...]. لا أنوي نسـيان ما حيك ضدّي، لأن ما يحاك ضد زوجتي يحاك طبعـا ضـدّي. علي إذن ان اسـألك إذا كنت مسـتعدا او لا للرجوع عن كلامك والإعتذار، او إذا كنت تفضل ان تقطع كل علاقة لك بنا».

تسـبّب التوتر السـائد في الكرملين لناديا بحالة يرثى لها. التقتها كلارا زاتكين في تلك الفترة. كانت قد غابت عن أعينها منذ برن، سـنة 1915. كتبت تقول: «بشـعرها السبط، المسرّح إلى الوراء، والمعقوص دون تفنن، وبزتها البسيطة جدا، كانت أشبه بعاملة مرهقة».

أصيب لينين بنوبة جديدة في 10 آذار. لم يعد قادرا على كتابة الرسائل ولا على إملائها. أعلن له ستالين الولاء ونكر ان يكون قد شتم ناديا. طلب من لينين المعذرة. لكن لينين كان قد اتخذ القرار بعدم تعديل وصيته.

بعـد وفاته في كانون الثاني 1924، اضطرت ناديا شـاءت ام أبت إلى البقـاء على علاقة عمل مع سـتالين، خلف زوجها. لكـن المهمة كانت عسيرة: سنة 1925، اختارت تقديم الدعم لكامناف وزينوفياف، رفيقي لينين في منفاه في لونجومو، واللذين شـاركاهما حياتهما الخاصة، ضد ستالين. هدّدها ثانية: «سأقول للعالم من كانت حقا زوجة لينين».

لبس ستالين بدوره الحداد: ماتت زوجته في تشرين الثاني 1932. أخذت ناديا بثأرها، فبعثت له رسالة مثقلة بالمعاني:

«جوزيف فيساريونيتش (Josef Vissarionich) العزيز،

لقد فكّرت بك مؤخرا. واتمنى ان أقدم لك دعمي. من الصعب ان يفقد المرء أقرب شخص اليه. ما زلت أذكر الأحاديث التي جرت بيني وبينك في مكتب إيلتش (Ilitch) خلال فترة مرضه. لقد منحتني القوة في ذاك الوقت. أصافحك مرة اخرى.

ناديا كروبسكايا».

كانت تحتوي الرسالة على استفزاز خفيّ: كانت ناديا تستند ناديا إلى مشاجرتهما، ذاك الحديث الشهير الذي سربلها فيه بالشتائم وكاد أن يُبعَد عن السلطة. أرادت ان يفهم ستالين انها لم تنس. ومن شدة حقدها، ذهبت إلى مخاطبته بالكاف، ولم تضبط تهجئة إسمه: كتبت فيساريونيتش بدلا من فيساريونوفيتش (Vissarionovitch). وأخيرا لم تلجأ إلى عبارات المجاملة التي يستوجبها مقامه. ذكّرت ناديا ستالين بأنه ليس، بالنسبة لها، إلا غلاما صغيرا أراد زوجها أن ينكره. كانت إهانة بالنسبة لصاحب أكبر نفوذ في روسيا.

انتظر ستالين ستة أعوام قبل ان يعاملها بالمثل. سنة 1938، خلال التصفيات الكبيرة، التمست ناديا وماريا، أخت لينين الوفيّة، عطف فوجد (*Vojd*)، ليعفوعن الرفاق القدامى الذين حكم عليهم بالإعدام. استقبلهما بجفاف وصرخ في وجههما: «عمّن تدافعان؟ تدافعان عن قتلة!»، قبل ان يطردهما بالقوة من مكتبه.

مساء 26 شباط 1939، دعت ناديا أصدقائها للإحتفال بعيد ميلادها السبعين. أرسل ستالين قالب حلوى. فيما بعد، خلال السهرة، أصيبت بأوجاع شديدة في بطنها، عوارض عزاها البعض إلى التسمّم. نقلت ليلا إلى المستشفى، حيث توفيت صباح اليوم التالي. أحرقت جثتها سريعا. خلال دفنها، حمل ستالين الإناء الذي احتوى على رمادها.

3

ستالين (Staline)، حبّ ومجد ومنزل ريفي (datcha)

«أنت رجل لا يُطاق! إنك جلاد، هذا ما أنت!
تعذب زوجتك، وإبنك ذاته، والشعب الروسي بأكمله».
ناديا ستالين

الراحلة كاتو (Kato)

غوري (Gori)، 13 حزيران 1907، الساعة العاشرة صباحا. أكاترينا (Ekaterina) الملقبة بـ«كاتو» في الشرفة، تهدهد رضيعها، وعمره ثلاثة أشهر. أرعبها دويّ انفجار قوي، فهرعت إلى داخل الشقة. في المساء، عاد سوسو (Sosso) إلى المنزل منتصرا. لقد نفذوا ذلك. ذُهلت. إذ ان زوجها وأخاه كامو (Kamo) وعصابتهما هجموا لتوّهم بالسلاح على أحد المصارف. وسرقوا 250000 روبل (roubles). لصالح الحزب، والأمر بديهيّ. وقد أراد كامو ان يضفي على عملهم مظهر الفروسية، فاستعار سيف والد أكاترينا وقتل 30 شخص. صُدمت المرأة بالأسلوب المعتمَد اكثر منها بالعمل بحدّ ذاته. كانت كاتو تدرك انها متزوجة من زعيم المسلّحين الذين

ينهبون المصارف في القوقاز Caucase)). إنه إيوسـيف فيسـاريونوفيتش دجوغاشفيلي (Iossif Vissarionovitch Djougachvili): ستالين.

في ذاك الصباح من 13 حزيران 1907، جمع ستالين أفراد عصابته، وكانت تتضمن خمس نسـاء مسـلحات، من أجل السـطو على مصرف الوسط (Centre). في الصبـاح الباكر، كان قد أكّد له المتواطئون معه ان العملية سـتتم في ذاك النهار بالذات. ابتداء من السـاعة الثامنة، اختبأوا في حانة تيليبوشـوري (Tilipuchuri). في الساعة العاشرة، انطلقوا فاجتاحوا المكان متنكرين بزي الضبّاط. شـهر كامو سيفه، وأخرجت النسوة مسدساتهنّ من تحت فساتينهنّ ذات الحواشي المغضّنة.

بعدمـا خرجوا، باشـر القوقازيـون ورجال الشـرطة بمطاردتهم. خبّأوا الأوراق النقدية في ألبسـة النساء الداخلية لإخفائها. لن يفتش عنها هناك أحد. وركبت النسـاء على متن القطار، والأوراق النقدية لاصقة بصدورهن وسـراويلهنّ التحتانية. كان يجب إيصال المال إلى المرسل اليه، أي لينين والحزب الشيوعي في موسكو (Moscou). كانت هذه الغنيمة الكبرى ختام حملـة من الهجمات في كل أرجاء القوقاز الغنـي بالنفط في مطلع القرن العشرين، والتي استهلّها ستالين وعصابته قبل عدة سنوات.

في اليوم التالي، كان سوسـو متوترا. ربما تعرّف عليه احد، فلن يتأخروا في القبض عليه. أمر كاتو بحزم أمتعتها. كان عليهما ان يرحلا على الفور، وأخذا 15000 روبل في طريقهما. أمضيا ثلاث عشرة ساعة في القطار، في عزّ الصيف، باتجاه باكو (Bakou). وصلت كاتو منهكة إلى تلك المدينة، مدينة الفورة النفطية. باكو: مدينة روسـية وجورجية (géorgienne) وفارسية وباريسـية في الوقت نفسه. كانت المدينة مزدهرة جدا، لكن مصدر غناها

كان بمثابة سمّ لسكانها: كان النفط يتسرّب إلى كل مكان. توقف الشجر عن النمو، ونبعت في وسـط البحر فوّارات عالية من النفط، كانت تتسبّب بظهور أمـواج ملتهبة. كانت التدابير البيئيـة الإحتياطية الخاصة بالصناعة النفطية لم تزل مجهولة تماما في ذاك الوقت.

لم تكن الحياة مع ذاك اللص سـهلة، ولا هادئة. لم تكن المرة الأولى التي ينتاب فيها كاتو هذا النوع من الرعب، في أقل من سنة على زواجهما. لم تتصوّر حياتها هكذا. إذا ألقي القبض عليه، ماذا سيحلّ بابتهما؟

كانـت أكاترينا، السـمراء الشـهوانية، صغرى الأخوات سـفانيدزيه (Svanidze). ولدت في 2 نيسـان 1880، في أحد الأحياء الشـعبية من العاصمـة الجورجية، تِفليس (Tiflis). كانت الأخوات سـفانيدزيه الثلاث المراهقات يعملن في محلّ خياطة فرنسي تملكه السيدة هرفيو (Hervieu). كان ستالين يختبئ فيه مرارا. فأتيح له تقدير رفقة النساء. تتذكّر أختها أول لقاء لهم: «كانت ملابسـه فقيرة. كان هزيلا، وجهه بلون الزيتون، ترك فيه الجدري ندوبا، وقامته أقصر من الوسط[1]». يا له من غاوٍ. أما ستالين، فقد ترك ذاك اليوم عنده ذكرى مؤثرة: «لقد أذابت لي قلبي[2]».

(1) ألكسندرا «ساشيكو» سفانيدزيه مونوسليدزيه (Alexandra « Sashiko » Svanidze-Monoselidze)، 1955، محفوظات غوري (Gori)، جورجيا، GDMS (Gosudarstvennyi Dom-Musei Stalina).

(2) روزاموند ريتشاردسون (Rosamund Richardson)، الطيف المديد (The Long Shadow)، لندن، 1993. تسجيل شهادة سفتلانا أليلويافا (Svetlana Allilouyeva)، إبنة ستالين، الذي قامت به الكاتبة.

في المشــغل، زار الوالدان يوما الأخوات الثلاث. كان ستالين موجودا، كعادته. راح ينشــد لهم أغانٍ رومنطيقية «بتأثر شــديد سُحر له الجميع. حتى لو كانوا يرون انه رجل جِلف[1]» كما يتذكّر أحد أبناء عمّ البنات الذي كان حاضرا.

هل أراد ان يعطي انطباعا حســنا أمام الأهل، وان يظهر بصورة الصهر المثالي؟

كيــف يمكن ان يغوي أكاترينا الجميلة هــذا الوغد القصير القامة ذو الوجه الموســوم بالجدري؟ كان لدى ستالين وسيلة سرية: كان رومنطيقيا، ينظم القصائد ويلقيها لها:

«عندما يجول البدر النيّر في القبة الزرقاء، ويشع نوره علينا ويبدأ يلعب فــي الأفق اللازوردي. عندما تبدأ أغنيــة العندليب تزقزق في الهواء، عندما تتسلّل رغبة الناي عبر الجبال... حينذاك، أنا أيضا، أعرف ضباب الحزن، منقبض القلب[2]..».

في 15 تمــوز 1906، بعد عودته من ســتوكهولم (Stockholm) حيث شــارك في مؤتمر الحزب الشيوعي، قرّر ســتالين ان يمضي قدما. كادت أخت أكاترينا لا تتعرّف عليه: في ستوكهولم، حمله الرفاق على شراء بدلة،

---

(1) سيمون سباغ مونتفيور، ستالين الشاب (*Young Stalin*)، لندن، فونيكس (Phoenix)، 2008، مقابلة مع إبن عم كاتو (Kato)، كتفان جلوفاني (Ketevan Gelovani)، تبيليسي (Tbilissi)، 2005.

(2) دونالد رايفيلد (Donald Rayfield)، «ستالين الشاعر» (« Stalin The Poet »)، مجلة ب.ن. (*PN Review*)، 44، مانشستر (Manchester)، 1984.

وقبعــة من لبّاد، وغليونا. فأصبح يشــبه الرجل الأوروبي الحقيقي: «كانت المــرة الأولى التي رأيناه فيها بلباس أنيــق». بعد القصائد، الطلعة. أصاب إيوسيف الهدف.

في المساء ذاته، صرّح سوسو وكاتو بمشاعرهما المتبادلة إلى أسرتيهما. في اليوم التالي، أعلن ســتالين لرفاقه: «أنا وكاتو ســفانيدزيه ســنقترن هذا المســاء. أنتم مدعوون إلى الحفل، هذا المساء، في منزلنا». سوسو رجل لا ينتظر.

كانت تعبده كالإله. أفكاره، شــخصه كله يفتنهــا. لكنها كانت تعلم ان له خلقا قويا، وأنه ســيولي مرارا قضيتــه الأولوية عليها. كانت مخلصة، مثقفة، متحرّرة، قادرة في الوقت نفسه على مساعدته وجمع الأموال لصالح الإشتراكيين الدمقراطيين، وعلى معالجة الجرحى بعد اشتباك مع القوقازيين.

حتى لو كان يُعرف ســتالين باللص المسلّح، والملحد الكامل، أرادت كاتو قرانا حقيقيا، في الكنســية وبالفستان الأبيض. كان هو أيضا مستعدّا لقبول أي شــيء من أجلها، حتى بجَوْب الممر الوســطي للكنيسة. لكن الكهنة رفضوا عقد قرانهما، لأنه كان يستعير إسما مزيّفا ويحمل أوراق هوية مزوّرة: غالياشفيلي (Galiashvili).

أخيرا، وجد صهره كاهنا، كان يعرفه ســتالين منذ ان كان يرتاد مدرســة غوري للكهنة. فقد أرادت أمه ان يصبح رجل دين، لكنها سرعان ما أقلعت عن ذلك عندما ترك ســتالين المدرسة الإكليريكية لينصرف إلى اللصوصية. قبل رجل الدين ان يزوجهما، ولكن في الســاعة الثانية بعد منتصف الليل، لألا يُلقى القبض عليه.

إذن، في ليل 15 تموز 1906، اقترن سوسو وكاتو على ضوء الشموع في

كنيسة القديسة نينا (Sainte-Nina)، بحضور أفراد العائلتين والأصدقاء. وكان قد عاد إلى سجيّته: فلم يرتد ستالين بدلته الجميلة، بل ثيابا رثّة. جرت الطقوس الدينية وسط قهقهة جميع الحاضرين، خاصة ستالين، الذي اعتبر ان الموقف والمكان كانا غير مناسبين.

أقيمت وليمة العرس في منزل أخت كاتو، ألكسندرا، الملقبة بـ«ساشيكو» (Sashiko)، حيث حضر كل رفاق عصابة ستالين. بدا ذاك المساء هائما بزوجته. وراح ينشد مجددا الأغاني بصوته الرقيق، فيما كان كامو يتظاهر بالبلاهة: «اين هي هذه الشرطة المعتوهة؟ كل رجال المنطقة المطلوبين موجودون هنا، بإمكانها القبض علينا كما لو كنا مواعز!»

كانت ام العريس، أنا نيكيتين (Anna Nikitin)، الملقبة بـ«كيكيه» (Kéké)، متحفظة بشأن مستقبل هذا القران: «تزوّج سوسو. لديه الآن امرأة. ولكن، أي نمط من الحياة العائلية يفترض بها أن تعيش؟ إني أتساءل[1]». وبالفعل، لم تحظ كاتو بشهر عسل. كان سوسو يعتني بزوجته إذا توفّر له الوقت، لكن السياسة استحوذت عليه. بدأ يعاملها بقسوة، لكن لا يهمّ، كانت تحبه. واستعاد ستالين على الفور حياة رجل مطارد يعيش في الليل، يسطو على المصارف ويقتل عملاء القيصر. لم تكن الحياة الثوروية تناسب هذين الزوجين اللذين سيُعانيان من شتى أنواع البلايا.

في باكو، سكنا في البدء خارج المدينة، في شبه جزيرة بالوف

---

(1) أنا نيكيتين جلادزيه (Anna Nikitin-Geladze)، محفوظات دولة جورجيا للمؤسسة الماركسية اللينينية GF IML (Georgian State Filial of Institut of Marxism-Leninisme,) (Tbilissi, Georgia)، 8. 2. i. 9.

(Bailove)، فـي منزل تتريّ سـقفه منخفض جدا، يشـرف على البحر، اسـتأجراه من مالك تركي. كانت كاتو ربة بيت واسعة الخيال، جعلت من الكوخ منزلا يحلو فيه العيش، مجهزا بسـرير من الخشب، وستائر جميلة، ومكنة خياطة في إحدى الزوايا. لم يتواجد سوسـو فيه كثيرا، إذ كان يتنقل لحضور اجتماعات الحزب الشيوعي الروسي في المنفى. كان ينسى ان له أسـرة. ولم يكن لها إلا القليل من المعارف هناك. أحست بنفسها منعزلة، يحيط بها الغرباء في تلك المدينة الكبيرة.

لم يكن للزوجين الشـابين معارف غير أسرة أليلوياف (Allilouyev)، التي كان يلتجئ اليها سـتالين من وقت إلى آخر، في تِفليس (Tiflis). كان ربّ العائلة مديرا لمحطة الكهرباء، يملك دارة جميلة تقع على شاطئ بحر قزوين (Caspienne). خلال زيارة قام بها الزوجان إلى هناك، هوت الأخت الصغرى، ناديا (Nadia)، 6 سنوات، من فوق الحاجز وتلقفتها، بفستانها الأبيض، أمواج هائجة. ألقى ستالين بنفسه في المياه لإنقاذها، بالرغم من انه لم يكن يجيد السباحة. كان ذلك حدثا حاسما في حياته المستقبلية.

في شهر آب، باتت تشكو كاتو أكثر فأكثر من هواء باكو الملوّث الخانق. خارت قواها، بسبب النقص في النوم مع وجود الطفل، والنظام الغذائي الرديء، والحرّ والخوف الدائم من التوقيف. قرّرت الرجوع إلى تفلس. صحبها ستالين على متن القطـار. بعد عودتها إلى ديارها، تدهـورت صحتها أكثر فأكثر. وأصيبت بمرض التيفوس (typhus). ربما شربت مياها ملوّثة في المحطة التي توقفا فيها. عانت كاتو من حمّى شديدة، فتوجّست أسرتها الأعظم. أما ستالين الذي سـارع إلى العودة إلى نشـاطاته الثورية، فلم يحضر إلا ليشهد نزاعها، يائسا. وعدها بجنازة أرثوذكسية. طلبت ان يؤتى اليها بكاهن. في 22 تشرين

الثاني 1907، ماتت بين يديه، وكان عمرها 27 سنة. تدمّر ستالين.

أقيم المأتم في الكنيسة نفسها التي كانا قد اقترنا فيها قبل سنة. حاول ستالين الإحتفاظ بسجوّه المعتاد. في الصورة التي اتخذت له وهو بقرب جثة زوجته نراه وقد انهارت أعصابه: كان يبكي، ممتقِع الوجه، يحيط به أفراد أسرة زوجته. صادر أصدقاؤه المسدس الذي كان يحمله دائما. في طريقهم إلى المقبرة، راح يردّد: «لم أعرف كيف أسعدها». عندما وصل قرب القبر، قال متكدّرا اكثر من اي وقت مضى: «وحدها هذه المخلوقة كان بإمكانها تلطيف قلبي المتحجّر. ماتت ومات معها كل شعور ودّي تجاه البشر[1]». ثم وضع يده اليمنى على قلبه وقال: «كل شيء محزون هنا، في الداخل، محزون إلى حدّ يعجز اللسان عن وصفه». أنزل التابوت، فارتمى عليه. واستلزم إخراجه من الحفرة سواعد عدة رجال، انتشلوه حِملا هامدا.

وقف على مقربة منهم عملاء من الأوكرانا (Okhrana)، الشرطة السرية السياسية. فهم انهم كانوا ينتظرون للقبض عليه، فهرب وقفز فوق حائط المقبرة واختفى راكضا، متخلّيا مرة أخيرة رمزيّا عن زوجته.

مُغوٍ جورجي

سولفي (Solvy)، ربيع 1908. كانت تاتيانا سوكوفا (Tatiana Sukhova) في بيتها، تجلس بصحبة منفيين آخرين عندما جاء أحدهم يكلّمها عن

---

(1) ليلي ماركو (Lili Marcou)، حياة خاصة (*Vie privée*)، باريس، كالمان لافي (Cal-mann-Lévy)، 1996.

وصول محكومين جدد. كان من بينهم رفيق من باكو، المحترف أوسيب كوبا (Ossip Koba). بعد فترة من الوقت، وكان قد استعار من رفاقه المنفيين بعض الحوائج الأكثر لياقة، دخل عليها لابسا جزمة بكعب، ومعطفا وقميصا من السُندس (satin) الأسود، إضافة إلى قبعة من فرو الحِملان، وقلنسوة ملقاة فوق كتفيه. كان مثالا للأناقة القوقازية.

كان ستالين قد أوقف بعد فترة قصيرة على وفاة كاتو، وفاوض السلطات الإمبراطورية على منفى أقل شقاوة من سيبيريا. فأرسِل إلى ذاك المركز الأمامي الصغير لتجارة الفرو من طراز القرون الوسطى. كان الفصل ربيعا في سولفي التي لم يكن فيها إلا حديقة ترابية، وقُصَيْر خشبي، ومكتب للبريد وكنيسة يعود بناؤها إلى القرن السادس عشر. كان حوالي عشرة من المنفيين يتقاسمون فيها منزلا بلديّا. من حسن الحظ، في رأي تاتيانا، في مثل ذلك المكان المقفر.

كانت المرأة الشابة تزور مرارا ستالين في غرفته، في إطار يتناقض مع مظهر الشاب المتكلّف الذي التقته. كان ستالين يعرف كيف يخفي وضعه لكي يُغوي: يعيش كالفقير، ينام في صندوق من الخشب عليه لوحات وكيس من التبن، مع حرام من الفلانلة ووجه وسادة وردي اللون. كانت تجده هناك، شبه مستلقٍ، حتى في منتصف النهار. كان يرتدي معطفه باستمرار لمقاومة البرد، ويحيط نفسه بكتبه. بالرغم من ذلك، كانت تحب تلك المواعيد ولا تمتنع عن المجيء لمقابلة ذاك المغوي الرث الثياب، والضحك معه، والإستماع اليه. ثم، في أحد الأيام، انقطعت أخباره... لم يكن ستالين مستعدا للإرتباط، او ربما ليس معها. خربش كلمة مقتضبة على ورقة معتذرا: «على عكس الوعود التي قطعتها، وأنا أذكرها تماما، لم

أرسل لك حتى بطاقة. كم أنا بهيم! لكن هذا هو الواقع، وإذا شئت، أعتذر اليك. نبقى على اتصال[1]». مع ذلك، اختفى من حياتها.

لم يمنع وضعه الحقير ستالين من اللهو. قبل القبض عليه، كان ينقاد لبعض إنحرافات سلوك ليلية، بعد انتهائه من نشاطاته النهارية في السرقة والتخريب. كان هو ورفيقه سباداريان (Spandarian) يخرجان كل مساء إلى أحسن المطاعم في باكو، حيث كانت النقاشات صريحة، والطعام لذيذا، والغناء قائما. وكانت نساء كثيرات ينضممن دائما إلى أولئك الجُذلان.

يقول لنا بوريس بازهانوف (Boris Bazhanov)، أمين سرّ المكتب السياسي (Politburo)، انه لم يكن يُعاب على ستالين أي رذيلة: «لم يكن يحب المال، ولا الملذات الأخرى، ولا الرياضة ولا النساء. باستثناء زوجته، لم يكن للنساء وجود بالنسبة له[2]». أما الحقيقة، فكانت مختلفة: لم يخلُ محيط الشاب ستالين أبدا من النساء، وكان يستميلهنّ بسهولة. حتى في سنواته العجاف، كانت له دائما صديقة حميمة، وأحيانا عدة. في المنفى، أصبح شبه فاسق. التقى ستفانيا بتروفسكايا[3] (Stefania Petrovskaïa)

---

(1) ملاحظات تاتيانا (Tatiana)، في محفوظات دولة روسيا للتاريخ الإجتماعي والسياسي، RGASPI، رقم 647. 4. 558. وكلمة ستالين محفوظة تحت رقم 4372. 1. 558.

(2) بوريس بازهانوف (Boris Bazhanof)، مع ستالين في الكرملين (*Avec Staline dans le Kremlin*)، باريس، دار نشر فرنسا، 1930.

(3) أنظر ذكريات ستافانيا بتروفسكايا (Stefania Petrovskaia)، RGAS- 558. 1. 635. 1-95، PI و GAVO (Gosudarstvenny Arkhiv Vologodskoi Oblasti, Vologda, Russia)، 108. 2. 3992 و 2372 .1 .108 ، ترجمة سيمون س. مونتفيور، ستالين الشاب، سبق ذكره.

خلال اجتماع مع الشرطة والمنفيين في قرية سولفي. كانت هذه النبيلة من أوديسا (Odessa)، عمرها 23 سنة، قامت بنيها وبينه علاقة جدّية تكفي ليعرض عليها ستالين الزواج. كان أبوها الكاثوليكي يملك بيتا كبيرا في وسط المدينة. تربّت في ثانوية ممتازة، حتى انها تردّدت إلى الجامعة لتدرس فيها. وكما ورد في تقارير الشرطة، أوقفت بتروفسكايا النبيلة وحُكم عليها بسنتين في المنفى. عندما وصل هو إلى مكان احتجازها، كانت قد أنهت فترة عقوبتها. كانت علاقتهما وثيقة إلى درجة انها قررت البقاء بعد انتهاء الحكم بحقها، بانتظار إطلاق سراح إيوسيف. لحقت به فترة من الزمن بعد عودته إلى القوقاز. لم تصبر هي ايضا على حياة المتمرّد المنفرطة الفاسقة التي كان يعيشها.

يتذكر مولوتوف (Molotov) ان ستالين كان «مذهلا» بالنسبة للنساء، رغم مظهره القبيح ونمشه. قالت جانيا أليلويافا (Genia Allilouyeva)، بنت حميه في المستقبل،: «سوسو جذاب جدا». رجل نحيف، قوي، نشيط، شعره غزير. كلهنّ يذكرن عينيه المتّقدتين، العسليتي اللون. حتى جوانبه الكريهة كان لها سحرها، كالغموض في طلعته مثلا، وعجرفته، وخشونته، وحذره السنّوريّ. كان يبدو مدهشا، غريب الأطوار. لا بد ان عجزه الظاهر على الإعتناء بنفسه، وعزلته، وقذارته وهزالته كانت تثير لدى النساء الرغبة في الإهتمام به. وربما كان عدم اهتمامه الكليّ بشخصيّتهن او شخصهنّ ورقة رابحة في يده.

كان يتمتع ككل الجورجيين بصيت الشغوف ولم يفوّت فرصة لاستغلاله. كانت تتتالى، في أسلوبه الغزليّ، الفروسية التقليدية والفظاظة الصبيانية العدائية عندما يكون ثملا. كان، بأغنياته وقصائده، وطريقته في

إبداء إعجابه بفساتين النساء والثناء عليهنّ، والمناديل الحريرية والأزهار التي كان يهديها لهنّ، يصيب هدفه في كل مرة تقريبا.

إذا كانت النساء يتوقّعن كازانوفا (Casanova) جورجيّا، كانت تخيب آمالهنّ من دون شك عندما يكتشفنه بشكل اكثر حميميّة: فقد كان مجبولا بالعُقد في كل شأن - أسرته، مظهره، شخصيته. كان حسّاسا بشأن أصابع قدميه المتصلة بغشاء إلى درجة انه، عندما عاينه أطباء الكرملين، ستر بقية جسده ووجهه تحت غطاء. كان يضع على وجهه المساحيق ليخفي الندوب التي تركها فيه الجدري، ويزيّف صوره الرسمية. كان خجولا، يخشى التعري، حتى في الحمام الروسي التقليدي، *البانيا* (*banya*). كان يتضايق من ان له ساعدا أقصر من الآخر، لأنه منعه لاحقا من أداء رقصة سلو (slow) البطيئة مع ضيوفه في الكرملين. أقرّ يوما بالقول: «لست قادرا على الإمساك بامرأة من خصرها».

لكن القامة وحدها لا تكفي. كان ستالين منافسا جنسيا، يخون أصدقاءه متى شاء، خاصة في المنفى، حيث كانت الوفود من النساء الجدد نادرة.

لم تكن أوقات الحنان تكفي للتعويض عن حساسيته المريرة البالغة. كانت تشغل النساء أدنى مرتبة في جدول أولوياته، بعد الثورة، والتبجّح، وأمسيات السُكر مع الأصدقاء الذكور بكثير. كان يجمع بين فُحولة مؤكدة وحشمة متكلّفة متزمّتة، لكنه لم يكن أبدا ميّالا إلى الشهوانيّة ولا إلى الإنغماس في الملذات، وقلما كان يتكلم عن مآثره الجنسية.

لم يكن يثق بالنساء القويات الذكيات مثل أمه. فقد تربّى ستالين على يد أمه وحدها، وكانت المرأة تقيّة معتدلة، ومثلا للصرامة الأورثوذكسية الجورجية. كان أبوه معماريا سكّيرا يتنقل من ورشة إلى أخرى في المنطقة،

ولم يكن حقا أبدا جزءا من الخليّة العائلية. كان عنيفا، يبحث لنفسه عن مورد، فأراد توظيف ابنه في المصنع قبل سنّه العاشرة. أما أمه، وكانت تحب إيوسيف وتطمح له بتربية عالية، فقد نجحت في إرجاعه بالقوة وإدخاله مدرسة غوري الإكليريكية. كنّ لها ستالين دائما عرفانا بالجميل، كما كان معجبا جدّا بتفانيها واعتمادها الواقعية، اللذين كان يعتبرهما شكلا حقيقيا من أشكال الذكاء. وإذ أدرك مدى تصلّب مثل هذه الفئة من النساء، فقد فضّل طيلة حياته النساء الشابات، والمراهقات الطيّعات او الفلاحات السمينات اللاتي كنّ يُبدين له الإحترام.

كما كان يبتعد عن النساء المدّعيات. أولئك اللاتي كانت لديهنّ أفكار. كان يستنكر التفاهات المغالية، كتلك التي كانت تتميّز بها إبنة بلاخانوف (Plekhanov)، التي كان يكره جزمتها ذات الكعب العالي وتصنّعها في التأنّق. وكان قد قطع عفويّا كل علاقة معه، ظناً منه انه لا يجوز لثورويّ حقيقي ان يربّي أولاده على نمط متكلّف جدا كذلك.

المنتحرة الفرحة

ردّدت ناديا، وقد خرجت عن طورها، وهي تطبّل على باب الحمام الذي التجأ اليه ستالين: «أنت رجل لا يُطاق، لا يمكن العيش معك». لم يكن المشهد نادرا في تلك السنة 1932 الصعبة. وقد سبق ان وجهت اليه اللوم امام أبال أنوكيدزيه (Abel Enoukidze)، عرّابه ووزير التربية: «إنك جلاد، هذا ما أنت، تعذب زوجتك، وابنك ذاته، والشعب الروسي

بأكمله[1]». كانت ناديا على وشك ان تفقد أعصابها. لم تعد تطيق حياتها مع إيوسيف. لم تكن تتصوّر أن يكون الشغف الثوري على هذا النحو.

«وأولادك؟!

صاح قائلا: «إنهم أولادك!»

ركضت تلتجئ إلى غرفتها، المكان الوحيد الذي لم تكن تحسّ فيه بأنها مقهورة مهدّدة في ذاك الكرملين الموحش.

كان ستالين غيورا بقدر ما كان مغويا. كانت الحياة معه لا تطاق. كانت نوباته يومية: يرى الخديعة في كل شيء. خُيّل اليه ان صديقه القديم بوخارين (Boukharine) يحوم حول ناديا بإلحاح. كان بوخارين، الذي قام بزيارتهما في منزلهما الريفي (datcha) القريب من سوتشي (Sotchi)، يتنزه معها في الحديقة. فاجأهما ستالين وهما معا. قفز وصرخ في وجه بوخارين: «سوف أقتلك!» كان بوخارين يعرف ستالين تمام المعرفة، لكنه اعتقد انه يمازحه. وعندما تزوّج لاحقا بحسناء شابة، كلّمه ستالين على الهاتف ليلا، وكان سكرانا: «نيكولاي (Nicolaï)، أهنئك، لقد غُدرتُ بك مرة أخرى». سأله بوخارين: «كيف ذلك؟» فكان جواب فودج (*Vodj*): «زوجة فاضلة، زوجة جميلة، وأحدث سنّا من زوجتي ناديا[2]!» كانت ناديا

---

(1) ألكسندر أورلوف (Alexandre Orlov)، تاريخ جرائم ستالين السرّي (*Secret History of Stalin's Crimes*)، لندن، راندوم هاوس (Random House)، 1953، كما ورد أيضا في سفتلانا أليلويافا، عشرون رسالة الى صديق (*Vingt Lettres à un ami*)، باريس، لوسوي (Le Seuil)، 1967.

(2) RGASPI، رسالة ناديا الى كيكيه دجوغاشفيلي (Keke Djougachvili) بتاريخ 12 آذار 1932.

في الغرفة المجاورة فسمعت كل شيء. كان صوت ستالين يرتفع عندما يكون ثملا.

وإن كان زوجا غيورا، فلم يكن سلوك كازانوفا القديم لا يؤخذ عليه. كان ستالين حينذاك مقرّبا من رئيس الإتحاد السوفياتي، كالينين (Kalinine). فيما كان في طريقه لحضور إحدى حفلاته، بلغ ناديا خبر نجاح مفاتنه: «سمعتُ حسناء شابة تقول انك كنت فاتنا للغاية خلال العشاء عند كالينين. لقد أضحكتَ كل الضيوف، وإن ألقى وجودُك المهيب الرعبَ في قلوبهم[1]». لم تعد ناديا تحتمل سلوك زوجها اللعوب.

ستالين وناديا، قران بين كدود لا يرحم وامرأة شديدة الأنانية، غير متوازنة وقد أضنتها السلطة، قران لم تبتغِه.

بعد وفاة كاتو، في كانون الأول 1907، ادّعى ستالين ان قلبه قد تدمّر وجفّ نهائيا. ومع ذلك، لم يزل هناك مكان لامرأة أخرى.

في 1917، خلال الثورة، عاد من منفى آخر، ما وراء الدائرة القطبية، في أحد أقصى الأماكن في سيبيريا، من حيث لا يمكن الفرار. لم يكن ليعود لولا انهيار النظام. فوصل إلى سان بيترسبورغ والتجأ إلى منزل أسرة أليلوياف، المناصرة للبلشفة، والتي كان يتردّد اليها عندما كان متزوجا من كاتو.

التقى هناك بناديا، الإبنة الثانية من بين الأولاد الثلاثة. لم يكن ثمة ما يجمع بين الشابة السمراء بعمر 16 سنة التي رآها وبين الطفلة التي أنقذها من الغرق في صغرها. أدهشه جمالها. وجد لدى هذه المراهقة غير

---

(1) RGASPI 558. 11. 1550، رسالة من ناديا الى ستالين بتاريخ 24 أيلول 1930.

المتكلّفة، غير المتبرّجة، بتسريحتها البسيطة، فرصة لعيش حياة عاطفية جديدة. لاحت له إمكانية استعادة وداعة كاتو المفقودة. وكان يناهز عمره حينذاك الأربعين عاما.

أُشبعت ناديا على الأخص بالبلشفية بفضل التربية التي تلقّتها من والديها. كانت أسرة أليلوياف تساعد دائما الثوريّ المبتدئ للقيام بنشاطاته السرية منذ ان عرفته قبل عشرين عام. فقد كان المستحَبّ الخارج عن القانون، الذي يضحي بحياته بجدارة من أجل المثل الإشتراكية. وها هي تتهيأ لإيواء ستالين وتخبئته طيلة خمس سنوات.

سهرت الأختان حتى ساعة متأخرة من الليل لاستقباله كل مساء. بالمقابل، كان ستالين يسلّيهما بالتقليد الهزليّ تارة وتارة أخرى بتلاوة مسرحية من الأدب الروسي الكلاسيكي. اتسمت علاقتهم بالظرافة والسذاجة. في ذلك الوقت.

سنة 1918، كان ستالين العازب الوحيد بين القادة الشيوعيين. الأمر الذي كان يقلق أمه كيكيه، إلى درجة انها أرسلت إلى موسكو فلاحة جورجية يمكنه ان يتحدّث معها بلغته الأم. رفض سوسو: لا يمكن لفلاحة بسيطة ان تكون بالمستوى المطلوب لمشاركته الحياة المهنية التي يصبو إليها. فكيف ستشعر بنفسها بين النساء النافذات، ذات العادات الأرستقراطية، اللاتي يوجدن في الكرملين؟

كانت إبنة الزوجين أليلوياف الشابة الحسناء في متناول يده وقد وقع اختياره عليها. حققت ثورة 1917 انتصارا كبيرا. شكّل لينين الحكومة الجديدة السنة التالية. أسّس ستالين مفوّضيّته للقوميّات. وظّف أمين سر، فيودور أليلوياف (Fiodor Allilouyev)، أخا ناديا، واستخدم في الوقت

نفســه هذه الأخيرة كطابعــة على الآلة الكاتبة لديه. فخــر للوالدين وأول تقرّب خارج المنزل الأبوي. كانت ناديا ظريفة، وديعة، تتوافق وصورة المرأة المثالية حســب ســتالين. لم تعرف النفي القاســي ولا الإقامة الطويلة في ســجون القيصر، فكان بإمكانه ترويضها طبقا لإرادته. كانت لم تزل بكرا. وسيكون الرجل الوحيد في حياتها.

عهد ستالين إلى الشابة مسؤولياتها الأولى وأتاح لها الإستقلال المادي. فنشــأ لديها استهواء المراهقة تجاه رجل كان يجسّد الطهارة الشيوعية التي طالما تشــرّبتها. كان في نظرها الفارس المثالي. فيما لم يكن في الحقيقة غير مجرم في لباس أبيض.

هناك امر كان يقلق ســتالين: كان طبع والدة ناديا متقلبا. فقد هجرت زوجهــا عدة مرات لتعيش «حياتها الخاصة»، غير مكتفية بدور ربّة المنزل والأم. هل تكون هذه الإرادة الإســتقلالية وراثيــة يا ترى؟ من قبل، خلال الثورة، كانت محبطة، لا تتحمل القلّة وشــلل المدينة: «لم نزل نفتقر إلى الغــذاء هنا... تنتاب المرء احيانا رغبة في البكاء، فالوضع يثبّط الهمّة. لا مجال أبدا للخــروج للترفيه». وكتبت لإحدى صديقاتها: «صحتي جيدة، لكني محبطة، كالعادة[1]».

بعــد مرور عدة أشــهر، كانت الثورة قد توطّــدت، فأدركت ما أفقدتها الحرب من براءتها: «كبرت كثيرا خلال الثورة، أصبحت راشــدة حقيقية.

---

(1) لاريسا فاسيليافا (Larissa Vasilieva)، زوجات الكرملين (*Kremlin Wifes*)، لندن، منشورات أركاد (Arcade Publishing)، 1994، رسالة من ناديا أليلوبافا (Nadia Allillouyeva) الى أنا رادشانكو (Anna Radchenko).

أنا مبسوطة. المشكلة اني اصبحت أقسى، سريعة الغضب. لكنه من المحتمل ان أتحسّن مع السنين». كان عمرها 17 سنة. «فقدت اكثر من 10 كيلوات، أضطرّ على لبس ثياب تحت تنانيري وإلا هبطت. ضعفت إلى درجة ان الناس يقولون لي اني مغرمة».

كانت بدايات الدولة السوفياتية سنة 1918 فوضويّة. كان «البيض» يحتلون نصف البلاد أولائك الذين رفضوا السلطة الجديدة وبقوا يخلصون للقيصر نيقولا الثاني (Nicolas II) – لا سيما مدينة تزاريتسين (Tsaritsyn)، ستالينغراد في المستقبل. كلِّف ستالين بمحاصرتها. كانت مهمته إخضاع المدينة. قاد العمليات وهو في مقصورة مصفحة، وإلى جانبه فيودور وناديا، الطابعة على الآلة الكاتبة.

جعل ستالين من القطار مقرّه العام، ونظّم قوى الشرطة، وكشف أمر مؤيدي الثورة المضادّة وأعدمهم. كانت المقصورة في الحقيقة صالة فخمة كانت في الماضي ملكا لمغنية غجرية، و قد كساها لدى وصوله بالحرير الأزرق الفاتح. كان له وقع كبير في نفس التلميذة في السابعة عشرة من عمرها. ما كادت تلقى مجددا بطل حداثتها الذي أنقذها من الأمواج، حتى وجدت نفسها متورّطة في مواجهة عملاقية رهانها مصير الإمبراطورية الروسية، تقوم فيه بدور البطلة. كان لا بد لها من ان تُسحر.

بعد سنة من حميمة احتدّت مع ظروف الحرب، قررا الإقتران بعد عودتهم إلى العاصمة الجديدة موسكو، ما ان تبلغ ناديا سن الرشد، عملا بقانون الأسرة في الإتحاد السوفياتي. اتسم الحدث بالتقشف، بلا احتفال أو ابتهاج. لم يذهب إلى الكنيسة هذه المرة. لم تبدُ ناديا بغاية الإنشراح: على عكس ما يمكن الظنّ، ربما لم يكن هذا الزواج مرغوبا. أكّدت أنا،

أخـــت ناديا البكر، ان ناديا صحبت ســـتالين إلى تزاريتســـين مع أخيها، بصفتها رفيقة، لا عشـــيقة. كان أبو ناديا، سارغاي (Sergueï) موجودا في نفس القطار، وكان يتقاســـم عربـــة النوم مع عدة أشـــخاص. في ليلة من الليالي، ســـمع سارغاي إبنته تصرخ، فركض إلى مقصورتها، ووجدها تبكي وأكّدت له ان ستالين اغتصبها لتوّه. جنّ جنونه فهدد بقتله. هو الذي عاش في حمايته في الماضي! ارتمى ســـتالين على قدميه، وتوسل إليه ان يزوجه ابنتـــه. يبدو إذن ان ناديا تردّدت في الـــزواج من رجل لم تكن تحبه حقا، حسب ما كشفت أختها أنا في يومياتها.

وقد استنكرت أمها أولغا (Olga) هي ايضا هذا الزواج بالرغم من تأييدها لســـتالين. بذلت جهدها ليقلع عن هذه الفكرة، فنعتته بالأبله والغبي. يبدو انه يخفى علينا ســـبب أساســـي لموقفها المعادي. تتذكّر سفتلانا ستالين (Svetlana Staline)، إبنـــة الطاغية: «لم تتقبّل ابـــدا هذه المصاهرة، وقد عرفت ان الماما كانت تعيسة إلى حدّ كبير».

انتقل الزوجان إلى الكرملين. ثم اســـتقدما أسرة أليلوياف، ووُضع تحت تصرّفها منـــزل ريفي في زوبالوفـــو (Zoubalovo)، قرب موســـكو. كانت هذه مكافأة ســـتالين للأســـرة التي دعمته وخبّأته، والتي آمنت به. بالتالي، تواجد أفرادها في الدائرة المقرّبة من الســـلطة، يخالطون لينين وأبطال الثورة الآخرين، بعد ان وثقوا بكلامهم طيلة حياتهم. فاستُكملت بذلك إنجازات هذه الأسرة البلشفية المثالية.

كانـــت العروس تحت وطأة ضغط قـــوي: فهي التي غيّرت وُجهة حياة الأســـرة بأكملها عـــن طريق هذه العلاقـــة. كانت تعيش مع ســـتالين في الكرمليـــن الذي كانت تكرهه، والذي اضطرا رغم ذلك إلى البقاء فيه حتى

ولادة طفلهمـــا الثاني، وحيث كانت وظيفة زوجها الوزير تعطيهما الحق في التمتع بمساحة اكبر. صفّ من الغرف المتتابعة، حجبت نوافذها بستارات مزدوجـــة بنيّة اللـــون. وكان فيها كنبات وطاولات وكـــراسٍ، ومُدّت في كل مكان أســـلاك نظام إتصالات ستالين المتشـــعّب. كان الحرّاس يسمعون اقل ســـعال، ويعرفون متى ينتقل من غرفة إلى أخرى. كانت الشقة مقسومة إلى جزئين. احدهما لســـتالين، والآخر لعائلتـــه. ثلاث غرف، حفاضات أطفال، ألعاب، وسادات مطرّزة. أما جناحه هو، فكان أشبه بغرفة الموتى: غرفة تصلح في الوقت نفســـه للنوم والأكل، وكمكتبة ومكتب. كان ستالين يخشى من تسميمه، فوظّف طهاة وطلب منهم تحضير الطعام أمامه.

خلالل ســـنوات الـــزواج الأولى لم يتوفّر الوقـــت للإهتمام بتزيين داخل الشـــقة، ولا للنشاطات الترفيهية. كان النظام الجديد على وشك الإختناق، إذ كان محاصـــرا من كل جانب من قبل جيـــوش بولندا، والبيض، وأوكرانيا والغرب. ولد إبنهما الأول، فاســـيلي (Vassili)، ســـنة 1921، بعد أقل من خمســـة أشـــهر على زواجهما. هل كان ثمرة رغبة متبادلـــة او اغتصاب؟ بعد ان وضعت بقليل، وظّف ســـتالين ناديا كسكرتيرة لينين. كانت المناورة اســـتراتيجية. فالرفيق المؤسِّـــس ليس خالدا. وقد تلعب هي دورا مهمّا في مسألة خلافته. وبالفعل، علمت السكرتيرة الجديدة بخبر كان من شأنه ان يقضي على حياة زوجها السياسية. فقد كتب لينين رسالة إلى مجلس الحزب الشيوعي، عرفت «بوصيّته»، تنصّل فيها من عمل ستالين. فوصفه بالشرس، والخائن والظالم. هل كان يتوجب عليها ان تطلعه عليها؟ في بادئ الأمر، وعملا بالأخلاق البلشـــفية، فكّرت أن تُخلِص للينين فلا تبوح بمعلوماتها. ثم قررت ان تنذر ســـتالين. فقد يصبح التنديـــد علنيّا ونهائيا. كانت تواجه

رهانـــا يتجاوزها، في موقف حرج، عليها الإختيار بين أبرز شـــخصيّتين في تاريخ روسيا العصرية. فأتاحت الفرصة لستالين للمبادرة والإعتذار من لينين، وبالتالي لاستباق هجمات بقية أعضاء المكتب السياسي. فقلب الموقف لصالحه، ونصّب نفســه المنظّم الأول لمحاباة شخص لينين ما ان مات، سنة 1924. سمح له تحدّيه للذي تنصّل منه في ايامه الأخيرة بالتموقع في بنوّة مزيّفة.

كانــت الجمهورية الإشــتراكية الجديدة تدار بالكامــل من الكرملين، القلعة المعزولة عن المدينة والتي لا صلة لها بســكانها. كان معاونو لينين يعيشــون مــع زوجاتهم وأولادهم، وحتى مع أســر أحمائهم، ويشــكلون عالمــا على حدة، وقد دام هذا الوضع في عهد ســتالين. كان هذا العالم شديد الحساســية فيما يخصّ الشجارات بين الأشــخاص، بين الأزواج، والصداقــات التي تنشــأ بينهم. وبالتالي، كانت النســاء يلعبن دورا خاصّا في قيادة الســلطة، فيثرن الشــجارات أو يحثثن علــى المصالحات. كان دور كروبســكايا (Krupskaïa) وأليلويافا حاســما. زاد التقارب بين سكان الكرمليــن مع الوقت، حتى انه أصبح احيانا أشــبه بجلســة مغلقة خانقة بالنسبة لأكثرهم ضعفا.

كانت ناديا تضجر في الكرملين وتنحطّ معنوياتها. كان ستالين يجد انها متكتمة كثيرا. يا للســخرية! كان كل المحيطين بها في عقدهم الخمسين، ولــم يكن أحدهم يثق بالآخــر. كانت تودّ لو يُتاح لها الوقت للدراســة، وللتمتــع بالحياة. كانت ترزح تحت وطأة حبها لثورويّ متصلّب، رجل كان رفاقه أنفســهم يكادون لا يتحمّلونه. هكذا وُلدت ســفتلانا (Svetlana)، طفلة الزوجين الثانية، سنة 1926.

أصبح ستالين الفاتن الشهم في خبر كان. مع ذلك، كان يبذل كل جهده من أجل إرضاء ناديا ماديًا. كانت رغبات هذه الأخيرة بمثابة الأحكام. كانت تعيش عيشة لم يحلم بها يوما والداها لها، دون اي هموم مادية، حتى لو كانت تلبس دائما فساتينها القديمة، حنينا لصباها. عاكس مبادئها، فوظّف الطهاة، والمربّيات والخدم. كان بوسعها طلب ما تريده من الطعام، فيحضر في الحال. كان بإمكانها الحصول على تذاكر لحضور اي فيلم او مسرحية. غير انه كان في معظم الأحيان مشغولا، فلا يرافقها. ولم يكن في يدها حيلة. كان الكرملين بالفعل سجنا ذهبيا غريبا.

أحيانا، كان يحاول أيضا تلبية إحدى نزواتها الشبابية، فيجول بها عبر موسكو على متن سيارات الكرملين الفخمة، بعضها كان يرفع غطاؤها. كان يحب بشكل خاص سيارات بويك (Buick) ورولز رويس (Rolls Roce) وباكارد (Packard)، وكان يختارها شخصيا.

كانت العطل ايضا فيها ترف وبذخ. دائما على ساحل البحر الأسود، بين شبه جزيرة القرم (Crimée) ومسقط رأسه جورجيا (Géorgie). كان يوجد في تلك المنطقة عدد من البيوت الريفية والمصحات المخصصة لأعضاء المكتب السياسي. كان ستالين يفضل سوتشي. كان بيته الريفي المفضل هناك يحمل الرقم 9، وكان مبنيّا من الخشب وله شرفة تزنّره تماما. كان يقع في أعلى تلة، فيما كانت بيوت بقية أعضاء المكتب الساسي، ومنهم مولوتوف وفوروشيلوف (Vorochilov)، أوطأ وبمرأى منه. كان ستالين يتصيّد فيما كانت زوجته تلعب بكرة المضرب (tennis). كان الرفيق مولوتوف دائما مسليّا، حاضر النكت، والجو السائد ترفيهيّا ودّيا. كان ستالين يقود المجموعة الصغيرة في السيارة إلى ضفاف أحد الأنهار.

كانوا يشعلون نارا يتحلقون حولها، يغنون ويتعشون.

وكان شـــيء من هذا الجو الصيفي ينتقل إلى الكرملين الذي تحوّل في عهد ســـتالين إلى قرية حقيقية. كان الإختلاط كاملا، وكان ســـتالين نفسه يقيم علاقات جوار مع بقية ساكني قصر القياصرة القديم، ويلعب الشطرنج مع كاغانوفيتـــش (Kaganovitch)، ويدعو أســـرة ميكويـــان (Mikoïan) إلى الســـينما، ويتعشـــى مرارا مع باقي المقيمين في الكرملين. كان ستالين يظهر بمظهر البشـــوش المرح، المهتمّ اللطيف. دوّنت زوجة فوروشـــيلوف فـــي يومياتها: «آه! كم كان ذاك الزمن رائعا! كم كانت العلاقات بســـيطة وودّية[1]».

كانت ناديا الوحيدة القادرة على التأثير على طبع فوجد (*Vojd*) وتحويله. لم تكن تخشـــى ان تطلع ستالين على حالات ظلم. صرف مثلا موظف، فدافعت عنه، وأصرّت أمام ستالين على انه «لا يجوز اللجوء إلى مثل هذه الأســـاليب مع مثل هؤلاء العامليـــن. إنه أمر محزن [...] أعرف انك تكره ان أتدخّـــل، لكني أعتقـــد ان عليك ان تتدخّل أنت في هذه القضية الذي يعتبرها الجميع مجحفة[2]». على غير انتظار، قبل ســـتالين بأن يتواســـط. قالت له: «أنا ســـعيدة جدا إذ انك تثق بي». على ما يبدو، كان ستالين، الذي لم يكن يطيق مثل هذه التدخّلات، يقبلها من زوجته الشابة.

تضمّنت ســـلطة زوجها الجديدة إلى بعض المســـاوئ الكبيرة بالنسبة

---

(1) RGASPI ‎74. 1. 429، يوميات أ. د. فوروشيلوفا (E. D. Vorochilova) بتاريخ 21 حزيران 1954. أنظر أيضا سفاتلانا أليلويافا، سبق ذكره.

(2) سيمون س. مونتفيور، بلاط القيصر الأحمر، سبق ذكره.

لناديـــا: التكريمات والإمتيازات التي يفرضهـــا وضعها الجديد. فقد كانت تمسّ مبادئها الشـــيوعية بعمق. فرضت عليها الشـــرطة السوفياتية السياسية (NKVD) ســـيارة وحارســـا مرافقا، فرفضت، وفضلت الإســـتمرار بالتنقل بالبـــاص. غير انه لـــم يكن لها الخيار. قرّرت دخـــول الجامعة لتدرس في معهد الفنون والمهن الســـوفياتي: كانت توقف الســـيارة وتترجل منها على بعد ثلاثمئة متر مـــن الجامعة ليعتقد رفاقها انها أتت بالحافة. وقد أخفت عنهم ســـرا أعظم بكثير: انها زوجة ستالين. كأمها من قبلها، كانت ترغب ناديا في ان تحيا حياتها. في ســـن الثالثة والعشـــرين، أهملت منزلها بعض الشـــيء. شـــغلت منصبا في مجلة *ثورة وثقافة*، حيث برهنت، بالرغم من ثقافتها المحدودة، عن مؤهلات فـــي التحرير رائعة. يبدو انها كانت تقبل بكل العروض إذا أبعدتها عن الكرملين، وعن ســـتالين، وعن الأولاد. كانت تعمل خاصة على تجنّب وجبات الطعام العائلية، حيث كانت تشعر بنظرة إيوسيف الفاحصة تراقبها. دوّن بازهانوف في يومياته:

«كان ســـتالين مســـتبدا مع عائلته [...]. كان يلتـــزم صمتا متغطرفا، ويتجاهل أســـئلة زوجته وابنه. متى ما كان منهكا، كما مرارا، أمضى العشاء ساكتا، منتظرا من الجميع ان يصمتوا مثله».

بعـــد ولادة ولديهما بقليـــل، تبنى الزوجان، طبقـــا للتقاليد المرعية في الكرملين، إياكوف (Iakov)، أول ابن لســـتالين وكاتو، وأرتيوم (Artyom)، إبن أحد رفاق الصغر لستالين. كانت ناديا تفضل هذين الولدين الأكبرين، وتجد ان تربيتهم اســـهل من تربية طفليها. كانت صارمة جدا مع فاســـيلي وســـفتلانا. أما ســـتالين، الذي كان قاســـيا مع معاونيه، فقد كان متساهلا للغاية معهما. كانت للوالدين نظرتان مختلفتان فيما يتعلق بتربية الأولاد.

كان ستالين ما زال متأثرا بالمنهج الجورجي الذي يقضي بأن يكون الأولاد قادرين على تحمّل ظروف العيش القوقازية الشاقة. صدم بوخارين (Boukharine) يوما بمشهد غريب: «أتدرون ماذا كان يفعل؟ كان يتنشق غليونه، ويملأ فمه دخانا، ثم يُخرج طفله، وعمره سنة، من عربته وينفخ في وجهه. كان الطفل ينتفض ويبكي. فيضاعف كوبا الضحك، ويقهقه: «لا يهمّ، هذا مفيد له، سيزيد من قوته»». فأجبته أنه عمل همجيّ. ردّ ستالين، ذاك الممثل، متكلّما عن نفسه بصيغة الغائب: «أنت لا تعرف من هو كوبا، إنه هكذا».

كان هناك تقليد قوقازي آخر، يكمن في السماح للأطفال بلعق الخمر على أصابع البالغين، وتقديم كؤوس صغيرة من الخمر لهم عندما يكبرون أكثر. كان ستالين يعطي فاسيلي مرارا جرعات من الخمر، ويعتبر ان ذلك غير مضرّ. الأمر الذي كان يثير غضب ناديا. كانا يتشاجران باستمرار في هذا الخصوص. وكان يكتفي ستالين بأن يكتكت: «ألا تعلمين أن هذا دواء!» فيما بعد، مات ابنه بسبب إدمانه على الكحول.

كان الضغط يتزايد على ناديا، وبدأت أعصابها تنهار، وتكررت الشجارات بين الزوجين اكثر فأكثر.

كان ستالين قلقا بشأن العوارض الصحية التي كانت تشكو منها والدة ناديا، التي عالجها أخيرا أطباء الكرملين من مرض الفصام. بلطافته ورقته المعهودتين، كان يصرخ في وجه زوجته: «ما أنت إلا مفصومة، هستيريّة!» فتردّ عليه بكلام جارح: «وأنت، لست غير ذهانيّ هَذيانيّ! لك أعداء في كل مكان!»

إضافة إلى ذلك، أصبح إيوسيف يدمن على الكحول ويقضي ليالٍ

بأكملها يشرب مع رفاقه. كانت تخوّله طبيعته أن يتجرّع كميات هائلة من الكحول. أما ناديا فلم تكـن تتناول الكحول أبدا. كانت تغض النظر عن إدمان المسكّرات... أما الخيانات فأمر آخر. إذ كانت الأكاذيب كثيرة.

كان ستالين يقيم علاقات عابرة مع عدة نساء، لا سيما مزيّنة الشعر في الكرمليـن، وأحدى الخادمات في البيت الريفي، التي كان لها أنف خانس كما يحبّ. ما جعل ناديا تهيج غيرة. راجت في الكرملين إشاعة: قيل إن ابنة لازار كاغانوفيتش، 16 سنة، قد حملت من فودج.

لاحظت حينذاك سفتلانا ان العلاقات الجنسية بين والديها قد انقطعت: أصبحت لناديا غرفة نوم خاصة بها، فيما راح ستالين ينام في مكتبه، او في غرفة صغيرة مجهزة بهاتف، ومجاورة لغرفة السفرة.

سنة 1926، استسلمت ناديا خائبة مرهقة. في سن الخامسة والعشرين، كانـت حياة الرفيقة الأولى تثقـل كاهلها. فغـادرت الكرملين مع ولديها والتجـأت إلى بيترسـبوغ. اعتقدت أنه باسـتطاعتها ان تبـدأ هناك حياة جديدة. لكن ستالين لم يكن رجلا يمكن هجره. شرع يضايقها بمخابرتها علـى الهاتف، ويأمرها بـأن تعود. وإلا لاحقها أينمـا ذهبت. فانصاعت له. لكن الأمور بقيت على حالها. خلافات وشـجارات متواصلة. فكرت للحظة ان تستقرّ في أوكرانيا، وتترك كل شيء. لم تفهم حدّة ضراوته تجاه رفاق بلشـفيين آخرين كتروتسكي وزينوفياف وكامناف، الذين أقصاهم في منتصف عشـرينات القرن العشرين. لماذا سـورة العنف هذه؟ كان إعدامه دون مراعـاة لكل مناهض أول وُجهة له في حقيقة السـلطة المجرّدة. كان ستالين يعجز عن الوثوق بأقرب معاونيه. وأدركت ناديا ان الوضع مماثل في علاقتهما الزوجية.

كانت سنة 1927 صعبة جدا. حُمل الدبلوماسي أدولف إيوف (Adolf Ioff) على الإنتحار، وكان تروتسكيّا على علم الجميع. ترك لديها هذا الحدث أثرا عميقا. حضرت الجنازة، وسط جمع من جنود الجيش الأحمر الأقدمين الذين راحوا ينادون باسم تروتسكي. تقارب تمهيدي مع أعداء إيوسيف لدى تلك المرأة التي كان يتجاذبها وفاؤها لمثلها العليا وواجب الإخلاص لزوجها. وإذ لم تتمكن من البتّ في الموضوع، التفتت إلى أفق جديد: الدين. استعادت إيمانا دفينا منذ سنوات صباها. ولقيت في التديّن والتقوى سكينة كانت قد افتقرت اليها حتى ذلك الحين. وجدت روحها المعذبة أخيرا نوعا من رسالة أمل، ومجالا لم يكن فيه الأمر والنهي لا لزوجها ولا لسلطته. هل كان في ذلك استفزاز لستالين، الذي كان ضدّ كل أنواع التديّن؟ يشفع الإيمان بالروح، لكنه لا يعيد السنوات. تذكّرت غالينا كرافشانكو (Galina Kravchenko)، إحدى زميلاتها في الجامعة، تقول:

«كانت ناديا تبدو اكبر من عمرها. وكأنها في سن الأربعين او ما قارب. كانت امرأة شابة متزوجة من رجل يكبرها سنا، غير انهما كانا يبدوان وكأنهما في نفس العمر. كانت متديّنة جدا، ترتاد الكنيسة. كان كل الناس على علم بذلك. وكان من الواضح انه بإمكانها القيام بأفعال محظورة على بقية أعضاء الحزب[1]». إهانة كانت تثير التهكّم لدى المقيمين في الكرملين. زوجة ستالين، تقيّة حتى الإفراط! وتنتهي غالينا إلى الخلاصة بالقول: «من الواضح انها كانت مجنونة قليلا».

حتى صحتها الجسدية بدأت تسوء. أصابها صداع قوي، فأرسلت

---

(1) لاريسا فاسيليافا، سبق ذكره.

في بادئ الأمر إلى ألمانيا، في كارلسـباد (Karlsbad)، لتتلقّى علاجا ناجعا، وللإسـتجمام. فاغتنمت الفرصة للقيام بزيارة إلى أخيها بافال (Pavel)، الذي كان يسكن برلين. أثر وضعها النفسي على جسدها، فسرعان ما أصيبت بآلام حادّة في بطنها. لربما كان ذلك نتيجة إجهاض، لا يُعرف عنه الكثير، تمّ في 1927 او ما قارب. عملية خطيرة في ذلك العصر، ربما تركت أثرا ما لدى المرأة الشابة. ما لا شك فيه ان ناديا لم تشأ ان تربّي ولدا ثالثا في الكرملين.

ثم أتت تجربة تشـييع الأراضي الفظيعة، والتي استحوذت كليا على كل جهود سـتالين في أوائل السـنوات 1930. أقرّ في نهايـة عمره انه لم يُولِ زوجته إلا قليـلا جدا من الإهتمام: «كنت أخضـع لضغوط جمّة، وكان الأعداء كثيرون. كان علينا العمل ليلا نهارا..».

فات الأوان. ابتعدت ناديا شيئا فشيئا عن حياتها العائلية، وعن حياتها كلها. بدا لها بوضوح، وهي في التاسـعة والعشرين من عمرها، ان حياتها فارغة. كانت أختها أنا قد تزوجت من احد أعضاء الشـرطة السـرية الذي أصبح مفوّضا عن شـؤون التموين ومبعوث سـتالين إلى أوكرانيا. كان هو المسـؤول عن مصادرة الحبوب فـي تلك المنطقـة. روى لناديا تفاصيل إجـراءات المجاعـة التي أودت بحياة الملايين مـن الناس. أدركت مدى التجاوزات التي أمر بها الرجل الذي تشاركه حياته. فكانت الضربة القاضية لآخر دعائم أوهامها. نُفيت أنا وزوجها لأنهما أطلعاها على ذلك.

الرقصة الأخيرة

دار المشهد الأخير بين سـتالين وناديا ليلة 8 تشرين الثاني 1932. في ذاك المساء، أقيم حفل في الكرملين احتفاء بالذكرى الخامسة عشرة للثورة.

جرى حفل الإستقبال في منزل فوروشيلوف (Vorochilov)، المفوّض عن الدفاع، في جناح الفرسان (Cavaliers)، وكان بناء ضيقا طويلا. كما في كل سنة. كان كل أعيان النظام حاضرين. وجرت العادة على الغناء والرقص الخفيف، على النمط القوقازي. وطبعا، باشر ستالين بالترنيم.

رفع فوجد كأسه نخب القضاء على أعداء الدولة. ولاحظ انها لم ترفع كأسها. فصرخ بها بلهجة قاسية: «لماذا لا تشربين؟» كان يعرف تماما انها لا تشرب الكحول أبدا. وكان يعلم ايضا انها وبوخارين، وكان جالسا إلى جانبها، كانا يستنكران المجاعة الممنهجة في أوكرانيا. ماذا يدبّران، هذان الإثنان؟ استفزها، لكنها لم تردّ. رماها بقشر البرتقال وأعقاب السجاير. فطفح الكيل هذه المرة. شتمها: «يا أنت، تناولي جرعة!» وقفت فجأة عن الطاولة وأجابت: «لا أُدعى يا أنت». وخرجت غاضبة. وفيما واصل ستالين شتمها وهي تبتعد، صرخت به».أسكت، أسكت!» طأطأ برأسه. قال ايضا: «يا لها من غبية». علّق بوديانى (Boudienny)، أحد الضيوف: «أنا، لن أسمح أبدا لزوجتي ان تكلمني بهذه الطريقة».

وجب ان يصحب أحد ناديا. فلحقت بها بولينا مولوتوفنا (Polina Molotovna)، زوجة مولوتوف، وإحدى أفضل صديقاتها. مشيتا على طول الكرملين. «إنه يدمدم باستمرار، وهل كان بحاجة للمغازلة بهذا الشكل[1]؟» من غازل ستالين في ذاك المساء، وأمام كل الأعيان وأقربائه؟

---

(1) فليكس تشواف (Félix Tchouev)، أحاديث مع مولوفوف، 140 مقابلة مع عميل ستالين المنفّذ الرئيسي (*Conversations avec Molotov, 140 entretiens avec le bras droit de Staline*)، باريس، ألبان ميشال (Albin Michel)، 1995.

هل أراد ان يثير غيرتها امام بوخارين؟

كانت المذنبة زوجة ألكسندر أغوروف (Alexandre Egorov)، ضابط فـي الجيش الأحمر. راقصها بشـغف خلال العشـاء، وهمس في أذنها. وجلس مقابلها. ثم تجاسـر فاحتكّ بغاليا أغوروفنا، الممثلة السـينمائية، المعروفة بعلاقاتها الغرامية ولباسـها المثير. كان أسلوب ستالين في الإغواء سـاذجا أحيانا، لا بل غبيا، عندما كان يشـرب الكحول: أغوى غاليا في تلك الأمسـية وهو يرميها بكريّات من الخبز. كانت ناديا حانقة. حاولت بولينا طمأنتها بالقول: «كان ثملا، فتباله».

كيف يمكن ان تغري قائدَ البلشـفيين مومسـاتٌ متكلّفات متبرّجات بهذا الشكل؟ راقصات، مزيِّنات شعر، ممثلات... كانت ناديا فخورة لأنها صانـت كرامتها الفطرية، ورفضت المظاهر التافهة: كانت ترتدي فسـاتين باهتة اللون، قبيحة الشكل، وشـالات بسيطة، وصدارات ذات قبة عالية، ولم تكن تتبرّج... باسـتثناء ذاك المسـاء. فقد اتفـق ان قررت ان تكون مختلفة. فلبست فستانا طويلا أسود، مطرزا بورود حمراء. فستانا جلبته من برلين. ولم تعقص شعرها هذه المرة، بل تفنّنت في تسريحه، وزينت شعرها الأسود بوردة صفراء. وهو لم ينتبه حتى للباسها...

سـارت المرأتان نحو الشـقة، وتناقشـتا في الكرمليـن. بقيت بولينا معها طيلة الليل. روت بشـأن تلك السـهرة: «هدأ روعها، وتحدّثت عن الأكاديميـة، وعن إحتمالات ان تجـد وظيفة». ثم تركت ناديا في الفجر عند مدخل قصر بوتاشـني (Potechny)، وعبرت الممر عائدة إلى شقتها في جناح الفرسان.

توجهت ناديا إلى مكتب ستالين، في الطرف الآخر من الممرّ. وجدته

خاليا. يظهر أنه لم يعد أبدا تلك الليلة. على حد قول ميكويان (Mikoïan)، المفـوّض عن الصناعة الزراعية الغذائية، كالمت ناديا إحدى البيوت الريفية القريبة من الكرملين، فأجابها أحد الحرس:

«هل ستالين موجود؟

نعم

مع من هو؟

مع زوجة غوساف (Goussev)».

وقد أكد فلاسـيك (Vlassik)، حارس سـتالين ومرافقه، لخروتشوف (Khrouchtchev) ان سـتالين غادر مأدبة العشـاء في منزل فوروشـيلوف بصحبة امرأة، وتوجّها إلى أحد بيوته الريفية.

رمت ناديا الوردة الصفراء التي شـكّتها بعناية في شـعرها. ثم دخلت غرفتها ووجدت على سـريرها شـالاتها المفضلة التي جرّبتها كلها لتختار الذي يتناسـب اكثر مع فسـتانها. ونظرت خلال النافذة إلى ورود حديقة ألكسندر.

كان أخوها بافال قد جلب لها من برلين، مع الفسـتان الذي ما زالت ترتديه، مسدسـا، من نوع موزر (Mauser)، في قِرابه الجلدي: «لأن المرء يشـعر أحيانا بضيق شـديد وعزلة كبيرة في الكرملين، مـع وجود حارس واحد».

كتبت رسالة إلى ستالين، رسالة مذمّة عنيفة.

لم يكن ستالين ينهض أبدا من النوم قبل الحادية عشرة صباحا. في أية ساعة عاد؟ وهل رأى ناديا للمرة الأخيرة، أو انه كان سكرانا إلى درجة عدم الإهتمام بذلك؟

فتحـــت خادمة باب غرفة ناديا قبل وقـــت الغداء بقليل. وجدتها ملقاة في بركة من الدماء، عند أســـفل الســـرير. أطلقت ناديا رصاصة في قلبها، وحرصت على إخفات صوت الطلقة بواسطة وسادة. هرعت الخادمة تبحث عـــن مربية الأطفال. انتاب الذعر المرأتين واســـتولى عليهما الذهول. نادتا بوكر (Pauker)، حارس ستالين الثاني، ثم أنوكيدزيه (Enoukidze) وبولينا. وصـــل أنوكيدزيه أولا، وانضـــم اليهم بعد دقائق مولوتوف وفوروشـــيلوف. وجدوا رســـالة ناديا، التي اختفت فيما بعد بصورة غامضة. شهد فلاسيك (Vlassik) على انه وجد ايضا قرب الســـرير برنامجا حرّره مناهض مشهور للســـتالينية، ريوتين (Rioutine)، الذي كان يمثل المعارضة داخل الحزب البلشـــفي. كرّاسة للمعارضة... لم يعد زوجها الإله الذي كانت تتصوّره من قبـــل، فانضمت ناديا إلى معســـكر الذين أدركوا الفظائـــع التي كان ينزلها بالشعب الروسي. انتحار عنيف لكي يشعر بالذنب؟

وصـــل بافـــال الأخ، تصحبه زوجته الفاتنة، جانيـــا (Genia). في غرفة السفرة، تشاور الحاضرون. هل يجب إيقاظ ستالين؟ ها هو يدخل الغرفة. بـــادر أنوكيدزيه الخدوم الطيب بالقول: «إيوســـيف، إيوســـيف... ماتت ناديا». ســـارع ســـتالين إلى تناول كوب من الناردين (valériane)، فاليوم (valium) ذاك العصـــر، كان الطبيب يقدّمه إلى أم ناديا المحزونة. وتجرّعه مرة واحدة. ثم تقدّم ليرى الجثة. سُـــلّمت له الرســـالة. قرأها بعصبية. قال: «لقد دمّرتني. ناديا، ناديا، كم نحتاج إليك أنا والأولاد».

روت زوجـــة بوخارين مأتم الرفيقة ناديا: قبـــل ان يُغلَق التابوت، طلب ســـتالين التمهّل لحظة، ورفع رأســـها فقبّلها. فكّر زوجها: وما الفائدة من قبلاته؟ اقد دمّرها.

رأى الجميع ناديا راقدة امامهم، تلبس الفســتان المطرّز الجميل الذي أصرّت على ارتدائه مســاء حصلت المأســاة، والذي لم يُعِره ســتالين اي انتباه.

قبل أسبوع على انتحارها، باحت ناديا لإحدى صديقاتها بأن ثمة حدثا فظيعا كان على وشك ان يقع، وانها تحمل وصمة اللعنة منذ ولادتها. قالت ان ستالين صرح لها وهو يزعق، خلال شجار نشأ بينهما، انها في الحقيقة ابنته. قالت ناديا انها ســألت والدتها، التي باحت لها بحقيقة مروّعة: لقد أقامت مع ســتالين خلال شــهرين علاقة جنسية قبل سنة من ولادتها. وإذ لاحظت على مرّ الأيام أن لها ملامح أبيها الشــرعي، سارغاي، فلم تشك أبدا بأبوّته. فكان لا بد ان يشكّل إفشاء هذا السرّ، صحّ أم لا، ضربة قاضية بالنسبة لشخصية مضطربة.

انعزل ســتالين ثلاثة أيام في غرفته واهنا. اعتبر أن مثل ذلك العمل كان موجّها ضدّه. عند الدفن، سُــمع يقول امام التابــوت المفتوح: «غادرتني وهي عدوّة». ويعلم الجميع كيف كان ســتالين يعامل أعداءه... لم يحضر الجنازة، ولا الصلاة التي أقيمت ذكرى لها. صرّح تحت وطأة الصدمة بأنه يريد التخلّي عن السلطة. لكنه لم يفعل.

مجهولة يالتا (Yalta)

في 2 تشــرين الثاني 1938، رجع بافال أليلويــاف، أخو الراحلة ناديا، وزوجته من عطلتهما. توجه بافال إلى مكتبه، وكان يشــغل حينذاك منصب مدير قسم المدرّعات. رأى ان كل زملائه قد اختفوا. سقط جميعهم ضحية

موجة الرعب التي أطلقها ستالين في صفوف الجيش. رفع سماعة الهاتف ليسالعن الأسباب. ساءل ستالين، الذي كان يعيش معه في الكرملين. عمَّ دار الحديث بينهما؟ لا أحد يعلم. بعد هذه المكالمة بوقت قليل، انهار بافال فجأة. شخّص الأطباء نوبة قلبية عزوها إلى إعياء مفرط. أما أسرته، فشككت بمحاولة اغتيال. كان بافال قد أصبح يشكّل بدوره عائقا بالنسبة لستالين. لا لأسباب سياسية هذه المرة. بل لأنه كان متزوّجا من جانيا (Genia)، المرأة الأخيرة التي أغرم بها ستالين.

في ذاك الكرملين المظلم، كانت قد تقرّبت من ستالين بعد وفاة ناديا. كانت هي ايضا ممثلة. كانت جميلة، مرحة، مثقفة، أنيقة، فشغلت المجال التي أخلته ناديا، لكن دون ان تحلّ محلّها. دوّنت ماريا سفانيدزيه (Maria Svanidze) أخت أكاترينا، زوجة ستالين الأولى الراحلة، في يومياتها، في آب 1934: «كان إيوسيف يمزح مع جانيا. يقول لها إنها سمنت كثيرا. كان حنونا جدا معها. الآن وقد علمت بكل شيء، كنت أراقبهما[1]».

لم تخش جانيا ان تقول لستالين ما ليس على ما يُرام في البلاد، ولا ان توجه اليه انتقادات بشأن خياراته. كانت علاقتهما متينة بحيث تتيح لها ذلك. كانت تشكّل دعما معنويا له بعد الحزن الذي دمّره. لذلك كان يسمح لها بكل شيء. سنة 1936، خلال حفل أقامه ستالين بمناسبة صدور الدستور الجديد، تأخرت جانيا عن القدوم بضع دقائق. عندما

---

(1) ماريا سفانيدزيه (Maria Svanidze)، يوميات خاصة، من تموز الى تشرين الأول وفي 23 كانون الأول 1934. بالنسبة للنوادر عن ستالين وجانيا (Génia)، أنظر كيرا أليلويافا (Kira Allilouyeva)، مقابلة مع سيمون س. مونتفيور، بلاط القيصر الأحمر، سبق ذكره.

وصلت أخيرا، همس لها: «أنت وحدك تتجرّئين على التأخر في المجيء».

نشأت بين ســتالين وسلفته صداقة غرامية وتفاهم حقيقيّين. لم تصدّق جانيا تشــخيص الأطباء. في رأيها، لم يمت زوجها بنوبة قلبية، بل تسمّم. ولــم يكن هناك إلا مذنب واحد. رجل ســتالين للأعمال الإجرامية، الذي يريد عزله عن الآخرين: باريا (Beria). وهو الذي أتى، بعد مرور بضعة أيام على وفاة بافال، وطرق بابها عارضا عليها بفظاظة: «أنت امرأة رائعة. أنت جميلة. ألا تودّين ان تكوني مدبّرة منزل ستالين؟»

تجدر القراءة بين الســطور: كان ذلك عرض تســرّر وفقا للأصول. لم تدرِ جانيا ماذا تفعل: إن هي قبلت، أصبحت زوجة ســتالين غير الرسمية. كانت على علم بطبعه الخشــن، وتعرف ان أقلّ خرق قد يتحوّل لا محالة إلى ما هو أسوأ. أرادت ان تتّقي غضب سيد الإتحاد السوفياتي، فسارعت إلى التزوج من مهندس يهودي كانت تعرفه منذ زمن طويل، مولوشــنيكوف (Molochnikov).

صُعق ســتالين لهذا الرفض اللاذع، حتى أنــه رأى من غير المعقول ان تتزوج هكذا دون أن تتقيّد بفترة من الحداد.

لم يبق له بعد ذلك إلا ان يتعزّى مع غيرها،امرأة تكون أكثر طواعية. غير ان حفيظته لم تكن لتخمد بســهولة. سنة 1947، بعدما اتهمها باريا بأنها ســمّمت بنفسها لزوجها، أقصيَت جانيا وسُجنت تحت شروط صارمة إلى درجة انها، عندما أطلق ســراحها، بعد وفاة ستالين بوقت طويل، كانت قد فقدت صوابها جزئيا، ولم تستطع أبدا ان تعتاد مجدّدا على حياة الحرّية.

فــي صيف 1946، وللمرة الأولى منذ بداية الحرب، ذهب ســتالين في عطلة. وسار موكب ضخم في جولة شبه أميرية باتجاه سوتشي. توقّف في

المدن الكبيرة التي عبرها، لملاقاة الشعب الروسي. ونزل ستالين ضيفا على موظفي الحزب في كل مرحلة. لم يكن ستالين وحده خلال هذه الرحلة. كانت بصحبته امرأة. إنها فالنتينا إيستومينا (Valentina Istomina)، مدبّرة منزله في الكرملين منذ سنوات 1930.

أدركت هذه المرأة النشيطة، شبه الأمّيّة، تماما مكر رجال الحاشية، وأكاذيبهم، وتملّقهم، والطريقة التي كانوا يخفون بها على ستالين وضع البلاد الحقيقي. فيما كانت المواد الغذائية تنقص في كل مكان، كان الرؤساء المحليّون يقدّمون له التقارير الحماسية، ويغدقون عليه بالهدايا. أما السائقون، فكانوا يصفون للخدم البؤس اليوميّ. كانت تشكو قائلة: «ألا يخجلون من خداعه! وهم يلقون الآن كل المسؤولية على عاتقه!»

وبالفعل، منذ بعض الوقت، كانت فالنتينا ترافق فوجد في كل تنقلاته. قال مولوتوف في نهاية حياته: «إن كانت إيستومينا زوجة ستالين أم لا، فالأمر لا يعني أحدا. على كل حال، كان أنغلز (Engels) يعيش كذلك مع مدبّرة منزله!»

كانت فالنتينا ضحوكة، ذات وجنتين ورديّتين، وكان الجميع يقدّرونها. يتذكر أرتيوم (Artyom)، إبن ستالين بالتبنّي: «كان شعرها كستنائيا فاتحا، وباهتا بعض الشيء. لم يكن لها ما يميّزها، لم تكن لا نحيفة ولا سمينة، بل ظريفة وعلى فمها ابتسامة باستمرار[1]». كانت تعجب إيوسيف على الأخص، ببنيتها المتينة غير الثقيلة، وهندامها الأنيق، ووجهها المستدير وأنفها الخانس. كانت مخلوقة بسيطة، لا بل جلفة، تقدّم الطعام على

---

(1) روزاموند ريدشاردسون، سبق ذكره.

المائــدة دون التدخّل في الحديث، وتحضر دائما عند الحاجة اليها. ربما كانت في النهاية المرأة المثالية بالنســبة لســتالين. بعد علاقته المأساوية بناديا، كان على يقين بأن هذه المرأة التي لا تطمح إلى شيء ولا تلعب اي دور سياسي، لن تتسبّب له بأي همّ او غمّ.

بعدما خدمت في بيت زوبالوفو (Zoubalovo) الريفي، ترقّت فأصبحت مدبّرة منزل ســتالين حيث كانت تُعنى ببياضاتــه، وثيابه، وطعامه، وتدبير منزله، كما كانت ترافقه في كل رحلاته.

كان ســتالين يثق بتلك المرأة التي أخلصت له. كان يقدّر بشكل خاص طريقتهــا في ترتيب بياضاتــه، وكان يُري أحيانا الرفــاق المقرّبين منه داخل الخزانات، لكي يتأمّلوا بكوَم الملابس الداخلية الناصعة البياض، والتي كانت تصفّهــا له بترتيب فائــق. كانت إحدى صديقات ســفتلانا تتهكّم عليها: «بمئزرها الأبيض وشعرها الفاتح، كانت لها سذاجة ونزاهة الفلاحين». كانت تقدّم الطعام في كل مآدب العشاء التي يقيمها ستالين، بمئزرها الأبيض، دون ان يلتفت اليها أحد. وهي التي قدّمت الطعام للحكّام النافذين في يالتا سنة 1945. ولم يشك أحد حينذاك بالعلاقة التي كانت تربط بينهما.

خرج ســتالين من محنة الحرب واهنا. كان قــد فقد حيويته المعهودة. كان بإمكانــه قضاء نهاية حياة عاطفية هادئــة بفضل تلك *البابا* (*Baba*) (الفلاحــة البدينة) الحنونة دون بلبلــة او اضطرابات. لا نعرف المزيد عن تلك التي شاركته حياته خلال خمس عشرة سنة، أطول علاقة عاشها. عرفا كيف يخفياها دائما، داخل قلعة الكرملين التي كان لجدرانها آذان. وهكذا عاشــت أبســط امرأة في روســيا مع الرجل صاحب أعظم سلطة والمبيد الأكبر في روسيا الحديثة خلال حوالي عقدين من الزمن.

4

أنطونيو سالازار (Antonio Salazar)

لُعب محظورة على طالب إكليريكية

«كيف يسعني صدّ هذه الموجة النسائية الإستقلالية التي تتدفّق على عالمنا؟
تعبر النساء عن حاجة كبيرة لديهن إلى الحرية،
عن حماس بالغ للتمتع بملذات الحياة!
إنهن لا يدركن ان المرء لا يبلغ السعادة بالمتعة، بل بالتضحية».
أنطونيو سالازار

عذراء فيزو (Viseu)

صهباء المحطة

5 تشــرين الأول 1905، محطة فيزو. توقفت القاطرة بمحازاة الرصيف، وترجّل أول فوج من المسافرين عن القطار تحت المطر. نزل أنطونيو سالازار وأخته مارتــا (Marta) من العربة برفقة أمهما، ماريا دو راســغات (Maria do Resgate). كانــت هذه الأخيرة عبوســة بقدر ما كانــت رثيويّة، تعرج

وهي تمشي بعناء على الرصيف. كانت بانتظارهم فليسمينا (Felismina)، المعلمة الشابة رفيقة مارتا. كان الوقت قد حان لأنطونيو كي يعود إلى المدرسة الإكليريكية، فدنا منها بصمت، كما لو أراد ألا يخيفها. توقف لحظة دون حراك، يراقبها. كانت طويلة القامة، جميلة، يغمرها شعرها الأصهب، ويكسو النمش وجهها. كان في السادسة عشرة من العمر، تكبره بسنتين. جمدا وجها لوجه خارج الزمن، وبدا كل منهما توّاقا إلى الآخر قبل حتى ان يتعرّفا إلى بعضهما. أفضت الفتاة إلى دفتر يومياتها بانفعال يشبه القلق: «كان هذا اللقاء الأول في المحطة بداية الفترة الرومنطيقية من حياتي، وربما من حياتنا[1]».

كانت فليسمينا ده أوليفارا (Felismina de Oliveira) تتحدّر من أسرة عديدة الأفراد متواضعة، على غرار ما كانت أسرة أنطونيو. ولدت سنة 1887، وكانت الخامسة من بين ثمانية أخوة. كانت أمها خادمة، متحفّظة تقيّة. كان أبوها يعمل بوّابا في أحد قصور المدينة الرسمية، وكان مربّيا متودّدا، يساعدها على مراجعة أمثولاتها ويتلو لها صلوات وهي في السرير. لم تكن فليسمينا تستطيع ان تنام دون شكليّة «أبانا الذي في السموات». نشأ لديها باكرا ميل إلى الشعر، وكانت تحب نظم القصائد. أدخلها والداها مدرسة خاصة كي تترسّخ مواهبها. كانت أحسن تلميذة في صفها، لطيفة،

(1) نشرت مقتطفات يوميات فليسمينا ده أوليفارا (Felismina de Oliveira) الخاصة في فليسيا كابريتا (Felicia Cabrita)، *Os amores de Salazar*، لشبونة، آ أسفرا دوس ليبروس (A ESFERA DOS Libros)، 2007. المقتطفات الآتية من اليوميات الخاصة بشأن عشيقات سالازار مأخوذة هي أيضا من كتاب فليسيا كابريتا.

رشـيقة، فباتت معلمتها تكرهها، وكانت امرأة قصيرة القامة والنظر. أنزلت بها يوميا المذلات والضرب على أليتيها وبالمسطرة. كانت تلك الفتاة ذات الشـعر الأصهب الناري الأشـعث تحمل، في نظرها، طابع الشيطان. في ذلك الوقت، كانت المرأة ذات الشـعر النحاسي اللون مبعثا لرغبة غامضة، يجدر التحذر منها. نفرت فليسـمينا من تقصيبات الشـعر المتمرّدة هذه، فقررت يوما أن تواجه المشكلة. وقفت أمام المرآة، وحلّت بتحدٍّ تسريحتها الصارمة فغمرتها أشـعة الشمس وأصبحت أشـبه بالنار المتأجّجة. كانت النتيجة غير التي توقعتها: «إنه لجمال غريب... كم أودّ لو شهدت ذلك».

قد يقود إذاً لون الشعر احيانا إلى تساؤلات ماورائية (métaphysiques). «عرفـت اليوم، اليوم فقط، ان الدم كان يغلي فـي عروقي. هذه النار هي التي كانت تتقد في شعري الأصهب. لم يكن لأحد غيري من العائلة شعر كهذا. ولذلك أتسـاءل من أين أتيـت». ابتداء من ذلك اليوم، قررت رفع شعرها كالراية.

وعليه، تركت فليسمينا المدرسة بعد الصفوف الإبتدائية وتابعت تدرّبها في الشـوارع، حيث كان يناكدهـا الأولاد الآخرون. فتعلّمت كيف تقاتل، وقـد لقيت في الصبيان أخصاما يتناسـبون مع طبعها الجامح، الميّال إلى المحاربة. اسـتنتجت من حماسـتها الدائمة أنه قُـدّر لها ان تعيش حدثا عظيما. بقي معرفة أيٍّ هو.

لم تخطئ فليسـمينا إذ شـعرت بغرابتها نسبةً لبقية أفراد أسرتها. كانت هرمينيا (Herminia)، أختها البكر، تتهيّأ لتصبح راهبة، وتعيش بين راهبات قلب ماريا (Cœur de Maria). عندما كانت فليسمينا في سنّ الثالثة عشرة، فقد أبوها بصره، فاضطرّت هرمينيا إلى العدول عن نذورها، إذ توجّب عليها

ان تعمل لإعالة الأسـرة. تمرّنت علـى الخياطة وأصبحت فيما بعد صانعة قبّعات نسـائية. ومن ثمّ التبسـت العلاقة بين الأختين: هل أرادت هرمينيا تكليف فليسـمينا تطلّعاتها الروحية المعاكسـة؟ عملا بنصيحتها، راحت الأخت الصغرى تتـردّد على ثانوية راهبات ماريا، بصفتها تلميذة خارجية. كان التعليم فيها مجانيا ولكن جيّدا. كانت أكبر أسـر فيزيو ترسـل اليها بناتها. أصبحت فليسـمينا عُرضة لأولئك البنات الثريات. يجدر القول إنها كانت حينذاك أشبه بالمتشرّدة، تصرّ على عدم تسريح شعرها.

كانـت في الصـف الرابع عندما تقـدّم لها أول الخطّاب. أسـتاذها للرياضيـات. كان الرجل هامـة، يلبس دائما معطفا طويلا أسـود، يُرعب التلميذات. لُقِّب «بالعملاق». في أحد الأيام، كانت فليسـمينا عائدة من المدرسـة فسمعت وقع خطى تندمج بخطاها. كان الأستاذ يتبعها. واعتاد بعـد ذلك برذالة ان يجوب شـارعها يوميا في آخـر النهار، ويقف تحت نافذتها ينتظر ظهورها. وإذ التقاها في أحد الأمسـاء في طريقه، رفع قبعته بتهذيب. فردّت على سـلامه بالسـلام. اغترّه الأمر، فاختبأ خلف شجرة يرنو، وانتظر هبوط الليل ليدقّ بابها. لجأت فليسمينا إلى غرفتها: «بكيت عن شعور بالذنب لأني أوحيت اليه بالخطيئة. كان متزوّجا».

وكانت 1900 السـنة التي تناولت فيها القربـان المقدّس للمرة الأولى. فاجتاحهـا وحي روحاني ديني. كانت الراهبات يجدنها مرارا واهنة، تختبئ فـي إحدى الزوايا. «كان ينتاب احيانا قلبي شـعور غريب، وتغمره موجة مـن العذوبة تحملني على البكاء، دون إرادة مني، ودون معرفة السـبب». فسّـرت الراهبات بنفاذة بصيرة هذه الظواهـر بأنها دلالة على دعوة ربّانية. فعرضن عليها الإنضمام إلى جمعيتهنّ. رفضت فليسـمينا: كانت علاقتها

بالله خاصة، لا يمكن ان تخضع لأي جمعية دنيوية، ولا ان يشـــاركها فيها احد. كانت تصعّد صورة المســيح في تضرّعاتها: «يا مســيحي، أريد ان أحبك كثيرا، دائما، وفي كل مرة أكثر، [...] خذني قربك». وباتت حياتها تجري بين التسبيح، والقربان، والتحاور مع العالم الآخر.

إلا أن الوضع السياســي في البلاد ســرعان ما أخرجها من هذه النشوة الروحية، لتعيش أول اندفاعاتها الوطنية. في 1901، مرّت الملكية الدستورية البرتغاليــة بفترة مــن الإضطرابات القصوى. بعد اكثــر من نصف قرن من الإســتقرار والتناوب بين الحــزب التقدّمي اليســاري والحزب الإصلاحي اليميني، فــي أحدث نظام في أوروبا، قرّر الجمهوريــون الليبراليون ومعهم الحزب الإشــتراكي مهاجمة الملك شــارل الأول (Charles 1er). برز قادة تلك الحركة، التي عُرفت «بجيل الســبعين» (génération de 70)، من بين مجموعة تابعة لجامعة كوامبرا (Coimbra) التي تشرّبت الأفكار الجمهورية الآتية من فرنســا. فتعطّلت المؤسّسات، وراجت الشــائعات الجنونية في بلاد كادت تشــرف على حرب أهلية. كانــت هناك مخاوف من ان تطرد الجمعيات الدينية إذا ما اســتولت على الســلطة العناصــر الأكثر تصلبا. وارتعدت الكنيسة.

بقطع النظر عن عزم فليسمينا: «من يريد ان يمسّ بسيّدتي الحبيبة عليه ان يدوس جثتي. فكما تغلّبت على زمرة الأولاد بعصا المقشــة، ســأتغلّب على الماسونيين بمسدّس يُعيرني إياه أحدهم».

لكــن لم يكن قد حــان أوان الثورة الجمهورية بعــد. هدأت العاصفة. ســجّلها أبوها الســنة التالية في دار المعلمين في فيــزو. وقد تبنّت نمط المعلمــة الصارمة فــي بداية ذاك القرن: فراحت تلبس الأســود دون غيره،

وتقرص شــعرها بعناية. كانت طالبة مثالية، تتمرّن على مهنتها المســتقبلية بإعطاء دروس لزميلاتها المُعوزات. وهكذا تعرّفت إلى مارتا ســالازار، فتاة فقيرة من قرية سانتا كومبا (Santa Comba).

فضائح طالب إكليريكية

بالرغم من ســنها، 23 عاما، لــم تكن تبرح ســيماء الكآبة وجه مارتا الحزينــة. بقي أقرباؤها في ســانتا كومبا، شــمالي البلاد، قــرب براغانس (Bragance)، حيث يقع المنزل العائلي. أثر في فليسمينا التقشف العاطفي وكذلــك المادي الذي كان يتعــارض لدى تلك المرأة الشــابة مع الرغبة الملحّة بالعلم: «كانت تلبس فساتين ذات أرفال، محتشمة للغاية، [...] كنا نحترمها كما لو كانت من الســيدات. كانت هــي التي تكلّفني اكبر جهد، لكنها كانت تطلب بتواضع بالغ «علّميني هذا»».

إضافــة إلى ذلك، كانــت كل من المرأتين تشــعر بالإقصاء. إحداهما بعيدة عن منزل أمها، والثانية تحس بنفســها غريبة في مدينتها.، فســرعان ما لم تفترقــا، تداركاً للوحدة. ابتداء من الســنة التالية، في خريف 1905، أصبحــت مارتا نزيلة عند فليســمينا. للإحتفال بوصولهــا عند صديقتها، وترســيخ روابطهما، عقــدت مارتا حول عنق رفيقتها سلســلة صغيرة فيها صليب وقالــت لها إنها هدية من أمها. ولم تعرف فليســمينا إلا بعد فترة طويلة من الزمن انها كانت من ذهب، وان صديقتها أنفقت كل النقود التي وفّرتها لتقدّم لها هذه الهدية العادية ولكن الملهَمة.

في ذاك اليوم، 5 تشرين الأول كان أنطونيو، أخو مارتا الأصغر، يصحبها. كان اليوم مهمّا بالنسبة له ايضا: فقد قرّر، بعد صيف من الشكوك، ان يعود

إلى مدرسة فيزو الإكليريكية، التي كان يتعلم فيها منذ 1901. عندما ولد أنطونيو ده أوليفارا سالازار في 28 نيسان 1889، كانت مرتا في الثامنة من عمرها، وكانت أمه قد تخطّت الأربعين عاما. كان طبع مارتا قد تثبّت: كانت تقوم بدور الأم بالقرب من أنطونيو الصغير وأخواتها الثلاث الأخريات. كان مجيء هذا الولد الذكر بعد طول الإنتظار موضع اهتمام نساء المنزل. في باحة مزرعة أسرة سالازار الوضيعة، كان يتلهّى فريق الأولاد الصغير بالطبخ لدمى البنات، بمغرفات مصغّرة كان أنطونيو يمهر باستعمالها. كانت بنية الصبي ضعيفة، ولم يكن هناك من يلعب معهم غير أخواته. كانت ماريا دو راسغات تعمل في خمّارتها، تطهو لزبائن حقيقيين، فيما كان انطونيو ده أوليفارا، الأب، يشقى في حقول أسرة برستريلو (Perestrelo) النبيلة. كان أنطونيو إبنا محبا لماريا دو راسغات، التي بلغت سن الستين عام 1905. أنهكتها عيشة الكدّ، فحثته على بناء مستقبل أفضل لنفسه بالتعلّم. وكانت المدرسة الإكليريكية تشكّل فرصة لأبناء الأسر الشعبية كي يدخلوا الجامعة يوما. بعدما تردّد أنطونيو بسبب ميله الديني الضعيف، استجاب أخيرا لدعوة أمه المهمومة، وعاد إلى فيزو.

في ذاك النهار «كانت بداية قصة حب كبير [...] يمكن القول ان الله أراده»، كما أسرّت فليسمينا. بعد ظهر يوم السبت، كانت ترافق صديقتها في زيارت لأخيها في المدرسة الإكليريكية. كان قد أصبح خطيبا موهوبا، يعرف كيف يفتن جمهوره بإيماءاته، وهو يروي له خروقات الإنضباط الطفيفة التي كان يرتكبها أولئك الشبان في دير كان يوحي إليهم بالسفاهة اكثر منه بالقداسة. كانت فليسمينا تتجرّع كلامه. وتجلب له كل اسبوع المربّى والكستنة المشوية، وهو ينتظرها على العتبة بثوبه الكهنوتي. أثناء

احد هذه اللقاءات الأسبوعية المكرسة للرومنطيقية المراهقة، سلّم أنطونيو المعلمة الحسناء رسالة. دفع الفضول مارتا إلى محاولة قراءتها من فوق كتفها. فوثب يتوسّط. أرادها ان تقرأه هي وحدها. كتب فيه انه مستعدّ لتغيير مشاريعه في الحياة وانه يريد ان يؤسس عائلة. رأت في ذاك البوح تصريحا أثيما: فهو يدرس علم اللاهوت ويتهيأ للكهنوت. أخفت وجهها بيديها لألا يرى انها احمرّت، قبل ان تركض هاربة. بعد عدة أيام، تسلّمت راسلة جديدة: «تمالكي أعصابك... لماذا احمر وجهك وانت تقرئين هذا المكتوب، ولماذا كفّيت عن الإبتسام؟» لم تجبه على رسالته. بدأ شغفه الدنيوي يصرفه عن الطريق الكنسي القويم. إن لم يبدُ عدول سالازار عن الدعوة الدينية من اجل امرأة يقلقه، فلم تكن فليسمينا لتقبل بذلك. أن تسلب رجلا من المسيح قد يقودها إلى الهلاك. هل كان دافعها الخجل؟ أم المصلحة؟ «الحقيقة اني بدأت أشعر بمزيج من الميل والنفور، من المتعة والحزن، مزيج سيبرّحني طيلة حياتي».

لم يكن سالازار من الرجال الذين يُخدعون بسهولة. أرسل للصهباء طردا بواسطة طالب إكليريكي آخر. كان يحتوي على عدة دفاتر. تعرّفت على خطّ سالازار. أفضى فيها بأحرّ أمنياته، ولجأ إلى استعارات متصنّعة للغاية ليحثها على القبول بعيشة مشتركة: «العمل في الحقول، العودة إلى المنزل للإرتماء بين ذراعي الزوجة وهي منتظرة، يجعل من هذه الحياة جنة. وباستطاعتك انت ان تغيّريها».

في قرارة نفسها، لم تكن تحلم بغير ذلك، بذراعي طالب الإكليريكية. لكنها كانت تخشى كمائن الشيطان، فاختارت الجفاء. كانت كلماته تتردّد بقوة في نفسها. إلى درجة زعزعة يقينها: «هل كان بإمكاني قراءة

مثل هذه الإعترافات دون ان تشـــوب المرارة العذوبة التي كنت اشعر بها؟ هل يمكنني، دون ارتكاب خطيئة، ان أفكر ولو للحظة في ان أكون زوجة ذاك الفلاح؟ كانت هذه رواية الحياة الحقيقية..».

لم يدرك أنطونيو شيئا من هذه الخوالج. استمر يتردّد إلى بيتها، ويظهر بمظهـــر النبيه، الفاتن، اللاعب. مارس موهبتـــة في الإغراء مع نزيلة أخرى في المنزل، من أجل إثارة غيرة فليســـمينا. سألها إذا وصلتها دفاتره. عملت بشـــريعة العين بالعين، فأجابته بالثناء علـــى طالب الإكليريكية الذي حمل اليها الطرد. لعبت لعبته. لســـعته، فلم يمتنع عـــن التعليق بمرارة: «أرى ان الموفـــد حظي بالتقدير أكثر من الكاتـــب». جرح كبرياؤه، فراح يغمز اكثر فأكثر بقية البنات اللاتي كان يلقاهنّ. أعطاها لقب «حب» («Amor»). ولقّبته «بالمداهن».

عزلة في الحقول...

في نهاية الســـنة الدراســـية، خلال عطلة الصيف، دعتها أسرة أنطونيو لزيارتهـــا في ســـانتا كومبا. كانـــت المرة الأولى التي تســـافر فيها وحدها. ارتدت الأسود، كعادتها، وأخذت معها بعض البياضات في كيس. الحوائج الضروريـــة فقط: صدار وتنـــورة ووِزرة. كانت قلقة على طـــول الطريق. في المحطة، لم يكن أحد في انتظارها. انشغل بالها، واحتارت، ثم سألت عن مـــكان وجود فيميرو (Vimiero)، خَوْرنيّة ســـانتا كومبا، حيث كان المنزل العائلي. قبل ان يأتيها الجواب، ظهر سالازار وبيده شمسية. استقبلها الأب والأم والأخوات الأربع كفرد من أفراد الأسرة. كان هو في السابعة عشرة من العمر، غير انه كان ربّ المنزل منذ ذلك الحين.

مـرّت الأيام، وازدادت الإلفة بينهما لكثرة ما تنزّها يدا بيد في الحقول: «فتـى كان يتهيأ للكهنوت، فتى متفوّق بذكائـه وفضيلته، يغمرني بهكذا حنان! كانت تحلو لي بوادره، دون ان أدرك إن كانت تنمّ عن حب..».

بيـد ان تصرفات أنطونيو لم تنطوِ على اي التباس. في أحد الأيام، كانا في غرفة الخياطة يقرآن أبيات شعر من نظم سوارس دوس باسوس (Soares dos Pasos)، تحـت أنظار ماريا دو رسـغات، فإذا به يتجاهل وجود أمه، ويمسـك بفليسمينا من خصرها ويشـدها اليه بعنف، إلى ان التصقت به. كانت الضمّة قوية إلى درجة انها تركت أثرا في جلدها.

وفي الصباح الباكر، سـاورتها التبريحات! طغت الندامة على الإحساس بالنشـوة والإثارة نتيجة هذه الملامسة الشـهوانية: «يا للعار، يا للجزع، لا يمكن لهذا ان يكون، وأمه التي كانت موجودة تخيط، لقد رأتنا! لا بد انها تظاهرت بأنها لم ترنا». لم تفلت منه. رأى سـالازار في ذلك إجازة فعاود الكرّة. فيما كانـت تقطف أثمارا في الحديقة، انتهز الفرصة ليسـتغفلها، فركع، وأخذ يدها اليمنى وطبع عليها قبلة. أوشـكا على تبادل القبل عندما سمعا ضجة. كان احدهم قادما. افترقا. رأتهما مارتا فاختفت مرورا بالشرفة. لم يعد يجدي إنكار الحقيقة نفعا: «كان يحاول ان يعبّر لي عن حبه. اما أنا، فكان ذلك يزيد من خوفي. آه، يا للمشـاعر العذبة التي كانت تلفّني وتنفذ أكثر فأكثر إلى أعماقي في كل مرة، وأنا أخجل وأحزن. كيف لي ان أحبّ طالب إكليريكية!»

راحت تتأمل في الصور التي زيّنت جدران المنزل، فلاحظت في إحدى صور أنطونيو وهو صغير هيئة الحالم على وجهه.

«فيمَ كنت تفكّر؟

في أنه لا بد ان توجد في العالم سيدة مثلك.

آه!

لماذا تقولين دائما آه؟»

أدارت له ظهرها دون ان تجيب.

هكذا مرّ الصيف كموسم في الجنّة، بين غزل بريء وشعور ورِع بالذنب. طالت القصة في نظر هرمينيا، أخت فليسمينا، التي أثارت غيرتها، وهي في فيزو، هذه المغامرة العاطفية الرعائية. فكتبت لها تأمرها بالعودة على الفور، وعرفت كيف تنتقي الحجج لإرزاحها.

حان وقت الوداع. عزم انطونيو على ان يترك في نفسها ذكرى خالدة. ذهب بها في زيارة إلى بوساكو (Buçaco)، مكان سحريّ ينأى عن بقية العالم. اكتشفت هناك حديقة نباتات قديمة العهد، مطلّة على الجبال، كانت محميّة بمرسوم بابوي عائد إلى القرن السابع عشر هدّد بالحرمان كل من يتسبب فيها بأضرار. تناولا الطعام في الهواء الطلق، بين صنوبرة القوقاز وأرزة لبنان، مع مارتا وهابيل (Abel)، احد الأصدقاء. «في هذا الإطار الرائع، حامت محبة الله الرقيقة، ومسّتنا برفق بجناحيها من فرو القاقوم». لقد أصاب سالازار الهدف، لم يعد فكره يصارع: «تنعّمت بعقد خطوبتي إلى أبد الآبدين..».

لكنّ فليسمينا انصاعت لأختها وعادت إلى فيزو. عوقبت بأن أُجبرت على تعلّم التطريز عند الراهبات الفرنسيسكانيات طيلة شهر أيلول: «كنت أبكي... أبكي خاصة على فقدان تلك السعادة التي تنعّمت بها بضعة ايام، والتي خلت انها ضاعت مني نهائيا.

إقرار الخطيئة، وتآمر على الإيمان

سنة 1906، في 5 تشرين الأول كذلك، عاد سالازار إلى مدرسة الإكليريكية. علمت فليسمينا ان أختها هرمينيا كتبت له، حيامة لها او ربما عن غيرة. لكن سالازار كان عارفا بالنساء فأدرك على الفور اية معلومة أرادت تلك الأخت الماكرة الحصول عليها: «ها هو كنزك قد عاد. لقد حظيت بتعاطف الجميع، ورجعت كما أتت». ما يعني ببساطة ان فليسمينا كانت لم تزل عذراء بعد إقامتها في سانتا كومبا.

اعتمد سالازار سلوكا متحفّظا. فدفع جفاؤه هذا فليسمينا إلى الذهاب للعمل كمدرّسة في قرية موراموتا (Mouramorta) الجبلية الصغيرة. هناك نظمت الشعر، وكتبت مقالات نُشرت في صحف كاثوليكية، وحظيت بتقدير زملائها. وراء ذاك الهناء الظاهري، كانت تخشى ان تبعدها المسافة عن حبيبها. فراحت تتوسّل: «الرحمة، الرحمة، يا إلهي، أعدك بألا أسلبه منك». أخيرا، استجيب لطلباتها في عيد الفصح 1907، خلال حفلة الشعانين. شارك أنطونيو في زيّاح طلاب الإكليريكية، ونزل الممرّ الوسطي للكنيسة. راقبته وهي محرورة. قرب منها وناولها سعفة. يا لها من ذخيرة! كان الشعور بالذنب المرتبط بالمكان المقدس يشكّل متعة.

في نهاية العام الدراسي، عادت فليسمينا إلى سانتا كومبا لقضاء عطلتها. كان أنطونيو لطيفا ظريفا كما يسعه ان يكون. كان اللقاء بينهما حلوا. عادا فافترقا في أيلول، ورجعت فليسمينا إلى موراموتا لتعلّم هناك. كتبت لها هرمينيا رسالة أخرى بحجة ان الشائعات رائجة في فيزو بشأن هذه العلاقة. وكتبت لأنطونيو تطلب منه ان يضع حدّا لهذه العلاقة. ففعل، وكتب لحبيبته مختصِرا: «أحبّ راعٍ وراعية بعضهما البعض، لكن أسرة

الراعية عارضت حبهما».

فيمـــا تفتّتت القلوب، حصل انقلاب داخل الأســـرة المالكة البرتغالية. في أول شـــباط 1908، اغتيل الملك شـــارل الأول وابنه البكر في لشـــبونة (Lisbonne) على يد مشـــاغبين جمهوريين كانوا مصرّين على التخلص من ملكيّة باتت منهكة. لا شك في ان النظام كان يعيش لحظاته الأخيرة. فيما اعتلى مانوال الثاني (Manuel II) العرش، قررت فليسمينا الإلتزام هي أيضا. نشـــرت تحت اسم مســـتعار، زاليا (Zelia)، قصيدة في صحيفة كاثوليكية تدعى *الوطن* (*Patrie*). صرّحت فيها عن رفضها للأفكار الجمهورية ولرياح الحرية التي كان يتمنّاها أنصار تلك الأفكار.

انهارت عندما اكتشفت اسم أنطونيو في كتاب طلاب الإكليريكية الذين كانوا على وشـــك ان يُرسموا كهنة. سيصبح كاهنا في نهاية الأمر... فيما دُعيت مجددا في ذاك الصيف لقضاء عطلتها في سانتا كومبا، تلاقا ليعيشا الفترة التي قد تكون الأكثر شـــهوانيّة في علاقتهمـــا. كانت في الحديقة، وصعدت على مقعد من حجر وصلّبت ذراعيها في وجه الســـماء، فاقترب منها: «عندما بلغ وجهه الذي غيّرت اللذة ملامحه مستوى صدري، شعرت بنفسي أرتجف، وقبل ان يلمسني، أخذت يديه وأمسكتهما بشدّة».

غيّرت فليســـمينا مرة أخرى قرارها، وانتقلت إلى فيزو سنة 1910، لتبقى بقربه. كان زمن الشـــجارات الأولى. صادفته يومـــا، مرحا، يحمل باقة من البنفســـج. لمن كان يريد إهداءها؟ ومن هـــي التي جعلته مبتهجا إلى هذه الدرجة؟ كان أنطونيو يفكّر في امرأة اخرى، أخت احد رفاقه. فتاة من الطبقة الراقيةٍ. ظهر في اليوم التالي مع مجموعة من الطلاب، ورأى فليسمينا برفقة أختها البكر، فاقترب يمازحهما. كلّمهما عن ناتاليا ده ســـوزا (Natalia de

Suza)، الفتاة التي كان يغازلها. تدلّلت هرمينيا وضحكت لكلامه. فتقدّم، نشـــوانا، بعرض... أقله غير منتظَر: «هل يمكنني ان أدغدغك؟» أخرج ما انتهت اليه المحادثة فليسمينا عن طورها، إلى درجة انها أفلتت تعليقا اتّسم بالغيرة سدّدته إلى ناتاليا ده سوزا: «من المؤسف ان تكون بهذه القباحة». دناءات مقابل دغدغات: لقد بدأت الحرب.

غير انه كان لســـالازار، سنة 1910، شواغل اخرى غير الغزل. في شهر تشـــرين الأول، انصـــرف عن علم اللاهـــوت ليدرس الحقوق فـــي كوامبرا (Coimbra). لم يكن التوقيت الذي اختاره للإنسحاب من الحياة الرهبانية يخلـــو من الأهمية. في لشـــبونة، كانت الإضطرابات السياســـية قد بلغت ذروتها منذ عدة أسابيع. واختتم اغتيال الملك في 1908 فترة من الدكتاتورية الحقيقيـــة تحت قبضة خواو فرانكو (João Franco). لكن سياســـة القمع التي اتبعها أدّت اخيرا إلى تفاقم الإســـتياء، إلى درجة انها قادت إلى موت الملك وولي عهده. خلفه على العرش مانوال الثاني، 19 سنة، وكان ضعيفا. عجـــز عن التوفيق بيـــن مختلف الأحزاب السياســـية. فراحت الحكومات تسقط الواحدة تلو الأخرى. في 3 تشرين الأول، تمّ الإعلان عن الجمهورية البرتغالية الأولى، فيما كان أنطونيو سالازار يستعدّ لدخول اشهر جامعة في البلاد.

هذا القرار، الذي قد يعود إلى شـــغف ســـالازار الناشئ بالسياسة، كان يرجع في الواقع إلى أنطونيـــو خافييه كورتيه ريال (Antonio Xavier Corte Real)، آخـــر خلف لعائلة برســـترالو (Perestrelo) النافذة المحترمة. وقد أعطى لوالد ســـالازار نصيحة حكيمة: «ليس لـــدى ابنك اي ميل ليصبح كاهنا، عليه ألا يستمرّ في مدرسة الإكليريكية. الفتى ذكيّ، يجب ان يتابع

دراســته». فســكن في غرفة وضيعة جدا في كوراسا ده أسترالا (Couraça de Estrela)، لكنه كان يتناول وجبات الطعام عند كُفّله الجدد، أفراد أسرة برســترالو. وكان يأكل بنهم، عملا بنصيحة ماريا بينا برسترالو (Maria Pina Perestrelo)، التــي كانت تلحّ على ذلك كثيــرا، إذ لم تكن تطيق ان تراه هزيلا.

ازدادت ثقة أنطونيو بنفســه مع معاشرة هذا العالم الجديد الأرستقراطي الذي وضعه كُفّله في متناوله. وأصبحت الأسر الراقية، التي كان لديها كثير من البنات برسم الزواج، تدعوه إلى العشاء في المدينة. وكانت مكانة هذه الأسرة تفتح امامه الأبواب، وتثير كثيرا من الأهواء. فاستبدل بدلاته الداكنة بأخــرى ملونة، وتبنى أصول الحياة الإجتماعيــة. كان متميزا إلى درجة انه كان ينظر اليه كأحد أفضل الخطّاب في البلد، بالرغم من انه لم يملك شيئا ولم يكن نبيلا. كان كالمغنطيس يجذب النســاء. وكانت السهرات تنتهي دائما بنزهات ممتعة علــى ضفاف نهر مونداغو (Mondego)، وهو يتأبط ذراع إحدى بنات الكبار[1].

فــي فيزو، كان دخل فليســمينا يكاد لا يكفيها للعيــش. كانت وفية، فلم تنس الطالب. لم تكن تفهم على الأخص لماذا كانت ناتاليا ده ســوزا ورفيقاتها يســخرن منها عندما كانت تلقاهنّ في الكنيســة. إذ ان مقالب «المداهــن» الغرامية كانت معروفة خــارج كوامبرا. كانت كل المدينة على علم بنزهاته الرومنطيقية. ندمت فليسمينا لأنها لم تستجب لرغبته.

---

(1) بشأن بدايات سالازار في المجتمع، أنظر أنطونيو روزا كازاكو (Antonio Rosa Casaco)، *Salazar na Intimidade*، لشبونة، مارجاي (Marjay)، 1954.

في الجامعة، فيما كان الطلاب المحافظـون والجمهوريون يتحالفون، راح الكاثوليكيون يستنكرون معاداة الجمهورية الفتية للكنيسة. كان أنطونيو حريصـا علـى ألا تنفر منه اي من الحركات، فانتسـب في حينه إلى مركز الديمقراطية المسيحية المجمعيّ، حيث أقام صداقات مخلصة. كان يشارك مع مانوال غونسالفاس سرخارا (Manuel Gonsalves Cerejeira)، كردينال لشـبونة المستقبلي، في نقاشـات ومظاهرات. كان عمره 25 سنة، وكانت ملامـح وجهه الذي بقي نحيلا، تضفي على نظراته عمقا أكبر. إضافة إلى طلعته، اشتهر من بين النخبة السياسية المستقبلية للبلاد.

لعـلّ الصيف يأتي ويعود، كمـا في الماضي، ليوثق عُـرى محبّتهما؟ التقيا مجددا في سانتا كومبا. قررت فليسمينا ان تجازف بالكلّ: فيما كانا يمشـيان جنبا إلى جنب، أمسـكت بيده ووضعتها على أسفل ظهرها. لم يبالِ بالأمر، وسـرّع خطاه مبتعدا: «يا ترى، أيكون قد نسي كل شيء في آخر الأمر؟ إذن سأنسـى انا أيضا كل شيء، فكرامتي تفرض علي ذلك».

انتهى الصيف إلى فشل.

خلال السنوات الثلاث التالية، فيما كان أنطونيو يدرس في كوامبرا، مرّت فليسـمينا بفترة من الكدر الشـديد. الله هو المسؤول الأمثل عن شقائها. ألـم يتلاعـب بها بأن وضع علـى طريقا رجلا كان قد سـبق ان خصّصه لنفسه؟ باتت صلواتها متكلّفة. لم تعد تصدّق العظات. «أرعبتني كل هذه الأكاذيب، فكفّيت عن الذهاب لسـماع المواعظ». عندما يفقد الإنسان الإيمـان يحس بفراغ محفـوف بالمخاطر. آلمتها هـذه الأزمة الروحية، فدخلت يوما كرسيّ الإعتراف، على أمل التخفيف من كُروبها بالإفضاء بها إلى كاهن. أقلقت رجل الدين منذ كلماتها الأولى: «انا هنا، لكني لسـت

مقتنعة بما أتيت أعمل». لماذا أتت إذن؟ «لأني ما زلت اعتقد ان الإيمان هو مصدر السعادة الوحيد في هذه الدنيا». أراد الكاهن، وقد شغل باله مصير هذه النعجة الضالة، ان يعرف من كان وراء هذ الضيق. ولكن، ما ان كشفت له عن هويتها حتى طردها. لم يكن احد في فيزو يجهل حبّها لطالب الحقوق، وكانت أختها ذاتها اول من يثرثر ويشيّع التفاصيل.

كانت فليسمينا تغرز أحيانا أظافرها في جلدها إلى ان يدمي، وتجرّح جسدها كما لو أنها أرادت تحويل ألمها إلى واقع ملموس. في إحدى ليالي صيف 1912، بلغت تباريحها ذروتها، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها.

أفاقها من نومها مشهد مروّع: دخل الموت من النافذة وانتظر ان تغفو للقبض عليها. همس في رأسها صوت يقول: «الله غير موجود، الله غير موجود». وثبت تخرج من البيت، مستعدّة لاقتراف الأسوأ. لكن صوت خالتها التي استيقظت ردّها إلى الواقع. في اليوم التالي، نظرت فليسمينا إلى نفسها في المرآة، وخُيّل اليها انها تقدّمت في السنّ عدّة أعوام خلال تلك الليلة المضنية. بعد وقت قصير على هذه الحادثة، التقت بصديق لأنطونيو، وأسرّت له انها لم تعد تؤمن. دهش هذا الأخير، وأخبرها بأن سالازار مرّ بأزمة مماثلة في كوامبرا.

إذ أصبح يعكف الآن على اعتناق مبادئ الإغواء. ويحاول الإبقاء على التراسل مع فليسمينا، على ان يكون قليل الشأن. فكتبت له على الفور تشدّد: «أحظّر عليك مقابلتي نهائيا». كانت تريد منه كل شيء او لا شيء. تزامنت رسالتها مع أخرى استلمتها في الغد، بعثها سالازار وكان عازما على استرجاع مودّتها. أراد ان يعرف إذا كانت لم تزلت تحبه: «لقد

تزامنت رسـالتانا. أرسـل لي مكتوبا في اليوم ذاته الذي بعثت فيه رسـالة القطيعة. لو وصلني قبل يوم واحد لاختلفت الأمور كليّا».

في اوائل سنوات 1920، التقيا بمناسبة عيد الميلاد، في منزله في سانتا كومبا. كان أنطونيو قد أصبح اسـتاذا في الإقتصاد السياسـي في جامعة كوامبرا. قبلت فليسمينا دعوة والدة سالازار. أمضت معظم أوقاتها بصحبة اللطيفـة ماريا دو راسـغات، التي وهنت صحتها وقد بلغت 75 سـنة من العمر. علمت فلسمينا من صديقة لها انها كانت تتمنى في السرّ لو تتزوج من ابنها. لكنهما لم تتطرّقا أبدا إلى هذا الموضوع. في احدى الأمسيات، دُعي الحبيبان المعاكسـان في سـانتا كومبا إلى مأدبة عشـاء أقيمت في البيت الرعويّ. راح أنطونيو، وكان فرحا، يسلب منها كِسرا من الخبر كانت قد قطّعتها ويقشـرها. حتى انه ذهب إلى اختلاس قطع لحم من صحنها. علّقت بالقول: «كان ينتقم من استحالة لمسي بكسر الخبز الصغيرة وقطع اللحم».

سنة 1922، تكرّرت المناورة الغرامية الصيفية في سانتا كومبا، فيما كانت حياة ماريا دو راسغات تشحب. استمر سالازار يلاحق فلسمينا دوريّا وبكل وقاحـة. في صباح احـد الأيام، توجهت إلى الحديقـة الصغيرة المجاورة لبسـتان الخضر، وجلسـت تحت التعريشـة ومعها كتاب. تبعها أنطونيو عـن كثب. أربكتها هذه المواجهة القسـريّة، فحاولـت ان تجد موضوعا للتحدّث، وتململت على كرسـيها إلى درجـة انها وقعت في نهاية الأمر. رفضت اليد التي مدّها اليها، ونهضت بعجلة فجرحها مسـمار كان ظاهرا. سـال الدم، وولّت هاربة. قطع عليها أنطونيـو الطريق، وأخذ يدها، وبات هنيهة بلا حـراك، يصفر وهو يتنفسّ. احمرّ وجهه، ففهمت مراده: «كان

على فمه تكشــيرة ألم، وفي عينيه، آه من عينيه، لا أدري ماذا. في اللحظة الأولى، فهمت: إنه الحب. في اللحظة الثانية، شــكّكت في الأمر: أو هو مجرّد قصد الإغواء؟»

مرة اخرى، باءت المواجهة بالفشــل. إلا انهما لم يعودا مراهقين. كان عمر سالازار 33 ســنة، وعمر فليسمينا 35 عام. مرّت السنوات، وتلاشت فرص اللقاء مع تضاؤل مشاعر سالازار. استمرت فليسمينا تحبه، وتحيطها هالة زهدها، فيما راح هو يواصل ارتقاءه إلى قمة السلطة. في نيسان 1928، كتبــت لوزير المالية الجديد: «كالعادة، أودّ ان أقول لك اني لم أنســك: خاصة اليوم، وغدا ايضا (42 سنة!)، إذ ما زلت أذكر صداقتنا، التي باركها الله، لأنها، في جوهرها، عطر زكيّ بالنسبة لقلبي».

جاسوس سالازار

أما العطر، فقد تبخّر بفعل الرفض المتكرّر، لكن العاشــق القديم عرف كيف يستغل علاقتهما. كانت فليسمينا قد أصبحت من أدقّ مُخبرات سيّد الدولة الجديدة (*Estado Novo*)، ما جعلها من أكثر الشخصيات نفوذا في حياة فيزو السياسية. في الواقع، عُيّن سالازار، وزير المالية، رئيسا للحكومة، ســنة 1932. وكانت فليسمينا أول امرأة تشــغل منصب مفتشة المدارس. ولم يكن أحد ليحتفظ بســلطته دون موافقتها. كان نفوذها يطال المنطقة بأســرها، وكان يتوجه اليها في الأوقات العصيبة طالبا نصيحتها. وأصبحت المراســلة مع سالازار يومية: كانت تروي له المفتشة كل ما تشتبه به. الأمر الذي يعني الكثير بالنســبة لنفس هاجســيّة بطبيعتهــا. عندما عُلّقت، في كل مدارس المنطقة، صورة المارشــال أنطونيو أوسكار كارمونا (Antonio

Oscar Carmona)، رئيس جمهورية البرتغال الثانية، التي كان سالازار سيّدها الأوحد، بلّغت المشغوفة بأنطونيو غضبها على الفور: «أنا التي شهدت ما كان يُحاك، لا يسعني إلا أن أستنكر عندما أدخل مدرسة وأرى التباين في التعامل مع الصورتين، علما بأن حضرة رئيس الجمهورية يغطّي هذا التحايل، وان صورتك وحدها هي التي ترمز إلى القومية الحقيقية[1]».

لقد أصبحت نفسها مريرة، تميل إلى الإنتقام. ومن القليلين الذين كانوا يجرؤون على انتقاد الحكومة علنا، وعلى تأنيب وزير التربية مثلا. اعتبرت ان مستوى التعليم انحدر كثيرا، فنصحت سالازار بإغلاق دار المعلمين، ففعل. شكرها رئيس المجلس على عنايتها وحثها على إبلاغه بالمعلومات اكثر فأكثر. في الواقع، اصبحت فليسمينا أشرس داعية للفكروية اللازارية: الله، الوطن، العائلة. نصّ الدستور الجديد على أن البرتغال «جمهورية وحدويّة نقابية». ولّى زمن التناوب السعيد، وبليت الليبرالية السياسة بالكامل، وتبدّدت المؤسسات الجمهورية.

كانت فليسمينا، حارسة النظام الجديد الشرسة، تثير الرعب اكثر من اي امرأة في الماضي. لم تعد تؤمن بالله بل بسالازار. أول من انهالت عليه بالتهديد كان أحد زملائها، الذي كان ينتسب للقمصان الزرقاء (les chemises bleues) بقيادة رولاو براتو (Rolão Preto). كانت تلك الحركة، المستوحاة من فاشية موسوليني، *تريد ان تجهّز الدولة الجديدة بميليشيا* بمستوى *الكتائب* الإيطالية.

---

(1) المحفوظات الوطنية البرتغالية، توريه دو تومبو (Torre do Tombo)، **ذخر** أنطونيو سالازار، قسم « Correspondëncia oficial relativa a Educaçao ».

كان غارسيا دومينغاس (Garcia Domingues) مفتشا في بورتو (Porto). في احد الأيام، قال لفليسمينا، مستفزا او جهلا منه طبع زميلته، ان عدة سجون بنيت في بورتو، وأنه نجا من السَجن بقليل، ولكنه لن يمرّ وقت طويل قبل ان يعود وراء القضبان. سرعان ما استجيب اليه. أوقف، فكتب لها كي تتوسّط له لدى سالازار. فكتبت لأنطونيو: «غارسيا دومينغاس مأسور، في القاعة رقم 3 في ألجوب (Aljube)، لأسباب سياسية. كتب لي منذ ثلاثة ايام رسالة طويلة (لم يفعل ذلك أبدا من قبل) يكلمني عن أمور لا أفهمها ولا أريد فهمها، فلسفة لا فائدة منها غير أنها تؤدي إلى الجنون. وهو ماكر، فضلا عن انه مجنون. بتكريمه وإجلاله لعقلي، يدّعي انه حزين لأنه سُجن».

لا أحد يُفلت من تقارير «عين فيزو» (l'Oeil de Viseu)، ولا حتى الموظفون الكبار. حذّرت أنطونيو: «مفوَّض الشرطة رجل ليل وعربدة حتى الفجر، صديق حميم لأعداء الدولة، لا يتردّد في توقيفهم... بعد إنذارهم». كانت تمقت روّاد الملاهي الليلية، والشهوانيّين، وخاصة الشيوعيين: «أنت تعلم من دون شك ان الأمور هنا ليست على ما يرام. ليس هناك من يعوَّل عليه في اي قطاع، كلها مهملة والساحة متروكة للعدو. في الأمس، قيل لي ان فيزو هي ثالث مدينة في البلاد وضع عليها الشيوعيون يدهم. لو قيل لي انها الأولى، لما تعجّبت».

كانت تخفي مشاعرها الحقيقية لتحوّلها إلى وطنية لا ترحم. وكان سالازار يكافؤها بأن يوليها سلطة واسعة. أصبح لها أعداء. كان الحقد عليها يزداد اكثر فأكثر في كل المدن التي كانت تزورها.

من وقت إلى آخر، كان يدعوها لاستعادة ذكريات صباها: «أن أترك

قلبي يتكلم بحرية وان أذكر صديقي العزيز في أيام صبانا، الذي بات بعيدا جدا؟ اليــوم وقد عاش كل منا نصف قرن من الحياة الزخمة؟ لكن الإعادة مؤلمة، لأن من يكرّر لا يعرف ماذا يضيف، او انه يعتبر ان لا أحد يصغي اليه. اما التذكّر... التذكّر يعني التقدّم في السن أكثر..».

لقد ضحت فليســمينا بنفسها من أجل سالازار، وجعلت منه مسيحا، مبعث حبهــا الوحيد. أنطونيو أيضــا لم يتزوج ابدا. ميــكاس (Micas)، ابنة اخت مدبرة منزله في ســانتا كومبا، باحــت بأنه قال يوما إنه فكّر في الزواج من فليســمينا: «كانت من النساء اللاتي أثرن فيه كثيرا. كانت حبه الأول[1]». بيد انه عاشر عددا منهن، عددا كبيرا غيرها.

زائرات فندق بورجس (Borges)

كاره للنساء أم للبشر؟

في الواقع، كان أنطونيو ســالازار قد عدل عن الزواج. واســتمرّ يحكم وحده، خــلال اكثر من ثلاثين عاما، وهو يوحي بصــورة الكاهن القانوي الذي لا يهتم بانشــغالات الجســد ولا بالهموم العاطفيــة. كانت الدعاية والرقابة شديدتين إلى درجة ان رئيس الحكومة اعتبِر دائما من أعفّ الرجال، مقترنا بالوطن دون غيره. بيد انه قد التقى امرأة أخلصت له تماما، فليسمينا

---

(1) ماريا دا كونساساو ده مالو ريتا (Maria de Conceiçao de Melo Rita)، الملقب بميكاس (« Micas »)، - لشبونة، آ أسفرا دوس ليبروس (A ESFERA DOS Libros)، 2007. تجدر المحاذرة من موضوعية أحكام المرأة الشابة التقويمية، هي التي أواها سالازار في صغرها.

ده أوليفارا. كانت السـلطة، بالنسبة لسـالازار، لا تُقاسم. حتى مع امرأة. على الأخص مع امرأة. طغت مصلحة الدولة العليا على الرغبة في تأسـيس أسـرة سعيدة. لم يكن سـالازار ليقبل أبدا بأي تسوية من أجل امرأة. غير انه لم يعدل عن الغراميّات من وقت إلى آخر. كان يعتمد قاعدة أساسـية: عـدم الإلتزام أبدا، وعدم فقدان السـيطرة أبدا. كانـت التناقضات في كنه شـخصيته: كان شغوفا بالحضارة الأوروبية، لكنه كره السفر ولم يزر خلال أربعـة عقود أية من المسـتعمرات البرتغالية. كان سـيد البلد الأعظم، ولم يقبـل ابدا ان يكون رئيسـا للجمهورية، كونه ضـد الديمقراطية عن يقين. كان سـالازار متناقض الوجدان، على غرار الإله جانوس (Janus)، طالب إكليريكية سـابق مارس الحب الحر، حبّذ التسلّط العسكري دون ان يشنّ الحـروب، مناصرا للمَلكيّة حصّـن الجمهورية، وأخيرا دكتاتورا نجا من كل محاولات الإغتيال والإنقلابات العسكرية خلال أربعين سنة من السلطة.

على عكس هتلر او موسـوليني، لم يكن سـالازار يعرض جسده، كان يرفض الصور قدر الإمكان، ولم يقبل أبدا ان يظهر متخضّبا. يبدو أن الذي كان يقـرأ خطاباته بصورة آلية لم يكن يثير الأهواء، أو حميّة الجماهير[1]. كان يريد ان يفتن النسـاء كما الجماهيـر برصانة واتّزان. نعم، كان طاغية استـغل، كغيره، علاقاته النسـائية والذكورية، لكنه كان قبل كل شيء رجلا مولعا بالنساء المتميّزات.

كان أصدقاؤه قلّة، وكان يبقيهم بعيدا، خشـية ان يؤثروا عليه. كان أشدّ

---

(1) في هذا الشأن، أنظر إيف ليونار (Yves Léonard)، السلازارية والفاشية (*Salazarisme et fascisme*)، باريس، شانداني (Chandeigne)، 1996.

خوفـه أن يرُقّ قلبـه. حاول ماريو ده فيغـارادو (Mario de Figueiredo)، صديقـه من الإكليريكية، تعليل ذلك: نوع من الكبرياء يجعله يخشـى في سـرّه دائما مهزأة الوقوع في الغـرام. «لا ينطق أبدا بالكلمات المتوقعة. لا يستسلم للإندفاع الذي يهمّ به. ما ان يكشف بعض الشيء عن قلبه حتى يرجع عنـه». تؤكّد لنا ميكاس على هذا الشـعور: «كل الناس يعرفون ان سـالازار ضاجع كثيرا من النسـاء، ولكن ما ان كانت الأمور تأخذ منحى الجـدّ حتى كان يبعدهـنّ». إذا لم يكن يلتزم عن حق، لم يكن يعيش مع عشـيقاته مجرّد مغامرات عابرة، بل علاقـات عاطفية حقيقية: كان يحب الحوار الفكري، والشـراكة، وخاصة نظرة المرأة لـه. كان يحتاج إلى الرقّة الأنثويّـة، كالتي كانـت تتحلّى بها أمه، ماريا دو راسـغات، وكذلك أخته مارتا.

كان يصاب بصداع قوي، فلا يتحمّل نور الشـمس، ويبقى سـاعات طويلة مسـتلقيا على سـريره في غرفته الوضيعة. كان يشعر بالوحدة، فيمرّ بمراحل من الإنهيار العصبي الشـديد. عندما ارتقى إلى رتبة أسـتاذ، سنة 1916، عادت تشغله الجلبة الفكرية والشهوانيّة. فراح أنطونيو يعقد سلسلة من العلاقات غير المهمة. اعتنى بمظهره، ولبس عباءة نزلاء كوامبرا، بشعره الكثيف وجبينه العريض. أصبح متصنّعا في ملبسـه، لا يرتدي إلا الأسود، مع قفازين وربطات عنق من الحرير.

تمكن، بفضل وضعه الجديد، ان يسـخو على نفسـه. فراح يتردّد إلى المسرح، ويحضر الحفلات الموسيقية. من بين كل الفنون، كانت الموسيقى تحرّك مشاعره بشكل خاص. تقرّب بذلك من نساء كوامبرا اللاتي كنّ يعزفن على البيانو. من بينهن، غلوريا كاسـتانهارا (Gloria Castanheira)، وكانت

مغنية أوبــرا لامعة، تتنزه مرارا وهي تحمل شمســية وببغاء في قفصه. كان يحضر الحفلات الموسيقية والغنائية التي كانت تنظّمها في بيتها، في 35، شــارع لشباو (Couraça de Lisbao)، وكان يســحره صوت ماريا سلستينا كوســتا ألمــاو (Maria Celestina Costa Alemão)، التــي كانت «تغني ببراعة فائقة» لافيولات (*La Violette*)، من تأليف سكارلاتي (Scarlatti).

جمع بينهما شــغف الموســيقى. كانت تعزف له ألحانه المفضلة على البيانو، وكان يرســل لها بطاقات شكر: «أكتب لك، يا سيدتي، وأنا أذكر بمتعة تلك الســهرات الرائعة من المناجاة الحلوة والموسيقى البديعة، والتي أكرمتنــي بها (بلطفك الذي لا ينضب) [...]. كل هذه الأمور البســيطة، كصداقتك، والأحاديث التي جرت بيننا، كلها تثير حماسي».

أصبحت غلوريا نجيّته المفضلة، كان يسرّ إليها بفائض مشاعره. اعترف لها بأنه يحسّ «بعياء وخوَر شــديدين»، وأكّد انه إنما يتعلّق فقط بحبال «اللحن الجهول». أرسلت إليه بأبيات شعر من نظم هنري باتاي (Henry Bataille) للتخفيــف عنه، وعلّقت المغنية على عذاب صديقها الشــاب تقول: «لم أكن أعرف انه تُرك في باقة ورد الحياة، هذا القدر من الأشواك».

مع الأســف، لم تكن غلوريا تلائم ذوق أنطونيو، علما بأنه لم يكن من الذين يصدّون اندفاع النســاء. وقد اعتاد الردّ على نجيّه الكاهن ســرخارا (Cerejeira) بالقول: «ماذا تريدني ان أفعل، هي التي تستفزّني وتبادر، وأنا لســت كاهنا[1]». حتى إذا لم تثره أو لم تفتنه امرأة، كان يستجيب للحبّ

---

(1) روى هذا الحوار فرانكو نوغارا (Franco Nogueira)، سالازار، بورتو (Porto)، سيفيليزاساو (Civilizaçao)، 1986.

العابـــر والتبعيّة، كمن يهوى التجميع. غير انه كان يفضل مغازلة ابنة أختها بالتبنّي، ماريا لورا (Maria-Laura)، وتلميذاته.

كانت الأقاويل تشـــيع في نادي معهد كوامبرا الرفيع. كان يجري الكلام عن الزواج. ويكثر التعليق على الأشغال التي تتمّ في منزله في سانتا كومبا: فيزعمون انه يوسّعه من أجل زوجته المستقبلية. كان سالازار يضحك ويزهو في الوقت نفســـه بهذه الشـــائعات. في رسالة كتبها إلى غلوريا كاستانهارا، راح السيد في العقد الثالث من عمره يتفكّه: «أنت تعلمين أنهم يبلّغونني، من وقت إلى آخر، بأني سأتزوّج. أصدقائي يؤكّدون لي ذلك بكل صدق، وأكاد أصدّقهم. يمكن ان تكتشف سعادتك يوما اني متزوّج، لكني أقسم لـــك ان ذلك يكون خارجا عن إرادتي، ودون علم مني. [...] قد تدفعني أحيانا هذه الإشاعات إلى نشـــر الجملة التالية [...] في صحفنا: «أعلن للجمهـــور عامّـــة، وللمهتمّين بعلاقاتي، اني حرّ كليّـــا، لا خطيبة لي، ولا عشيقة، ولا حبيبة، ولا شيء من هذا القبيل».

ماريا لورا: غاوية الوزير

بعد ان كان معاونا، أصبح سالازار أستاذا في كوامبرا، مع سائر الحقوق، وبقي يمضي أيام العطل في المزرعة العائلية. فيما كان على متن قطار عائدا إلى الجامعة، رأى شـــابة ذات عينين واســـعتين خضراويـــن، تكادان تكونان جاحظتين، كانت تراقبه. كانت ماريا لورا كامبوس (Maria-Laura Campos) تتهيـــأ للترجل من القطار. فوثب الفارس الخدوم لتوه ومدّ لها يده بشـــهامة للمساعدة. كانت ماريا لورا قد جاءت لتمضي بضعة أيام عند خالتها، غلوريا كاستانهارا. التقيا مجددا بمناسبة حفلة غنائية أقيمت في منزلها.

كان والد نبيلة المحطة الجميلة، أدواردو أوغوستو (Eduardo Augusto)، قاضيا. عانـت زوجته لورا من تعقيدات خلال حملهـا وتوفيت بعد مرور سـنتين على ولادة ماريا لورا. طلبت، وهي تحتضر، من أقرب صديقة لها، ماريا كاستانهارا، أخت غلوريا، ان تقترن بزوجها لكي لا تبقى ابنتها يتيمة. وقد خصّت وليّة أمرها هذه ماريا لورا بتربية ممتازة، فكانت مؤهلة للتحدّث في الأدب بسهولة، وباللغة الفرنسية.

وإذ التقت سـالازار ثانيـة عند خالتها غلوريا، أثـار فضولها، لكنه لم يجذبهـا. إذ ان قلبها كان يميل إلى غيره. كان عمر المرأة الشـابة إحدى وعشرين سنة، وقد خطبت لتوّها تاجرا من بورتو. كدّ أنطونيو ليجد الحجج مـن أجل إغوائها: كانت المرة الأولى التي يواجه فيها رفض امرأة. ولا حيلة له. الأمر الذي بدّد نهائيا آمال غلوريا كاسـتانهارا. تأسّى أنطونيو من هذا الرفـض بأن ضاعف مغامراتـه العاطفية: غنّت له أليـن (Aline)، تلميذة المدرسـة الروسية للغناء، والتي كانت تنير حفلات كوامبرا الموسيقية، أنغام أوبرا على الهاتف. اسـتمرت غلوريا تنتحب. طمأنها سـالازار، الذي لم يكن يتحمّل فقدان معجبة واحدة: «باستطاعتي ان أجيبك بكل تأكيد ان طالبة البيانو ليسـت، أو لا يجوز ان تكون تلك التي تدّعي انها خطيبتي. [...] إنها شابة فتيّة جدا إذا ما أخذنا بعين الإعتبار طول تنانيرها. ولكن، في أيامنا هـذه، لم يعد من الممكن البتّ في أمر ما بالإعتماد على طول التنانير».

فضلا عن طول تنانير الشـابات البرتغاليات، كان يشـغل بال سالازار الضيق المالي الذي يواجهه ميتم كوامبرا الرسـميّ. كان قد عمل على إقامة تحسـينات مهمة في غرفة الإسـتقبال، وكلّف غلوريا بجمع الأموال. لكن

تشكرات سالازار لم تكن لتتجاوب مع رجاء عازفة البيانو. كتب لها: «أن أبقى مَدينا لك أمر لا يكلّفني شيئا ولا يشغل بالي». امتعضت وباعته بحقارته. مُسّ بدوره في الصميم، فكتب: «ليس لي ما أضيفه إلا أني أتمنى بكل ثبات ان تسمح لي سعادتك بألا أضايقها بعد الآن بأوصافي المبتذلة *الجديرة بتلميذ* [...] لكي لا يكون لك الإنطباع المؤسف وغير العادل *بأني أسخر منك*». استمرت المراسلة المتسمة بالشجارات بين سالازار وغلوريا، والتي ابتدأت في 1918، حتى 1956.

عيّنت حكومة منداس كابساداس (Mendes Cabeçadas) المتسلّطة سالازار وزيرا للمالية في سنّه الـ39، ودعي إلى لشبونة. أراد ان يُدخل على البلاد إصلاحات، لكنه احتفظ بمفرِق شعره الجانبي. عالج عجز الميزانية بيد من حديد، فأدار أموال البلاد العامّة كما كان يدير مغامراته العاطفية: فلم يتورّع من تجميد المعاشات، وإلغاء عدد من الوظائف العامة، وإفقار الطبقات الوسطى والعمّالية. وقد استقرّ في منزل ضيق مظلم، في الطابق الأرضي من المبنى رقم91، في شارع دوك ده لوليه (Duque de Loulé).

عاد الوزير الجديد فالتقى بماريا لورا مجددا. كانت قد تزوّجت قبل سبع سنوات برجل الأعمال أدواردو رودريغز ده أوليفارا (Eduardo Rodriguez de Oliveira)، وانتقلت معه إلى لشبونة. كان عمّ الزوج يعيش في إسبانيا، وكان مغامرا يمثل شركة كاتربيلار (Caterpillar) في شبه جزيرة أيبيريا. قرّر افتتاح فرع في لشبونة، ونصّب عليه مديرا زوج ماريا لورا الطائش، رجلا كان ميله إلى النساء يجعل منه وكيلا فاشلا.

لم تنجب ماريا لورا أولادا، وبدت السنوات كأنها تنصر جمال ملامحها.

وكان «المداهن» صاحب السـلطان يحب عطرها الفاخر حبا جمّا. ولن تصدّه هذه المرة. كان سالازار بعيدا كل البعد عن المدرسة الإكليريكية.

بدأت ماريا لورا تتردّد على الوزارة، إلى درجة انه كان بوسـعها الدخول دون الإعلان عن قدومها. نزلت عند طلب أنطونيو فغيّرت تنميق شـقتها. وضعت على كنبة غرفة الإسـتقبال أربع وسـادات من الكتّان طرّزت عليها قلوبا تخرقها أسـهم كيوبيـد (Cupidon)، إله الحب. في أحد الأيام، عاد سـالازار إلى الـوزارة فوجدها ومعها صرّة. ركع الإثنان على البسـاط لفكّ الغلاف الغريب. وقد روت فيما بعد المشهد لحاكم بورتو، بريتو أيه كونها (Brito e Cunha): بعد فكّ العُقد، أخرج فانوسا من الحديد المطرّق ومعه أربع ألـواح من الزجاج المطروق بألوان أوقات النهـار الأربعة، أزرق قاتم، أبيض، برتقالي وأصفر. ثم خرج من غرفة الإستقبال وعاد ومعه مطرقة وكلابة ومسمار ومفكّ للبراغي، فعلّق الفانوس على الجدار وأضاءه، قبل ان يطفئ كل أنـوار الغرفة. أدار الفانوس بدقـة بحيث انحنت لوحة الزجاج الصفراء على وجه عشيقته، ثم قال لها ان تجلس وتغمض عينيها: «ماريا لورا، علينا ان نكون خلاقين. تخيّلي مشـهدا فردوسـيا نتواجد فيه نحن الإثنان، وان الشـمس بدأت تطلع. لا أريد ان أفرض عليك مكانا، ولكن تخيّلي منظرا عزيزا على قلبك، وسـنجمع بين مخيّلتينا فـي ذاك المكان[1]». ثم وقف،

(1) المخطوطات من الأرشيف التي خلّفها جواو ده بريتو أ كونها (João de Brito e Cunha) (1907-1982) قيد الدرس من قبل رودريغو أورتيغاو ده أوليفارا (Rodrigo Ortigao de Oliveira) ولورنسو كوريا ده ماتوس (Lourenço Correia de Matos)، وستنشر عما قريب باللغة البرتغالية.

وأدار الفانوس وكرّر الرُتبة مع الألوان الثلاثة الأخرى.

كانــت ماريا لورا مغتاظة من مغامرات زوجها غير المشــرِّفة، فلم تتورّع من الظهور على الملأ برفقة وزير المالية. في احد الأيام، فيما كانا يجوبان شوارع حي شــيادو (Chiado)، صفّر لها بعض الرجال. علّق سالازار على الأمــر، الذي ربّما أغــاره، او عن حسّ فطري للتوفير: «يــا ماريا لورا، لا تعتقدي أنك تســتطيعين إنفاق كل هذا المال لتكتســي بهذا الشذوذ. إذا كنت تريدين ان تصبحــي زوجتي، عليك ان تنتقي الملابس التي يمكنني شــراؤها لك». فوقفت فجأة، ونظرت إليه بازدراء: «ومن قال لك اني أريد ان أكون زوجتك؟ مع الســلامة، إبقَ أنت وبخللك». إهانة علنية بالنســبة للوزير.

بحثت ماريا لورا عن مخرج مشــرّف لهــذه العلاقة، فرافقت زوجها إلى إشبيلية (Séville)، حيث كانا ينويان الإقامة عند عمّه. كان هذا الأخير قد أصبح صاحب الملايين ويعيش في البذخ والترف. وزادت الرحلة الطين بلّة. اتهمها أدواردو بأن لها عدة عشــاق. عاملته بالمثل، فذكّرته بأنه بدّد ثروته الشــخصية في المقامرة. بعد زمن قصير، عادت إلى لشبونة، وقد صمّمت جدّيًا على الطلاق. وتمّ الطلاق لصالحها. كانت عانية، فانعزلت في مُراح حي بنفيكا (Benfica)، حيث أقامت شهرين من الزمن. في غضون ذلك، كان النزاع مع وزير المالية قد انتهى، فاستأنفت علاقتها العاطفية به.

في كانون الأول 1930، أمضى ســالازار عيد الميلاد مع أســرته، لكنه عاد على عجلة لتدشين العام الجديد بصحبة عشيقته. في مفكّرة سالازار، بتاريخ عيد رأس الســنة، دوّنت ماريا لورا، التي كانت واثقة من قدرتها على الإغواء: «أكثر من الأمس، وأقل من الغد»، ووقّعت بأول حرف من إسمها

وشهرتها[1].

تزوجت ماريا لورا مرة ثانية، من ربّ العمل، عمّ زوجها السابق، وأقامت فـي منزله الفخم في مدريـد (Madrid). لكن، ما كادت تمرّ على زواجها الثانـي فتـرة وجيزة حتى بدت لهـا حياة البطالة الجديـدة هذه مُضجرة. ولم تنتظر نهاية شـهر العسـل لتهجر البيت وتلحق بسـالازار في لشبونة لتقضي معه أعياد نهاية السـنة. استأجر لها غرفة في فندق بورجس، وسط حي شـيادو. المكان الذي كان على المـرء ان يتواجد فيه، مَلقى الغنادرة والسـراري، حيث كانت تُقَرّ الأزياء. كانت الأنيقات يشترين قفازاتهنّ في رواق *لوفاريـا أوليـس* (luvaria Ulysses) الصغير، حيث تباع في محلّ *ما يُسعد السـيدات* (*Au bonheur des dames*) العطور الباريسية. على مقربة منه، متجر *راميرو لياوو* (*Ramiro Leão*) الأنيق الذي يسـتورد الفسـاتين من مدينة النور، ويضع في خدمة زبائنه صانعات قبعات نسـائية يمهرن في تكييف الأزياء الأجنبية بشـكل يتوافق وذوق أهالي لشـبونة. أما الشؤون السياسية الراهنة، الخارجة توّا من كبّاسات مطابع الحي، فكان يعلّق عليها حول طاولات المقهى الرئيسي (Café central).

تنتهي مرة أخرى مفكّرة سـالازار لسـنة 1931 بكتابة ماريا لورا الرقيقة:

---

(1) وثائق خاصة لسالازار يمكن الإطلاع عليها في المحفوظات الوطنية البرتغالية في توريه ده تومبو (Torre do Tombo)، ذخر أنطونيو سالازار، قسم « Papeis pessoais ». أنظر قائمة الجرد الممتازة لذخر ماريا كادالانا غارسيا (Maria Madalena Garcia)، *Arquivo Salazar : inventário e Índices*، لشبونة، أديتوريال أستامبا (Editorial Estampa)، المكتبة الوطنية، 1992.

«أيضا وأبدا: أكثر من الأمس وأقل من الغد». بدا حبّهما يتزايد على وتيرة الزيارات إلى فندق بورجس. في 1932، الرُتبة نفسها. في صفحة 31 كانون الأول، عـادت لتؤكّد علـى حبها، وتقيّم سـنتهما الرومنطيقية: «كما في إحـدى الصلوات التي كنت أتلوها في صغري، فإني أكرر: لن يملك قلبي اي مخلوق. إنه لك... يا صديقي».

في السـنة التالية، تابعت القصة مجراها ضمنيّا. لكن سـالازار كان قد أصبح رئيسا للمجلس. أصبح يخشى على سمعته. لم يكن ليقبل ان يتعرقل مسار ارتقائه بعلاقة علنية مع امرأة متزوجة. فقلّل من نزواته. كتبت له تقول: «الغياب المطوّل يكاد يكون شـكلا من أشـكال الموت». تذرّع الطاغية الجديد سـنة 1933 بما يقتضي إعداد الدسـتور الجديد من التركيز ليباعد بين المسارّة والأخرى. كلّف رئيس ديوانه، ليال ماركاس (Leal Marques)، بالتقرّب من الفاشـيين الإيطاليين من أجل تزويده بنموذج لشرطته السياسية الجديدة، شـرطة التيقّظ والدفاع عن الدولـة (PVDE). مع بداية مطاردة معارضـي النظام، وجد سـالازار الأداة القمعية الشـمولية التي تتيح له أن يراقب الشعب ويمارس عليه رقابة صارمة.

الأمـر الذي لـم يصرفه عن اللقـاءات الخاطفة. في أحـد من آحاد كانـون الثاني، سُـجّل في مفكّرته موعد. السـاعة الرابعة من بعد الظهر، فندق بورجس. كان متحسّـبا لكل شيء، بما فيه لمدّة اللقاء التي لم تتعدّ الساعتين[1].

---

(1) في محفوظات توريه دو تومبو، يطلعنا دفترا يوميّات (« Diarios ») يوما بعد يوم على برنامج عمل سالازار، من أول كانون الثاني 1933 الى 6 أيلول 1968.

في 1934، في تلك الشقة التي نمّقتها ماريا لورا، تناولا سوية العشاء ليلة عيد رأس السنة كعادتهما. وكان ذلك آخر لقاء بينهما. قبل ان تعود إلى مدريد، تركت له في مفكّرته ملاحظة مريرة كئيبة: «لا شيء أفظع من البعد، من عدم العلم بأي شيء... إنه ألم مبرّح للقلب». خلال أربع سنوات متتالية، ألهبت ابنة أخت عازفة البيانو في كوامبرا مشاعر الوزير ثم الدكتاتور في أعياد نهاية السنة.

قامت بواكير الحرب العالمية الثانية على أبواب البرتغال. من طنجة، شن الجنرال فرانكو (Franco) الهجوم على الجمهوريين الإسبانيين. وسرعان ما قُصفت العاصمة مدريد، ما اضطر ماريا لورا وزوجها إلى الإنتقال إلى إشبيلية، حيث سعى سالازار من أجل إيجاد منصب رسمي لزوج عشيقته السابقة. وسيلة ماهرة لنيل حظوة ماريا لورا وامتنانها، من أجل استعادة كل أثر لمراسلتهما. ما ان استقرّت في المدينة، حتى أرسل سالازار موفدا إلى إسبانيا ليستردّ الدلائل على خطيئته.

الراقصة ذات الحيّة

27 تموز 1934. بعد حوالي ستة أشهر على الفراق بينه وبين ماريا لورا، حفظ مداهن سانتا كومبا، الذي أصبح رئيسا للمجلس، في مفكّرته، رسالة خاصة جدا، حُرّرت على ورقة من دكان الحلوى ماركاز (Marquez):

«لم أخرج من المنزل، وبقيت أنتظر. هل آتي لأراك يوم الأحد؟ لم أعد أصبر على الإنتظار! لديّ الكثير أقوله لك، هناك أمور لا تقال إلا بصوت خافت. أميليا (Emilia)».

كانت تلك امرأة جديدة التقاها في فندق بورجس. كانت السيدة تبذل

جهدها لتخفي هويتها. في سن السابعة والثلاثين، كانت أميليا تعيش حياة امرأة مستقلة، ما جعل أنطونيو يأمل في ألا تطلب منه أي ارتباط أو تعهّد. كانا قد اتفقـا منذ البداية على ان لا يطلب أحدهما من الآخر أن يمنحه أكثر من قدرته.

بعد اللقاء بفترة قصيـرة، روت أميليا لصديقتها ترازا (Teresa)، الممثلة اللشـبونية، انها ذاهبة إلى قصر سـاو بانتو (Sao Bento) – قصر سالازار – لقضاء الليلة هناك. لم يخامرهما الشـك فـي ان ابن اخت ترازا، لويس دوليفارا نونس (Luis d'Oliveira Nunes)، وكان في سـن التاسـعة، كان يسـمعهما. في اليوم التالي، ساءلتها الصديقة بتشوّق، فأجابت: «آه، لقد خيّبني في النهاية، إنه رجل مثل كل الرجال». وشـرحت لها انه كان على عجلة كبيرة، وأنه «لا يلفّ ولا يدور ويعفي نفسه من المقدِّمات».

ولدت أميليا فيارا (Vieira)، في أسـرة من بورتو لا تملك شـيئا. كان أبوها سـكّافا ماهرا كفؤا، تورّط في مؤامرات ضد الملكيّين في نهاية القرن التاسـع عشر، وأقام في السجن لفترات طويلة. وكانت البنت قد ورثت عن أبيها روح المغامرة. مع حلول الجمهورية، اسـتقرّ في لشـبونة، وسط حي شـيادو، قريبا من مسرح سـاو كارلو (Sao Carlo). فأصبح إختصاصيا في صناعة الأحذيـة المخصّصة لدار الأوبرا (Opéra). لم تكن أميليا الأجمل بين إخوتها الثلاثة وأخواتها الأربعة، لكن طبعها كان الأكثر استفزازية، إلى درجة الوقاحة احيانا. في فترة المراهقة، تعلمت العزف على البيانو وكذلك الفرنسـية، اللغة الدارجة عند بنات الأسـر المحترمة. اغتنت العائلة بفضل الصناعة المسـرحية، فكانت تمضي ايام عطلها في أسـتوريل (Estoril)، مصيف ملـوك البرتغال الرائـع، حيث كانت تمارس ركـوب الخيل. وقد

حافظـــت أميليا فيمـــا بعد على عادتها في التنزه على ظهر حصان وســـطَ لشبونة، تحت أنظار سيدات المجتمع المذهولة. وكانت تُكثر من النزوات: علّمها أحد إخوتها الملاكمة، وكانت مولعة بالرقصات الأجنبية من البلدان الإستوائية الحارة، والتي كانت لم تزل تثير الإستنكار.

عشـــية الحرب العالمية الأولى، راح والدها يدمن على الكحول والنساء حتى أفلس. كانت أميليا في الثامنة عشرة من عمرها، فكان عليها ان تتكل على نفســـها. بدأت تعمل كراقصة صالون على أنغام فرق موســـيقى الجاز (jazz-bands). فـــي الفنـــادق الفخمة كفندق أفنيـــدا (Avenida)، كانت وظيفتها افتتاح الحفـــلات الراقصة ودعوة الزبائن إلى حلبة الرقص. أمضت سنوات ترقص مع نفس الشخص، لكنها أوضحت انه ليس خطيبها، «بما أنه لوطي».

كانت أميليا تســـترزق هكذا بتقديم العروض في الفنادق الفخمة وعلى متـــن البواخر عابرات المحيط الأطلســـي. أثار لديها اختلاف جنســـيات الزبائن الرغبة في الســـفر. وصلت المرأة الشابة وحدها إلى باريس في آخر الحرب العالمية الأولى، بعد ان عنيت بالتدرّب على الرماية بالمسدس، في حال اضطرت إلى اســـتعماله... عاشت حياة هامشية في باريس السنوات 1920، بين حـــي مونمارتر (Montmartre) وشـــارع لاغاتيه (La Gaîté)، واكتشفت انها تميل خاصة إلى ما هو باطنيّ. التحقت أميليا بنادٍ لبرتغاليين كانوا على علاقـــة بجمعية الحكمة الإلهية، التي كانت تعمل على نشـــر مذهب سرّي مستوحىً من الهندوســـية والبوذية. لدى عودتها إلى البرتغال بعد خمس سنوات، كانت تعرف كيف تقرأ رموز النجوم وتستطلع البروج.

عادت إلى عاداتها الســـابقة في لشـــبونة، فقدّمـــت عروضا راقصة في

فنــدق فوز (Foz) الفخم. في جادّة الحرية، كانت تجرجر ســأمها في نادٍ خاص بالعزّاب، اســمه ماكافنكــوس (Makavenkos). عُرف عن المكان أنه كان يدبّر نســاء شــابات لرجال أثرياء متقدمين في الســن. من أجل إبعاد تباريح الزمن، والبقاء مثارا لكل الرغبات، كانت أميليا تشــرب كل يوم إكســيرا (elixir) مقوّيا، مزيجا من صفار البيض وشــراب البورتو والسكّر. كانت تتجلى جوانبها الأكثر شهوانية في الرقصات الأجنبية والبهلوانية التي كانت من اختصاصها. في الســهرات الإجتماعية، لم تكن تســتخدم من اللــوازم إلا حيّة، كانت تلفّها تارة حول معصمها، وتارة أخرى حول عنقها، حســب موقع القمر. فــي الحفلات الراقصة، كان الذيــن يتهافتون للتنعّم بمحاســنها يتراجعون ما ان يروا الحية التي تتزين بها. وكانت المرأة الشابة تثير ايضا الإســتنكار بسبب تكافؤ الضدّين في علاقاتها الجنسية. فكانت تقيــم بالفعل علاقة غرامية مع ماريا أدلاييد ليمــا كروز (Maria Adelaïde Lima Cruz)، الرسّامة والفنانة في تصوير المشاهد.

تعبت من الحياة المدينية الصاخبة، فاســتأجرت بيتا على الشاطئ في ســاو خواو (Sao Joaõ)، وجهّزته بســلّم يقود مباشــرة إلى الشط. أصبح البيت مصيفا لعشــاقها الشــباب الكثيرين. وسرعان ما أتى أحدهم ليستقر فيه. إنه نوربرتو لوبس (Norberto Lopes)، طالب حقوق شاب، وصحفي متمّــرن، لم تنفره حيّة الراقصة. وكان قد وقعت عليه القرعة ليكون مراقصها خلال ســهرة. فرقصا قســما من الليل ولم يفترقا فيما بعد. بعد فترة وجيزة، انتقل إلى منزلها، بالرغم من معارضة أسرته. وأقام فيه عشرين سنة.

فيما كانت الجمهورية الإســبانية الناشئة تغرق في الحرب الأهلية، حث الشابَ شــغفُه بالصحافة إلى عبور الحدود لينقل أخبار الإضطرابات. في

مدريـــد، جعل القتالُ لوضـــع حدّ لتمرد الوحدات العســكرية والجماعات الكتائبيـــة المدينةَ في حالة غليان. راجـــت فيها عمليات الإضطهاد؛ وكان القناصـــة كثيرين يترصّدون، والإعدام بلا محاكمة قائما على قدم وســـاق. أرادت أميليا ان ترافقه إلى إسبانيا، لكنه ذهـب وحده. لم يهمها الأمر، فقد بقيت على اتصال بعشيقها بفضل جلسات استحضار الأرواح.

في الوقت نفســه، كان ســالازال يواصل إحكام قبضته على البلاد. لا دكتاتورية من دون حكم الإرهاب: كانت الشـرطة السياسية تتجسس اكثر من اي وقت مضى، وتســتجوب وتعذب وتقتـل. لم تكن المعارضة تعيق عملها كثيرا، باستثناء الحزب الشيوعي الذي كانت تُسحق محاولات التمرد التـي يقوم بها. وكان يُثنى على الرجـل القادر على إبقاء البلاد بمنأى عن تلك الحرب المجاورة.

غير ان سالازار لم يكن يحرم نفسه من أعياد ميلاد سنة 1936. تعشى على انفراد مع الكردينال ســرخارا، وقبل منتصـف الليل، خرج متخفيا في العتمـــة، ليلقى أميليا التي تعرّف عليها قبل ســـنتين. كتبت له كلمة: «أريد ان أكـون بصحبتك [...]. وأن أعبّر لك مرة اخرى عن شـعوري العميق بالشكران، الذي نمّيته في قلبي، طيلة السنوات الماضية، بحركة، بموقف، والذي يتحوّل بطريقة ســحريّة إلى أطيب التمنيات لك. آمين، عمّا مضى، عمّا يجري وعمّا سيحصل. وكل حنان الوفية لك أبداً..».

عرفنا من علاقات ســالازار الماضية انه لا يبقى أبدا على علاقة بامرأة إن لم يكن منها فائدة سياســية. إضافة إلى انها كانت عشيقة تخلص له، أصبحت أميليا منجّمته. لم يعد يستغني عن نصائح بصّارته الخاصة. كانت على علم بمخاوفه، فترســل له كل شهر طالعه المفصّل: «أعمل الآن على

دوران الشمس هذه السنة، لكني لم أنته من دراسته اليوم، كما كنت اتمنى. أطلب منك ان تعنى كل العناية بصحتك. لا تحاول العدول عن كل راحة ضرورية. إذا كان بإمكانك ان تكرّس لي بعض الثواني، أطلب منك ان تخابرني حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر، وما ان أنتهي من عملي حتى آتي وأحضره لك بنفسي».

ألحقت الحرب العالمية الثانية الخراب بكل أوروبا، لكنها أعفت البرتغال الذي خرج منها سليما.

استمرت العلاقات مع أميليا، دون خطر التناسل: كانت ترفض فكرة الأمومة، فخضعت لعملية جراحية لتفادي اي احتمال. انتهى زمن الرعونة الليلية. لم يوقف الإكسير مرور الزمن. كان عليها ان تجد زوجا لكي توطّد مكانتها. لكن، مع الأسف، رفض عشيقها منذ عشر سنوات، نوربرتو لوباس، الإقتران بها. وتسبّب الموضوع بشجارات عنيفة بينهما. فانتهى به الأمر إلى هجرها. في اليوم ذاته، سارعت إلى إبلاغ أنطونيو بحريّتها الجديدة: «باختصار، أقول لك اني افترقت عن الرجل الذي كنت أعيش معه، فيمكنك الآن ان تدعوني متى تشاء، إذ أصبحت وحيدة تماما». اغتنمت الفرصة لتلمّح إلى ضيق وضعها المالي، فطلبت منه التوسّط لها لدى وزارة المالية. واقترحت قيمة تبادليّة: «إذا وقّعت على كتاب التوصية، اعتقد انه ستتاح لي الفرصة لخدمتك، بما ان بين معارفي أجنبيّا يهوديا من أصل روسي يبدو لي مشبوها، فقد أمضيت الليلة أناقش الموضوع مع مواطن برتغالي». قد تكون الوشاية أحيانا موضع إثارة.

لم يعرف نوربرتو كيف يتصرّف بحريته الدائمة، فقبل في النهاية الزواج من أميليا. ومرة أخرى، كان أنطونيو اول من علم بالأمر، في ضرب من

ألاعيــب الغَيْرة جدير بمسلســل متلفز: «لقد أرجئ زواجي إلى شــباط، الذكرى السنوية لتاريخ تعرّفنا على بعضنا أنت وأنا».

بعد الحرب، كانت أميليا امرأة حسنة السلوك. غير انها استمرت تراقب مســار الكواكب من أجل سالازار. كان الطالع الفلكيّ لسنة 1967 محيّرا. رســمت له دوران الشمس للسنة المقبلة: موقع الكواكب لا يبتسم له ابدا، والشــؤم يحوم حول أنطونيو، مولود نيسان في برج الثور. ستحصل مواجهة بين المريخ وعطارد، ما يعني ان المشــاكل لــن تتأخر في الظهور. حذرته من أزمة مســتقبلية: «هناك خطر وقوع حادث يتســبّب به المولود». في شــهر آب من تلك الســنة، خرج سالازار إلى الشــرفة وأراد الجلوس على كرســي مدّاد، فتمزّق القماش، ووقع على رأسه. «المنزل الثامن في الطالع: «هموم بشــأن الوضع المالي وسندات الدفع. وهن صحّي او حداد. غالبا ما يدلّ هذا التطابق على ســنة الوفاة». في اليوم التالي، بدأ سالازار يحسّ بالضيق فنقل إلى المستشــفى في الليل. شــخّص الأطباء وجود ورم دمويّ في الدماغ، ثم أصيب بعارض عِرقيّ. لم يحكم بعد ذلك أبدا. وتوفي بعد ثلاث سنوات، في 27 تموز 1970.

بقيت منجّمة ســالازال، خلال عشرين سنة إضافية، توقّع، تحت اسم سيبيلا (Sibila) المستعار، زاوية البروج في صحيفة *أكابيتال* (*A Capital*)، التي كان يرأسها طالب الحقوق السابق، الذي تزوجته، نوربرتو لوبس.

جميلة باريس

عنــد نهاية الحــرب، لم يكن يدري ســالازار بعد ما كانــت تعدّه له الكواكب. اســتغلّ وضع الرجل القوي الذي لم ينجرّ إلى الحرب ليواظب

على التردّد إلى فندق بورجس اكثر من اي وقت مضى.

في احد أيام خريف سنة 1945، حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر، توقفت سيارته الرسمية امام الفندق. ترجّل السائق منها وفتح له الباب. لم تستغرق العملية اكثر من بضع ثوانٍ قبل ان يتوارى سريعا في الداخل. أومأ إلى البوّاب بإشارة سريعة، وتوجه نحو المصعد. صعد إلى الطابق الثالث ودخل الغرفة رقم 301. كانت النوافذ تطلّ على الجهة الخلفية، والغرفة مِخدعا منعزلا. كانت برفقته امرأة بالغة الأناقة، تلفت الأنظار بعض الشيء بمظهرها الباهر.

كانت مرسيدس ده كاسترو فاخو (Mercedes de Castro Feijo) إبنة دبلوماسي وشاعر لوسيتاني (lusitanien) يمثل بلاده في ستوكهولم. وكان قد التقى فيها امرأة قيل انها من أجمل نساء العصر. كانت سيدة المجتمع هذه تفتتح الحفلات الراقصة في بلاد غوستاف الخامس (Gustave V). نشأت مرسيدس إذن بين الأعيان، في كنف والدتها. بعدما توفي والداها، ورثت ثروة ضخمة، وكان وليّ أمرها سفير سويدي، سفان برجيوس (Sven Berjius). استأنفا سوية حياة الترحال، بحسب السفارة التي كان يلتحق بها.

عندما بلغت مرسيدس سن الرشد، استقرت في باريس، في فندق أركاد (Arcade)، بالقرب من ساحة مادلان (Madeleine). عاشت حياة أميرة، تراهن على خيل السباق، إلى ان بدّدت المعاش الذي كان متاحا لها. كانت امرأة متمرّدة ترفض المبادئ التي كانت تحكم حينذاك بآمال النساء: رجل، زواج، أولاد. أرادت ان تعيش حياة مختلفة، وان تترك أثرا مجيدا في العالم. في باريس، كانت تشعر بالحرية.

كان هتلر يتهيّأ لاجتياح فرنسا، لكنها لم تشأ مغادرة ضفة باريس اليسارية. لم تكن مقتنعة بأخطار تلك الحرب الغريبة. غير انها اضطرت إلى الرحيل عندما وصل الألمانيون إلى أبواب باريس.

أصبحت عرضة للشبهة بسبب رحلاتها المتكرّرة. استردّ الفرنسيون منها جواز سفرها الدبلوماسي، وراقبها الألمانيون دون انقطاع. ظُنّ أنها جاسوسة لصالح الحلفاء. بحثت عن مكان تستقرّ فيه بعيدا عن الحرب، فعادت إلى بلَد أبيها، ونزلت في فندق بورجس، وكان في حقائبها عدّة كتب باللغة الفرنسية. كانت تهتمّ بالمؤلفين الكلاسيكيين، كفنلون (Fénelon) وموليار (Molière)، وبالعصريين، مثل أبولينار (Appolinaire) ورامبو (Rimbaud). كانت فاتنة اكثر منها جميلة، تدخن سجائر غولواز (gauloises) بواسطة مبسم كبير جدا، وتستغلّ ملامحها البارزة وعينيها السوداوين الواسعتين. كانت مرسيدس امرأة بالغة الثقافة لكنها لم تكن أنيسة بشوشة. خالطت الكتّاب وأصبحت صديقة أنطونيو فارو (Antonio Ferro)، الذي أطلقها في مجال الصحافة.

كان للطريقة التي جنّب بها سالازار بلاده الحرب وقع شديد لديها. في صيف 1945، قبل ان تعود إلى باريس، طلبت منه موعدا. كان فضول *الدوتور* (*الدكتور Doutor*) أكبر من ان يرفض. وإقدامه أكبر من ان يكتفي بمقابلة واحدة. فراحا يلتقيان مرارا كلما أتاحت له رحلاته عبر العالم ذلك. في بطاقة خربشت عليها قلوبا وأزهار اللؤلؤ، كتبت له مرسيدس بالفرنسية: «يحمل اليك كل قلب صغير خواطري الودّية، وكذلك كل تمنياتي بمناسبة

عيد الفصح، وخاصة بالعافية. أقبّلك. مرسيدس[1]».

كانت تعرف كل الدبلوماسيين منذ نعومة أظافرها، فتُعنى بشبكة من المعارف لا مثيل لها، وتنقل بعض المعلومات إلى رئيس المجلس. كتب لها سالازار في بطاقة غير مؤرّخة غير انها كلها إضمار: «لقد أخذت علما بالإرسالات من باريس وستراسبورغ. عندما تأتين إلى لشبونة، أبلغيني بالأمر، فأنا آمل استقبالك في الوقت المعتاد».

كانت مرسيدس، بصفتها سيدة مجتمع متحرّرة، تعرف المناوبة بين اللّين والوعيد مع الرجل الذي تبتغيه. لم تكن تمتنع عن طلب الأفضال منه، ثم تلسعه إن لم يلبِّ طلباتها في الحال: «لم تفعل شيئا من أجل ابن عمي لوبو فاخو (Lopo Feijo)، الذي يعمل في الأمانة العامة الوطنية للإعلام، في بورتو. وهذا، اسمح لي بقوله لك، ليس لطيفا، ليس لطيفا أبدا. انا صديقتك الوفية، والتي قد تقوم بأي عمل من أجلك، كما تعلم تماما!» التهديد واضح: لا معاملة مميّزة لابن العم المسكين، وبالتالي لا معلومات من قبل الدسّاسة.

في فندق بورجس، كانت تحجز دائما الغرفة ذاتها. كان المكان على «الموضة»، تتردّد عليه اكبر العائلات وأشهر مغنّي الأوبرا الذين كانوا يقدّمون العروض في مسرح ساو كارلوس (Sao Carlos). ما ان تصل مرسيدس إلى مكان الإستقبال حتى يخابر الموظف فيه رئاسة المجلس،

---

(1) مرسيدس ده كاسترو فاجو (Mercedes de Castro Fejjo)، «رسائل من السويد : أربعة عشر رسالة» (« Lettres de Suède : quatorze lettres »)، رافيستا أوسيدانته (*Revista Oci-dente*)، لشبونة، 1940.

فتأتي سيارة لتقلّها في أقل من ساعة. كان سالازار يزورها مرة في الأسبوع، في أوقات محدّدة. لكن أنطونيو المزّاح كان يسأم الرتابة.

كتبت له من باريس بالفرنسية: «يبدو لك ان منالي هنا أقلّ سهولة منه في بيتك في ســاو بانتو (كما لو كنت نسرا فوق صخرته الشاهقة)... وأنا كلي اشتياق... أذكر بحنان صراصير فندق بورجس».

استمرّ أنطونيو يستخدمها كمُخبرة، لكنه راح، ابتداء من 1950، يبحث دائما عن شتّى الأعذار ليتهرّب منها. كانت مرسيدس عشيقة يبقيها بعيدا: «ها أنا ثانية في لشبونة، وعلى طريق العودة مجددا (لا أكفّ عن الذهاب والإياب). هل ترغب في رؤيتي؟ إذا لم يزعجك ذلك، فأنا يسعدني كثيرا. لــن تكتمل زيارتي إلى البرتغال دون ذلــك، وينقصها الأهمّ (فأكون حزينة للغاية). كن لطيفا، واطلب مني المجيء». أتى الجواب حاسما: «أشكرك من كل قلبي لبطاقتك. عندما تصلين إلى لشــبونة، أطلبي مني شيئا آخر، وسأستقبلك في ساو بانتو او في حصن سانتو أنطونيو (Santo Antonio)».

إذ كانت حينذاك امرأة أخرى تثير، منذ باريس، رغبات *الدوتور*.

الحب يقرع الباب دائما مرتين

فليســمينا، ماريا لورا، أميليا ومرسادس. هل ضحّى بهن رجل غير مبالٍ خدمــة للمصلحة العليا، أم أنه تخلّى عنهــنّ رجل لا يعرف ان يحبّ؟ لا شكّ قليل من الأمرين.

أفضى سالازار في احد الأيام إلى الأمين العام للدعاية الوطنية، أنطونيو فــارو (Antonio Ferro)، بالقول: «كم من مرّة تأثرت بصدق بعض البوادر

الحقيقي! كم من مرّة شـعرت برغبة تهزني تكادت لا تقاوم في ان أجاهر للشـعب بشُكراني! ولكن، ما ان أكون مستعدّا للتكلّم، حتى أسمع صوتا باطنيا يقول لي: «أصمُت. أنت تخرج عن نفســك... «لو كانت تتحكّم بي تأثيرات عابرة، لما بقيت أنا أنا. في مثل تلك الحال، لا أرى من النزاهة ان أسـتمر في الحكم[1]». كانت الدوافع العاطفية أكبر عدوّ لسـالازال، عـدوّه اللدود. ويضيـف: «أفضّل الإحترام على الحـب. الحب يزول... والهـوى [...] كم هو متقلّب! وخطير ايضا. إن الذين يصفقون لي اليوم، هل يتردّدون في الإعراض عني إذا ما انتابهم شغف آخر؟»

سـنة 1951، بلغ سالازار سن الإثنين والستين. بدأ يسأم حاشية النساء اللاتي يُحطن به. بيد انه سيعرف أكبر قصة حبّ في حياته.

الحب يتصدّر عناوين الصحف

توجهت كريستين غارنييه (Christine Garnier) إلى البرتغال بنيّة واضحة: تأليف كتاب عن حياة سـالازار. لم تكن تهتمّ للسياسـي، وإنما للرجل. كان المشروع طموحا، إذ كان أنطونيو يحكم حينذاك البرتغال منذ حوالي عقدين من الزمن، دون ان تُكشف اي معلومات عن حياته الخاصة. أرادت بمساعدة أنطونيو فارو استعراض مسـاره، منذ طفولته حتى تولّيه السلطة. كان شرط سالازار الحق في مراجعة كل فقرة تنشر.

فـي لشـبونة، كان بانتظارها رجل من الأمانة العامـة الوطنية للإعلام.

---

(1) أنطونيو فارو (Antonio Ferro)، سالازار، البرتغال ورئيسه (*Salazar, le Portugal et son chef*)، باريس، غراسيه (Grasset)، 1934.

صحبها خلال ثلاثة أيام في زيارة المدينة، فيما استمرّ ديوان الرئيس الأعلى يتنصّل. شعرت كريستين بأن القصد كان إلهاءها لصرفها عن هدفها، فهدّدت بالعودة إلى باريس. ذعر العميل. كان على علم بإصرار سالازار على ان تثني عليه الصحف في فرنسا، من اجل لفت أنظار ذلك البلد حيث كان عشرات آلاف البرتغاليين قد هاجروا. فخابر صديقا شخصيّا لسالازار وعرف كيف يحث «المداهن» على التعاون، فأكّد له: «إنها تفور كرغوة الشمبانيا». في الواقع كانت الفرنسية الشابة تلفت الإنتباه: كانت مثابرة، عازمة، لا تتخاذل، تريد وتطالب بمقابلة ذاك الرجل الذي يثير فضولها. وإذ أثار وصف صديقه لها فضوله، وافق سالازار على استقبالها. حُدّد الموعد بعد يومين، في قصر ساو بانتو.

بالمناسبة، غيّرت كريستين عاداتها. كانت على علم بحس *الدوتور* الجمالي الرهباني، فوصلت وقد لبست قبعة عريضة الحافة، وارتدت الثياب السوداء، بأناقة كلها باريسية بالرغم من بساطتها. ما أن عبرت الجسر المتحرّك، حتى نزل السلم لاستقبالها رجل في بدلة من الكتان الأبيض. قادها بصمت إلى غرفة فيها كرسيان لا غير. جلس الإثنان وانتظرا. نفد صبر الباريسية: «وماذا بعد؟ ألن يأتي الرئيس؟» ابتسم باشّا، ولم يحرّك ساكنا. كان هو سالازار، الذي اعتاد اللجوء إلى الملبس البسيط كسلاح ليفاجئ النساء. تذكّرت تقول: «لقد شلّت الدهشة اندفاعي وخنقت صوتي[1]». بقيا وجها لوجه، دون ان ينبسا ببنت شفة، كما حصل قبل أربعين سنة مع

---

(1) كريستين غارنيه (Christine Garnier)، عطلة مع سالازار (*Vacances avec Salazar*)، باريس، غراسيه، 1952.

فليسمينا، على رصيف محطة قطار فيزو. اختطفها نظره: «لم أر في ذلك الوجه الغريب إلا العينين. عينان بشـــكل المثلث، سوادهما قاتم ونظراتهما حادّة». بين الذهول والسُــبات، نشــأ الحب صاعقا. ســحرها كل شيء عنده. لاحظت: «بشرته سمراء بعض الشيء، وشعره أشيب برّاق، وأسنانه تلمع لمعان المعدن».

كانت كريســتين غارنييه امرأة شــغوفة، لا تعرف الإعتــدال ولا النفاق اللذين تفرضهما الأصول السياســية. قالت له دون مواربة: «لقد ســمعت عنــك الكثير، يا ســيدي الرئيس، ولم أطمئنّ لما قيــل لي. يقول البعض إنــك قديس وانه لن يمرّ وقت طويل قبــل ان تُطوّب. والبعض الآخر يرى أنك زعيم عديم الإحســاس والإنســانية. [...] وصيت تقشفك ذائع إلى درجة أنهم نصحوني بعدم التعطّر وتجنب طلاء أظافري. لبست قبعة كبيرة سوداء، فيما اني أترك عادة الريح تعبث فيه شعري. وفي السيارة التي قادتني إلــى الحصن، لم أكفّ عن التخــوّف من ألا يكون طول تنورتي وأكمامي كافيا..». فتن رئيــس المجلس بهذه الثقة بالنفس، ولم يخيب أمله تدفق الأسئلة التي تلتها:

«أكّد لي البعض أنك لا تطيق صحبة النساء.

ربما النساء اللاتي رفضت استقبالهن هن اللاتي يروّجن لي هذا الصيت! الحقيقة انه لا يســعني مقابلة كل من يطلب ذلك: فالدقائق التي لا أعمل فيها، أســلبها من الدولة. لكن، صدقيني، إنني على العكس أجد متعة في صحبة النساء!

باســتثناء ربما النســاء اللاتي يعملن! أنا لم أنــس بعض المقاطع من خطاباتك حيث تؤكد ان مهنة الزوجة تتسبب بتفكّك أسرتها...

أنا لم أغيّر رأيي. لا أزال أقول انه لا زوجة فاضلة إلا وتجد ما تعمله في منزلها، أقله في تحضير وجبات الطعام والإعتناء بالملابس.

هل تعتقد إذن، سيدي الرئيس، انه بإمكانك وضع حدّ لهذه الحركة التحرّرية التي تنقاد لها البرتغاليات؟

أنا مقتنع بأن الزوجة التي تهمّها أسرتها لا تستطيع ان تؤدي عملها في الخارج على أكمل وجه، لذلك سأعمل دائما على معارضة استقلال النساء المتزوجات.

كان الموقف واضحا. دعا سالازار الحسناء الفضولية إلى العودة في أيام العطلة، فيذهبان إلى سانتا كومبا (Santa Comba)، حيث يمكنها إنهاء تحقيقها. كانت تسكن نزل أمبروزيا (Ambrosia)، وتذهب كل صباح للقاء الدكتاتور، بمواكبة الشرطة.

اكتشفت عالم أنطونيو الخاصّ. ما تصوّرته مزرعة عائلية وسيعة، كان في الحقيقة بيتا صغيرا، «يكاد يكون منزل صاحب إيراد»، على حدّ قولها. بل كان أشبه ببيت كاهن ريفي وضيع. واجهته وردية اللون تزيّنها شجيرات ورد متعرّشة. كانت الغرف فيه ضيقة، فيها فقط من الأثاث ما هو مفيد، وقليل مما هو مستحبّ. فقط طاولة من طراز لويس الخامس عشر كانت تتوسّط، بشكلها الأنيق، غرفة استقبال تكاد تكون خالية. اختار سالازار لكراسيه وستاراته نسيجا قطنيا متينا (cretonne). كانت على الجدران ذات اللون الأصحر تصويرة رومنطيقية وبقربها رسم لدانت (Dante) ولوحة تصوّر زيارة إلى دير راهبات بندكتيّات (bénédictines). لا مكتبة. ولا كتب، او يكاد. ولا حتى صورة شمسية واحدة. «ها هو إذن ملاذ الذي يسمونه دكتاتورا. سيقضي سالازار آخر أيامه في إحدى هذه الغرف الخالية من الأثاث. إني متأثرة».

كانــت غرفة النوم، الحــرم المحرّم، على النمط ذاتــه. كانت الأرض وكذلك الســرير من الخشب الأبيض. والستار الذي يحجب منظر الحقول منقّط ببقع من الصدأ. على الصوانة، تمثال للعذراء من الجصّ الملوّن. كان باب الحمام الصغير المتاخم مفتوحا قليلا: وكان ســالازار قد نســي على المغسلة مشطا رفيعا وفرشاة شعر كالتي تكون بحوزة تلاميذ الداخلية: «لا يسعني ان أفهم كيف ينبعث من كل هذا الخلوّ وكل هذا الفقر، هذا القدر من الحرارة لا وبل من الحماس».

فــي القرية، أثــار وجود الغريبة كثيــرا من اللغط. فيمــا كان الفلاحون منشغلون بزرعهم، كان سالازال يصطحبها في نزهات، مستندا على عصاه الهندية. راح يريها الكروم والحدائق. كان يحب بشــكل خاص سحلبيّات مادار (Madère) وقرنفل أســتوريل الوردي اللون. فقط الأزهار ذات الألوان الباهتــة، دون كلف: اللون الوردي، الأزرق، الأبيض. كانا يجلســا وســط أزهار الحلوة، على سطيْحة مسقوفة من طراز المستعمرات.

«هل تحب الأزهار كثيرا، يا سيدي الرئيس؟

شكا، كئيبا: «إنها تهبني البهجة الوحيدة المسموحة لي. أصابت الهدف أنشودة المتوحِّد الخجول المتقشّف، الذي كرّس نفسه لعمله، والذي يحبّ التنزه في الحدائق النباتية: «هناك لحظات تتحرّك فيها المشاعر إذ يحسّ المرء بالسأمة العميقة التي تثقل كاهله». سُحرت به كريستين بدورها.

اعتــادا الجلوس جنبا إلــى جنب، أمام النبع، يســتغرقان في أحاديث مطوّلة. في ســانتا كومبا، لاحظت إحداهن المنــاورة: إنها ميكاس، الفتاة التي احتضنها ســالازار في صغرها وتربّت عنده. الآن وقد أصبحت امرأة، راحت تراقب بفضول إهتمام ولي أمرها بالأجنبية. استخلصت أنها «المرأة

كان موسوليني يقول سنة 1915: "يوم أدرك ان الناس يعبدونني، سأدمّر نفسي". لكنه سرعان ما نسي بعض مبادئه. والدليل على ذلك هذه المرأة الشابة التي ترتدي لباس بحر رُسمت عليه صورته، سنة 1923.



"تلاحقني بحبها، لكن لا يمكن أبدا أن أحبها. تشمئز نفسي لدنائتها". مرغريتا سارفاتي (Margherita Sarfatti) [1880-1961]، ملكة الفاشية من غير تتويج.

"إذا صدّيتني، سأرمي بك معي تحت عجلات الحافلة". عرف موسوليني الى أي حجج يلجأ لطلب يد راشيليه غيدي (Rachele Guidi) [1890-1979].

"قولي لي، ما الذي يعجبك عندي ؟ أنا لا أعرف. أنت مجنونة، أو انك غبيّة". لم تنبئ المقابلات الأولى بين موسوليني وكلارا بيتاتشي (Clara Petacci) [1912-1945] بالشغف الكبير الذي سيجمع بينهما ويمزّق قلبيهما.

"لو كنت في الصحراء، وكانت أنجليكا المرأة الوحيدة الموجودة، لآثرت مغازلة قردة". أنجليكا بالابانوف (Angelica Balabanoff) [1878-1965]، "المدرّبة" الحقيقية لبينيتو.



"مطالبة النساء بالحب الحرّ: إنها مسألة لا تهمّ الطبقة الكادحة، بل هي مطلب برجوازي". ما لم يمنع لينين من معاشرة امرأة متزوجة، إيناسا أرمان (Inessa Armand، [1874-1920]، الثورية، المناصرة للحركة النسائية، ونبيّة الحب الحرّ.

LÉNINE

"لقد ألحمتني هذه السنوات [...] نهائيا بالطبقة الكادحة". لن تتخلّى ناديا كروبسكايا [1869-1939] (Nadia Krupskaïa، أبدا، لا عن الماركسية ولا عن لينين الذي تزوجته سنة 1898. نراها هنا وهي تلقي خطابا على ضفاف نهر الفولغا (Volga).

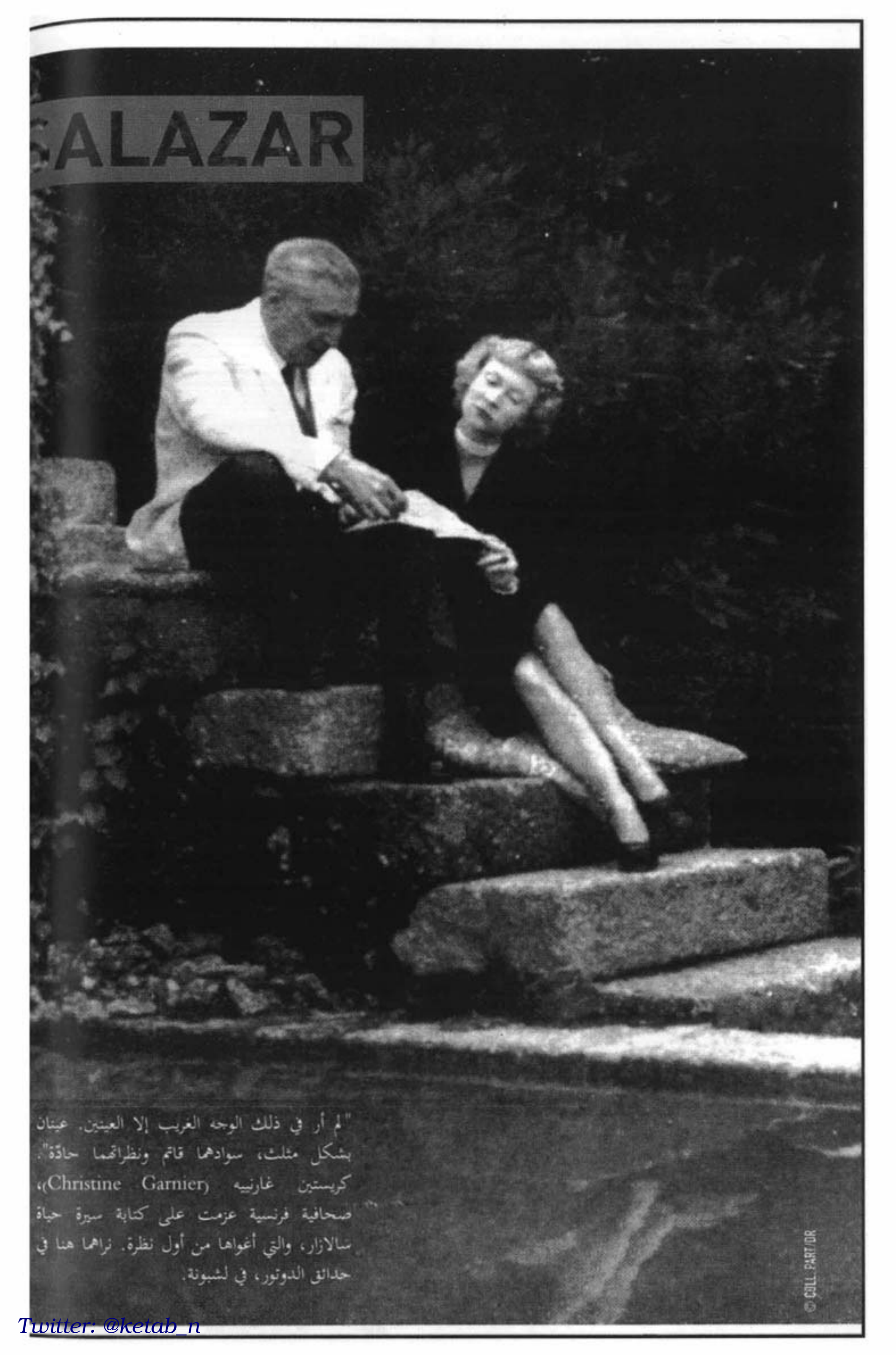


قال ستالين عن أكاترينا سفانيدزيه (Svanidze Ekaterina) [1880-1907]، زوجته الأولى وأول من تمزّق لها قلبه: "لقد أذابت لي قلبي".



© TOPFOTO/ROGER-VIOLLET

"فقدت اكثر من 10 كيلوغرامات، أضطرّ أن ألبس تحت تنانيري ثيابا وإلا هبطت. ضعفت الى درجة ان الناس يقولون لي اني مغرمة". ناديا أليلويافا (Nadia Allilouyeva) [1901-1932]، زوجة ستالين الثانية التي كانت حياتها قصيرة ومأساوية كالتي سبقتها في قلبه.



"لم أر في ذلك الوجه الغريب إلا العينين. عينان بشكل مثلث، سوادهما قاتم ونظراتهما حادّة". كريستين غارنييه (Christine Garnier)، صحافية فرنسية عزمت على كتابة سيرة حياة سالازار، والتي أغواها من أول نظرة. نراهما هنا في حدائق الدوتور، في لشبونة.



"الإمبراطورة الجديدة، على الأخص، [...] برهنت، في دور مماثل لدور جوزيفين، عن كثير من الإحتشام وهيبة الطلعة". لاحظ فاليري جيسكار داستان، من باريس، جمال كاترين بوكاسا. نراها هنا في حفل عشاء أقيم في بانغي في آذار 1975، بحضور الرئيس الفرنسي.

في 4 كانون الأول 1977، أصبحت كاترين إمبراطورة إفريقيا الوسطى وهي تتبرّج بأجمل المجوهرات.







"كان السيد المسنّ يطرئ عليّ. [...] لم يكفّ عن التهامي بعينيه. ثم، كان الوقت متأخرا، ففررت. رفضت عرضه بأن يصاحبني الى البيت في سيارته المرسيدس (Mercedes). تصوّر ردّة فعل أبي !" آفا براون [1912-1945] (Eva Braun)، فتاة هتلر " الساذجة الصغيرة"، والتي أخلصت له حتى النهاية.

أنجليكا روبال (Angelika Raubal) [1908-1931]، الملقبة بـ"جالي"، ابنة أخته، الوحيدة "التي كانت تضحك بعينيها" وتستطيع استصحابه الى دكاكين تباع فيها قبعات.

"كم أودّ أن اكون الى جانبك، أنظر في عينيك العزيزتين، وأنسى كل الباقي. ذئبك". كان هتلر بالنسبة لماريا رايتر (Maria Reiter) [1911-1992] بمثابة "فيض من الهيام" كان من الصعب أحيانا صدّه.





"أحب زوجي أيضا، لكن حبي لهتلر أقوى منه. إني مستعدة للتضحية بحياتي من أجله". اعتادت ماغدا غوبلز (Magda Goebbels) [1901-1945] دائما تنفيذ تعهداتها.

الوحيدة التي أفقدته رشــده». واختلطت المشاعر ايضا في ذهن الصحافية الشابة التي أتت من أجل مقال، فلم تبالي بواجب الإستقامة المهنية:

«عدت لتوّي من لشــبونة. إنــه منتصف الليل. تتشــابك في ذاكرتي المنهكة الطرق والجســور، وتختلط الوجوه التي تقودني كلها، حتما، إلى ســالازار. كــم أودّ ان أختلق غدا، من ابتكار مخيّلتي، مشــاهد حفلات راقصة، وموسيقى وحب، دون حاجة إلى الإستناد إلى تواريخ معيّنة او مناظر إلزاميــة. وجدت في غرفتي باقة كبيرة من الــورود الزكيّة. أعطتني وصيفتي، بوجه عبوس، بطاقة زيارة كُتب عليها دوتور أنطونيو ده أوليفارا سالازار. ثم انصرفت، وصفقت الباب بعنف بعد خروجها، دلالة على استنكارها».

سارعت الفرنســية لتجيبه: «كيف أقول لك كفايةً: شكرا! شكرا على الورود التي حرّكت مشــاعري في العمق - إنها أجمل ورود في العالم!... شكرا على فكرتك الرقيقة هذه».

كانت كريستين تصل مع حلول الظلام لكي تعمل. ربما كانت قريحتها أفضــل في الليل؟ كانت تصعد إلى المكتب القريب من غرف النوم. فيغلق ســالازار بعنايــة الأبواب والشــبابيك. كان الفضول ولا بــد الغيرة ينتابان ميــكاس، فتختبئ في الغرفة المخصّصة لكريســتين، والتي تتاخم جدرانها الرقيقة المكتب، تترقّب اي حركة مشبوهة: «لم أر شيئا، كانت كل المنافذ مغلقــة، على غير عادة». وما أثــار، في أحد الأيام، مخيلة الفتاة اكثر هو هجيان مدبّرة المنزل. كانت ماريا ده خاســوس (Maria de Jesus) تصعد الســلم وتنزله وهي تنقل دلاء من المياة الســاخنة إلــى الحمام. قيل عن الفرنســيين حينذاك انهم يكرهون الماء ويرفضون مبادئ النظافة الجسدية. لم يكن ســالازار متأكدا من الأمر، إلا أنه كان يأمل في ان يقنع كريستين



عندما رأت هه زيزهن [1909-1984] (He Zizhen) ماو للمرة الأولى، بدا لها "مسنّا جدا". وكانت بالنسبة له "صنو روحه الثورية". أصبحت زوجته الثالثة وبطلة المسيرة الطويلة.



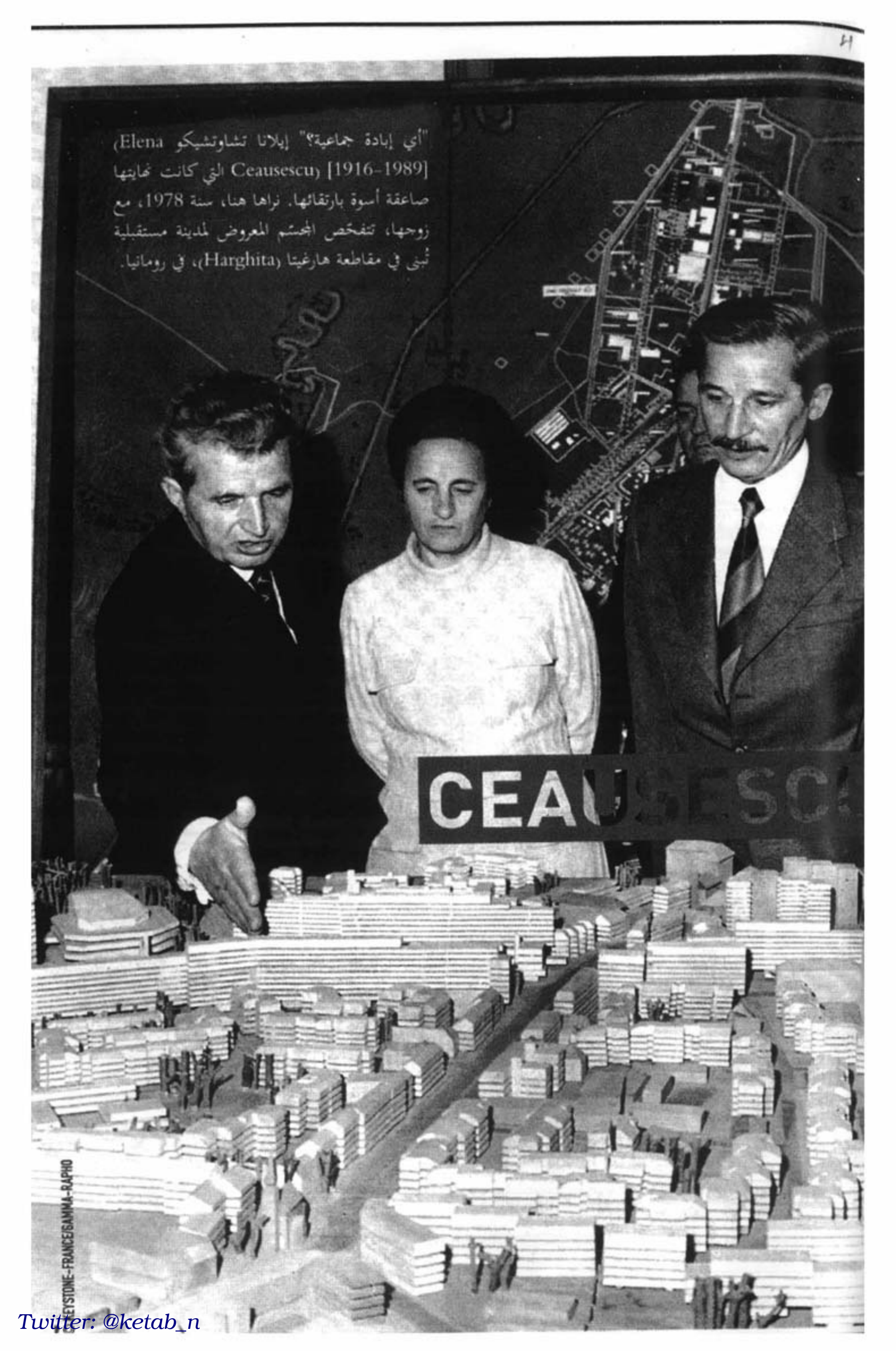
"وقعت في غرامه بعد ان سمعت عنه الكثير، وقرأت العديد من مقالاته... ولكن مهما بلغ حبي له، لم أشأ ان أظهره." يانغ كاهوي [1901-1930] (Yang Kaihui)، زوجة ماو الثانية، وقد جاهرت بحبها لتسي تونغ أمام جلاديها.



"تقتصر مساهمة الرجل في مجرى التاريخ، على نقطة منيّ".
جيانغ كينغ [1914-1991] (Jiang Qing)، زوجة ماو الرابعة، التي كان لها في الحب والسلطة رأي خاص بها. نراها هنا مع أمها، سنة 1936.



خلال محاكمة "عصابة الأربعة"، في 25 كانون الثاني 1981، اتهمت جيانغ بارتكاب جرائم قتل وبالقمع والتآمر.



"أي إبادة جماعية؟" إيلانا تشاوتشيكو (Elena Ceausescu) [1916-1989] التي كانت نهايتها صاعقة أسوة بارتقائها. نراها هنا، سنة 1978، مع زوجها، تتفحّص المجسّم المعروض لمدينة مستقبلية تُبنى في مقاطعة هارغيتا (Harghita)، في رومانيا.

EYSTONE-FRANCE/GAMMA-RAPHO

بالإستحمام. وقد أطلعت مدبّرة المنزل بنفسها ميكاس على السرّ بأسلوب مبتذل للغاية: «قالت لي ان ســالازار كان يشــكو كثيرا من ان كريستين لم تكن تستحمّ أبدا، وانها كانت بدلا من ذلك تدهن جلدها بالمرهم».

كانت ماريا ده خاســوس تخلص لســالازار كل الإخلاص، وتقوم بأي شــيء من أجله، حتى لو كان ذلك يتعارض مع طبيعتها الخفيّة. كان من بين صلاحياتها ان تطبخ لعشــيقاته، وان تزين من أجلهن المائدة للعشاء. كانت تلك المرأة التقيّة، الكتومة، التي كانت تحب رجلا واحدا دون غيره، مســتخدِمها، تكبت كبرياءها من أجل تحقيق كل رغبات *الدوتور*. طالما بقي بصحة جيدة، كانت الأمور تجري على أحسن ما يرام.

هكذا قضت كريستين فصل الصيف وهي تتنقل بين سانتا كومبا ولشبونة. في المدينة التي كان ســالازار يمارس فيها الحكم، اكتشفت إطاره اليومي، إطار السلطة: «قال لي سالازار ان أحضر الساعة السابعة، لكني لم أتمالك نفسي عن الوصول قبل عشر دقائق أمام المبنى الأبيض الكبير بطابق واحد الذي يقع قرب ساو بانتو. كانت البسط من صنع أوبوسون (Aubusson)، والحاجِبات من كوروماندال (Coromandel) والثريات من البندقية (Venise). فــي المدخل، تمثــالان لعبدين من طراز روكوكــو (rococo) المزخرف بإفراط. وعلى خشب الطاولة المطعّم بدقة، مزهرية صينية قديمة العهد فيها سحلبيّات بنيّة منقطة بالأصفر». كم كان التباين كبيرا مع خلوّ سانتا كومبا!

كان يجد هناك سالازار الفرصة ليقوم معها بنزهات رعائيّة. كانا يتنزهان في ظل أشــجار الحديقة، وهو يتأبّط ذراعها. كان يبدو الرجل سعيدا بين بطّ بلدان المغرب (Barbarie) اكثر مما كان عليه تحت خشــبيّات قصره الفخمــة. كان يتباهى بالقول: «ما رأيك بشــجيرات البَقْس هذه المنحوتة

علـى الطريقة الفرنسـية، والتي تمتدّ نزولا حتى سـاو بانتـو؟ إنها آية في الجمال، أليـس كذلك؟ إذا طرفت بعينك، خالك انـك ترين نجدا. لقد راقبت تغيير الزهراءات وأعطيت التعليمات للجنائيين بنفسي».

واصلت كريسـتين الذهاب والإياب بين فرنسـا والبرتغال، إذ أصبحت خليلة سالازار المفضلة. بدا أنطونيو يُجنّ بها. ذهب به الأمر إلى ان يكتب لسـفير من أصدقائه في باريس، مارسـيلو ماتياس (Marcello Mathias)، يطلب منه معروفا شـخصيا، ألا وهو شراء حلية لصحافية: «لن أستطيع أنا ابـدا القيام به دون توجيه، ولا أعرف أحـدا جديرا بذلك. ولا يمكنني ان أذهب بنفسـي إلى باريس خوفا من الإنتقادات... لا تقلق بالنسبة للمال، فالمال لا يفيدني بشـيء، لدي منه ما يكفي لتواضعي، وما لا يتناسب مع مكانتي[1]». أخذ الدبلوماسي على عاتقه شراء الحلية. فاصطحب كريستين فـي جولة على أفضـل بائعي المجوهرات الباريسـيين وطلب منها اختيار خاتم نسـائي. اتّصل سالازار هاتفيّا بحاكم مصرف البرتغال لكي يسحب له شيكاً بقيمة 420 دولار.

للمرة الأولى في حياته، برهن رئيس المجلس عن سخائه. عندما كانت كريسـتين في باريس، كان الرئيس يغمرهـا بالأزهار التي كان يُحضرها من كل أنحاء العالم. وكانت بانتظارها شـحنات غريبة أخرى في 21، شـارع فرناي (Verneuil):

«باريـس، فـي 15 كانون الأول 1953، سـيدتي، لقـد أتتنا تعليمات

---

(1) مارسالو ماتياس (Marcello Mathias)، *Correspondência com Salazar*، لشبونة، ديفل (Difel)، 1987.

مـــن قبـــل الســـيد فـــرازاو باشـــيكو (Frazao Pacheco)، مديـــر شـــركة كورتورا (*Corretora*)، بتسليمك من قبل الرئيس سالازار صندوقا من أناناس جـــزر الأزور (Açores). لقد حاولنا بـــلا جدوى الإتصال بك هاتفيا. وقد قررنا تسليمك ثمرات الأناناس هذه مع ما سنرسله غدا إلى باريس..».

كان يعمل أنطونيو على ان يرســـل لها أصنافـــا متنوعة من المأكولات لتتســـلى بهـــا في غيابه. حتى انه أرســـل لهـــا على متن باخـــرة *توركهايم* (*Turkheim*) ثلاثـــة صناديق من الخمر الأحمر من داو (Dao) إلى داكار (Dakar)، حيـــث كانت تقوم بتقرير ميداني. وقد دفعت الشـــركة الملكية حوالي 1000 أســـكودو (escudo) عن ذاك الكوثر. كان ســـالازال يسخو هكذا بكل لطافته. كان يعبدها، وكانت تحب ذلك كثيرا.

كان أصل كريســـتين من الأراضي المنخفضـــة (Flandres)، وكانت قد جابـــت العالم منذ صغرها مع أبيها، ضابط البحرية. فاكتســـبت منه حبّ المغامرة وطبع الولد المدلّل. عندما بلغت ســـن الرشـــد، قررت ان تسلك دربـــا كانت حينذاك حكرا على الرجال: عبور القارة الإفريقية من طرف إلى طرف، والإقامة في الغابة الإســـتوائية لتعلّم فن الشـــعوذة. كتبت في ذلك الوقت عدة روايات بقيت مجهولة، وكان مســـار حياتها العاطفية مضطربا. كانت تختار الرجال من بين الأعيان، لكن سرعان ما كانوا ينهكون.

في الفترة التي التقت فيها كريســـتين بســـالازار، كانت امرأة متزوجة من ريمون برات كـــوخ (Raymond Bret-Koch)، إبن إبن أخي الدكتور كوخ، مكتشف عُصيّة السلّ. رافقها الزوج الساذج إلى البرتغال في بداية أبحاثها. فيما كانت زوجته تتنزه في شـــمال البلاد برفقة ســـالازار، كان ينتظرها في العاصمة. عندما رجع ريمون بعد فترة من الزمن إلى باريس، اكتشف الرسائل

اللاهبة التـــي كان قد كتبها رئيس المجلس لزوجته. وقد أجابته كريســـتين على رســـائله: «يا فرحي باســـتلام رسالتك الرائعة المشـــربة بك! يا فرحي بالإحســـاس بك... أفكر بحنين في *المزرعـــة* (*quinta*) العزيزة. في ذلك الزمان، البعيد اليوم، كان كل شـــيء جميلا، أليس كذلك؟ كم كانت تلك الفترة رائعة، كادت تكون خارج الحياة. نعم، في تلك الأيام، كانت الحياة جميلة..».

في النهاية، طلب الزوج المخدوع الطلاق، ثم عادت كريستين فتزوجت من غيره، إلا ان هذا القران الثاني لم يكن أسعد من الأول. كتبت لأنطونيو: «أنت على حق، لا أحد يعتني بي، لا أحد يحميني، ولقد كان الوضع على هذه الحال طيلة حياتي. وحده إبني (معك) يطيّب خاطري».

اســـتمر سالازار يستغل تأثيره في النســـاء ليطّلع على كل شيء. كانت كريســـتين تســـافر كثيرا، وتخالط النخبة الفرنســـية والوزراء والأعيان. هل كان يلجأ إلى خدماتها إذا ما كان الموضوع حساســـا جدا بالنســـبة للقناة الدبلوماســـية الرسمية؟ إن مصير كريستين يشبه مصير مرسديس، في علاقة كانت المصالح السياســـية والمشاعر الحقيقية تتشابك فيها بشكل يتعذر حلّه.

«صوته، ليتني أتمكن من وصف رنينه! [...] إنه أشبه بالشدو. صوت منخفض عذب، يقســـو احيانا فيجمّد الدم في العروق: إنه صوت لا مثيل له. يذكّرني بنصْل خنجر يعمل في غمد من الحرير». لكن ســـالازار توقّف عن مخابرتها، فصمت صوته بالنسبة لكريستين.

بيـــد انها كانت تعتقد انها رفيقة أنطونيو الأخيرة، الرفيقة التي من أجلها ســـيتخلّى عن ســـجنه العاطفي. كان قد أســـرّ اليها: «يزعم البعض اني لا

أحب الحياة. إنهــم يخطئون تماما. إني لا أحب حياتي. [...] بدلًا من ان أحكم، كنت أفضل أن أعيش هنا بعض الســنوات الهادئة، بين الحقول والكروم. أتعتقدين أنني لم أكن أتمنى تأسيس أسرة؟ أتعتقدين اني لا أرغب في النوم دون همّ، متحرّرًا أخيرًا من ألف دناءة هي ثمن كل عمل حكومي عندما يكون المرء أسيره خلال ثلاث وعشرين سنة؟»

في الســجن الذي أشاده لنفســه، كانت ماريا، مدبّرة المنزل، الوحيدة التي ستقضي معه لحظاته الأخيرة. كانت إلى جانبه وقت احتضاره، في 27 تموز 1970. مات *الدوتور* إلى جانبها، دون ان يلقي نظرة واحدة على التي أحبّته بصمت منذ أول سنوات القرن، وبقيت عذراء من أجله. لقد اختبرت فليسمينا وأميليا وكريستين، على غرار ماريا، السُنّة السالازيرية الأكثر باطنيّة: «يمكــن للمرء ان يعمل في السياســة بلغة العاطفــة، ولكن لا يمكنه ان يحكم إلا بلغة العقل!»

5

بوكاسا (Bokassa):

يوميّات بانغي (Bangui) العفريتة

«ليس على إمبراطور مستقبلي أن يسكَر!»

كاترين (Catherine) بوكاسا

حب صاعق في بانغي

ماس على كنبة

صبـــاح الرابع من كانون الأول 1977. إنفعال عابر حرّك وجه كاترين بعد ان كان ســـاكنا، عندما وُضع التـــاج العظيم على جبينها. التي لم تكن بعدُ غير تلميذة مدرســـة عندما التقت جان بيدل (Jean-Bedel) أصبحت اليوم زوجة الرئيس. ها هي أمبراطورة. في باريس، لاحظ رجل هذا الإنفعال وهذا الوجه، ولم يســـتطع تحويل نظره عن جهاز التلفـــزة الذي كان ينقل حفل تتويج الزوجين بوكاسا.

كانت بانغي العفريتة تســـتعدّ منذ أشهر. خلال نهار واحد، مع تتويج الإمبراطور الجديد بوكاسا الأول تحوّلت مصائب الشعب إلى المرتبة الثانية.

شارك الجميع في الإستعدادات، وأتى الحفل رائعا.

ســاهمت أكبر اثنتين من ثروات البلاد في أبّهة الإحتفال. خشب الغابة الإســتوائية البديع الذي زيّن قاعة بانغي لمختلف الألعاب الرياضية. والماس الذي ظهر على كل البدلات، وأصابع كل الأعيان، ورقاب كل النساء الموَقَّرات.

كم كان الدرب طويلا! كان جان بيدل بوكاســا في الثامنة عشــرة من العمر عندما التحق بالجيش الفرنسي بصفة الرامي. وأمضى اكثر من ثلاث وعشرين سنة في خدمة العلم، قبل ان ينتقل إلى جيش أمّته الناشئة الجديد. كان حينذاك برتبة نقيب، وقد تكوّنت مخيّلته في ظلّ ما عُرف في الماضي بالجيش الكبير. فقد تبنّى أصوله ورموزه وأســاطيره. وعلى غرار أي جندي صالح، كان نابليــون بونابــرت (Napoléon Bonaparte) بطله. وقد دفعه إعجابه المفرط به في يوم التتويج هذا إلى إعادة تمثيل حفل 2 كانون الأول 1804، الحفل الذي حوّل الجنرال بونابرت إلى إمبراطور الفرنسيين.

كانت بدلته، نســخة عن بدلة المارشــال ناي (Ney)، لها ذيل مفرط الطول من المخمل وفروة القاقم، كالتي ابتدعها الرســام إيزاباي (Isabey) حينذاك بمناسبة عودة فرنسا إلى نظام الملكية. وصدر مرسوم يحدّد الطريقة التي يجدر بها التوجه من الآن فصاعدا إلى الإمبراطور: «على كل من يسلّم على بوكاســا ان يقف على بعد ستّ خطوات منه، ويحني رأسه قليلا إلى الأمام». وفي الإجابة يتوجّب على مواطني إفريقيا الوســطى إستعمال عبارة «نعم يا جلالة الإمبراطور». وأوضح نصّ المرسوم أيضا: «إذا اقتضى الأمر بالفعل الإجابة بالنفي، يجب عدم لفظ علامة لا بفظاظة». لا يتحمّل جان بيدل ان يقال له لا. كلمة لا يجوز حتى ان تتفوّه بها امرأة.

نابليون إفريقيا الجديد في سنّ السادسة والخمسين. وفي دور جوزيفين

(Joséphine)، كاتريــن دنغياد (Denguiade) التي لا يتجاوز عمرها الثمانية والعشــرين عام. إنها والدة جان بيدل الأصغر، الذي، وإن لم يتمالك عن التثــاؤب، حضر عاقــلا تبوّء أبيه المركز الرفيــع. كان عليه البقاء بلا حراك خــلال هذه الرُتبة التــي أوقفت الزمن، وهو جالس على وســادة كبيرة من المخمل الأحمر المطرّز بالذهب، بلباسه الأبيض كالضابط الصغير.

أما أمه فارتدت فستانا من صنع دار لانفان (Lanvin) للأزياء، مقصّب بالذهــب، تزينه قطع نقديــة وآلاف الأقراص الصغيرة من المعدن نفســه. وقد طُرِّز ايضا بالذهب والياقوت الأحمر. كلّف لباساهما الإثنين وحدهما 217000 دولار، مبلغا وضيعا نسبيّا إذا ما قورن بالملايين الخمسة، ثمن تاج وصولجان بوكاســا وإكليل كاترين ومجوهراتها. قطعة تاج بوكاســا الرئيسية نموذج مُصمَت امبراطوري كلاســيكي، كما في تــاج نابليون، وزنها 138 قيــراط، والتي زيّنت تاج كاترين، وكان بشــكل إكليل الغار عند القياصرة، كانــت ايضا من الذهــب المُصمت، وزنها 38 قيــراط. طلب جان بيدل ان تكون الماســات المخصصة لكاتريــن ذات نقاوة لا مثيل لها. وقد قام بصهر وترصيع المجموع متجر المجوهرات الباريسي المعتمد لدى بوكاسا، أرتوس برتران (Arthus-Bertrand). كانت أقراط الزوجة الإمبراطورية بشكل خاتم ذي ألماســة واحدة، ومناجد تتسلســل إلى العنق وتنتهي بألماســة أكبر منحوتة بشــكل قطرة[1]. حملت وصيفاتها ذيل فستانها، وهن يرتدين

---

(1) لقد وصف جان بارتيليمي بوكاسا (Jean-Barthélemy Bokassa) مطولا الألبسة والمجوهرات التي لبسها الزوجان يوم التتويج، مآثر بوكاسا (*Saga Bokassa*)، باريس، الناشر جاك ماري لافون (Jacques-Marie Laffont éditeur)، 2009.

فســاتين أرجوانية اللون مستوحاة من بدلات فيلم ذهب *مع الريح* (*Autant en emporte le vent*) الكلاسيكي الأمريكي.

قبل ان يتربّع على عرش بشــكل نسر ضخم بسط جناحيه على مسافة حوالي 10 أمتار، كان على بوكاسا ان يتناول التاج ويضعه بنفسه على رأسه، كما فعل نابليون. كان أوليفييه بريس (Olivier Brice)، من شــركة ميشال تلين (Michel Tellin)، الــذي تمّ توظيفه ليقوم بدور إيزاباي، قد نظّم كل شــيء. غير انه حدث خرق غير متوقع في سير العمليات، إذ نسي بوكاسا ان يخلــع إكليل الغار الذهبــي الذي كان يحمله. فنزعــه بعجلة وبحركة هوجاء، وناول الغار المزعج لأحد الحُجّاب، قبل ان يضع على رأسه عمرته الجديدة للمرة الثانية في اليوم.

كما فعلت جوزيفين أمام نابليون، تقدّمت كاترين وركعت أمام الإمبراطور وتسلّمت منه إكليلها. فلم يبق لدافيد (David) ثانٍ إلا ان يرسم لوحة *تتويج نابليون* (*Sacre de Napoléon*) أخرى.

مــن هذه الناحية، نجحت محاكاة حفــل 2 كانون الأول 1804 الذي جــرى في كنيســة نوتــردام (Notre-Dame). فقد قُلّــدت بدقة الحركات الإمبراطورية التي وردت في كثير من الذكريات والصور. إلا أنه أضيفت إلى الرُتبة النابليونية بعض العناصر: اعترف بوكاســا في إحدى مقابلاته أنه تأثر كثيرا في خياره بحفلين ســابقين. تتويج شــاه إيران ويوبيل الملكة أليزابت (Elisabeth) في انكلترا. وبالتالي، كانت عربات الخيل نســخة عن عربات بوكينغهــام (Buckingham)، وما زال الخبراء يتشــاجرون اليوم لمعرفة اي عنصر اســتورد من بلاد الفرس. كان بوكاسا مصرًا جدا على الإنضباط في الموكــب، فنظّم لحرســه الخاص، قبل عدة أيام مــن الحفل، عرضا لفيلم

كل مـــن الحَدَثين، معتمدا على كل منهم ليقوم بدوره على أحســـن وجه. وقد نصحهم ملحّا بأن يشـــاهدوا ايضا فيلم *نابليون* للمُخرج ساشـــا غيتري (Sacha Guitry)، لإتمام تدرّبهم المتسارع للتحوّل إلى بونابرتيين مكتملين. كان الجميـــع على معرفة بالدور الذي عليهم تأديتـــه، ما عدا كاترين التي كانت قد أقصيت حتى ذلك الحين.

لماذا هذا التقليد؟ لا شـــك انه كان يعكس ذوق بوكاســـا العســـكري السابق. لعلّ ذاك النقيب الطموح أراد، ان يعيد، حول بلده الصغير الذي لا يزيد عدد سكانه على المليونين، توحيد إفريقيا الإستوائية الفرنسية القديمة، التي قسِّـــمت بين تشـــاد والغابون (Gabon) والكونغـــو برازافيل (Congo-Brazzaville) وإفريقيا الوسطى.

لم تكن عملية نقل الزوجين ومدعوّيهما أمرا ســـهلا. فقد توجّب استيراد 60 سيارة مرسيدس أرسلت بحرا إلى الكاميرون (Cameroun)، ثم على متن طائـــرة حتى ضفاف نهر أوبانغي (Oubangui). أما الأحصنة لجرّ العربات بشكلها الويندســـوري (windsorien) فقد أتت من مَفرَسة بان (Haras du Pin) في النورماندي (Normandie). لكـــن احتمالها للحرّ كان محدودا. يمكننـــا تصوّر ما عانت منه هذه الأحصنة المخصصة للركوب، التي كانت معتـــادة على جولات الترويض اكثر منها على الجرّ. وقد انهار أحدها أثناء الحفل. أخرج غدر الكَديش بوكاســـا عن طوره. فراح يشـــاجر كاترين، التي جلســـت إلى جانبه في العربة. فهمســـت له: «بابا، إنه يوم عظيم، لا تدع أعصابك تتوتّر اليوم». لم تتفوّه طيلة ذاك النهار بغير هذه الكلمات. كانت تعلم ان التملّق وحده كفيل بأن يهدئ من روع الإمبراطور الجديد.

بعـــد ذلك، أصبح بوســـع المدعويين الـــ 3500 المتوافدين من 43 بلد

التلــذذ بنهم بالـ 240 طنّ من الطعام والشــراب، مــن إعداد أفضل مطاعم باريس. ورفعت الكؤوس نخب الإمبراطور، وقد امتلأت بخمر شـــاتولافيت (Château-Laffitte)، او موتــون روتشــيلد (Mouton-Rothschild) ومن أفخم محاصيلهما. من أجل فتح شــهيتها، كان بوســع حشــم بانغي ان يغرفوا من الأطباق الفضية التي احتوت على حوالي قنطار من بيض ســمك الحَفش (caviar)، والتي كان يقدّمها لهم إثنان من رؤســاء الطبّاخين. أما الحلوى، فكانت قالبا بســبع طبقات لم يعرف نوعــه، وقد أفلتت فوقه 6 حمامات بيضاء، رمز سلام لذاك النظام المستغرب.

حول القصر، تجمع 30000 من ســكان بانغي يرتدون اللباس التقليدي المصبوغ بألوان الحزب الواحد. وتعالت أصوات أبواق جوقة غفيرة تنشــر في الأجواء ألحان ابتهاج، مفتتحة الإحتفال في العاصمة. وكان قد أرسلها جوّا الرئيس جيسكار داستان (Giscard d'Estaing)، على متن طائرة تابعة لتجمّع الإتّصال الجويّ الوزاري (GLAM). فراحت تعزف الألحان المحبّبة لبوكاسا، *أنور لن تحظى بوردتي* (*Lucien tu n'auras pas ma rose*)، *وإليك هذا المسوّد* (*Tiens voilà du boudin*).

حمل وزير التعاون الفرنســي، روبار غاليه (Robert Galley)، المسؤول عن السياســة الإفريقية، هدية فرنسا. وقد بذل فاليري جيسكار داستان كل جهوده من أجل إرضاء صديقه. فتســلّم بوكاســا من أيدي المبعوث سيفا أصليّا يعود تاريخه إلى عهد نابليون. أما بقية الســيوف التي شــهرها جنود إفريقيا الوسطى خلال الإستعراض، فقد أعارتها، بعد مفاوضات شاقة، كلية ســان سير (Saint-Cyr) الحربية. وكانت فرنسا قد أرسلت أيضا رُماة وفرقة مرســيليا لمكافحــة العصابات، بقيادة جورج نغويان فــان لوك (Georges

(N'Guyen Van Loc)، الملقّب «بالصينيّ».

حقق جان بيدل حلمه بهذا التتويج. أما بالنسبة لكاترين، فكان كابوسا لا نهاية له. صرّح قبل أيام للصحافيين وقد استشـــعر أن أبّهة الإحتفال في غير محلّها: «لا يصنـــع المرء تاريخا عظيما دون تضحيات». ومع ذلك، فـــإن كلفة الحفـــل، 20 مليون دولار، تدفع إلى التســـاؤل، في بلد تتعدّى مساحته مساحة فرنسا، ليس فيه إلا 180 كيلومتر من الطرق المعبّدة، ويبلغ ناتجـــه المحلي الإجمالي 250 مليون دولار. طبعا، ســـاهمت فرنســـا في النفقات. وفي الواقع، لم يبرع بوكاسا يوما في الإستثمار المنتج.

أسيرة برنغو (Berengo)

مـــن هي تلك الإمبراطورة ذات البصر الشـــاخص؟ كانت عيناها نصف مغمضتين، وبدت كأنها تحمل إكليلها بجهد، فلا تبتسم، ولا تعبّر عن اي شعور في يوم التتويج ذاك.

ولدت كاترين دانغياد سنة 1949 في تشاد، وهي شابة من سكان بانغي، تذهـــب كل صباح إلى ثانوية بيوس الثاني عشـــر (Pie XII)، مشـــيا على الأقدام. في صباح أحد الأيام، ســـلك بوكاســـا الطريق نفســـها. تأثر فورا بجمالها، وبقدّ الشـــابة في ربيعها الخامس عشر، الرشيق النحيف، فقرّر ان تكون حبيبة قلبه. أسرّ بالقول: «كانت منذ ذاك الوقت جميلة جدا، طويلة وسُمرة بشرتها قاتمة[1]». وفي الأيام التالية، قصد التواجد على طريقها. قد

---

(1) في روجيه دلباي (Roger Delpey)، المناورة الإحتيالية (*La Manipulation*)، باريس، الناشر جاك غرانشيه (Jacques Grancher éditeur)، 1981.

يبـــدو كلامه غريبا عند رجل عرف عددا كبيرا من النســـاء من كل الآفاق، وتزوّج لا أقلّ من ستة مرات قبل ذلك.

كان ذوق جان بيدل فيما يخص النساء متنوعا. بعد الحرب، تزوج من البلجيكية أنات فان هلســـت (Annette Van Helst)، ثم من خلاســـيّة من بانغي، مرغريت غرين بويانغا (Marguerite Green Boyangua). خلال فترة خدمته الطويلة في شـــبه الجزيرة الهنديـــة الصينية (Indochine) أثناء حرب الإســـتقلال، من 1948 إلى 1954، حظي بامرأتيـــن: مارتين نغويان تي هو (Martine N'Guyen Thi Hue) وجاكليـــن نغويان تيـــن تان (Jacqueline N'Guyen Thin Than). ثم أستريد فان أرب (Astrid Van Erpe)، وكانت فرنسية، وهيلين راشـــال لافي (Hélène Rachel Lévy)، يهودية ولدت في القاهرة، والتي بدا انه استقرّ معها بعض الوقت. لكنها لم تنجب منه، فتركها بوكاسا، على مضض على حدّ قوله.

لا شك أنه ذاق مع كاترين طعم الإعجاب بامرأة. اعترف لأحد المقربين منـــه، أندريه لومانيان (André Le Meignen): «أنا متيّم بها. كنت ولم أزل متيّمـــا بهـــا[1]». غير ان خطبه مودّتها كان فريدا مـــن نوعه: بعد مرور عدة أيام على لقائهما، أرســـل جنـــودا اختطفوها واحتجزوها. ثم زار جان بيدل والديها يطلب يدها، فسلّما بحماسه الكبير: «عندما تعرّفت على الوالدين، اكتشـــفت ان أباها كان أحد أبناء عم والد جدّي! كان يرفض فكرة الزواج،

(1) مقابلة أجرتها الكاتبة مع أندريه لومانيان (André Le Meignen)، المستورد الفرنسي في إفريقيا الوسطى ومعاون بوكاسا. هو صديق مقرّب من روجيه دلباي، وقد كان شاهدا بإمتياز على حياة بوكاسا وكاترين الخاصة في فرنسا، كما على فترة نفي بوكاسا التي تلت.

لكن الأم، وأصلها تشادي، لم تكن تعارض».

لم يكن بوكاسا بعد دكتاتورا – لن يصبح دكتاتورا إلا سنة 1966، بعدما قام بانقلاب عسكري أطاح به ابن عمه دافيد داكو (David Dacko) – لكنه كان قد أصبح قائد أركان الجيش. لم يكن ليفكّر زوجان بسيطان من سكان بانغي في رفض طلبٍ لهذا الرجل القوي النافذ، ولا في حرمان نفسيهما من ثرواته.

بعد مرور عدة أشهر، في حزيران 1965، أصبحت كاترين زوجته وأنجبت له أولى أولاده، بنتا سمِّيت ران (Reine). ثم تبعها ستة آخرون، منهم ولي العهد جان بيدل بوكاسا الأصغر.

هذا القران الذي تمّ ضد إرادة العروس وتحت الإكراه البدنيّ، لم يكن يبشّر بالنسبة لكاترين بحياة يسيرة خالية من الهمّ. لم تكن حرّة فيا التنقل، إذ كان عليها ان تطلب السماح من زوجها كلما أرادت الخروج من منزلها. تروي لنا إحدى صديقاتها انه لم يكن بوسع الإمبراطورة القيام بأي عمل دون إذن: «قالت لي إنها ترغب في حضور قدّاسي في دامارا (Damara) يوما من الأيام، ولكن لن يُسمح لها بذلك».

كانت الزيارات أيضا ممنوعة. في تموز 1973، قاسى السائق، الذي كان بوكاسا قد وظّفه حديثا ليقلّ زوجته، غضب هذا الزوج المصاب بغيرة حادّة. كانت مهمّة الموظف الأساسية التجسس على كاترين، لكن يبدو أنه لم يفهم جيدا ما كُلِّف به. فقد نسي ان يبلّغ الرئيس زيارة إحدى صديقات زوجته لها. صديقة لم يكن بوكاسا يحبّها. فكان جزاؤه فظيعا: انهال بقوّة على الشاب الطائش ضربا بعصاه فأودى بحياته.

كان بوكاسا يكرّس جهدا متواصلا لمحاولة كبح غيرة كان يثيرها اي

شيء. يشهد ابنه جورج عن هذا الإمتعاض غير المنطقيّ: «كان أبي يسيء الظن بكل الناس. كان يشــك في أن كل الرجال، بما فيهم أولاده، يريدون سـلبه زوجاته. في أحد الأيام، في دارة كولونغو (Kolongo)، اكتشفت أنه أمر بالتنصت على مكالماتي الهاتفية[1]».

بالنســبة لكاترين، كانت العيشة في البلاط محنة تتجدّد يوميا. وحدها هفوات جــان بيدل كانت تتيح لها بعض الراحــة. الجدير بالذكر انه منذ لقائهما، اقترن بوكاســا على الأقل بثماني نســاء أخريات، أنجبن له عددا كبيرا من الأطفال.

غير انه يبدو ان شــغفه بكاترين كان قويّا بحيث أنه اختارها هي لتكون الإمبراطورة الرســمية، وثابتا بحيث انه جاهد من أجل إبطال قران ســابق، أقيم في كنف الكنيســة الكاثوليكية، حتى يتمكن من فرض كاترين كزوجته الشــرعية. إذ كان قد تزوج فعلا من أســتريد فــان أرب دينيّا. يتذكّر الأب إيف غوتييه (Yves Gautier)، الذي كلّلهما، ندامة الإمبراطور المستقبلي: «عندما أتى مع أســتريد للإستعداد للزواج، لمّحت له إلى المصاعب التي ســيواجهانها. كان عمره 45 او 50 ســنة، وعمرها هي 17 ســنة! امتعض كثيرا مــن ملاحظاتي! لكنه عندما طلّق، وبما أنه لم يكن من الممكن ان يتزوج دينيّا مــرة ثانية، قال: «أوه، ليتني أصغيت إلى الأب غوتييه!»» غير ان بوكاســا أخفى على كاترين السبب الحقيقي لطلاقه. يتذكر أيضا الأب

---

(1) ستيفن سميث (Stephen Smith) وجيرالدين فاس (Géraldine Faes)، بوكاسا الأول، إمبراطور فرنسي (*Bokassa Ier, un empereur français*)، باريس، كالمان لافي (Calmann-Lévy)، 2000.

غوتييه: «ليس هو من طرد أستريد، أستريد هي التي رحلت. ولم يغفر لها أبدا. بالنسبة له، لا يجوز لامرأة ان تقوم بمثل هذا العمل[1]». غير أنه، كما يذكر الأب جوزيف ويرث (Joseph Xirth)، الذي دافع عن القضية لدى الفاتيكان، لم يفلح، على عكس نابليون، في حمل كنيسة فرنسا على الإعتراف بشرعية طلاقه، بالرغم من إرسال أسقف إلى بانغي: «بما أنه رفض إبراز سجلّه العسكري - الذي كان يحتوي على معلومات شخصية -، فقد توقف التحقيق، ولم تتمّ مراسيم الزواج[2]».

إذن، من الناحية الدينية، بقيت كاترين زوجة غير شرعية. لعل اعتناق بوكاسا الإسلام قبل عدة سنوات، إرضاء لليبيّ القذافي، هو الذي أساء إلى قضيته لدى البابا.

مع الأسف، لم تكن هذه الخيبة الوحيدة التي نتجت عن اختياره كاترين. عارضت هذه الأخيرة فكرة التتويج ورفضت حتى آخر لحظة ان تكون في الواجهة. إلى درجة ان بوكاسا فكّر في استبدالها. فحار في من يختار. فكّر جدّيّا في ان تتربّع على العرش رومانية، غبريالا دريمبي (Gabriella Drimbi)، التي كان قد تزوجها قبل سنة ونصف، في نيسان 1975.

---

(1) كلام جمعه أمانوال بلانشار (Emmanuel Blanchard).

(2) جاروم ليفي (Jérôme Levie)، حوار مع الأب جوزيف ويرث (Joseph Wirth)، يوميات مركز الإرشاد (aumônerie) في دار المعلمين العليا (؟) ENS، عدد العنصرة 2003 (www.eleres.ens.fr/aumonerie/numero_enligne/pentecote/seneve9.html. 03) وقد استشهد به أدجو سابي (Adjo Saabie)، زوجات وخليلات رؤساء دول إفريقية (*Epouses et concubines de chefs d'Etats africains*)، باريس، لارماتان (L'Harmattan)، 2008.

ففي 1973، بمناسبة زيارته لصديقه نيكولاي تشاوتشيسكو، لفت نظره جمال تلك الراقصة النحيفة، ذات الشعر الطويل الأشقر والعينين الزرقاوين، خلال عرض مسـرحي أقيم في بوخارسـت (Bucarest). فباشر على الفور بمداولات مـع الكوندوكاتور (القائـد *Conducător*) لتملّك هذه الطريدة الجديدة. لا شـك فـي ان الألماس الذي أغدقه على تشاوتشيسـكو قد ساعد في التفاوض. وذهب بوكاسـا بغبريالا إلى إفريقيا الوسطى بعد عدّة أشـهر. حاول غمرها بالنعم بأن أتاح لها عيشة ترف وبذخ، فمنحها بداية دارة كولونغو.

طالبته أولا غبريالا بزواج مهيب يضعها على قدم المسـاواة مع كاترين. فارتجل بوكاسـا استقبالا سرّيا، مع وليمة وفرقة موسيقية عزفت ليلا، تحت المطـر: كان يريد تجنّب إغضاب كاترين. سـرعان ما أفقدت هذه الحياة الجديدة الراقصة السابقة صوابها. تتذكّر ران، إبنة كاترين وجان بيدل البكر: «كانـت تطالـب أحيانا بإعادة فتح متجر تموينيّ فـي عزّ الليل من أجل شراء علبة بسـكويت». وتصف ايضا التوتر الذي كان سائدا بين مختلف الزوجات: «من وقت إلى آخر، كان يقودنا إلى منزلها خفية عن أمي، التي لـم تكن تتحمّل ان نـزور زوجات أخريات. كانت غبريـالا تفتح خزانتها المليئة بالمجوهرات وتسالإذا كانت كاترين تملك أمثالها[1]».

كان هاجس غبريالا الوحيـد التنافس مع كاترين العظيمة. لم تكن الحياة الزوجية مع الراقصة الحسناء مريحة، وسرعان ما حمُض طعم الإغراب. لم تكن تتورّع، خلال شجاراتهما، في ان ترميه بآنية المائدة الثمينة التي أهداها إياها.

---

(1) في ستيفن سميث (Stephen Smith)، سبق ذكره.

كمـــا كانت الحال مع كاترين، كانت غبريالا عرضة لانتقادات بوكاســا القارصة بســبب غيرته. وقد أحاط بالمُخبرين تلك المرأة التي يبدو أنه كَنّ لها مشــاعر صادقة، فبلغه في خريف 1977 ان حبيبته غبريالا ربما اتخذت لها ثلاثة عشّاق. بعد التحقق من هويتهم، ألقي القبض عليهم في 28 أيلول وأعدموا. وكانت الوســيلة التي اختيرت مدهشة، إذ أشبعوا ضربا بالسلاسل حتــى الموت. في 1987، خلال محاكمتــه الثانية من قبل النظام الجديد، بســبب أعماله الشرسة، شــهد حرّاس بوكاسا الســابقين على أن رئيسهم استشــاط غضبا يوم اكتشــف صورا خلاعيّة لزوجتــه. بعد ذلك، حجزت غبريالا في قصرها الفخم، أسيرة جان بيدل.

بين كاترين وغبريالا، كانت الحرب قائمة. لأجل تفادي المشاحنات الزوجية بدافع الغيرة، تحسّــب بوكاســا لأقل احتمال. قسّم قصره إلى عدة مساكن: الرئيســي، وقد أقام فيه، كان مجاورا لمسكن كاترين، إلا انه كان على مسافة كافية منه لكي يتمكّن من التوجّه إلى المسكن الثالث، حيث كانت تقيم بقية زوجاته وعشيقاته بالمناسبة. كان إذن باستطاعته ان يلقى هؤلاء الأخريات دون إثارة ظنون كاترين. أما انتاب الفضول أبدا تلك التي كانت الزوجات الأخريات يحسدنها ويعملن على مضاهاتها، فتذهب للحكم على منافساتها؟

يفضي لنا بهول أومر مالنغيبو (Omer Malenguebou)، ســائق كاترين الخاصّ الســابق، قائلا: «لم يكن أي ســائق يقبل ان يقودها إلى مساكن الزوجات الأخريات! كانت الإستقالة أفضل! أما جُننتم[1]؟»

---

(1) حوار بين المؤلفة وأومر مالنغيبو (Omer Malenguebou)، إبن عم بوكاسا وسائق كاترين الخاص في فرنسا.

قبل اي شـــيء، كان بوكاســا قد أعــدّ غرفة نومه طبقــا لرغباته الأكثر خصوصيّـــة. أتيح لدانيال غولتـــي (Daniel Gollety)، الذي عُهد إليه أمر تجهيز ستوديو لتسجيل الأسطوانات في برنغو، أن يزور غرفة نوم الإمبراطور: «سرير مستدير يطوف على الماء ومرايا في السقف... وأمامه آلة تسجيل. طلب مني ان أخرج الشـــريط الذي كان قد علق داخل الجهاز. كان شريطا لفيلـــم جان جاك أنو (Jean-Jacques Annaud)، *النصر على وقع النشـــيد* (*La Victoire en chantant*)».

كان الزوجان يتشـــاجران مرارا. عزا بوكاســـا ذلك لفارق السنّ، فحلّله بدراية وفطنة: «كاترين كرة من المنيهوت (manioc) والموز، وبوكاسا جبن كاممبار (camembert) ونبيذ بوجوليه (beaujolais)». أما الأســـباب فهي غير ذلك: كان بوكاســـا يحتاج إلى السيطرة على كاترين باستمرار. بما أنه كان يمضي نهاراته في قصر النهضة الرئاســـي، في بانغي، كان على كاترين ان تفعـــل كذلك. اشـــترى لها دارة ناصر، بيتا رائعـــا قريبا جدا من القصر. برنغو او دار ناصر، إســـمين لحبس واحد. كان بوكاســـا يمنعها منعا قاطعا من الخروج، أحيانا طيلة أسابيع.

تعلّمت كاترين من تلك الأيام الطويلة التي كانت تُحتجز فيها ان تراقب الجـــوار من الكُوّة. في إحدى الليالي، فيما كانت تتأمّل في ســـاحة قصر بانغـــي، رأت زوجها قادما ومعه عدة كلاب حراســـة ضخمة (molosses). رجل اقترف خطأ لا تدري ما هو أوسِـــع ضربا بعنف. لم تتمالك نفســـها عـــن التعليق علـــى الحدث: «لا بـــد ان تكون النهاية وخيمـــة، وأن ننال نحن يوما جزاءنا». أدركت كاترين، في أسرها، طبيعة نظام زوجها المدمِّر. كانت تراقب بوكاســـا عن كثب، وتراه يطلق العنان لتعطّشه الشرس للأمن

كما للسيطرة. تشهد ابنتها ران على هذا الإنعزال القسريّ، وتضيف ان كاترين تعاني اليوم من رُهاب الحبس (claustrophobie)، «إلى درجة انها لا تستطيع ان تذهب لحضور فيلم في السينما».

هذه المرأة التي كانت ضحية غيرة بوكاسا الأولى، عرفت احيانا كيف تقاوم بابا المقتدِر. أتاح لها وضعها كزوجة أولى وطبعها الساجي والعنيد أيضا أن تصمد أمامه، وحتى ان تهدّئه، كما تشهد على ذلك ران: «أحيانا، كانت أمي تذهب لزيارة والديها. لكن، ما أن كانت تصل، حتى تضطرّ إلى العودة إلى دارة ناصر، حيث كان ينتظرها بوكاسا وهو يزعق. في مثل هذه الأحوال، كانت تُدخلنا إلى جناحها، وتقفل الأبواب بالمفتاح، وتتركه يوعوع في السلّم».

بعد ان كبر أولادها وأرسلوا إلى مدارس داخلية في سويسرا، استطاعت أخيرا كاترين ان تجيز لنفسها بعض الأمور. كان داخل قصر برنغو الإمبراطوري مشغل خياطة صغير. قرّرت ان تشرف عليه لأنها كانت تحب الملابس بشكل خاص. فأصبح ميدانها الخاص، المكان الذي كان يمكنها ان تعمل فيه على صنع الفساتين، بعيدا عن رقابة جان بيدل الخانقة. عندما أصبح الإنتاج مهمّا، فتحت متجرا للملابس الجاهزة في بانغي، فأوهمت سكان إفريقيا الوسطى بأنها امرأة مستقلة ومثال المرأة المتحرّرة.

إيروس (إله الحب Eros) الأدغال

لم تخفّ شهوة بوكاسا مع تبوّئه السلطة، على العكس تماما. أصبح بوسع النقيب السابق في الجيش الفرنسي، الذي اعتاد الفتوحات في البلدان البعيدة، ان يطلق العنان لمزاجه الشبقيّ. وقع اختياره على ممثلة

فرنسية كانت، حسب اعتقاده، ستُفتن به حتما: بريجيت باردو (Brigitte Bardot). يروي لنا جاك دوشومان (Jacques Duchemin)، مستشار بوكاسا السابق، والعميل في المخابرات الفرنسية (SDECE) خاصة: «أرسل برقية إلى «الآنسة بريجيت باردو، الفنانة الغنائية اللامعة، جادة لان (Lannes) عن طريق سفارة الإتحاد السوفياتي»، لأنه لم يكن يعرف عنوانها بالتحديد. كتب فيها: «عزيزتي الآنسة باردو، أدعوك على نفقتي الخاصة إلى بلاطي في برنغو، لمواصلة نضالك من أجل هذه المخلوقات الصغيرة العزيزة. سيكون تحت تصرفك في البلاط مقعد، فتستطيعين التحدّث إلى الإمبراطورة، وإني أنوي إهداءك ألماسة رائعة الجمال». كان بوكاسا قد استدعى السفير السوفياتي في بانغي ليطلب منه خدمة دبلوماسية للغاية: «تفضّل بإرسال تِلِكس (télex) إلى سفارتكم في باريس. ليس لهم إلا عبور الشارع ليعرفوا إذا قررت ب.ب. المجيء». لم تبالِ الممثلة بهذا الدعاء، ورفضت. عرض جاك دوشومان حلا بديلا استراتيجيا. « فانكفأت إلى اقتراح ماري لافوريه (Marie Laforêt)، لكنني أخفقت لأنه لم يكن يعرف حتى إسمها». يجدر القول بأنه كان بوكاسا قد تملّك حينذاك مسكنين إضافيين من أجل إيواء عشيقاته. كان بوسع المحظيّات الذهاب أولا إلى جبل أواش (Djebel Ouach). وكان ميل الرئيس إلى النمط العسكري قد قاده إلى ذاك المنزل الأشبه بالقلعة الصغيرة، والذي جهزه بجسر متحرّك. كان يقع في منطقة الخليج حيث كان يملك، على مقربة منه، بيتا أشبه بالشاليهات (chalets) السويسرية، ما كان يثير دهشة زوّار أدغال إفريقيا الوسطى. ثم كان هناك كولونغو، أفخم الدور الرئاسية. كان فيها بحيرة يسبح فيها تمساحان، وفي وسطها صخرة أقيم عليها قفص فيه أسد.

كان البيتان يأويان زوجات جان بيدل الجديدات. عندما كان عسكريا، كان يهجر أحيانا زوجته السابقة كلّما اقترن بأخرى جديدة. أما فيما بعد، فكانت كل منهنّ تتمتع بوضع خاصّ ونمط حياة مرفهة.

بعد كاترين، تزوج بوكاسا مثلا من ماري جوال أبوليا (Marie-Joëlle Eboulia)، التي التقاها في 16 شباط 1970 في الغابون. كان جان بيدل هناك بمناسبة افتتاح القمة الإفريقية التي عقدها الرئيس عمر بونغو (Omar Bongo). تقدّمت الفتاة، التي كانت في الصف الرابع في ثانوية ليون مبا (Léon-Mba)، لتهديه باقة من الزهور. اضطرب لمرأى الباقة كما لوجه التي قدّمتها له الناعم، فاستدعى في ذات المساء ماري جوال إلى جناحه. ما أن عبرت العتبة حتى قبض عليها حراسه المرافقون واختطفوها. بدت تلميذة الثانوية معجبة بهذه الطريقة «الصريحة والرجوليّة». سمح لها بالعودة إلى منزلها بعد ان تسلّمت ظرفا احتوى على مبلغ كبير من المال. كانت مهمتها إقناع جدّتها، التي كانت تربّيها، بأن تدعها تتزوج الرئيس، وبدت ترغب كثيرا في العودة إلى حياة الترف التي ذاقتها بضعة أيام إلى جانب بوكاسا. لكن وليّة أمرها رفضت رفضا قاطعا. عندما أتى سائقو بوكاسا على متن إحدى سياراته الرائعة للذهاب بها، منعتها من الرحيل. فأتى بوكاسا بنفسه ليتفاوض معها. ونال بغيته كعادته، بأن رشى أسرة أبوليا بمزيد من المال ووعد بالإقتران بماري جو حسب القانون العُرفيّ. كانت هذه معاملة تمييز حقيقية. لأن قصص بوكاسا الغرامية كانت أحيانا سريعة بصراحة. لنستمع إلى والد أليان مايانغا (Eliane Mayanga) يروي لنا كيف بوكاسا، الذي كان رفيقه في السلاح في شبه الجزيرة الهندية الصينية، «أغوى» ابنته: «في أحد الأيام، ذهبتُ إلى ثانوية كارون (Caron) لأعود بابنتي إلى البيت. لم

أجدهـــا هناك: قيل لي ان رجال الأمن أتوا وذهبوا بها. بحثت عنها في كل مـــكان، دون جدوى، ثم قيل لي إنها رحلت إلـــى برنغو. في اليوم التالي، استدعاني بوكاسا إلى قصره في بانغي. روى لي جملة من القصص واعتذر برخاوة. أما أنا، فكنت غاضبا هائجا مســـتنكرا، وقلته له. لكن أليان كانت حاملا[1]».

بعد تســـعة أشـــهر، ولدت طفلة ثمرة ذلك الوصال القسري. دون اي حرج، حضر بوكاســـا إلى العيادة وقال للجد الجديد: «إبتهج، فقد وهبتك حفيـــدة». هربت أليـــان إلى الكونغو برازافيل بعد وقـــت قليل من الولادة، وتركت الطفلة لبوكاسا.

كم كانت طويلة المســـافة التـــي قطعتها كاترين، من ثانوية بيوس الثاني عشر إلى العرش.

لنحرّك آلة التصوير إلى الأمام. في باريس، جلس رجل أمام جهاز التلفزة يحضـــر حفل التتويج. إنه فاليري جيســـكار داســـتان. بدا عليه الإعجاب بالإمبراطورة الجديدة. ما يكفي ليبوح في كتاب ذكرياته:

«كانـــت صور بانغي جميلة، حتى أنها اتصفت بنوع من الوقار. بالرغم من طابع البدلات والعربة الكرنفاليّ، كان ينفذ منها شـــيء من الغريزة الرّتبيّة الإفريقية. الإمبراطورة الجديدة، على الأخص، التلميذة السابقة في مدارس الإرســـاليات في الأدغال، برهنت، في دور مماثل لدور جوزيفين، عن كثير من الإحتشـــام وهيبة الطلعة. وقد نجحـــت الأداة الجديدة، التلفزة والنقل

---

(1) في ستيفن سميث (Stephen Smith)، سبق ذكره.

المباشر، البديهي والمدهش أحيانا، نجحت حتى في إظهار انفعال عابر، على ما رأيت، في اللحظة التي تسلّمت فيها إكليلها[1]».

في قصر آخر، قصر الإليزيه (Elysées)، بدأ مصير كاترين يتحوّل. لن يبقى الإنفعال المَهبطيّ الذي انتاب الرئيس الفرنسي دون عاقبة. كانت الدودة في الثمرة.

ملكة هاردريكور (Hardricourt)

كانت كاترين تحب قضاء أعياد الميلاد في فرنسا. كانت تجد في القصر الذي اشتراه وجهّزه بوكاسا في محافظة فال دواز (Val-d'Oise) ما لم يكن يُتاح لها لا في برنغو ولا في بانغي: حرية الحركة. وحرية استقبال من تشاء ايضا. حتى انها كانت تمارس هناك نوعا من التأثير على زوجها. عدا عن مشغلها للخياطة، كان قصر هاردريكور ميدان كاترين الخاص الآخر.

زُيّن القصر الأنيق الذي يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر والذي اقتناه بوكاسا في أواخر سنوات 1960 على الطراز الإمبراطوري الفرنسي ليأوي بونابرت إفريقيا الوسطى. النسور والنحل في كل مكان، تزيّن المداخن والمرايا والأسرّة. كان طابع بوكاسا يغلب فيه، لكن كاترين كانت سيّدة البيت الحقيقية. كانت الوحيدة التي تتمتع بوضع الزوجة خارج بلادها،

---

(1) فالاري جيسكار داستان (Valéry Giscard d'Estaing)، السلطة والحياة (*Le Pouvoir et la vie*)، باريس، شركة 12 (Cie 12)، الجزء الأول، 1988، الجزء الثالث، 2006.

والوحيدة التي تأتي بزيارات رسميّة إلى فرنسا. فكانت تمضي الوقت بالتنزّه وحفلات الإستقبال والمشتريات النزقة.

خلال أعياد آخر السنة، كانت تحتلّ المكان وتنظّم الحفلات، أتواجد بابا أم بقي في إفريقيا لمتابعة شــؤون البلاد. بعيدا عن أسيرة برنغو، كانت تتحوّل إلى امــرأة مرحة، ضاحكة، لا تبالي بمكانتها كإمبراطورة، فتنصرف عن التشريفات، وتخالط نساء معاوني زوجها الباريسيين، وتدعوهنّ بكثرة.

تذكر الســيدة مالنغيبو، زوجة ســائقها الخاص، تلك الأوقات السعيدة التــي كانــت تتمتع فيها كاترين بحرّيات بســيطة، فتطبــخ برفقة خادميها أطباقــا تقليدية، وتوزّع على الجميــع في القصر جوز الهند (coco) وفطائر الطحين المقلية. وكان الســرّ الذي يجمــع بين المرأتين في تلك الفترة هو الجعــة[1]. فقد كانت في الواقع مهمّة الســيدة مالنغيبــو تزويد الإمبراطورة بالجعة الشــقراء، التي كان بوكاســا يمنعها منها والتي كانت تحبها بشكل خاص. كانتا تتحدّثان حينذاك في شــؤون البلاد، والأولاد ودراستهم، وفي أمور كثيرة أخرى لا علاقة لها بالسياســة. تروي لنا السيدة مالنغيبو بلهجة احترام: «في نهاية السهرة، كانت تناولني دائما ظرفا فيه بعض المال وتقول لــي أن أدلّل الأولاد من قبل ماما كاترين». ويصف كل الأشــخاص الذين اســتجوبناهم وكانوا على معرفة بكاترين هذا الإحترام نفسه. كل اللاتي كنّ يشــاركن في تلك السهرات يتذكّرن مرحها وضحكها وصوتها الذي يُسمع من بعيد.

كان بإمكانها هناك ان تســتفيد من ســخاء إمبراطورية إفريقيا الوسطى

---

(1) حوار بين المؤلفة والسيدة مالنغيبو (Malenguebou)، شباط 2010.

ومن المبالغ الطائلة التي كان بإمكانها التصرّف بها للتسوّق. كانت تتجه عدة مرات في الأسبوع إلى باريس ودائرتها الثامنة، بدافع واحد، إرضاء رغبتها بالفخفخة الفرنسية.

استقبلنا سائقها الخاص، أومر، في منزله في محافظة فال دواز حيث لا يزال مقيما. لم نر على الجدران اي صورة لبوكاسا، بل علم إفريقيا الوسطى. يتذكّر أومر الساعات الطويلة التي كان يمضيها منتظرا كاترين أمام المحلاّت في جادّة شان إليزيه (Champs-Elysées) الأنيقة، وهو في سيارة رولز سيلفر شادو (Rolls Silver Shadow) التي كانت تخصَّص لتنقلاتها.

«كان باستطاعتها ان تزورها كلها! لكن المحلّ الذي كنا نقضي فيه أطول فترة من الوقت، كان محلّ فويتون (Vuitton)». كان من الصعب عليها المرور دون لفت الأنظار اعتبارا لعدد الحراس المرافقين الذين كان بوكاسا يفرضهم عليها. كانت تفضل التحفظ والبساطة، فتطلب أحيانا من بعض الأصدقاء ان يقوموا بالتبضّع لحسابها. ثم كانت تدعوهم إلى «الإحتفاظ بفارق العملة» من المبالغ الخيالية التي استودعتهم إياها.

يتذكّر جان شارل (Jean-Charles)، أحد أبنائها، تلك الجولات غير المعقولة التي كانت تصرف فيها اكثر من 100000 فرنك فرنسي في اليوم الواحد، في محلات فوبور سان هونوريه (faubourg Saint-Honoré). كانت المشتريات احيانا ثمينة. بمناسبة عيد ميلاد جان بيدل، أهدته ساعة سويسرية كان الماس يحيط ميناءها بالكامل.

عندما كان بوكاسا يلحق بكاترين إلى هاردريكور، كان يبدي تجاهها مرونة غير معهودة، ويتركها احيانا تدير الحشم. الذي اعتاد ان يفرض عليها إرادته ويملي أوامره بصوت خشن كان يتغنّج ويتظارف لينال حُظواتها. كان

جان بيدل يحس في فرنسا بارتياح اكبر، ويشعر بأنه أقل تعرّضا للحسد والخطر - كان صهره ذاته قد حاول اغتياله فرماه بقنبلة في 1976. كان يحب العودة إلى هذا الوطن الذي درّبه وهيّأه، والذي تبنّى مثله العليا. طالما افتخر الرامي الإفريقي السابق بكونه مواطنا فرنسيا. وكانت كاترين تستغل هذا التراخي وتفرض عليه حظر التجوّل ما يضطره إلى مفاوضتها بحدّة على طلعاته.

كانت الإمبراطورة تتحكّم بالمواقيت، وتراقب ايضا طعام زوجها.

يتذكّر أندريه لومانيان، الذي كان ضيف هردريكور المداوم، حوارات غريبة: «قالت له: بابا، عليك اليوم أن تتبع حِمية، فلا تشرب غير الماء. لكن بوكاسا كان قادرا على التمثيل ببراعة. من أجل الحصول على قطرة من الخمر، كان مستعدّا للقيام بكل الدُعابات. فتظاهر بالقبول، وراح يسترضي كاترين بصوت رقيق غير معهود. كما لو كان حملا[1]». في الواقع، كانت كاترين على علم بعادات زوجها الفظة الشرسة. فقد وجدته، في قصر برنغو، عشية حفل التتويج، سكرانا فاقد الوعي، وبقربه زجاجة ويسكي شيفاس (Chivas). لم تتردّد ثانية، فتناولت المشروب المفضل لدى زوجها، والتي لم يكن يفارقه ابدا، حتى خلال أهم الإجتماعات الدبلوماسية، وأفرغت الزجاجة في المجلى. وأضافت تؤنبه بصرامة: «ليس على امبراطور مستقبلي أن يسكر!»

كان هناك اكثر من سبب يجعل بوكاسا يلتمس المغفرة. فقد كان قصر هاردريكور يصلح احيانا كشقة عازب يباع ويشترى فيها الحب. وقد حضر

---

(1) محادثات مع المؤلفة.

روجيه دلباي (Roger Delpey) وأندريه لومانيان يوما مشهدا مضحكا: عند وصولهما إلى القصر، وجدا فيها قوّادة ومعها إحدى البنات. انفرد بوكاسا بالثانية بضع دقائق ثم نزل بعد نصف ساعة لينضمّ إلى ضيوفه. وإذ رأى أندريه وجهه الفرح المغتبط، سأله:

«بابا، لماذا أنت مبتهج إلى هذا الحدّ؟

أتعلم، إنها تحبني. كلهنّ يحببنني!»

بالنسبة لجان بيدل، كان الإغواء مسألة وجود. كان يعتقد حقا انه يحظى بحبّ أولائك النساء اللاتي كان يشتريهنّ بطريقة مباشرة او غير مباشرة، فكان ذاك الشخص القاسي يشعر ببعض الراحة والأمان بالقرب من عشيقاته اللاتي كنّ يتبدّلن باستمرار. كان وجودهن، ولو قسريّا، حاجة ملحّة لديه.

لكن أوقات اللهو لم تكن تبعده أبدا مدة طويلة عن كاترين، التي بقي يغار عليها كثيرا. إلى درجة انه كان من الصعب التقرّب منها، حتى بالنسبة للذين كان يفترض بهم القيام بخدمتها.

عندما كان الزوجان يتنقلان، كان ذلك في موكب ضخم ينطلق على طرقات إيل ده فرانس (Ile-de-France)، منطقة باريس وضواحيها. يروي لنا أومر التنظيم العسكري لهذه التنقلات. لبوكاسا سيارة مرسيدس 600، داخلها ملبّس بالجلد الأبيض، مجهزة بهاتف، وفيها براد صغير للمشروب والشمبانيا، فيما كانت كاترين تتبعه على متن سيارة جاغوار (Jaguar) أو رولز سيلفر شادو. وكان الموكب المتميّز ينتهي بحافلة تقلّ الأولاد والمربّيات.

في أحد الأيام، فيما كانوا عائدين إلى رومورانتان (Romorantin)، في

منطقة سولوني (Sologne)، حيث كان بوكاسا يملك دارا أخرى في فرنسا، طلبت كاترين فجأة ان تتوقف في مخبز لشراء حلويات للأولاد. لم يدر أومر ماذا يفعل: هل يذعن لأمر كاترين، ام يواصل السير وراء السيارة التي تترأس الموكب، والتي لا وسيلة له لإنذارها؟ إن هو توقف، خالف أوامر بوكاسا. وإن رفض ان يتوقف، فستشكو هي الأمر إلى بابا، الذي سينزل به العقاب. في نهاية الأمر، توقفوا أمام المخبز، ونزل احد الرجال ليشتري الحلوى. انتظر أومر خارج السيارة. وسرعان ما رجع بوكاسا أدراجه يستفسر، وصرخ في وجهه: «سأريك، أنت! أريد ان أعرف ماذا حدث هنا!» ثم انهال على كاترين وأومر معا بالشتائم. بقيت هي صامتة، ثم انطلق الموكب مجددا، تاركا الحارس الذي بقي داخل المخبز. ويفضي لنا أومر بالقول: «الذي نجّاني، هو اني كنت أنتظر خارج السيارة. أتفهمين؟ كانت ماما كاترين تريد الخروج، لكني منعتها من ذلك، وأغلقت الباب. كانت تنتظر داخل السيارة، وحدها، والأبواب مقفلة. فلو وجدنا متوقفين، في السيارة معا... أفضل الا أتصوّر! كان فقد صوابه!»

وصولا إلى القصر، انهال مجددا على كاترين بانتقادات لاذعة، لكنها لم تنبس ببنت شفة. ثم انفرد بأومر، ولقنه درسا نصحه بألا ينساه أبدا: «لا تتوقف أبدا وأنت معها، أحظّر عليك ذلك». لم يكن التحدّث مع كاترين مسموحا.

فاليري، صديق لا يريد إلا مصلحتك

«بابا، يجب ان تتخلّى عن السلطة. عليك المجيء إلى هنا. عليك

المجيء إلى فرنسا. إذا ساءت الأحوال، ستجد هنا فرصة ثانية». لكن بوكاسا، متكلِّما على الهاتف، راح يداور.

«سأذهب وأقابل القذافي».

كاترين قلقة:

لا، يا بابا، يجب ألا تذهب إلى هناك.

بلى، سأذهب، أنا عازم على ذلك».

لم يعد هناك مجال للتسوية. عرف بوكاسا ان كلام كاترين ليس من صنعها. كان يعرف جيدا جدا من الذي همسه في أذنها. نهاية صيف 1979. استدعى الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار داستان «ماما كاترين» إلى دارته في دائرة باريس السادسة عشرة. كان يريد ان يطلعها على أمر مهمّ. أمر مهمّ يقتضي مجيئها من بانغي. وخاصّ بحيث يوجب تجنّب اللقاء في مكتبه في قصر الإليزيه. في 22 أيار، خلال قمة كيغالي (Kigali)، في رواندا (Rwanda)، كان الرئيس الفرنسي قد تناقش، مساءً، بضع دقائق مع الزوجين بوكاسا. ودعا كاترين إلى زيارة باريس، حيث سيسرّه هو وزوجته، كما قال، ان يستضيفاها. كانت الحجّة رسمية للغاية: وضع حدّ للإشاعات القائلة بأن هناك سوء تفاهم بين فاليري جيسكار داستان وجان بيدل بوكاسا.

أذعنت كاترين لدعوة الرئيس، واصطحبت في ذلك اليوم فيفيان (Viviane)، سكرتيرة بوكاسا الخاصة، وكذلك سائقها، أومر. وقد حضرا اللقاء.

أنذرها جيسكار بأنه «ستتحرّك الأمور سريعا في بانغي». وطلب من كاترين مكالمة زوجها هاتفيا بواسطة خط منزله الخاص، لحثه على التخلي

عن السلطة فورا. وأنه سيجد ملاذا مريحا في فرنسا، تحت حمايته. فقد ولّى زمن التعنّت. عليه أن يتخلّى عن الحكم ويسلّم بهزيمته. ظنّ بوكاسا انها خديعة. فأراد استدراج الرئيس الفرنسي إلى الكشف عن نواياه، معتقدا انه ما زالت في يده حيلة. رفض إذن بوكاسا العرض «المشرّف» بالإنسحاب الذي قدّمه له رئيس الدولة الفرنسية.

عملية «باراكودا» («Barracuda»)

ما أن أقلعت طائرته من بانغي، في 19 أيلول 1979، باتجاه ليبيا حيث كان القذافي بانتظاره، حتى أقلعت طائرة ثانية من باريس. كان على متنها عسكريون فرنسيون. كانوا يذهبون لدعم الإحتجاجات الطلابية التي اندلعت في حزيران وبدأت تتحوّل إلى مظاهرات عنيفة. بعد ان هدأت النفوس، صدر في الصحف الفرنسية بتاريخ 12 تموز تقرير لمنظمة العفو الدولية (Amnesty International)، ندّد في حينه بسوء المعاملة التي يمارسها بوكاسا. وصف الإمبراطور بأنه طاغية سفّاح قد دهس بنفسه صفا من المساجين وهو يقود سيارة جيب[1] (Jeep) . وعادت تطفو إلى السطح

---

(1) استقبل بوكاسا الأعضاء الرسميين لبعثة التشكيك في أحداث بانغي (Bangui)، بعد قيامها بالتحقيق هناك. خلال هذه المقابلة، أبلغوه بأنهم لن يعتبروه مسؤولا شخصيا عن المذابح. أراد بوكاسا الإحتفاء بالمناسبة فاستدعى الوزراء والهيئات الدبلوماسية الى فندق أوبانغي (Oubangui) حيث أقيم حفل كبير، دعي إليه حتى أفراد من البيغمي (Pygmées)، الأقزام الإفريقيين. بعد عودتهم الى باريس، جاء تقريرهم ليؤكدعكس ذلك تماما، فاتهموا بوكاسا بشكل مباشر.

شـــائعات عن وزرائه تقول بأنهم يأكلون لحم البشر: إذ أكّد طاهي بوكاسا أنه طبخ لأعضاء الحكومة أحدَ زملائهم، ولم يكشـــف لهم نوعِ الطعام إلا بعد ان فرغت صحونهم. بات الرأي العام الفرنســـي والغربي مهيّأً لســـقوط هذا الدكتاتور الإستوائي الذي كان تتويجه مسخرة. إذن كانت مهمّة ركّاب الطائرة العسكرية الفرنسية دعم المتمرّدين، وتنصيب إبن عم بوكاسا، رئيس الدولة الأسبق دافيد داكو على الحكم.

بدأت عملية «باراكودا» لتوّها. لم يبق أمام بوكاســـا إلا بضع ســـاعات ينعم فيها بمكانته كإمبراطور لإفريقيا الوســـطى. فيما كان الجنود الفرنسيون يتوجّهون إلى قصر برنغو، اســـتغلّ بوكاســـا الفرصة التي أتاحها له القذافي للإفصاح عن رأيه: «منذ أن غيّرنا اتّجاه سياســـتنا الدولية فجعلناها إفريقية قومية، نظّمت وشنّت القوى الإمبريالية والإستعمارية الجديدة، وعلى رأسها فرنســـا والولايات المتحدة الأمريكية، عبر وسائل الإعلام لديها، حملة ذمّ عنيفة سافلة ضد شخصنا».

أحس بأن هناك مؤامرة تُحاك ضده. لم تبشّر مكالمة كاترين الهاتفية، التي كان يعتقد أنها من تلقين جيســـكار، بالخير. أراد إطراء مضيفه، فذهب إلى القول: «لذلك قررت إمبراطورية إفريقيا الوســـطى، بحريّة تامة، ان تتبنّى أفكار الجماهيرية العربية الليبية الثوريّة، الإفريقية والقومية الأصيلة، والتي طالما أحبطت المطامع الإمبريالية العنصرية لفرنسا وللولايات المتحدة وأتباعهما». لا بد انه كان يوجّه هذا الكلام العدائي إلى «نسيبه»، فاليري جيسكار داستان.

ترى، ماذا الذي حدث لهذين الصديقين المقرَّبين اللذين كانا شـــريكين في الصيد؟ أي تنافس قاد إلى تقديم جيسكار نصيحة بشكل إنذار أخير، وإلى جواب بوكاسا اللاذع المتّهِم؟ وعلى الأخص، لماذا استدعى جيسكار

كاترين إلى بيته، هي التي لم تكن تتدخّل أبدا في السياسة؟

من يذهب إلى الصيد...

في أيار 1974، عندما انتخب فاليري جيسكار داستان رئيسا للجمهورية، رحّب بوكاسا بالخبر وصاح فرحا. فقد كان أقرب الرجال السياسيين من إفريقيا الوسطى كما يتمناه. عندما أطاح بوكاسا بدافيد داكو في كانون الثاني 1966، بعث برسالة إلى الجنرال ديغول (de Gaulle)، الذي كان يُعجب به كجندي وكرئيس دولة. حتى انه كان يستند إلى فكره السياسي، فيذهب إلى التصريح: «أنا من أنصار ديغول، وبلاد إفريقيا الوسطى بأسرها تناصر ديغول». مع الأسف، لم يكن الجنرال يبادله هذا التقدير. عند استلامه الرسالة، بدر منه تعليق مرير أمام مستشاره جاك فوكار (Jacques Foccart): «إنه لأحمق، لن نستطيع إنجاز أي شيء بالإشتراك معه[1]». في الواقع، انتظر ديغول ثلاث سنوات قبل ان يستقبل هذا النقيب الإنقلابي. ثلاثة أعوام من المذلّة بالنسبة لبوكاسا. ولم تتطوّر العلاقة أكثر مع خلفه، جورج بومبيدو (Georges Pompidou).

مع جيسكار، ذاك الصديق العارف بإفريقيا الوسطى، عاود بوكاسا الأمل في تعاون وثيق. لاحت أخيرا نظرة وعلامة تقدير من الوطن السابق، من فرنسا التي لم يزل أحد مواطنيها.

كان تاريخ أسرة الرئيس الفرنسي الجديد يتداخل مع تاريخ مستعمرة أوبانغي شاري (Oubangui-Chari) السابقة. فأبوه، أدمون (Edmond)

---

(1) جاك فوكار (Jacques Foccart)، فوكار يتكلّم: محادثات مع فيليب غايار (*Foccart parle : entretiens avec Philippe Gaillard*)، باريس، فايار (Fayard)، 1997.

جيســـكار داســـتان، كان قد تزوّج من إبنة نائب أصبح مديرا لشركة سانغا أوبانغي (Sangha Oubangui) للغابات. وبفضل ذلك، أسّـــس لاحقا شركة أو.تـــا.أ (UTA)، وحدة النقل الإفريقي، أوّل شـــركة طيران وصلت فرنســـا بمســـتعمراتها في إفريقيا. وكان إبن أخيه، فرانســـوا (François) جيسكار داستان، أي إبن عمّ فاليري، خبيرا ماليّا في منطقة إفريقيا الفرنسية، وأصبح، ســـنة 1959، مديرا للمصرف المركزي لدول إفريقيا الإســـتوائية والكاميرون (BFCE) (Cameroun)، وريث مؤسســـات إفريقيا الإستوائية الفرنسية (A.-E.F.). حتى انه عُيّن مستشارا ماليّا لأول رئيس تشاديّ.

أما فاليري، فقد زار إفريقيا الإســـتوائية مـــرّات عديدة لصيد الحيوانات البرّية التي كان يستحبّها قبل كل شيء، عندما كان وزيرا للمالية في حكومة الجنرال ديغول. كان يعرف البلاد تماما، وعلى اتصال بأشـــخاص كثيرين. كان يســـتحبّ خشونة مخيمات الصيد التي كان يصحبه إليها دليله، جان لابـــورور (Jean Laboureur): «كان كعادته بســـيطا جدا عندما يأتي إلى بلادنا. لقد شربنا من الزجاجة مباشرة، كالرفاق».

ســـتكون جمهورية إفريقيا الوسطى الحجر الأساسي في سياسة الرئيس الجديد الإفريقية الشاملة.

في ربيع 1974، حينما تســـلّم جيســـكار زمام الحكم في فرنسا، قامت ايضـــا في إفريقيا الوســـطى مظاهرات مناهضة لفرنســـا. خطف المتمرّدون التشـــاديّون عالمة الأجناس (ethnologue)، فرانسواز كلوستر (Françoise Claustre)، وأجريت المفاوضات في ظروف صعبة. شـــارك بوكاســـا فيها مقابل مبلغ كبير من المال. لكن المســـاعدة الماليـــة التي تلقاها لم تكن تكفي ليحلّ الأزمة المالية الراهنة، فقرر سلسلة من الإصلاحات الإقتصادية،

وأمّم مجموع النشـــاطات البتروكيميائية في البلاد. استولت الدولة أيضا على قطاع الطباعة، ومكتبة هاشات (Hachette) في بانغي ومكاتب وكالة الأنباء الفرنسية (AFP). وتمّ سجن الصحافيين مدة قصيرة قبل طردهم، وطُلب من العســكريين العودة إلى ربوعهم. كما طرد العديد من المستشارين الفرنسيين. وألقي القبض أيضا على دليل فاليري جيســكار داستان في الصيد، ما اضطر الرئيس الفرنســي المســتقبلي إلى مكالمة بوكاسا شخصيا على الهاتف بين دورتي الإنتخابات للتفاوض على إطلاق سراحه. وكان أول اتصال بين الرجلين مشهودا: عندما تمكّن من الإتصال برئيس إفريقيا الوسطى، كان هذا الأخير في حفلة سُكر، غير قادر على التحدّث برُشد. أجِّلت المفاوضات، ولم ينل فاليري جيسكار داستان تسريح دليله إلا بعد مرور عدة أيام على انتخابه.

أظهر بذلك بوكاســا وجــوب أن تؤخذ بعيــن الإعتبــار نزواته ونزعته الإســتقلالية الضعيفة. تبدّدت غيوم هذه المشاحنة الأولى بسرعة، وأقلعت طائرة رئاســية من بانغي، في آب 1974، متجهة إلى فرنســا. حطّت طائرة بوكاســا في مطار شــاتورو (Châteauroux)، وإذ رأى بامتعاض ان موكب الدرّاجات الناريّة الذي كان بانتظاره صغيرا جدا بالنســبة لرئيس دولة عظيم مثله، عاد فصعد فورا على متن طائرته. ولم يقبل بالعودة مجددا إلى فرنســا إلا بعد زيارة وزير خارجيته الذي حظي بصفّين من الدرّاجات النارية يقودها شــرطيون، وبإغلاق الطريق بين مطار أورلــي (Orly) وفندق أنتركونتيناتال (Intercontinental)، وكذلك بمقابلة في اليوم نفســه مع رئيس الجمهورية. عاد فأتى بوكاســا إلى فرنسا في 15 أيلول، واستقبل في قصره لاكوتانسيار (la Cottencière) الرئيسَ الجديد ووزيره لشؤون التعاون.

أعجب بوكاســا في الحال بجيسكار، واستشفّ قيام تعاون دون عَكَر

مـــع صديق بلاده هـــذا. وتلقّى منه، إضافة إلى ذلك، وعـــدا بزيارة قصيرة الأجل إلى إفريقيا الوســـطى. وتمّ ذلك في 5 آذار 1975، حيث اســـتقبلت بانغي لأول مرّة رئيس دولة فرنسيّا في زيارة رسمية لها.

كانت أولى تصريحات فاليري جيسكار داستان حماسيّة: «السلام عليك، يا أرض إفريقيا، السلام عليكم أيها الإفريقيات والإفريقيون، انتم أحبّاء قلبي، الذين أتيت لزيارتكم كلّما أتيحت لي الفرصة لذلك. أنا أعرف مدى مرحكم ولطفكم. صدّقني، سيدي الرئيس لمدى الحياة، يا نسيبي وصديقي العزيز، ان فرنسا تشعر إلى حدّ كبير بالتضامن مع إفريقيا الوسطى التي باشرت تحت قيادتك بمسيرة تطوّر إقتصادي وثقافي وإنساني بعيدة المدى».

ثم استقلّ الرئيسان ســـويا طائرة باتجاه أفاكابا (Avakaba)، للتصيّد في إحدى أوســـع محميّـــات في البلاد. لم يكن يتذوّق جيســـكار كثيرا النمط الذي كان يعتمده بوكاســـا في الصيد. هو الذي يحبّ العزلة وجوّ الأدغال، رأى رئيس إفريقيا الوســـطى يتســـرّع في إنهاء المطاردة على متن سيارة لاند روفر (Land Rover)، فيهاجم فرائس ســـهلة المنال. يتذكّر أحد الشهود انه رأى بوكاســـا يخطئ الهدف أربع مرات وهو يصوّب غزالا على مسافة قصيرة منه، قبل أن يصيبه أخيرا في خفّه، ويُجهز عليه عن كثب. كان كل الحشـــم موجوديـــن، يتهيّأون للتصفيق لدى أول طلقة نار. كان جيســـكار قد وصل إلى إفريقيا الوسطى منهكا، فارتكب هفوة بأن ذهب ليلحق بأصدقائه، أسرة لابورور، لينعم بسكون مخيّمهم. بالرغم من ان بوكاسا وضع كل شيء تحت تصرّفه ليتمتع على أحسن وجه بإقامته في إفريقيا الوسطى. كل شيء.

غير ان جيســـكار راح يستذوق سلوك وممتلكات «نسيبه» جان بيدل أكثر فأكثر، وراح، ابتداء من آب 1976، يأتي مرارا للإصطياد. تهيّأ بوكاسا

الفرنســـية. كان قد نال العفو حين جرى التتويج، والذي ساهم في تنظيمه. فاتصل بفريق جيسكار الذي كان يبحث حينذاك عمّن يحلّ محل الإمبراطور الذي كان يكلفه غاليا. خلال جولة رسمية قام بها في كانون الثاني 1979، علـــم رئيس الحكومة هنري مايدو (Henri Maïdou) بهذا المشـــروع. كما صدر في جريدة *لوكانار أنشانيه* (*Le Canard enchaîné*)، بتاريخ 28 آذار، مقال قصير يوحي بوشـــوك حدوث انقـــلاب. إذ أكّدت الصحيفة على ان «عســـكريين فرنسيين يدرســـون احتمال تدخّل في إفريقيا الوسطى، إلا إذا سلّم بوكاسا الحكم لهنري مايدو».

منـــذ كانون الثاني 1979 وبداية الســـنة الدراســـية، كان طلاب الثانويّات يتظاهرون. وكان يتزايد عدد المحتجين الذين ينضمون إليهم. أســـفرت أول عملية قمع قامت بها القوّات المسلحة عن مقتل 100 شخص. كانت محاولة السيطرة على الموقف عنيفة. فتحوّل بوكاسا من نابليون إلى نيرون (Néron). عملا باقتراح تقدّم به موبوتو (Mobutu)، تألفت لجنة في شهر أيار مهمّتها التحقق من تأكيدات جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان. عندما اتضح ان بوكاســـا لن يبقى على رأس دولة إفريقيا الوسطى، أعيد النظر في هذا العدد: كان عدد الضحايا 26 بالضبط - العدد الذي اعتمد خلال محاكمة بوكاسا.

اســـتغل جيسكار هذا الوضع الجديد وســـارع إلى التصريح بأن «موقف فرنســـا ســـيتوقّف على خُلاصات ونتائج هذا التقرير». وأعقب بإلغاء رحلة الصيد التي كان من المتوقع ان يقوم بها في تلك الســـنة برفقة الإمبراطور في رافاي. على انفراد، قال لمستشـــاره رينيه جورنياك (René Journiac)، الذي نوّه بتحوّل جذري في إفريقيا الوسطى: «علينا ان نبدأ بالإستعداد لذلك. من الواضح أنه إذا ثبت ان بوكاسا مذنب، سيضطرّ إلى التخلي عن السلطة. هل

هناك رجال مهيّأون للحلول محلـه؟» فبدأت عملية الإختيار. وهكذا وجد دافيد كاكو نفسه على متن الطائرة الفرنسية التي حطّت في بانغي.

تسـارعت الأحداث في 16 آب: علّقت فرنسـا مساعدتها لإمبراطورية بوكاسا. في الشهر نفسه، عقد اجتماع طارئ تحت إشراف رئيس الغابون، عمر بونغـو (Omar Bongo)، في فرانسـفيل (Franceville). اقترح على بوكاسا التخلّي عن الحكم لصالح مجلس وصاية يشارك فيه رئيس حكومته هنـري مايدو، ويكون ولي العهد جان بيـدل الأصغر فيه معاونا له. خانته فرنسـا ورئيسـها. يتذكّر عمر بونغو هياج نظيره عندمـا علم ان مصيره قد حُدِّد. طلب بوكاسا ان يقيل نصف ساعة قبل ان يعطي جوابا. ثم عاد وهو سكران تماما:

«أنا، بوكاسـا الأول، إمبراطور إفريقيا الوسطى، أعلن أني أخذت علما بما أراد ان يبلّغني إياه جيسكار داستان. وعليه، فإني أرفض جملة وتفصيلا كل ما يطلبه مني على لسـانكم. لن أستقيل... وإذا أفترضنا اني سأفعل، فسـأطلب معاش تقاعد، بقيمة 100000 مليون فرنك إفريقي CFA (ما يعادل مليوني فرنك فرنسي). لأني أجمع بين معاش ضابط سابق في الجيش الفرنسي، ومؤسِّس جيش إفريقيا الوسطى، والرئيس الأعلى لأركانه، وجنرال متقاعد، ورئيس جمهورية أسبق، ورئيس لمدى الحياة سابق، وأخيرا إمبراطور سابق. يضاف إلى كل هذا معاش لكل من زوجاتي ومعاش لكل من أولادي. فيكون المجموع، دعوني أحسـب... 250000 مليون فرنك إفريقي (5 مليون فرنك فرنسي)».

توقف قليلا، ثم استأنف: «إضافة إلى كلفة المياه، والكهرباء والهاتف».

ثم احتدّ والتفت إلى الموفد الفرنسي، رينيه جورنياك:

«أنت، نحبك، لسـت إلا المستشار، لست أنت السبب. لكن ذاك،

الذي غيّر اسمه، فاليري جيسكار داستان... ما هذا داستان (d’Estaing)؟ أهو إسم فرنسي، إنجليزي، ألماني؟ من أين أتى به؟ لماذا لا يحمل ببساطة إسم دستان (Destin)؟ فاليري دستان؟ على أي حال، ذاك، أخذ مالي. والآن يريدني ان أولي الحكم لمجلس وصاية؟ سأريه».

بعد الهذيان، أصبح التهديد الموجّه إلى الرئيس الفرنسي اكثر وضوحا: «إذا حيكت ضدي اي مؤامرة، أو وقعت عندي اي مشكلة، سأكشف عن كل شيء. وهو، سيخسر الإنتخابات المقبلة. سيرى بوكاسا في كل مكان، لن يستطيع ان ينام. أنا أقول لكم اليوم، وأنا أكيد من ذلك، سيخسر بسببي الإنتخابات المقبلة».

وعيد اتضح انه كان تكهّنيا. قام بوكاسا بشأن جيسكار بتلميحات يبدو ان الموجودين لم يدركوا فحواها. هدّد بأن «يكشف عن كل شيء»: هل كان يتكلم عن مناطق الصيد؟ عن الهدايا التي قدّمها لجيسكار عندما كان الرئيسان يلتقيان؟ اتخذت القضية بعد ذلك منحى شخصيا حميما.

عندما انطلقت عملية «باراكودا»، كان إذن بوكاسا عند القذافي. عندما علم بأن هناك انقلاب في عاصمته، عاد سريعا، ولكن بعد فوات الأوان. في يوم الجمعة 21 أيلول، في الساعة الخامسة صباحا، تمكّن من الإتصال بكاترين في هاردريكور، وأخبرها عن إرادته بالعودة إلى بانغي ليعيد الأمور إلى نصابها. حاولت إقناعه بالعدول عن ذلك وصرخت في السمّاعة: «هذا جنون، لا يجب ان تفعل ذلك!» مِمَّ خشيت أكثر، من إمكانية استعادته السلطة أم من توقيفه المحتمل؟ بالنسبة لكاترين، الأسيرة هي ايضا، كانت هذه فرصتها للخلاص. كانت عازمة على ألا تساند هذا الزوج الذي يستحيل العيش معه.

بوكاسا في ليبيا، لا يعرف ماذا يفعل. كانت تحت تصرّفه فرقة مؤلفة من

400 جندي، كانوا يقيمون هناك بقصد التدرّب. لكنه فضّل كالغافل ان يطلب النجدة من نسيبه، فاليري. في الساعة السابعة والخمسين دقيقة مساء، وصل إلى قاعدة أفرو (Evreux) العسكرية سعيا منه لمقابلة الرئيس الفرنسي. على الفور، أحاط الطائرة شرطيون وجنود، وبلّغوا الطاقم أنه لن يسمح لأحد ان يطأ الأرض الفرنسية. وأنه من الممنوع ايضا ان ينضمّ إليهم أحد. وصدر بيان رسمي أعلن له انه «غير مرغوب فيه في فرنسا، وان وجوده ليس إلا لمجرّد محطّة تقنيّة». استولى الذهول على الإمبراطور المخلوع. بقي الوفد ينتظر عدة أيام في القاعدة. أتى مبعوثون فرنسيون بسندويشات لبوكاسا ورفاقه ذوي الحظ السيء الذين راحوا يلعبون بالورق لعبة بلوت (belote)، لتمضية الوقت. كانت المخابرات الهاتفية معلّقة. ها هو بوكاسا في دور الأسير.

أخيرا عرض عليه التوجه إلى إحدى البلدان الثلاث: الغابون، زائير (Zaïre) او شاطئ العاج (Côte d'Ivoire). اختار هذا الأخير. سالروجيه دلباي بوكاسا عن شعوره في تلك الساعات الحزينة التي قضاها في أفرو. فأجاب: «وقعت ضحية اكبر عملية تدمير يمكن ان يتعرّض لها إنسان. تساءلت ولم أزل أتساءل كل يوم، وكل ليلة وكل ساعة. أتساءل لماذا ساهم في إقالتي. [...] ربما كانت له في ذلك مصلحة خفيّة ما، لكن لا بد ان تُكتشف عاجلا أم آجلا».

في اليوم التالي، وصل بوكاسا إلى أبيدجان (Abidjan)، دون كاترين، على متن طائرة د.س.8 (DC8) تابعة للجيش الفرنسي. أقام في البداية في حي فردوسي ذي شواطئ شاسعة من الرمل الأبيض، في 5، جادّة الكورنيش (Corniche). سكن في قصر رئاسي خصّصه له «أبوه» فليكس هوفوات بوانيي (Félix Houphouët-Boigny)، ووضع تحت تصرّفه رصيد

مـــن المال. أعطاه رئيس شـــاطئ العاج شـــهريا 100000 فرنك نقدا، كان يبدّدها خلال أيام. كانت الفرص لتوزيع هذا المال مختلفة: في أحد الأيام، ذهب ليتســـلّم طردا في مركز أبيدجان للبريد، فاحتشد الناس حوله. تذوّق هذه الشـــعبية المتجدّدة، فصرّح بمحبّته للجمع الذي راح يردّد اسمه. كان الطرد يحتوي على نســـر صغير مذهّب، رمز الإمبراطور سابقا، أرسله له من فرنسا أحد أصدقائه. استثاره الأمر، فصعد فوق طاولة، ورفع التذكار وصرّح بمحبّته للحشد مثيرا حميّته. ثم أخرج محفظته ورمى بكل ما احتوت عليه من مال إلى الجمع. مرة أخرى، اشترى سيارة رولز (Rolls)، حنينا منه إلى مجموعة السيارات السريعة الفخمة التي كان يمتلكها.

لم يكن رئيس شـــاطئ العاج يســـتحبّ هذه التصرّفات الشـــاذة، فنقله إلى حي اكثر شـــعبية، في أندينيه (Endénié). واســـتبدلت الرولز بســـيارة تويوتا كريسيدا (Toyota Cressida). وأقصِي، بسبب صخبه، خلال زيارات رؤساء الدول الأجانب.

في أواخر تشـــرين الثاني 1979، لحقت به كاترين أخيرا. وجدت أن جان بيدل كان يثمل باســـتمرار. يتذكّر جان شـــارل، الذي اصطحب أمه: «بابا وكاترين كانا ينامان في غرفتين منفردتين. كان الجو رهيبا». كانت قد أمضت لتوّها بعض الوقت في عيادة باريسية لتتعالج، رسميّا، من انهيار عصبي.عندما لقيها بوكاسا ثانية، كانت قد تغيّرت كثيرا، وفقدت 13 كيلوغراما. في باريس، باشـــرت بإخلاء المقارّ الإمبراطورية المتعدّدة، وبدأت ببيع محتويات قصري هاردريكور ولاكوتانســـيار. فضلا عن ذلك، صفّت الحســـاب المصرفي في رومورانتان، الذي كان يحتوي على عدة مئات الآلاف من الفرنكات، وباعت بعضاً من مجموعة السيارت، اشـــتراها برنار تابي (Bernard Tapie كانت قد

عــادت بالتاجين والصولجان الإمبراطــوري في حقائبها، التي كانت تفيد من الحماية الدبلوماسية. وقام بتفكيكها الوكيل عن شركة أرتوس برتران الذي أتى خصّيصا إلى أبيدجان بناء على طلب هوفوات. بعد ان بيعت الحجارة الثمينة التي كانت تزيّنها، بدأت شجارات لا نهاية لها بشأن تقاسم إيرادها.

ما أن وطأ بوكاســا أرض شــاطئ العاج حتى شنّ، بمساعدة الصحافي الفرنسي الذي كان قد تقرّب حينذاك من روجيه دلباي، حملة انتقام إعلامية ضد جيســكار. وبالفعل، كشــف روجيــه دلباي، في 10 تشــرين الأول، لصحيفة *لوكانار أنشــانيه*، عن حجارة الألماس التي أهداها بوكاسا للرئيس الفرنسي. أثارت القضية ضجة كبيرة، فانفجرت القنبلة المعادية لجيسكار.

بيد انه، عندما لحق روجيه دلباي وصاحبه أندريه لومانيان ببوكاسا في أبيدجان خلال الأشهر الأولى من سنة 1980، لاحظا أن هذه العملية الإنتقامية الناجحة لم تهدّئ أبدا من روعه. كان ما زال يجول في خاطر بوكاسا حقد عميق تجاه جيسكار. يكشف لنا أندريه لومانيان مضمون حديث جرى بينه وبين بوكاسا، عندما سأله عن سبب استمرار هذه الضغينة. إدّعى ان كاترين قالت له عدّة أشهر قبل خلعه: «بابا، يجب ان أبوح لك بأمر: جيسكار عشيقي».

يروي لنا أندريه لومانيان تتمّة الحديث: «قال لي إنه ســألها إذا كانت فقدت صوابها أم انها كانت تقول الحقيقة، وان كاترين أجابته: «إنه رئيس جمهورية، وهو يغازلني، ويعطيني مالا، فلم أصدّه:»»

تابع بوكاسا ســرده لأندريه: قال إنه رفع سماعة الهاتف على الفور ليكالم الرئيس الفرنسي ويستوضحه. وان جواب جيسكار اقتصر على القول: «إسمع يا بوكاسا، أنا أدفع مصاريف ميزانيتك الداخلية، وبالتالي أفعل ما أشاء»، قبل ان يقطع الخط. يؤكّد بوكاسا انه عاد فاتصل بالإليزيه، وهدّد بالكشف عن القضية

كلها إذا لم يعتذر له جيسكار ويضمن له وضع حد لهذه العلاقة.

بيد ان الإنتخابات الرئاسية كانت قريبة، ولم يكن بإمكان جيسكار ان يجيز لنفسه بمثل هذه الفضيحة. ولم يكن رجلا يقبل بالتهديد دون معاقبته. إنه، بالنسبة لبوكاسا، السبب الذي من أجله غيّر جيسكار من موقفه تجاهه، وعمل بشراسة على إقالته. هل هي تلفيقة من نسج خيال بوكاسا، بهدف الزيادة من تلطيخ سمعة الرئيس الفرنسي والمرأة التي هجرته بعد قضاء بضع أسابيع في أبيدجان؟

فمنذ وصول كاترين عاصمة شاطئ العاج، بدأت تبتعد فعلا عن زوجها. أبرزت شهادة طبية غامضة تمنعها من أي ممارسات جنسية. أفضى بوكاسا إلى روجيه دلباي بالقول: «أبرزت لي، مساء أمس، شهادة حرّرها لها جرّاح من إحدى العيادات في نويي (Neuilly) يوصي بها الإمتناع عن اي علاقة جنسية خلال عدة أشهر. اعترفت انها شهادة مجاملة [...] حُرّرت قبل مغادرتها فرنسا بقليل، لكي تبرزها لي فقط[1]». كانت الشهادة بمثابة الضربة القاضية: لم يعد يحقّ لبوكاسا مضاجعة زوجته. إهانة حميمة أُنزِلت به من باريس.

كتب في أبيدجان، بتاريخ 10 شباط 1980، رسالة إلى رئيس توغو (Togo)، الجنرال أياداما (Eyadema)، يروي له فيها تسلسل الأحداث الزمنيّ لعلاقته بجيسكار:

«في كيغالي، في أيار 1979، طلب مني جيسكار داستان بإلحاح ان أرسل زوجتي كاترين إلى فرنسا. بعد وصولها إلى باريس بقليل، أطلعها الرئيس الفرنسي على ما كان يُحاك ضدّي، محظّرا قطعا إطلاعي على

(1) حديث ورد في المناورة الإحتيالية (*La Manipulation*)، سبق ذكره.

ذلـــك. ومنحها بالمقابـــل، فوائد مالية هامّة وشـــتّى الإمتيازات. [...] لا يمكنك فهم أو اســـتيعاب مثل هذه المقايضـــة المذهلة إلا إذا عرفت ان زوجتي أصبحت ولم تزل عشيقة جيسكار داستان».

راج خبر وجود هذه الشـــهادة الطبية الذي بقيت سرّيّة في أوساط بعض الموظفين الكبار وأعضاء جهاز المخابرات الفرنسية الذين بادروا بالتحقيق بصددها لمعرفة مدى صحة هذه الإشاعات. الرائد باتريك روجليه (Patrick Rougelet) كان اول من نوّه بوجود هذه الشهادة، في أعقاب لقاء بينه وبين جورج، أحد أبناء بوكاســـا، الذي كان حينذاك يعرض للبيع على الســـاحة الباريسية وثائق تخصّ أبيه:

«كان جـــورج يقيم في شـــقة في فنـــدق نابليون، في جـــادة فريدلاند (Friedland). إدّعينـــا أنا وصديقي العســـكري أننا عميلين في الموســـاد (Mossad). أتينـــا إلى الموعد ومعنا حقيبـــة صغيرة، كان يفترض ان تكون مليئة بأوراق نقدية. في كداسة وثائق جورج، تمكنّا من الحصول على رسالة تحمل عنوان طبيب مقرّب من الإليزيه[1]».

لم يســـتطع احـــد ان يبرز هذه الوثيقة، التي قد تعطـــي مصداقية لرواية بوكاســـا، إن لم تبرهن بوضوح عن تورّط جيســـكار. إلا انها نصب عينينا. وهي مؤرخـــة من باريس، في 8 تشـــرين الثاني 1979. والطبيب النســـائي المذكور يعمل بالفعل في الدائرة الثامنة من باريس. وقد أوصى، إثر»علاج جرى في العيادة، بالإمتناع عن أي ممارسة جنسية».

---

(1) كريستوف دلوار (Christophe Deloire) وكريستوف دوبوا (Christophe Dubois)، *Sexus Politicus*، باريس، ألبان ميشال (Albin Michel)، 2006.

لا بد ان تكون الأســـابيع العدّة التي أمضتها كاترين إلى جانب بابا في المنفى قد أنهكته. خلال إقامتها الوجيزة في أبيدجان، أوسعها لوما، متهما إياها بخيانته وبالعمل سرًا لصالح عشيقها القاطن في الإليزيه. إلى درجة ان كاترين التجأت سريعا إلى بيت السيدة هوفوات بوانيي، قبل ان تغادر إفريقيا متجهة إلى سويســـرا. بعد ذلك، لم يبرح بوكاسا يردّد هذه التهمة بالخديعة الجيسكارية على مسمع الجميع.

في الســـنوات 1980، في منفاه الفرنســـي في هاردريكور، كان بوكاسا يلعن جيسكار باستمرار. يروي لنا أومر، سائقه: «كان يدمدم طيلة الوقت: «إنها تعيش مع جيسكار!» أكيد، لم يكن يُنصح بلفظ إسم جيسكار! فقد أصبح هاجسه».

غير ان كاترين دافعت عن نفســـها في عدة مناسبات أمام الرجل نفسه. ردّدت له: «فيما يخصّ جيســـكار، أقسم لك أومر اني لم أرتكب شيئا». وواصلت تنادي بسُخف تلك العلاقة الغرامية الإيليزية المزعومة. ليس هناك اي دليل على ان جيســـكار وقع تحت تأثير مفاتنها، وإن كانت كاترين من دون شك تجذبها رموز ثراء المُغوي.

بالنســـبة لبوكاسا، كانت العلاقة واضحة: «كانت إفريقيا الوسطى ملكا لداستان، كانت داره وكنت أنا كزوجته[1]». إن الأساطير الجيسكارية لحقّا غامضة في بعض الأحيان.

---

(1) في حديث أخير مصوّر، أجري مع ليونال شومارا (Lionel Chomarat) وأشيع على الإنترنت، أفصح بوكاسا بصراحة عن إتهاماته: «كان يأتي الى دائما منزلي، بصفة شخصية، وكان يعرف كل أفراد أسرتي، ويتناول الغداء معي. ثم تابع يقول، مع ذلك هو الذي خطف مني زوجتي وضاجعها الى ان حملت».

6

ماو (Mao)، نِمر السيدات

«تقتصر مساهمة الرجل في مجرى التاريخ،
على نقطة منِيّ»
جيانغ كينغ (Jiang Qing)

المرأة بلا رأس

«ليلة أخرى من الأرق
لم أعد أتحمّل هذه العيشة. سأذهب لموافاته.
أولادي، أولادي المساكين، يستبقونني.
في قلبي عبء ثقيل، هو من ناحية، ومن ناحية أخرى أولادي. لا يسعني فراقهم، لا هم ولا هو.
أودّ لو أبكي. أشعر حقا برغبة في البكاء.
مهما بذلت من جهد، فأنا لا أستطيع أن أكفّ عن حبّه. لا أستطيع...
إن المشاعر الإنسانية لأمر غريب. سان شون هي (San Chun-he)

يحبني كثيرا، ومع ذلك فأنا لا ألتفت حتى إليه.

آه، كم أحبّه! آه، أيتها السماء، هلا تعطيني جوابا كاملا[1]!»

شانغشا (Changsha)، صباح 28 كانون الثاني 1930. يانغ كاهوي (Yang Kaihui) تتشوّق إلى رؤية من تحبّه حبّ جمّا، والذي هو أيضا زوجها، مقاتل شاب من مقاطعة هونان (Hunan) إسمه ماو تسي تونغ (Mao Zedong). إنها تنتظره منذ اكثر من ثلاث سنوات. تركها قبل ثلاثة أعوام ليقود حملة ضد شيانغ كاي شيك (Tchang Kaï-chek) و الكومينتانغ (Guomingang)، الحزب القومي الصيني، الحزب الذي يحاول معه الإستيلاء على السلطة بالقوة. كان شيانغ مقرّبا من الحكومة السوفياتية، وأقام في روسيا ليلتقي قادة الكومينترن (Komintern)، الدوليّة الشيوعية، ولتفقّد كلياتها العسكرية. ما جعل منه عدوّا للشيوعية الصينية في نظر ماو. فقاد هذا الأخير جيشا من الثوّار والعمّال والفلاحين من أجل صدّه. كانت المواجهات دامية، وهُزم. لوحق، فقرر اللجوء إلى جبال جيانغشي (Jiangxi). قال لها: «من الأفضل ان تبقي هنا مع الأولاد، لأمانتكم». أذعنت له ولكن على مضض.

هنا حيّ يُعرف بالبحيرة الصافية حيث استقر ماو ويانغ كاهوي في تشرين الأول 1921. كان هو في الثامنة والعشرين من العمر، وهي في سنّها العشرين.

---

(1) يانغ كاهوي (Yang Kaihui)، دون عنوان، 28 كانون الثاني 1930. يونغ شانغ (Yung Chang) ويون هليداي (Jon Halliday)، ماو، السيرة المجهولة (*Mao, l'histoire inconnue*)، باريس، غاليمار، 2007.

المكان خلاب، يُعزى اسمه إلى بحيرة الماء العذبة الكبيرة التي تتدفّق فيها سيول من الوحل دون ان تتلوّث مياهها أبدا. كان بيتهم، في ســفح تلّة صغيرة، بناء تقليديا، عوارضه من الخشب الأسود، وجدرانه من اللبِن المتعدّد الألوان، يشرف على حقل من الخضار. كانت كاهوي تحبّ هذه السعادة البسيطة. حتى ان وضعهما المادي كان يسمح لهما بتوظيف خدم. فكانت راضية.

ولدت ســنة 1901، في مقاطعة هونان، وكانت طفلة نحيفة حسّاســة. كانت أمها من أصل وضيع ولكن مثقّف، وقد أخذت عنها معرفتها للأدباء الكلاســيكيين التقليديين. في السنوات الإحدى عشرة الأولى من عمرها، جال أبوها في العالم. ذهب إلى اليابان وبريطانيا وألمانيا من أجل تحسين معرفته بعلم الفلسفة. ثم عُيّن أستاذا لعلم الأخلاق في جامعة بكين (Pékin) سنة 1918، واســتقبل هذا الأب السخيّ في منزله أحد تلامذته المفضلين كفرد من أفراد أســرته، ماو تسي تونغ، بعد ان حاول هذا الأخير الإستيلاء على العاصمة دون جدوى. كانت كاهوي تصغره بثمانية أعوام، وكان عمرها 17 ســنة عندما التقته للمرة الأولى. حــاول ماو على الفور إغواءها. كانت تعارض الزواج الذي تتداخل فيه الأعراف والتقاليد، وتحلم بالحب الكبير، الذي لا يخضع للقوانين وليست له حدود. «كنت ايضا أعتقد ان البحث عمداً عن الحب قد يقود لا محال وبســهولة إلى فقدان الحب الحقيقي، الحب المقدّس، الذي لا يُصدَّق، الحب الأســمى والأروع الذي لا يفوقه شيء[1]!» كان ماو في نظرها جلفا، فظا، فصدّته. وجدت قولا مأثورا تبنّته

(1) يانغ كاهوي، 20 حزيران 1929 «من سن السادسة حتى الثامنة والعشرين» (Cong liu sui » dao ershiba sui » « De six à vingt-huit ans »)، ترجمة يونغ شانغ ويون هليداي، سبق ذكره.

وراحت تردّده كأنه عبارة سـحرية: «أللا شيء أفضل من المنقوص». ولم يكن ماو تسي تونغ الرجل الكامل الذي كانت تنتظره.

غير انهما كانا يتشـابهان في بعض الأمور اكثر مما اعتقدت: كان ماو يرفـض هو أيضا فكـرة الزواج. في 1918، عندما أسّـس «جمعية البحث بشـأن الإنسان الجديد»، أقسـم انه لن يتزوّج أبدا، لأنه كان يمقت نظام الإسـتغلال غير الإنسـاني للزواج. كان إذن أعضاء الجمعية ينصرفون عن القضايـا الغرامية، معتبرين ان هناك مسـائل أخـرى ذات أهمية أكبر. في السـنة التالية، وضّح ماو سـبب نفوره: «في حداثتـي -كان حينذاك في السادسـة والعشـرين من عمره - صادفت عددا كبيرا من المتزوّجين. كنت أسـألهم لمـاذا يتزوّجون. وكان كلّهم يجيبونني أنهـم بحاجة إلى من يعدّ لهم الشـاي، ويطبخ، ويربّي الخنازير... فأسألهم إن لم يكن من الأسهل اسـتخدام أحد... فيجيبون بأن عليهم ان يؤسّسـوا أسـرة. كان كل ذلك يحيّرني. حتى اليوم، إذا ما اسـتمعتم إلى ما يقوله المجتمع عن الزواج، لا تجدون فيه شيئا له صلة بالحب[1]».

يبدو ماو رجلا يكاد يكون رومنطيقيا، يشـغله تخصيص مجال أوسـع للمشاعر العاطفية في المجتمع الصيني الجديد. بصورة أقل شعريّة، لم يكن

---

(1) في ستوارن ر. شرام (Stuart R. Schram)، طريق ماو الى السلطة : كتاباته الثورية 1912-1949 (*Mao's Road to Power : Revolutionary Writings 1912-1949*)، لندن، م. أ. شارب (M. E. Sharpe)، 2004. «موضوع الحب. شيوخ وشباب : لنحطّم سياسة التوافق بين الوالدين (La question de l'amour : Fracassons la politique de l'arrangement parental)، 25 تشرين الثاني 1919.

الزواج في نظره «غير قضاء شهوة جنسية». وفي هذه المسألة الأخيرة، كان يسارع إلى الإقرار بأن «الرغبة في الغذاء والجنس هما أمران أساسيّان[1]».

لم يرتضِ ماو بتردّد كاهوي، وبقي ثابتا. كتب لها رسائل لاهبة كثيرة. لكنها لم تكفِ لإقناعها بمشاعره. في كانون الثاني 1920، وقعت أول مأساة في حياة هذه الشابة المدلّلة: توفّي أبوها. كان ماو آنذاك يقيم في بكين للمرة الثانية، ويقضي كثيرا من الوقت مع أسرة يانغ. خلّف فقدان الأب المحبوب فراغا كبيرا. وكان هو موجودا ليعوّض عن هذا النقص: «لم أكن أتوقع ان يكون حظي كبيرا. كان لي رجل أحبه [...]. وقعت في غرامه بعد ان سمعت عنه الكثير، وقرأت العديد من مقالاته... ولكن بالرغم من حبي له، لم أشأ ان أظهره. كنت على يقين بأن الحب في أيدي الطبيعة وأنه لا يحق لي المطالبة به ولا البحث عنه..».

هل كانت مأساة فراق أبيها هي السبب؟ كانت كاهوي تخشى أن يتخلّى عنها بقدر ما كانت تخشى الإلتزام. «لو لم يدر أحد الأصدقاء بمشاعره ويكشف لي عنها – فقال لي انه كان في غاية التعاسة بسببي أنا –، لما تزوّجت أبدا». أقلقها إحساس خالطه الشعور بالذنب، وانتهى بها إلى التغلّب على ممانعتها. «قلت في نفسي اني لم أكن أحيا فقط من أجل أمي، بل من أجله ايضا... تصوّرت انه لو مات [...] للحقت به دون أي شك لأموت معه!»

---

(1) هو شي هسي (Hu Chi-Hsi)، «ماو تسي تونغ، الثورة والمسألة الجنسية» (« Mao Tsé-toung, la révolution et la question sexuelle »)، المجلة الفرنسية للعلوم السياسية، السنة الثالثة والعشرون، العدد 1، 1973.

أصبح ماو وكاهوي عشـــيقين لاحقا في تلك السنة. لا بد أن كان ذاك الرجل الباســـل، المتمرّد، الذي ظهر في حياتها في الوقت المناســـب، هو الذي كانت تنتظره، حبهـــا الكبير. فانتقلت كاهوي إلى بيت ماو، وتزوّجا في نهاية 1920. وبما أنها لم تعد آنسة، تمّ طردها من المدرسة[1].

لكن سرعان ما خُرقت قصة حبهما. لم يتخلّ ماو عن علاقاته القديمة بل اتخذ له عشيقات جدد. من بينهنّ ابنة عم زوجته. عندما علمت كاهوي الرقيقة الطائشة بذلك، ضربت منافستها بعنف في وجهها. لم تكن كاهوي زوجة تقليدية تعتبر انه من الطبيعي ان تتحمّل هفوات زوجها. كانت لديها قناعات نسويّة: النساء كائنات بشـــرية كما الرجال، فلماذا يتوجّب عليهنّ القبول بنزوات أزواجهـــنّ دون تذمّر أو اعتراض؟ كتبت: «يا أخواتي! علينا ان نناضل من أجل المساواة بين الرجال والنساء، ولا علينا مهما كلّف الأمر السماح للآخرين بمعاملتنا كما لو كنا من التوابع[2]». هل خاب أملها عند اكتشـــافها خيانة ماو؟ لم ينوّه قطّ أحدهما بذاك الحادث. إلا أن كاهوي

---

(1) فيليب شورت (Philip Short)، ماو تسي تونغ، باريس، فايار، 2005. للإطلاع على مزيد من التفاصيل بشأن سيرة يانغ كاهوي، أنظر أيضا «ليلي شياو هونغ لي» (Lily Xiao Hong » Lee) قاموس سِيَر نساء صينيات. القرن العشرون 1912-2000 (Biographical Dic-*tionary of Chinese Women. The Twentieth Century 1912-2000*)، أرمونك (Armonk)، نيويورك، شركة م. أ. شارب (M. E. Sharpe)، 2003.

(2) « Nuquan gaoyu nanquan ? »، («حقوق النساء فوق حقوق الرجال ؟»)، يانغ كاهوي، 1929، الذي نشر في هونان دانغشي تونغشون (تبادل رسائل بشأن تاريخ الحزب في الهونان)، نشرة دورية، شانغشا (Changsha)، 1984، العدد 1.

عدلت بعد ذلك عن مشاجرة ماو.

لم تكن الثورة النسوية مبرمجة بعد، والحياة اليومية مع ماو كانت مع الأسف تقليدية للغاية. كانت كاهوي تبقى في المنزل وتهتمّ بالأولاد، فيما كان ماو يجوب البلاد ليقنع الجموع بالإهتداء بشيوعيّته. ولد أول طفل لهما، أنيينغ (Anying)، في تشرين الأول 1922. والثاني، أنكينغ (Anqing)، في تشرين الثاني 1923. والأخير، أنلونغ (Anlong)، في 1927. إلا أن العلاقة الزوجية تفكّكت مع مرور السنين، والسياسة شريكة أنانية، فأصبحت كاهوي في المرتبة الثانية.

في تشرين الأول 1928، كان ماو قد غادر منذ سنة. لم يبق لكاهوي إلا التعبير عن حزنها من خلال قصيدة:

«النهار معتم، وريح الشمال تهبّ،
والبرد الشديد يتسرّب إلى اللحم والعظام.
إذ أفكر في ذاك الرجل البعيد عني كل البعد،
أرى الأمواج تنبثق فجأة من السكون.
هل شفيت الأقدام المجروحة؟
هل الملابس الشتوية جاهزة؟
لا تصل أي رسالة إلى هنا،
أسأل، ولكن ما من أحد يجيب.
يا ليت لي جناحان
لأطير وألحق بذاك الرجل.
وبما أني لا أستطيع رؤيته،

فإن حزني لا نهاية له[1]».

شــعرت كاهوي بأن ماو أهملها لصالح نضال يلازمه منذ حداثته، هي التي وضعت تطلّعاتها النسويّة جانبا من أجله. كان الأولاد يرهقونها. كتبت له: «من يهتمّ بك فيما ترقد وحيدا؟ هل تشــعر بنفسك وحيدا حزينا بقدر ما أشعر؟» غير ان ماو، في منفاه، لم يكن ينام وحده.

نعم، لقــد قبل بالزواج، لكنه لم يغيّر فكره بشــأنه: إنه عُرفٌ برجوازي ضَيْميّ. في ذاك الوقت، كان يحلم أن «تنتشــر موجة الزواج الحُرّ والحب الكبيرة في كل أرجاء الصين».

لم يكن من الســهل إقناع الصينيين الذين التزموا بالخُلُقيّة الكونفوســية (confucéenne) قرونا طويلة، بأن الثورة الشيوعية مرادف للتحرّر الجنسي. بمــا ان أغلبية الصينيين كادوا لا يملكون شــيئا، فلعلّهم لا يخشــون كثيرا من تشــييع وسائل الإنتاج. لكن لم يكن أحد منهم مستعدّا للقبول بتشييع نســائهم. إلا أن استحداث العلاقات بين الرجل والمرأة كان عنصرا أساسيا فــي بناء المجتمع الجديد كما أراده ماو. كان إصلاح الزواج الذي أشــاد بــه، والذي يضمن للجميع حرية الحب وعلى الأخص عدم الحب، ويمنح النســاء إمكانيــة الطلاق، كان إلى حدّ ما تجربة تفــوق الإصلاح الزراعي بكثير.

لــم تجر الأمور تماما كمــا كان يتوقّع: تبنّت النســاء على الفور هذه

---

(1) يانغ كاهوي، تشرين الأول 1928، « Ou gan »(أفكار)، في هونان دانغشي تونغشون، سبق ذكره، ترجمة شانغ وهليداي، سبق ذكره.

الدعوة إلى «الحرية». «اتجهـــت العلاقات الغرامية بينهنّ وبين أصحابهنّ الشـــباب إلى ازدياد، وتشـــكل الأزواج بحرية في التلال[1]». لم تعد تلك موجة، بل كانت ســـيلا متدفّقا. وتبع ماو الوُجهة: تزوج ثانية، دون علم من زوجته، من شـــابة التقاها في الطريق ســـنة 1928. كادت كاهوي لا تصدّق ذلـــك. تجاهلت الموضوع حفاظا على صوابها وكرامتها أيضا. لم تكن من اللاتي يطلّقـــن حبّا بالحداثة. بقيت تأمل في عـــودة زوجها، كما بينيلوبيا (Pénélope) وهـــي تواصل تطريز كنف حَمْوها. غير ان النبأ دمّرها. كان قد قال لها: «من الأفضل ان تبقي هنا مع الأولاد، لأمانتكم»... كيف أمكنه الكذب عليها إلى هذا الحدّ؟

كانت شانغشـــا في تلك الأيام تحت حكم هو شـــيان (Ho Chien)، وكان جنرالا قوميا يقاوم الشـــيوعية بضراوة. بيد ان كاهوي لم تتعرّض حتى ذاك الوقت لأي مضايقة. على أي حال، لم تكن ناشـــطة ولم تبدُ تشارك في تصرّفات زوجها. كان الجميع على علم بوضعها، الذي كان يثير الشفقة أكثـــر من الريبة. في أيلول 1930، رجع ماو أخيرا إلى شانغشـــا. لم تدفعه الرغبة، ولا الشوق لأسرته، إلى العودة إلى المدينة، بل الحرب: شنّ هجوما متواصـــلا على المدينة، ضاربا الحصار عليها. كانت لحِلم الجنرال حدود، تعدّاهـــا ماو لتوّه. فألقي القبض على كاهـــوي وابنها البكر، أنيينغ، في 24 تشـــرين الأول، يوم بلـــغ الصبي الثامنة من عمره. وعُرضت عليها تســـوية:

(1) ماو تسي تونغ، *Report from Xunwu* (تقرير من شونوو)، ترجمة روجيه ر. تومبسون (Roger R. Thompson)، مطبعة جامعة ستانفورد (Stanford University Press)، ستانفورد، كاليفورنيا، 1990.

الحريــة مقابل تنديدهــا علناً بتصرفات زوجها. علــى ان تطلّقه ايضا على الفور. لم تكن كاهوي لتقبل يوما بأن يُفرض عليها سلوك ما. لم يكن هذا الإبتزاز جديــرا بحبها الأكبر، وإن لم يعد له أثر إلا في أحلامها. فرفضت التخلّي عن ماو.

قيدت حينذاك إلى قاعة المحكمة التي هُيّئت على عجل في المقرّ العامّ للجيش. كانت ترتدي فستانا أزرق طويلا أضفى عليها هيئة الإمبراطورية. لم تبدُ على وجهها اي علامة خوف. كان على المكتب ريشــة ولصيقة كتب عليها اســمها. بعدما طرح عليها بضعة أســئلة، رسم عليها القاضي إشارة بالحبر الأحمر. فحكم عليها لتوّه بالموت.

صباح 14 تشرين الثاني 1930، كانت السماء مكفهرّة بالغيوم. بعد مرور شــهرين على الهجوم الفاشل الذي قام به ماو ضد شانغشا، قيدت كاهوي الجلودة، المخلصة، إلى مكان إعدام المحكوم عليهم خارج المدينة، عند باب ليويانغ (Liuyang).

علــى طول الطريق المؤدي إلى حقل الإعدام، جاهرت بولائها لماو. لا عن شجاعة ولكن عن يأس. نزع عنها جلادان فستانها. كانت في التاسعة والعشــرين من عمرها، تتقدّم نحو المــوت بثيابها الداخلية، في ذاك النهار الخريفي البارد. فيما كانت تقاد مكبّلة بالسلاسل، استوقف ضابط عربة جرّ وأصعدها اليها، فيما ركــض جندیان إلى جانبي العربة. عندما وصلت إلى مكان الإعدام، اكتشفت مقابر المعدومين الذين رقدوا هناك إلى الأبد، إذ لم يعد لهم أســر تطالب بجثامينهم. ترى هل سيهتمّ ماو لجثمانها أم أنها ستبقى في ذاك الحقل؟

بأمر مــن الحاكم، ضرُب عنــق يانغ كاهوي، زوجة ماو تســي تونغ.

بعدما انتهى أفراد فصيلة الإعـــدام من مهمّتهم، خلعوا عنها حذاءها ورموه أبعد مســـافة ممكنة: كانت تقول الأســـطورة إنه، فـــي حال لم تتّخذ هذه الحيطة، فإن شـــبح ضحيتهم ســـيتعقّب خطاهم حتى منازلهم فيســـتحوذ عليهم. فتحت شـــهية الجلادين بعد العمل وجلســـوا يتغـــدّون في الثكنة، وإذا بأحـــد الحـــراس يأتي ليروي لهم رؤياه المقلقـــة: خيِّل له انه رأى جثة كاهوي تتحرّك، فترك سبعة منهم صحونهم وهرعوا يتفحّصون ذاك الجسد المتمرّد. كانت، وهي تحتضر، قد حفرت بأصابعها الأرض عميقا من شدّة ألمها.

لم يحضر مـــاو موت زوجته. كان قد هرب بعد فشـــل محاولته الثانية للإســـتيلاء على السلطة بالقوة، ولم يبالِ بإيجاد ملاذ لأم أبنائه فيقيها شرّ الإنتقام. عندما بلغه الخبر، كتب، بحزن يبدو صادقا وإن جاء متأخرا: «لو مُـــتّ مئة مرة، لن أكفِّر أبدا عـــن موت كاهوي!» لم يفكّر ماو أنها كانت حبّـــه الأكبر إلا بعد موتها. بعد ثلاثين ســـنة على موتهـــا، عبّر عن حزنه لصديقة له، لي شويي (Li Shuyi)، كانت قد فقدت زوجها لتوّها:

«فقدتُ شجرة الحور الشامخة، وأنت فقدت صفصافك؛
الحور والصفصاف يرتفعان إلى أعلى السموات،
سُئل وو غانغ (Wu Gang) عمَّ لديه يُهديه،
فقدّمه بتواضع مع خمر السنا.
الإلهة الوحيدة على سطح القمر تبسط أكمامها الواسعة
لترقص من أجل هذه الأرواح الطيبة في السماء اللامتناهية.
وفجأة يأتي نبأ هزيمة النمر على الأرض
فتسيل الدموع بغزارة كملء قصعة من الغيث قُلبت».

مسيرة الامبراطور

«يا ابن الخنزير، يا بيضة السلحفاة، أيها الساقط الذي لا يفكّر إلا في العاهرات! سـأعاقبك، أنا، إن أتيت إلى هنا سرّا لمضاجعة هذه البرجوازية السافلة[1]!»

أيار، 1937. تستشيط هه زيزهن (He Zizhen) غضبا. تحاول ان تضرب النذل بكل ما في متناول يدها. وقف الحارس المرافق في الزاوية يتطلّع. لم تكن المشـاجرة الأولى التي يشهدها. اعترض ماو قائلا انه دخل للتحدّث فقـط مع ليلي (Lily). لم تصدّقه زيزهن. لم تعد تتحمّل خياناته. كان قد هجـر يانغ كاهوي من أجلها، وتباهت بذلك. أمّا أن يتجرّأ ويخونها هي، مع هذه الممثلة المتهتكة، بملابسها المغرية، فلا!

حوّلت عضبها على ليلي وو (Lily Wu) فأمسـكت بشعرها وخمشت وجهها. لم يتدخّل ماو، غير مبالٍ. ان يحارب ضد الإمبرياليين السوفياتيين فـي الحزب القومي الصيني (Guomindang)، نعم، لكن أن يتوسّـط بين امرأتين، لا أبدا.

صرخـت أيضا: «أيتها الإمبريالية القذرة! أنت سـبب كل هذا، أغربي عن وجهي!» صفعت زيزهن الصحافية الأمريكية أنياس سميدلي (Agnes Smedley)، التي نظّمت هذا اللقاء بين ماو والممثلة. أعادت لها الصحافية الطريفة صفعتها، فترنّحت زيزهن. ووقعت على ركبتيها. لم تسلّم بهزيمتها ونهرت ماو في الحال:

---

(1) أدغار سنو (Edgar Snow)، «طلاق ماو تسي تونغ» (The Divorce of Mao Tse-tung)، مخطوط، حوالي 1956. ترجمة شانغ وهليداي، سبق ذكره.

«في النهاية، اي نوع من الرجال أنت، وأي نوع من الشيوعيين؟ تدع إمبريالية قذرة تضربني أمامك!» نظر إليها ماو. ثم أمر حارسه المرافق ان يساعد هذه المرأة على الوقوف. فعقلته غاضبة وأسقطته. واستلزم الأمر ثلاثة حرّاس لإخراج الهائجة من المكان. تبع ماو الموكب، مطأطئ الرأس.

كان ماو قد هجر كاهوي قبل عشر سنوات من أجل هه زيزهن. وقد تبدّد حماس البداية منذ زمن طويل. اندلع الشجار في مأوى الصحافية أنياس سميدلي. كانت هذه الأخيرة عد دعت، في ذاك المساء، إلى العشاء زوجين صحافيين من مواطنيها، أدغار سنوو (Edgar Snow) وزوجته هيلين[1] (Helen)، وكذلك ممثلة شابة اسمها ليلي وو. وانضم ماو إلى العشاء. بقوا سوية حتى ساعة متأخرة من الليل، يلعبون بالورق. تبعت هه زيزهن ماو. كان منزلهما على بعد أقلّ من 1500 متر من هناك. وأخرجها المشهد الذي اكتشفته عن طورها. كانت ليلي وو جالسة إلى جانب ماو على المقعد، وقد وضعت يدها برقّة على ركبته. قالت إنها أفرطت في شرب الخمر وتحوّل مزاجها إلى الدعابة. روت هيلين تتمة الواقعة في يومياتها: «بانت الدهشة على ماو أيضا، [...] وبدا ساخرا بوضوح. صرّح بدوره أنه أفرط في شرب الخمر[2]». فتجرّأت ليلي وأمسكت بيد ماو... وتوتّر الجو

---

(1) هلن فوستر سنو (Helen Foster Snow)، المعروفة أيضا باسم نيم وايلز (Nym Wales). تدلي بذكرياتها في داخل الصين الشيوعية (*Inside Red China*)، دوران (Doran)، دوبلداي (Doubleday)، 1939.

(2) أنياس سمدلي (Agnes Smedley)، «نشيد المعارك الصيني» (*Battle Hymn of China*)، لندن، غولاكز (Gollancz)، 1944.

في الغرفة: «رفعت إليه أنياس باحترام عينيها الزرقاوين الواسعتين اللتين كانتا تلمعـان أحيانا ببريق متحمّس. وكانت ليلي وو تنظر اليه أيضا نظرة تبجيل كالذي يُضمَر للأبطال[1]..».

كانت ليلي وو ممثلة شـابة مطلّقة في السادسـة والعشرين من العمر. فيما كان الزي الشيوعي يفرض على النساء قصّ شعرهن قصيرا، كان شعرها الكثيف المسترسل على كتفيها يلفت الأنظار أينما وُجدت. كانت تتصرف بغاية التكلّف: تسير بخطوات أنيقة متّزنة، وتتكلم بصوت شهوانيّ. كانت هيلين سنوو تلقبّها «بسـارة برنهاردت (Sarah Bernhardt) المحلية». في الواقع، كانت الشابة قد أصبحت بسرعة نجمة سينمائية ناشئة. وكان لبسها وتصنّعهـا المفرط يثيران الرغبة لدى الكثيرين في تلـك المنطقة المتخلّفة بعض الشيء، ويفتنان خاصة ماو. كانت زيزهن قوية ومخلصة، فيما كانت ليلي وو المتلهّية تسـلّيه بطريقة مختلفة تماما. كان يسـتعيد معها الوحي الشعري الذي اعتاده من قبل، إلى جانب يانغ كاهوي. خلال محادثاتهما المطوّلة الحماسية، كان ماو ينشد قصائد يدّعي إنه كتبها لها. في الحقيقة، كان يجدّد من أجلها تلك التي نظمها إحياء لذكر زوجته الراحلة.

ولـدت هه زيزهن سـنة 1909. كانت إبنة مفكّر ومقاتل شـيوعي من مقاطعة يونغشين (Yongxin) الغنية، في سفح الجبال، وكان ماو يزوره مرارا. ورثـت عن أمها، وكان أصلها من مدينة كوانجو أو صِين كَلان (Canton)،

(1) هلن فوستر سنو (Helen Foster Snow)، سنواتي في الصين : ذكريات (*My China Years : A Memoir*)، نيويورك، مورو (Morrow)، 1984. ترجمة فيليب شورت (Philip Sort)، سبق ذكره.

ملامـــح وجهها الناعمة المتناســـقة، التي كانـــت تنوّرها من وقت إلى آخر إبتســـامة رقيقـــة. تزوّج ماو من المرأة الشـــابة، التي ورثـــت عن أبيها طبعا إســـتقلاليا إلى درجة الوقاحة، منذ ان كان عمرها 18 سنة. ما استماله كان يتعدّى القدّ الرشـــيق والوجه الصينيّ. فقد كانت زيزهن ثوروية على طريقتها: فقد رفضت منذ البداية نمط العيشة التقليدي الذي يأسر النساء الكريمات الأصل، وكانت تتوق إلى اكتشـــاف عالم أوســـع: عالم الملذات والحياة. كانت تلميذة في مدرسة إرســـاليّة محلية كانت تديرها راهبات فنلنديات، فثارت على تربية بنـــات العائلات المحترمة فيها. منحتها الأحداث الدافع الذي كان ينقصها: أثار دخول جيش الحملة الشـــمالية مدينتها في صيف 1926 حماســـها فانتســـبت إلى الحزب الشيوعي. وســـرعان ما أوكل إلى المؤيّدة الشابة مهمة استقبال الجنود، وإلقاء الخطابات على الملأ. بفضل نضجها وحماس ســـنّها (17 سنة) رقيت درجات التسلسل في الحزب. في السنة نفسها، عيّنت على رأس قسم النساء في الحكومة المحلية الجديدة. أصبحـــت زيزهن امرأة حصيفة. عبّرت عن تحرّرها بعمل رمزي قوي: قصّت شعرها النسائي الطويل. فأصبحت بعد ذلك الرفيقة.

لدى وصول ماو، وظّف يوان وانكا (Yuan Wencai) الشـــابة كمترجمة له، هو الذي نظم الهجمة بتزويد الشـــيوعيين بالسلاح فأصبح يدير قوات الدفاع المحلية. باشـــر ماو على الفـــور بإغوائها. ونجح: منذ بداية 1928، اعتبرا «زوجين»، بالرغم من غياب اي حفل رسمي. اقتصر الأمر على إقامة وليمة فاخرة، أعدّتها لهما السيدة يوان.

على خلاف كاهوي، التي كان غرامها بماو مســـتعصيا، يبدو ان زيزهن تزوجـــت منه على مضض. كان خطّابها كثيرين، وكانت تجد ماو، وهو في

سن الرابعة والثلاثين، «مسنّا جدا[1]». خاصة وأنها كانت تشتهي سرّاً شابا آخر، أصغر إخوان ماو، زيدان (Zedan). بدا زيدان، الذي كان لامعا فكريا، هو أيضا متيّما بالرفيقة زيزهن. غير انه كانت لديه شائبة طمست في نظر المرأة الشابة كل حسناته الأخرى: لم يكن يتمتع بهيبة القائد. كانت «تحتاج أن تشعر بأن لها من يحميها سياسيا في هذه الأوساط».

بالنسبة لماو، كانت الأمور اكثر وضوحا: منذ أول لقاء، أشارت له عينا زيزهن، الأشبه «بزوج من البلّور»، انها «صنو روحه الثورية». حتى انه أحسّ إذ لقيها «بشعور حلو كالعسل». وقد لاحظ قبل كل شيء وجنتيها المرتفعتين اللتين كانتا تفضيان على وجهها نعومة ورقّة.

بعد زواجهما بقليل، راجت شائعة أفسدت الحفل. أثار فرق السنّ وتغيّب ماو المتكرر النميمة: لا بدّ ان تكون زيزهن غير مكفيّة جنسيا. هل كانت تعوّض عن ذلك بتحضير مربّى الدرّاق البريّ على الدوام؟ كانت زوجة مخلصة، فلم تكترث للشائعات، وانصرفت إلى السهر على ابنهما الوحيد الحيّ، لي مين (Li Min). كانت قد تأثرت بفقدان ثلاثة أبناء على التوالي. غير ان زيزهن لم تتحوّل إلى ربّة بيت يائسة. كانت قبل اي شيء، وعلى غرار زوجها، روحا قوية لا تقبل الحلول الوسطى. قال لها بعد شجار:»إننا كالحديد والفولاذ. إذا لم نحاول أن يتنازل كل منا للآخر، فسنتألّم نحن الإثنين[2]».

---

(1) مقابلة مع زانغ زهي (Zeng Zhi)، صديقة مقربّة جدا منها، 24 أيلول 1994، ترجمة فيليب شورت، سبق ذكره.

(2) ذكريات أدلى بها أدغار سنو (Edgar Snow)، نجمة حمراء فوق الصين (*Red Star Over China*)، 1937، نيويورك.

لعلّ ولادة طفل جديد يوطّد العلاقة بين الزوجين. كان النظام الشـيوعي متعثرا في بدايته. لم يكن ماو قد حظي بعد بالمركز الذي كان يطمح اليه. كان عليه ان يترفّع عن المزاحمات الداخلية في الحزب وان يفرض نفسه كقائد وطني. في تشـرين الأول 1934، حملت زيزهن. واختار زوجها ذاك الوقت ليبدأ مسـيرته الطويلـة (Longue Marche)، تلك التي جعلت منه أسـطورة. وكان مصير الثورة الصينية متوقّفا على هذا المسار المنهك الذي دام إثني عشـر شهرا، وامتد على مسافة 12000 كيلومتر. لم ينج من الذين طوّعهم ماو للقيام بهذا العمل العظيم إلا 30000 رجل من أصل 130000.

كانت حاملا في شـهرها الخامس عندما انطلقت المسيرة. لم يسمح لها وضعها بالمشـي وقتا طويلا إلى جانب ماو. وأصبح ركوب الخيل أمر صعب وخطر بالنسبة لها. ابتداء من شهر كانون الأول، تابعت الطريق وهي علـى مِحَفّة. جالت برفقة المرضى المحظوظين وحوالي ثلاثين من زوجات الحُكّام ذوي المنزلة الرفيعة.

في 15 شباط 1935، عندما وصلوا إلى قرية صغيرة اسمها الرمل الأبيض (Sable Blanc)، بدأ المخاض. تركت زيزهن الموكب بضع ساعات ووضعت بنتا. سـاعدتها على ذلك إبنة حميها، وقدّمت لها الوليدة وقد لفّتها بأول سترة وجدتها. أمضى الجيش النهار في الرمل الأبيض، لكن ماو لم يزرها. ثم سـرعان ما حان الوقت لاستئناف السـير. كان من المرجّح أن تهلك المغامـرة الطفلة. فاضطرت زيزهن إلى التخلّي عن ابنتها، وتركتها في عهدة امرأة كلّفتها بإيجاد أسـرة تحتضنها مقابل بعـض المال والأفيون. طلبت المرأة من زيزهن ان تعطي إسـما لابنتها قبل مغادرتها، لكنها رفضت. كان حزنهـا لا يوصف. ولم تر ماو من جديـد إلا بعد مرور عدة ايام، واجتياز

عـــدد كبير من الكيلومترات. أخبرته وهي تبكـــي بأنها تخلّت عن الطفلة. اكتفى بالقول: «أحسنت، كان لا بدّ من ذلك».

بعد ســـتة أشـــهر من الســـير الحثيث المرهق باتجاه الجنوب، وجدت زيزهـــن أخيرا تفريجـــا لحزنها في العمل. أصبحت ممرضـــة، ترافق وتعالج الجرحى بما تيسّـــر. خففت مواســـاتها لذويها من آلامها. لكن الفرجة لم تدم. في منتصف نيســـان تقريبا، في الغســـق، ظهرت في الســـماء ثلاث طائرات للحزب القومي الصيني. ومزقت الرشاشات السماء. ركضت زيزهن تحت الرصاص لمســـاعدة ضابط جريح على الإحتماء. وبعد برهة، كانت تتضـــرّج بدمائهـــا. إذ أصيبت الممرّضة المبتدئة في رأســـها وظهرها بأكثر من إثنتي عشـــرة شـــظية قذيفة. توصل أحد الأطباء إلى استخراجها واحدة واحدة بملقط لنتف الشـــعر. لكن بقي إيقاف النزيف. تبلّغ ماو على الفور خبر وضعها، لكنه أحسّ بنفســـه «تعبا» فلم يحضر. بيد أنه أرسل، مراعاة لها، طبيبه الخاص وإثنين من حمّاليه للمســـاعدة على إجلائها. أخيرا أدرك خطـــورة حالة زوجته، فعادها بعد ثلاثة أيام. كانت قد أفاقت من غيبوبتها، لكنها ما زالت غير قادرة على التكلّم. جاهدت زيزهن فنجت من الموت. لكنه تعذر إخراج بعض الشـــظايا، وكانت إحداها في الرأس. مضت عليها عدّة أسابيع وهي على وشك الموت. دخلت شجاعتها الأسطورة في آخر مرحلة من المســـيرة، إذ كانت تفقد وعيها من الألم، ثم تصحو من شدّته. توسّـــلت لكي يجهز عليها. في نهاية الســـير الحثيث، في تشـــرين الأول 1935، أصبحت هه زيزهن، شـــهيدة القضية، ســـيدة الثورة الأولى. وتناقل الناس رواية آلامها.

فـــي 1937، عادت الحياة إلى جســـد زيزهن المرضرض. ها هي حامل

من جديد. طفح الكيل! في سنّ الثامنة والعشرين، لم تعد تشأ ان تحمل أطفال رجل لم تعد تشاركه شيئا، رجل تركها في الطريق على حافة القبر. ولكن، إلى أين تذهب؟ بعد عدة أشهر من التفكير، اتخذت قرارها: أوشكت ان تموت على الطريق، فستولَد على الطريق من جديد. أعلنت لماو انها تهجره. وغادرت في أوائل شهر آب. توجهت زيزهن إلى أورومكي (Urumqi) على بعد 1600 كيلومتر باتجاه الشرق، كأنما أرادت ان تضع بينها وبينه مسافة كافية لألا تساورها اي رغبة في العودة إلى الوراء. لم يشأ ماو القبول بخيارها دون ردة فعل. طبعا، لم يفعل شيئا لمنعها من الرحيل. ولم ينبس ببنت شفة. لكنه أرسل لها علبة من الخشب التقليدي فيها مساحيق للتجميل، من صنع الحرّاس المرافقين له، وكذلك سكين للثمر وغيره من الأغراض التي كانت تحرص عليها. الحنين والندم أداتان رهيبتان لحض امرأة على العدول عن عزمها.

واصلت رحلتها، بدونه. لن تكون وحدها، بما أنها تحمل طفلها. مسيرة زيزهن الطويلة قادتها إلى الإتحاد السوفياتي، حيث استطاعت اخيرا أن تتلقّى علاجا طبيا للشظايا التي كانت لا تزال داخل جسدها. لم تؤدي إقامتها في موسكو إلى الإنبعاث، بل إلى انهيار يائس. كان الصبي الوليد الذي وضعته بعد وصولها بقليل صورة عن أبيه. كتبت زيزهن لماو تخبره بذلك. لم يجبها. ومات الطفل سريعا من إلتهاب بالرئة. ولم يتسنّ له الإحتفال بعيد ميلاده الأول.

الحبيب هو داءما من يسدّد الضربة القاضية. اعتادت زيزهن الإجتماع في موسكو بصينيين آخرين لا يتكلمون الروسية ليقرأ لهم أحدٌ بلغتهم مقتطفات من الصحف السوفياتية. في أحد الأيام، قرأ المترجم مقالا بقلم السينمائي

الروســـي رومان كارمن (Roman Karmen)، الذي التقى ماو لتوّه. روى رومان ان ماو «وزوجته» رافقاه إلى بيته، في ضوء القمر. زوجته؟! لدى سماعها هذه الكلمات، تحطّم شيء داخلها. كان مصيرها أشبه بمصير كاهوي...

فقدت حيويتها، ثم الرُقاد، ثم الشهيّة. بقي لها أمل: لعلّ ماو يعود إلى صوابه؟ وســاء وضعها اكثر عندما تسلّمت رسالة من زوجها. لم تكن نبرته تدعو إلى استئناف العلاقات. أعلن لها فيها باختصار عن فسخ زواجهما: «لن نكون بعــد اليوم إلا رفيقين[1]». باتت زيزهــن متخلّى عنها، تلازمها وجوه أولادها الذين فقدتهم؛ الصبي الصغير الذي مات، البنت الصغيرة التي تركتها في الطريق. وتحوّل الفصام لديها إلى انهيار عصبي. انتهى بها الأمر أن قرّرت السلطات المحلية إدخالها مستشفى المجانين. هل أتى القرار من ماو؟ بعد مرور عشــر سنوات على ذلك، في 1947، تدخّل لكي تعود إلى الصين. حيث تمّ أيضا حجزها. كانت زيزهن قد عانت الكثير فما كان من الممكن ان تُشــفى من مرضها. بقيت مقتنعة حتى نهاية حياتها بأن أطباء ماو كانوا يحاولون تسميمها.

لون الحب أزرق كلون التفاحة

محاكمة خائنة

«القاضي: أصمتي!

---

(1) رومان كارمن (Roman Karmen)، *God v Kitaye* (سنة في الصين)، موسكو، سوفياتسكي بيزاتل (Sovietskii Pisatel)، 1941.

جيانغ كينغ (Jiang Qing): من حقي ان أتّهمك، أنا أيضا!
لياو موشا (Liao Mosha): إخرسي، أيتها السافلة!
القاضي: أيتها المتهمة جيانغ كينغ، أسكتي على الفور!
جيانغ كينغ: وأنا سأتكلّم! فما يسعك ان تفعل[1]؟»

بكين، تشرين الثاني 1980. في قاعة المحكمة، تجري محاكمة «عصابة الأربعة»، التي تلهب الصين. تعالت الصرخات. حاول رئيس المحكمة، وهو يرنّ جرسه الصغير، ان يعيد الهدوء بلا جدوى إلى القاعة حيث كان التضارب بالأيدي وشيكا. المتهمة جيانغ كينغ قوية، لا تستسلم. ضرب أحد القضاة بقبضته على الطاولة.

جيانغ كينغ: «المخالفات، أنتم الذين ترتكبونها. [...] تستقدمون كل هؤلاء الخونة والجواسيس لكي يشهدوا، وأنا لا يهمّني الأمر أبدا!»

تقدّم لياو موشا ليمثل امام القضاة، وكان الوحيد على قيد الحياة من بين الكتّاب الذين تجرأوا في السنوات 1960 على مساءلة ماو علنا. وكان يتّهم جيانغ كينغ باضطهاد عدد كبير من الكوادر وسكان بيكين. كما ادّعى أنها أوقفت عددا كبيرا من الأبرياء: «لقد ترعرعتُ في صفوف الحزب. لم

---

(1) شيانغ (Chiang) وشينغ (Ch'ing) وهوراس هاتامن (Horace Hatamen)، بكين، محاكمة قد تحجب غيرها : نسخة أصليّة عن محاكمة جيانغ كينغ، أرملة ماو (*Pékin, un procès peut en cacher un autre : les minutes du procèd de Jiang Qing, la veuve de Mao*)، ترجمة ومقدّمة هوراس هاتامن، باريس، كريستيان بورغوا (Christian Bourgois)، 1982.

أنحــرف يوما ولا قيد أنملــة عِن الخطّ الذي حددته إدارتي، ولا حتى يوما في حياتي [...]. لقد اختلقت جيانغ كينغ رواية كاذبة بشأني، مستندة إلى اتهامات باطلة، فسجنتُ خلال ثماني سنوات، ثم نفيتُ إلى الريف، ليُعاد تأديبي عن طريق العمل، خلال ثلاث سنوات إضافية. وعُذبت بوحشية في السجن». ثم انفجر باكيا.

كانت تحيط بجيانغ كينغ شرطيتان مسلّحتان بزيّهما، ومع ذلك لم تبرح تبتسم بسخرية. كانت تشمخ برأســها. وجالت عيناها في أطراف القاعة. كان في الحضور 880 شــخصا وعلى المنصــة 70 رجل القانون، حضروا ليشهدوا أهمّ محاكمة في تاريخ الصين الحديثة، وكلهم على يقين من أمر: إنها تهزأ بهم!

بدا على وجهها كل الإزدراء الذي تكنه لهذه الجماعة، وكذلك ارتياحها إذ ســنحت لها أخيرا الفرصة لتنتقم. هي التي اضطرّت إلى الإنتظار ثلاثين سنة قبل ان تستطيع أن تحكم إلى جانب ماو وتطمس صورة شهيدة الثورة التي تحلّت بها زوجته السابقة، هه زيزهن؛ هي التي اضطرّت إلى البقاء في الظلّ بســبب منتقضيها، ها هي ثانية تحت الأضواء، لتؤدي دورها الكبير في آخر مشهد لها.

منذ بداية المحاكمة، فهم القضاة أنهم أخرجوا وحشا من قفصه وأتاحوا له الفرصة لإطلاق صيحتها مباشرة على كل شاشات التلفزة! وقدّموا للممثلة الســابقة «التفاحة الزرقاء» (Pomme Bleue) اكبر عدد من المســتمعين حلمت به في حياتها، عشــرات الملايين من المشاهدين الذي سيحضرون آخر أعمالها: أن تؤدّي دورها هي.

غيــر ان الإتهامات الموجهة اليها كانــت دامغة. فقد اقترفت زمرة كينغ

المناهضة للثورة الجرائم التالية: نصب الفخوخ لقادة الحزب وحكام الدولة واضطهادهم، التآمر بهدف الإطاحة بالسلطة السياسية، إضطهاد وقمع عدد كبير من الكوادر وعامّة الناس. فأشير إلى 2600 شخص وقعوا ضحية الإضطهاد في الأوساط الأدبية والفنية؛ و142000 شخص في مجال التعليم؛ و53000 في الأوساط العلمية والتكنولوجية؛ و500 أستاذ في الطب و13000 صيني في ما وراء البحار. دامت قراءة القرار الإتهامي ثلاث ساعات. ردّت عليه بأن تظاهرت بالخروج من القاعة. في نهاية العرض، توجهت إلى المشاهدين بالقول: «أنظروا إلى وو فاشيان (Wu Faxian) [متّهم آخر]. يكاد يموت من الخوف. أما أنا، فلا آبه كما ترون!..».

فقط أسارير وجهها المخضرّ الناعمة كانت توحي بانزعاجها. خلعت نظاراتها المقوّسة ذات الإطار البلاستيكي التي لم تكن تفارقها منذ أوائل السنوات 1960، ربّما من أجل تحويل النظر عن بضع الثآليل التي كانت على طرف أنفها.

أهم ما جاء في القرار: التهمة بمحاولة اغتيال الرئيس ماو تسي تونغ.

ولدت جيانغ كينغ تحت اسم لوان شومنغ (Luan Shumeng) في آذار 1914 في زهوشنغ (Zhucheng)، في إقليم شاندونغ (Shandong) الزراعي.. كان أبوها، لي دوان (Li Dewen) يصنع عجلات للعربات. كان سكّيرا شرسا، يضرب في أوقات فراغه أم شومنغ، التي لم تكن زوجته الرسمية. وكانت هذه بدورها تضرب ابنتها. كانت رجلا السيدة ماو المستقبلية معصوبة، حسب التقاليد، بمعنى أن مصيرها لن يكون العمل بل الزواج. وبالتالي يمكننا التأكيد على أن طفولتها كانت جحيما. لم تكن شومنغ مستعدّة لتحمّل هذه المعاملة السيئة إلى ما لا نهاية، وحازت بميدالية

التمـرّد من بين رفاقها في المدرسـة. نزعت عصائبها. وقد لُقبت بسبب هذا العمل التأسيسـي بـ«الأرجل المحرّرة[1]». بالطبع، تركت العصائب في رجليها آثارا فظيعة الشكل، وباتت تمشي نهائيا مشية العرجاء.

في 1912، لجـأت الأم والإبنة إلى منزل الجدّ، فـي جينان (Jinan). اتخذت شـومنغ لقبا جديـدا فأصبحت يونهـه (Yunhe)، «الكركيّ في الغيوم». لكن أمها، بعدما تحرّرت من سـلطة ذاك الزوج المشاكس، قرّرت ان تعـود فتجرّب حظها مـع الرجال. في 1928، تخلّـت عن «الكركي» الفتيّ في سنّ الرابعة عشـرة وتركته في العوز. وشكّلت المرارة والمشاكسة اللتـان تعوّدت عليهما تحت الضرب، وإرادتها بـألا ينعتها أحد بعد بابنة الحرام، إضافة إلى هيبتها المغنطيسية، الشروط المثالية لممارسة المهنة التي اختارتها: التمثيل.

كانت لها عينان برّاقتان، ونهدان مكتملان بالنسبة لسنّها، فبدت كأنها في الثامنة عشـرة من العمر. استغلّت كل ميليمتر من طولها الذي لم يتعدّ مترا وأربعة وسـتين سنتمتر، لتملأ المدى من حولها، بقدر ما كانت بنيتها الهزيلة تسـمح لها بذلك. وقد أضفت عليها مرونتها في الجوَلان، ويداها النحيفتان بأصابعهما الرفيعة، شيئا من الرِقّة.

لـم تكن مثقفة، إلا أنها كانت ذلقة اللسـان، وحتى لبقة حينما كانت

---

(1) شهادة وانغ تينغشو (Wang Tingshu) أدلى بها الى روس تريل (Ross Terrill)، تايبيه (Taipei)، 23 شباط 1982، في الشيطان ذو الضلع الأبيض : سيرة حياة السيدة ماو تسي تونغ (*The White-Boned Demon : A Biography of Madame Mao Zedong*)، نيويورك، مورو (Morrow)، 1984.

تنجح في كظم عجرفتها. شكّلت ثقتها في قدرتها على الإغواء، التي خالطها غضب على العالم بأسره تكاد لا تكتمه، مزيجا صاعقا، لكن واهيا، من الغطرسة والغرور.

الخطيبة والممثلة والقوّاد

طرقت إذن، في سن الخامسة عشرة، باب كلية الفنون المسرحية في جينان. كان شعرها طويلا، كمعظم النساء في جنوب البلاد. واتفق ان كانت الفرقة تفتقر إلى بنات ذوات الشعر الطويل للقيام بدور الخادمات. سُرّ المدير للأمر فوظّفها على الفور. غير ان الشابة، التي لم تكن تنقصها الوقاحة، قصّت شعرها ما أن التحقت بالفرقة! كانت قد تأثرت بـ«الموجة الجديدة» للأفكار الحديثة في جينان، فأرادت ان تبرهن عن كونها، مثلما الرجال، فنانة حقيقة، لا امرأة متهتكة.

غير انه، مع الأسف، أقفلت الكلية أبوابها بعد سنتين من التحاق التلميذة الجديدة بها، لإنعدام التمويل. فكان على يونهه ان توجد لنفسها هدفا جديدا. بما أنها لم تكن تتمتع بمواهب تستثمرها غير شخصها، قرّرت ان تتزوج. فاقترنت سريعا بأحد تجّار المدينة. لكن زواجها لم يدم إلا بضعة أشهر.

ها هي وحيدة لا مورد لها إلا رغبتها في الشهرة. بيد ان المدير السابق للكلية الفنية في جينان، والذي وظّفها، كان قد أصبح عميد جامعة في كينغداو (Qingdao)، ميناء إقليم شاندونغ الكبير. عادت فقرعت بابه للمرة الثانية. فعهد إليها وليّ النعم ذاك بعمل بسيط في المكتبة الجامعية، حيث التقت بيو كيواي (Yu Qiwei)، المسؤول عن دعاية الحزب الشيوعي

السـري. اكثر من أنوار المسـرح، بدا لها أن أضواء الساحة السياسية هي الطريق الأمجد لتحقيق هدفها.

تمكنت، بفضل كيواي، من الإلتحاق بنادي الجبهة الثقافية الشـيوعية. وأصبحت عضوا في رابطة الممتهنين المسرحيين والكتاب اليساريين، بفضل بعض المخطوطات وحماسها البالغ وخاصة تشكّراتها الحارة لكيواي. فإذا كانت مشاعر يونهه الوطنية صادقة، فإن معلوماتها السياسية كانت ضعيفة جدا: لم تكن تدرك الفرق بين الحزب الشـيوعي والحزب القومي. وكانت معرفتها بالماركسـية تقتصر على بعض العبارات البدائية والآراء الجازمة. لم تكن تعرف غير «نحن على حق وهم على خطأ[1]». ما لم يمنعها من إيهام الآخرين والإنتساب إلى الحزب الشيوعي الصيني سنة 1933.

بـدلا من الطريق المجيد، وجدت نفسـها في طريق مسـدود. كانت عيشة شـريكة حياة رجل سياسي من الدرجة الثانية تضجرها. كان حلمها في التألّق يشـغلها أكثر فأكثر. فهجرت عشـيقها، وذهبت إلى شانغهاي (Shanghai) لتستهلّ حياة ممثلة محترفة تحت إسم لان بينغ (Lan Ping)، «التفاحة الزرقاء».

برهنت لها تجربتها بأن الرجال هم الوسـيلة الأفضل للإرتقاء إجتماعيا، فتزوجت من ناقد سينمائي إسمه تانغ نا (Tang Na). في كينغداو، كان يو كيواي قد لقّنها حسّـا سياسيا وأفكارا يسـارية. وفي شانغهاي، كان تأثير تانغ نا الثقافي حاسـما ايضا. فقد أخرجها من عالم صيني بحت، وعرّفها

---

(1) روكسان ويتكه (Roxane Witke)، الرفيق شيانغ شينغ (*Camarade Chiang Ch'ing*)، باريس، روبار لافون (Robert Laffont)، 1978 [1977].

على العالم وكشف لها أسرار الفن المسرحي والسينما الغربية.

ولكن، ما هي أهمية رأي مستكتب، مهما كان صيته جيدا؟ كانت تبغي أعلى من ذلك فوقع اختيارها على مدير مسرح مشهور، زهانغ مين (Zhang Min). كان الرجل متزوّجا. كان تانغ في حيرة من أمره، وإن سبق له هو أيضا أن خان زوجته. في 8 آذار 1936، حاول ان ينتحر. قالت: «في الفجر، حاولت الذهاب، لكن المسكين كان يبكي كثيرا! لن أنسى أبدا وجهه المثير للشفقة».

هزّ الفراق الناقد في العمق، فغادر شقتهما بعد ان ترك لها رسالة وداع قصيرة. ذهب لينتحر. هرعت تبحث عنه في ظلام الليل، لتطلب منه ان يعود. أرادها ان تواجه الحقيقة، وأن تجيبه: هل هي تحبه، نعم أم لا؟ «يا إلهي! مواجهة رجل يريد الإنتحار ويكلمني بهذه الطريقة!» لم يعد بيدها حيلة، ومن أجل تفادي الأعظم، تراجعت لان بينغ: «قلت له إني أحبه!» انتهى أخيرا الفيلم العاطفي الرديء، وها هي سنة 1937 على الطرقات مجدّدا، بعد ان هجرت تانغ نا المحزون. «تقتصر مساهمة الرجل في مجرى التاريخ، على نقطة منِيّ[1]». برنامج طويل...

باتجاه يانان (Yanan)، القاعدة الشيوعية في الشمال الغربي. كانت شابات كثيرات يذهبن إلى يانان هربا من زواج مُدَبَّر، أو من سلطة العائلة، أو لمتابعة الدراسة، التي كانت تكلّف غاليا في شانغهاي، او بداعي الفضول لا غير. كانت المدينة بمثابة الرائدة في التحرّر، نسخة صينية عن

---

(1) « *Watashiwa no chugokunin* »، كوسوكه واكوتا (Kosuke Wakuta)، 176، ترجمة روس تريل (Ross Terrill)، سبق ذكره.

روح الفتوح في الغرب الأمريكي.

حب صاعق في يانان

هنا تقاطع دربها مع درب رجل المسيرة الطويلة. روت التفاحة الزرقاء ان ماو التقى بها من جملة مئات الشـيوعيين الشباب وأنه قدّم لها تذكرة سفر إلى مؤسسة ماركس–لينين (Marx-Lénine)، حيث كان سيلقي محاضرة. قالت إنها أتت لتصفق له وانه بالمقابل ذهب في اليوم التالي إلى المسـرح ليراها تمثل. وانه صفق لأداء الحسناء إلى درجة أن هه زيزهن (He Zizhen)، التي كان ما زال متزوجا منها، كادت تموت من الحسد.

بشـكل أبسط، كانت جيانغ كينغ تدسّ بين الجماعات الشيوعية لدى وصولهـا إلى يانـان، وقد لفت نظرها خطيب يتفـوّق على الآخرين. كان الجميع يصغون اليه. فحضرت عدة من خطاباته العلنية، وتميّزت بتصفيقها كالغاوية. بالنسـبة له، لم تكن بالنسـبة له إلا فتاة جميلة أخرى يغشـى عليهـا أمام طلاقته. لكنهـا صممت على الحوز به. كانت فلسـفتها في الإغواء بسيطة: «الجنس يجذب في البداية. ولكن المهم، مع الوقت، هو السلطة». ولم يبدِ ماو مقاومة كبيرة.

بدأ الإثنان يظهران سويا على الملأ. تحوّلت علاقتهما فورا إلى فضيحة. كان لجيانغ كينغ ماضٍ مشـحون بالأفلام الثانوية وصيت ممثلة فاشـلة. كانـت قد تزوجـت أربع مرات، او عاشـت على الأقل مـع أربعة رجال مختلفين. وإن هي أثارت الصخب والفضائح في شـانغهاي، المدينة التي تقطنها جنسـيات مختلفة، فقد أصبحت في يانـان منبوذة. خاصة وأنها حلّت محلّ التي كانت تثير شفقة بالغة.

تتذكّـــر إحدى رفيقات زيزهن أثناء المســـيرة الطويلـــة: «اضطربت كل التلميذات في مدرستي. وقد كتبت بعضهنّ علنا لماو، والبعض الآخر سرًا. أما أنا، فكتبت ثلاث رسائل، قلت فيها تقريبا: الرئيس ماو، نأمل في أنك لن تتزوج من جيانغ كينغ. صحة زيزهن سيئة جدا وقد أنجبتما سويا خمسة او ستة أولاد[1]». كانت زيزهن قد حظيت بتعاطف الشعب بأسره بفضل ما عانته من عذاب في خدمة القضية.

من ناحية الحزب، كان القلق كبيرا. كان القوميون قد سجنوا جيانغ كينغ فـــي الماضي، متهمين إياها بتأييد الشـــيوعية، فوقّعت نصّ إنكار علنيّ من أجل ان يطلق سراحها، وكان الحزب يعتبر ذلك «خيانة». إضافة إلى ذلك، كان الناس يهمســـون مردِّدين انها استرضت سُـــجّانها بمشاركتهم وجبات الطعام، وخاصة مضجعهم. كانت الشـــائعات الأكثـــر رواجا تتهمها بأنها عقدت صفقة مع الحزب القومي الصيني لتخرج من الســـجن. كتب العديد من أعضاء الحزب إلى يانان، منبّهين من أنها ليست الزوجة المناسبة للقائد.

كتب قائد الحزب الرســـمي، لو فو (Lo Fu)، هو ايضا لماو معبّرا عن تحفظاته وتحفظات الكثيرين. عندما اســـتلم ماو الرسالة، مزّقها على الفور وقال للمبعوث الذي أتى بها: «ســـأتزوج منذ الغد. وليهتمَّ الناس بشؤونهم الخاصة[2]».

---

(1) مقابلة مع كسي فاي (Xie Fei)، التي كانت زوجة ليو شاوكي (Liu Shaoqi) حينذاك، 14 أيلول 1994، أجراها شونغ (CHung) وهليداي (Halliday)، سبق ذكره.

(2) ليو وينغ (Liu Wing)، *Zai lishi de jiliu zhong* («في غطيان التاريخ»)، بكين، زهونغونغ دانغشي شوبانش (Zhonggong dangshi chubanshe)، 1992.

وبالفعـــل، أقام في اليوم التالي «وليمة عرس» دعا إليها أربعة وعشـــرين شخصا من نخبة يانان. لم يكن لو فو من المدعوّين. حذره أيضا سكرتيره ومعاونـــه الأمين، يه زيلونغ (Ye Zilong)، من الإشـــاعات التي تشـــيع في المدينة بشأن سلوك جيانغ كينغ.

اختار ماو حلا وســـطا، فقـــرّر إبقاء زوجته الجديدة فـــي الظل، دون مســـؤوليات رسمية، تهتمّ بأمانة سرّه الخاصة، كما فعلت يانغ كاهوي وهه زيزهن من قبلها.

كان إذن على جيانغ كينغ ان تذلّل في الوقت نفسه الشكوك التي كانت تساور القادة الثوريين بشأنها، وازدراء الفلاحين الفطرية لامرأة آتية من تلك المدن الكبيرة حيث كان الناس يعيشـــون ويحبّون بحرية. أما جيانغ كينغ، فلم تكن لا سكرتيرة ولا ربّة منزل. فولّد هذا القرار في نفسها حقدا رهيبا.

ثأر سمراء

أول مـــن تعرّض لنقمة جيانغ كانت مربّيـــة ابنتها، التي أنجبتها من ماو سنة 1940. بعدما خضعت لفحص طبي وتبعت تدريبا وجيزا، عملت الفتاة خادمة عند الزوجين. كانت من إحدى مهماتها ان تغسل شعر السيدة ماو. وكانت العملية خطيرة، إذ كانت هذه الأخيرة تغتاظ إذا لم يتمّ غسل شعرها بمنتهـــى الإتقان. أي لطخة قد تلحق بها كانت تجعلها تنفجر غضبا. في أحد أيام 1943، استدعت ربة العمل خادمتها على حين غرّة.

صاحت في وجهها جيانغ كينغ: «لقد أتيت هنا مزوّدة بالســـمّ! اعترفي بذلك!»

اتهمت المربية بأنها سمّمت حليب أسرة ماو، بالرغم من أنه كان حليب

بقرتهـــا، التي كانت ترعى في ميدان قوّات الأمن. نعم، غير أن البرهان كان دامغا إذ أصيبت السـيدة ماو بالإسهال. بعد اسـتجواب الطاهي، أمرت المسؤول عن الأمن بسجن المربية واستجوابها. لم تبق قصة الحليب الفاسد هذه دون عقاب: في المســاء ذاته، قضت الشــابة الليل في سجن حديقة البلح. في أوقات النهار، كان النسج نشاط السجينات الرئيسي، وكان على كل ســجينة ان تنتــج كمية معيّنة من الخيطان تقتضــي منهنّ العمل دون توقّف من أجل غزلها. وكانت الأمســيات مخصصة للإســتجوابات، التي كانت الفتاة تشــبع خلالها شتما: «لماذا لا تعترفين، بكل بساطة، وينتهي الأمر، يا صانعة البراز[1]؟» بعد مرور تسعة أشهر، أخلي أخيرا سبيل الفتاة.

في 1943، كان لا يزال ماو يلاقي صعوبة في فرض نفسه كالقائد القومي الوحيد. لم تتح له المسيرة الطويلة التخلّص من الحزب القومي الصيني ومن شيانغ كاي شيك. وكانت الحرب مع اليابان، التي ما زالت قائمة منذ ست سنوات، قد جعلت طموحاته الشخصية في المرتبة الثانية. فكيف ستمضي جيانغ كينغ أوقاتها؟

لم يعــد هناك مجال لممارســة مهنة التمثيل. في الواقــع، كان عليها ان تمحــو آثار مهنتها الماضية لترســيخ صورتها كزوجة القائد الكبير. فبدأ البحث شــيئا فشيئا عن نســخ أفلامها، والمقالات الناقدة لأدوارها، والتي حرّرت عن حياتها كممثلة، قبل حرقها.

لم يكن في نيّتها ان تصبح شخصية زخرفية.

---

(1) زهو زهونغلي (Zhu Zhongli)، *Nuhuang meng* («وهي تحلم ان تكون امبراطورة»)، بكين، دونغفانغ شوبانش (Dongfang chubanshe)، 1988.

ما كانت تريده، هو دور سياسي بالشراكة مع زوجها.

هل أصيبت بانهيار عصبي؟ هل أصبحت نوبات الهستيريا والذهان الهذائي تتكرر كثيرا لديها؟ في أواخر السنوات 1940، لم يكن لجيانغ وجود كبير في التاريخ. رسميا، كان ماو قد أرسلها لتقيم فترات طويلة في روسيا تتعالج من «سرطان» أصيبت به. هل كان ذلك من أجل إبعادها عن بدايات جمهورية الصين الشعبية؟

بالفعل، أعلن ماو عنها في أول تشرين الأول 1949. بعد استيلاء زوجها على السلطة، حصلت جيانغ كينغ على منصب عضو في اللجنة الإدارية للصناعة السينمائة، وكان دورا ثانويا بالنسبة لمطامح ماو: فقد كان رهانه السياسي، «قفزته الكبيرة إلى الأمام»، ان تصبح الصناعة الصينية بمستوى إنتاج الفولاذ في بريطانيا خلال خمسة عشرة سنة فقط، رهان أطلقه سنة 1958. بذلت من أجل ذلك جهود جبارة، لكنها لم تكفِ. أنتجت اليد العاملة غير المتمرّنة سلعا رديئة الصنع فيما كانت المحاصيل تتلف في الحقول قبل حصادها. باتت «القفزة الكبيرة إلى الأمام» مجرّد تعثر غير مثمر. تضاءل نفوذ ماو وجيانغ. بعد المسيرة الطويلة، أتى زمن الإنكفاء التكتيكي.

في السنة التالية، حلّ محله ليو شاوكي (Liu Shaoqi) على رأس الدولة. كانت ردة فعل ماو على تعيينه عنيفة جدا. واعتبرت جيانغ هذا الشجب إهانة شخصية. فصبّت كل نقمتها على وانغ غانغماي (Wang Guangmei)، زوجة سيّد الشيوعية الصينية الجديد. كانت غانغماي تقوم بدور السيدة الأولى الذي كانت تطمع فيه منذ البداية. كان عليها ان تستعدّ للإنتقام بصبر، بمهارة، وفي الظلّ. وكانت جيانغ تبرع تماما في فن الدسيسة

والتملّق. وكانت مواهبها بمستوى وساوسها الشيطانية. فباتت فجأة ضرورة بالنسبة لماو وهو يواجه المصاعب. كان يشكو قائلا: «يعاملونني كأني سلف راحل».

جمعت جيانغ حوله بعض الأوفياء والمؤيدين الجدد للعقيدة الشيوعية. كان ماو يشبعهم كلاما عن برنامج جديد أعدّه ليوازن نفوذ ليو المتزايد. كان أعضاء هذه «المؤامرة داخل البلاط «يقومون بأعمال تقويض هائلة ويستخدمون أقلامهم لنشر بُشراهم. وكان تحوّل الأحداث يثير حماس جيانغ كينغ لما كان يتيح من إمكانيات تخريبية رائعة لهذه المرأة التي كانت تدرك ان عليها الإطاحة بليو وزوجته لترتقي إلى أعلى مرتبة.

تعلّمت جيانغ خلال السنوات التي عاشتها في الظل استراتيجية الصبر، وكيف تحرّك رخاخها على رقعة الشطرنج. الخطوة التالية: أن تحتلّ مكانة أكبر في نظر الشعب.

الإرتقاء الممنوع

قررت أولا إدخال تعديلات تلائم ذوقها في المسرحيات التي كانت تُقدّم حينذاك في المسارح. بدأت بمسرحية *الإستيلاء على جبل النمر بالإستراتيجية*، قصة جيوش شيوعية تقاتل اللصوص في منشوريا (Mandchourie) سنة 1946. أليست هي الفنانة والممثلة الكبيرة؟ بعد ان حضرت المسرحية، دخلت الكواليس، وقالت للفرقة، وهي الخبيرة، ان أداءها كان سيئا جدا. وقررت ان تفيدهم بمعارفها. لدى عودتها إلى منزلها، راحت تصغي خلال وجبات الطعام إلى تسجيلات صوتية للترديدات، ثم تهرول إلى المسرح بأفكار جديدة. ومضات عبقرية، حسب رأيها. قررت

ان «الحقد» هو الكلمة الأساسية في النص. لا يجب لفظها بل صياحها، كمن يرمي عدوا بقنبلة. لا يجب إنهاء جملة موسيقية بصوت خافت، حتى لو كانت هي العادة منذ عدة آلاف من السنين. ثم أرتهم كيف يصيحون كلمة «ربيع» من أجل تبليغ طاقتها السياسية. حسب رأيها، كان الربيع سيشهد انتصار زوجها وارتقاءه أعلى مكانة في المجتمع. أخيرا، توجهت إلى الممثلة الرئيسية، وأصرّت: «لا تنسي ابدا ان الجمال أقل أهمية من الإرادة والنفوذ».

حاولت ايضا مراجعة بعض المسرحيات الحديثة. لكن، مع الأسف، لم يكن الممثلون والمؤلفون والمخرجون يعترفون بموهبتها، ولم يكونوا مستعدّين لتبنّي تعليماتها الغريبة. كان نمطهم، الناتج عن سياسة السنوات 1930، رجعيّا جدا في رأيها. إنهم لكلاب، لا يقدّرون فنها! حتى أن التقنيّين السينمائيين تمردوا علنا على الأفلام التي حاولت تحميضها، بعد ان صبغت الشرطان بالأحمر او بألوان أخرى، فلم يعد يمكن الإستفادة منها.

ما لم يردع «التفاحة الزرقاء» عن المضيّ قدما. شاؤوا أم أبوا، فإن القرار يعود إليها هي فيما يخصّ الفنون والعروض في البلاد. على كل حال، إنها في غنىً عن موافقة الشعب التي لا أهمية لها.

وعليه، لماذا الإقتصار على الفنون؟ إذا كانت محاسنها النسوية لا تخوّلها شغل أعلى المناصب في الدولة، فستتمكّن من ذلك كما الرجل. كيّفت سلوكها على سلوك ماو، وأفرطت بالتقليد. تبنّت مواقفه وعباراته، فقالت لطالب بيطريّ، مردّدة جملة لماو استوحاها من حكمة سون يات سان (Sun Yat-sen)، أحد الآباء المؤسسين للحزب القومي الصيني ورئيس

جمهوريـــة الصين فـــي 1911: «أدرس لتصبح طبيبا للبشـــر». بعد حادث عنيف طرأ في مقاطعة سيشـــوان (Sichuan)، فسّـــرت ايضا مقولة لزوجها: «قليل من العنف، أمر جيد، أقلّه من أجل التمرّن[1]».

غيّرت حتـــى طريقتها في الخط: ابتداء من الســـنوات 1960، تحوّلت انحناءاته الأنيقة إلى خطوط قوية، حادّة، ذكورية. لكن التحوّل لم يكن قد بلغ حدّه بعد.

كان عليهـــا ان تتخلّص مـــن ماضيها الهرطوقيّ، وترتدي لباس ســـيدة الشـــعب الأولى. كانت جيانغ كينغ تخشـــى دوما ان يكشـــف أحد عن نمط حياتها الماضية الفاســـق، وعن الأسرار المدفونة في سجون القوميين. عملت على ســـجن أو نفي زملائها وأصدقائها وعشاقها السابقين لكي لا يكون بوســـعهم الإســـاءة اليها. لم يُعف إلا على قليل منهم وهي على قيد الحيـــاة. كانت محاولتها انتحال بـــكارة أخلاقية لا ترحم: في آب 1966، كان الجثث تتدفق إلى محرقة بكين بلا انقطاع.

66، سنة التصفيات

لم ترحم حتى أصدقاء عشـــاقها الســـابقين. سنة 1966، تذكرت جيانغ عملا أخرق قامت به قبل ثماني سنوات. في 1958، بعد شجار عنيف مع ماو، كتبت غاضبة إلى مصوّر ســـينمائي من أصدقائها القدامى، تطلب منه عنوان تانغ نا، زوجها الأســـبق، الذي كان يعيـــش حينذاك في باريس. قد تكون عواقب تلك الرسالة كارثية بالنسبة لها، إذا ما كُشف عن مضمونها.

---

(1) *Survey of China Mainland Press*، (تحقيق لصحيفة الصين القاريّة)، العدد 418: 3.

فأصبح هاجسها استرداد تلك الرسالة. أوقفت المصوّر السينمائي المسكين وعددا من أصدقائهما المشتركين. ونُهبت منازلهم. مات المصوّر السينمائي تحت التعذيب، وهو يبوح بلا جدوى بأنه أرق الرسالة قبل أعوام.

بدت سنة 1966 اكثر سنوات حياة جيانغ إثارة. عُيّنت مستشارة ثقافية في الجيش. ها هي ترشد جيشا يتألف من ستة ملايين رجل في مجال الأوبرا والرقص والموسيقى والأدب. ولبست على الأخص، في وظيفتها هذه، البزّة العسكرية للذكور. ها هي اخيرا على قدم المساواة مع بقية القادة. وبما ان المرء يكون بزيّه، قامت بحزم خلال الصيف بمداخلات في كل اجتماعات اللجنة حيث كانت تعرّف عن نفسها بفخر بأنها جندي. يجب أن يزول كل ما وُجد في العالم قبلها. فشجّعت نهب منازل المفكرّين للحجز على الكتب القديمة. قامت جيانغ بثورتها الثقافية الخاصة، التي كانت هي شمسَها.

إلى جانب ماو، كانت ترفع ذراعها قليلا للإجابة على ملايين المصفقين الذين كانوا يمثلون «الجماهير» بالنسبة لماو، و«العُموم» بالنسبة لها. كان الإختلاط بالعامّة يثير حماسها. في 8 تموز، أعلن ماو لزوجته عن رغبته في إحداث «فوضى كبيرة تحت السماء» بهدف فرض سياسته الجديدة. رأت في ذلك انطلاقة جديدة. فحرّضت الشباب على الإنتفاض على الموظفين، والإستيلاء على الحكم. هكذا بدأت الثورة الثقافية.

خلال ذاك الصيف الطويل الشديد الحرّ، نحّى ماو ليو شاوكي عن السلطة، وعمل على إدانته من خلال جريدة *الشعب اليومية* (*Le Quotidien du peuple*)، التي وصفته بالرأسمالي الشنيع. ما أن أقصاه، حتى أوكل إلى جيانغ مسؤولية اهمّ من السابقات: عيّنها معاونة رئيس فريق الثورة الثقافية، الهيئة

الحاكمة في الثورة الثقافيـــة، والتي تحوّلت في الواقع إلى حكومة الإمبراطور السـرّية. إرتقاء غريب. ها هي تجلس جنبـا إلى جنب مع اعضاء المكتب السياسي الذي يدير البلاد. وقد اختفى تضايقها وسباتها مثل السحر.

فأصبحت شخصية رسمية لا يمكن تجاوزها، وبوسعها ان تطلق العنان لما كان يقلقها منذ عقد من الزمن: الإنتقام من التي حلّت محلّها كالسيدة الأولى، وانغ غانغماي.

بعد إقصاء ليو شـاوكي على الفور، حُشد 300000 شخص في اجتماع وُجّهت فيـه الإهانات والكلام العنيف ضد زوجته، غانغماي. وكانت هذه الأخيرة امرأة متكلّفة، تتكلم الفرنسية والإنكليزية والروسية. حتى انها كانت حائزة على شهادة في الفيزياء النووية من جامعة بكين.

كانـت الإتهامات التي وجهت اليها خطيرة. قيل إن غانغماي، الرذيلة، ارتدت فسـاتين صينية تقليدية ملونة خلال رحلة قامت بها إلى إندونيسيا، وانها تصرّفت «كعاهرة سـوكارنو (Sukarno)». أكثر من ذلك: حتى انها تقلّدت عقدا! إنها قضية عقد الملكة: «قبل الذهاب إلى إندونيسيا، زارتني. في ذلك الوقت، كنت مريضة، في شـانغهاي. قالت لي انها تريد ان تلبس عقدا وفسـاتين مطبوعة برسوم الزهور خلال رحلتها. قلت لها إنه يحق لها ان تأخذ معها عدة فسـاتين، ونصحتها بالأسود، لكنني قلت لها ان عليها ان تتجنّب لبس العقود، كونها عضوا في الحزب الشيوعي[1]..».

---

(1) *Joint Publications Research Services* (مجموعة مطبوعات دائرة البحوث)، نماذج عن الحرس الأحمر (Red Guards samples)، أول آب 1967، ترجمة روس تريل (Ross Ter-rill)، سبق ذكره.

لقـــد كذبت عليها المتعجرفة ذات الأطوار الغريبة، إذ وعدتها بألا تلبس عقدا في آسيا الجنوبية الشرقية. اعتقدت جيانغ انها وجدت العقاب المثالي: البحث عن تلك الفســاتين وإكراهها على لبسها. حصلت على نسخة من الشريط المسجل لرحلة غانغماي، وبالتالي على دليل عن خيانتها لا يمكن دحضه. ما لا شـــك فيه هو ان الفيلم أظهــر أن زوجة رئيس الدولة كانت تلبس عقدا في إحـــدى الليالي في جاكارتا (Jakarta). راحت تتهلّل: «يا إلهي، لقد لبست هذه المرأة عقدا! لقد خدعتني!» أيّدها الجمع بصيحات عالية.

كونهـــا زوجة قائـــد الثورة، كانت جيانغ ترتدي عـــادة ملابس محافظة جدا: ســـروالا رمادي اللون وجلبابا ملائما فوق قميص من الحرير الأبيض. وكانت، كبقية النـــاس، تحتذي صنادل من البلاســـتيك، غير ان صنادلها كانت تتميّز بلونها الأبيض، فتتناسب مع حقيبة يد من البلاستيك نادرا ما كانت تفارقها. كان هذا اللبس الوضيع المعلن يكبرها. لكنها لم تكن تقبل ان تتفوّق عليها أية امرأة. فإذا وقفت إلى جانبها امرأة غربية أطول منها، لم تكن تمتنع عن الإستهزاء بعلوّ كعبها. لقد تعدّت غانغماي الحدود كثيرا.

حُكم على ليو شـــاوكي وغانغماي بالإقامة الجبرية. في أحد الأيام، رنّ الهاتف. رفعت غانغماي السماعة. أنبأتها ابنتها تينغتينغ (Tingting) وهي تبكي بخبر فظيع: لقد أصيبت أختها بينغبينغ (Pingping) بحادث ســـير. هرع الزوجان إلى المستشـــفى: كانت مكيـــدة مدبّرة. كان الحراس الحمر، الذي يأتمرون بأوامر جيانغ، في انتظارهما. حُكم على غانغماي «بالحبس الثوري». تليت عليها طيلة الليل مآثمها، أيضا وأيضا. وكانت تتسلّم جيانغ محضرا كل ساعة.

ثـــم أكرهت غانغماي، أمام الجمهور، على ارتداء فســـتان تقليدي بدا ضيقا عليها، فوق ثيابها المبطّنة – لباسها خلال غزلها المزعوم مع سوكارنو. كما وُضعت على رأسها قلنسوة.

«المدعي العام: إلبسي هذا الفسطان!

وانغ: أرفض ذلك!

المدعي العام: لا خيار لك!

وانغ: ما ألبسه يكفي لاستقبال الضيوف.

المدعي العام: إستقبال ضيوفِ؟ اليوم، أنت المتهمة هنا!

وانغ: لن ألبس هذا الفستان. ليس مليقا.

المدعي العام: في هذه الحال، لماذا لبسته في إندونيسيا؟

وانغ: كنّا في الصيف. [...] لن ألبسه. مهما قلت.

المدعي العام: أكـــرّر. أنت اليوم المتهمة هنا. الويل لك إن لم تكوني نزيهة معنا.

وانغ: حتى لو حكم علي بالموت، لا يهمّ».

كان الفِستان ضيقا، فبدت فيه مفتولة. كانت جيانغ مغتبطة. إضافة إلى ذلك، وضع حـــول عنقها طوقان من كرات الطاولة المذهبة كأنهما عقدي لؤلـــؤ. وطبعا، تمّ تصوير الحدث. ســـجنت غانغماي وعُذبت. ولم يطلق سراحها إلا في 1979. أما ليو شاوكي، فأعدم، وكذلك بعض أولادهما.

بدا بعد ذلك ان لا شيء يمكنه ان يوقف غيرة جيانغ كينغ تجاه النساء اللاتـــي كان من الممكـــن ان يتفوّقن عليها. وهكذا، أقامت الســـيدة ماو المهووســـة دعوى ضد زوجة احد أزواجها السابقين، يو كيواي. في أمسية قارسة البرد من شهر كانون الأول 1966، في قاعة الشعب الكبرى، سيقت

المرأة إلى منصة ملعب. كان شعرها مشعّثا، وقد ثبّت جندي ذراعيها وراء ظهرها. استمتعت جيانغ كينغ بالمشهد. كان إسم المرأة فان جين (Fan Jin)، وكانت محرّرة في جريدة مسائية، بكين *إفنينغ نيوز* (*Pekin Evening News*)، وكذلك معاونة لرئيس بلدية المدينة. من جرائمها انها نشرت، في الفترة ما قبل الماوية (maoïsme) أوائل السنوات 1960، قصيدة تتكلم عن الغيم والمطر. بيد انه، في الأدب الصيني، كان هذان العنصران يوحيان بالعلاقات الجنسية. إذن، كان مغزى القصيدة ان جيانغ كانت عاهرة وُضعت في سرير ماو.

وجريمة فان جين الأخرى، شبه المجهولة لكن لا تغفر في نظر جيانغ، هي انها خلِفتها في أحضان يو كيواي. فهل كانت ما تزال تحبه، أم أن دواعيها كانت فقط التسلّط والغيرة؟ أما فان جين، فقد أخلصت له حتى مماته، سنة 1958. بعد ذلك، تزوجت من ضابط طيران. فأجبر هذا الأخير على الطلاق منها، فيما ألقي القبض عليها. تكلمت قليلا، فلقيت حتفها.

هكذا أصبحت نزوات جيانغ هي الشريعة في الدولة الشيوعية الجديدة.

سنة 1969، ألغي الفريق المحدود الذي كان يتشكل من معاوني ماو الأمناء، غير أنه أبقى زوجته في متناول يده، وجعل منها حارسته الشرسة. لم تعد تشغل اي وظيفة إدارية. لكن من حسن الحظ ان وضعها كان يتيح لها بعض التسليات المحرّمة على الشعب: كانت تمضي أوقاتا طويلة في اللعب مع حيواناتها، ومنها قرد، وتركب الخيل في حديقة بايهاي (Beihai)، وسط بكين. وتتمتع في المساء بجلسات عرض خاصة لأفلام أجنبية.

كان نمط عيشها باهظ التكاليف بقدر ما كان مفرطا. كانت مولعة

بفـــن التصوير، وأرادت ان تخلّد صورا بحرية جميلة. فأمرت بأن تجول في البحر سفن حربية على طول الشاطئ لكي تحصل على الموضوع الملائم. كان يجب تدفئة مسـبحها في كوانجو (أو صِين كَلان) باسـتمرار، حتى ولو اقتضى الأمر ملأه بالمياه عبر أنابيب خاصة تمتدّ على طول عشـرات الكيلومترات. عندما تحل بكوانجو موجة برد عابرة، كان على المستخدمين المكلفين بصيانة تسـخانة منزلهـا التي تعمل على الفحم ان يزحفوا تحت النوافذ كلما مرّوا أمام غرفة الإسـتقبال، حتى لا تعكّر التحرّكات الخارجية صفو سكينتها. وبما ان الدارة كانت مجاورة لإحدى الورشات، كان يُحظّر على سلاح الهندسـة المتعهّد بالأشغال اسـتعمال مادة الديناميت: لعلّ الإنفجارات تفزعها. فيتوجّب مواصلة أعمال التأسيس بالمعول. كان يجب ان يكون هنـاك في كل وقت طائرات جاهزة لتلبية رغباتها، لتأتي مثلا من كوانجو بسـترة أحبّت فجأة ان تلبسها: «كي استطيع ان ارتاح كما يجب وان أستمتع، من الطبيعي التضحية بمصالح أناس آخرين».

عدا عن النزوات، كانت جيانغ تعرف كيف تغوي رجلا مثل ماو. حتى وهي في اللباس المفضّل لدى الشـيوعيين، كانت تنجح في إبراز مفاتنها: تُظهر خصرها النحيف بحزام ضيق، وتُري شـعرها الكثيف بأن تلبس عمرة عسكرية تميلها بوقاحة.

ودام الإغراء. بعد سنوات على زواجهما، أهداها ماو قصيدة ذات شبقيّة واضحة:

«تهزّ الريح الصواري.

جبال السلحفاة والحيّة لا تتحرّك.

مع ذلك، فإن المشروع ضخم،

سينطلق جسر، من الشمال إلى الجنوب،
ويفتح طريقا حيث كان خندق.
في الغرب، سيقوم سدّ من الحجارة
يعترض طريق الغيوم وأمطار جبل وو (*Wu*).
فترتفع بحيرة مياه هادئة في الشِعاب الضيقة.
يا آلهة جبل وو، إن كنت ما زلت هنا،
ستُعجبين بتحوّلات هذا العالم[1]!»

ربما كانــت جيانغ كينغ تجهد خارجيًا للتخلّص من منافســاتها لأنه لم يكن لها حيلة بشــأن ما يجري داخل أسرتها، حيث كانت المنافسات كثيرات. كان لماو عدد كبير من العشــيقات. تظاهــرت وقتا طويلا بأنها لا تلاحــظ شــيئا. كان الجميع في البلاط على علم بذلــك وبدوا كأنهم يســخرون منها. اللعنة على أولئك الممرّضات! ليتها تستطيع القبض على واحدة أو إثنتين منهن، لجعلتهما تقلعان عن سلوكهما...

الغيرة

أمضــى ماو ليلة عيد ميلاده الخامس والســتين فــي الفراش، فمثله في الوليمة التي أقيمت على شــرفه عدة أعضاء مــن الصفّ الأول (Premier Groupe). هذا ما رواه طبيبه الخاص.

«كان علــي كالعــادة ان أقدّم له تقريري بعد ذلــك على الفور. كانت المأدبة فاخرة، وغإلى الجميع في الشــرب نخبه بقدر ما أفرطوا في الأكل.

(1) السباحة (*La Nage*)، من تأليف ماو في 1956.

شربت إلى درجة اني ذهبت إلى الفراش دون ان أدلي بتقريري إلى ماو. بعد قليل، أيقظني لي ينكياو (Li Yinquiao) وتوجّهنا فورا إلى بكين[1]». لماذا هذا الرحيل العاجل؟

أفاقت جيانغ كينغ من النوم في الليل؛ أرادت كوبا من الماء وحبّة منوِّم أخرى. وإذ لم تستجب لندائها الممرّضة، ذهبت إلى غرفة الحراسة. لم تجد الممرضة هناك. ما أكّد شكوكها. هرعت إلى غرفة ماو ورأت المرأة الشابة وزوجها متعانقين.

لأول مرة في حياتها، شاجرت جيانغ كينغ ماو. تحت تأثير الغضب، انهالت عليه باللوم، وذكّرته بحادثات مماثلة أخرى. ما كانت ردّة فعل ماو على هياج جيانغ كينغ؟ عاد إلى بكين على الفور، وترك زوجته في كوانجو، تستعيد هدوءها.

وسرعان ما ندمت جيانغ كينغ على سورة غضبها. أرسلت لماو كلمة مقتضبة استشهدت فيها بمقطع من *رحلة نحو الغرب* (*Pérégrination vers l'Ouest*)، أكثر الروايات الصينية القديمة شعبيّة، «جسدي في مغارة ستار المياه، لكن قلبي يتبعك حيث تكون[2]». فُتن ماو لدى قراءة هذه الكلمات بخطّ زوجته. على كل حال، ألم يكن هو أيضا أعظم الأبطال، تشكل مآثره ملحمة الصين الحديثة؟ هو أيضا واجه آلاف المخاطر.

---

(1) حياة ماو الخاصة يرويها طبيبه (*La Vie privée de Mao racontée par son médecin*)، باريس، بلون (Plon)، 2006.

(2) وو شانغان (Wu Cheng'en)، التجوال نحو الغرب (*La Pérégrination vers l'Ouest*)، باريس، غاليمار (Gallimard)، «مكتبة النجوم» (« Bibliothèque de la Pléiade »)، 1991.

وعلاقة غرامية مع ممرضة أمر ضروري لمواساته.

كان قد أعلن لأدغار سـنو (Edgar Snow) سـنة 1936: «أنا لا أهتمّ للنسـاء». غير ان ذلك يتعـارض مع ما يذكره طبيبـه الخاص. روى هذا الأخير: «سـرعان ما أدركت أنه كان ينشغل بالجنس إلى أعلى درجة. كان يهتمّ كثيرا، مثلا، بحياة غاو غانغ (Gao Gang) الجنسـية». كان الحاكم السابق لمنشـوريا قد انتحر بعد ان اتهم، سنة 1954، بإنشاء تحالف ضد حزبـه. خلال محادثاتهما، لم يكـن يتطرّق ماو أبدا إلى أخطاء غاو غانغ السياسـية. ما كان يسـتهويه، بدلا عن ذلـك، كان أن غاو أقام علاقات جنسية مع اكثر من مئة امرأة. ويعلّق الطبيب على ذلك بالقول: «وكان يهتمّ كثيرا بالوسائل التي استخدمها غاو من أجل استمالة هذا العدد الكبير من الشـريكات». كان مدير الدفّة الكبير (Grand Timonier) معجبا به. قال ماو: «لقد مارس الجنس مرتين ليلة انتحاره. هل يمكن تصوّر شبق كهذا؟»

من الإعجاب إلى الممارسـة، مسافة خطوة. اعتمد ماو في ممارسته - المكثفـة - للجنـس مذهب الطاويـة (taoïsme). لم تعد تناسـبه الكونفشيوسية (confucianisme)، القائمة على قواعد تشدّد على الفصل بين الجنسـين. بدت له الطاوية مشوّقة اكثر: فهي تعتبر الجنس من أحد أسسـها. وتقول إن الجنس يمنح القوة ويطيل العمر، إنه لمذهب رائع! وهكذا سـيضع مدير الدفة الكبير نظرية دقيقة عن دور الجنس في حياته وعمله السياسـي، مع بعض التعديلات الشـخصية، نتـرك للقارئ حرية النظر فيها.

كانت عشيقات ماو شـابات مبتدئات، فكنّ يستشرن طبيبه الخاص. مـن أجل تهيئتهنّ للقيام بدورهن، كان هذا الأخير ينصحهنّ بقراءة نموذج

الطريق السرّية للفتاة العادية (*Le Classique de la voie secrète de la jeune fille ordinaire*). وكنّ يحببن هذا التعليم على ما يبدو. أسرّت إليه إحداهن يومـــا، وهي تتكلّم عن مآثر الرئيس الباهرة: «يكاد كل ما يفعله لا يصدّق، ومثير إطلاقا».

كانـــت المتنافســـات كثيرات، لكـــن اللاتي يصلن إلـــى غرفة ماو قلّـــة. كانت خدمة متعة الرئيس الجنســـية بالنســـبة لهن موضع فخر لا مثيـــل له، يفوق أكثر أحلامهن مغـــالاة. كانت عملية الإختيار صارمة: فيجـــب التأكد من ان الشـــابات كـــنّ يُعجبن كثيرا بمـــاو. كلهن كنّ يتحـــدّرن من عائلات ريفية فقيرة، تدين بكل شـــيء للحزب، وترى فيه مخلّصها.

كانت الترقية عظيمة بالنســـبة لأولئـــك الفتيات من أصل وضيع! قضاء بضعة ســـاعات فـــي غرفة الرئيس كانـــت تجربة لا يمكنهن نســـيانها في حياتهن. بالنسبة لأغلبية الصينيين، كانت رؤية ماو هنيهة على منصّة ساحة تيانانمن (Tiananmen)، وهو ســـاكن الجوارح، بمثابة امتياز نادر، ولحظة شـــبه روحانية. خلال الثورة الثقافية، كانت ثمرات المنغا (mangues) التي كان مـــاو يهديها للعمّال تتحوّل إلى موضع عبادة؛ والمياه التي غليت فيها قطعة من هذا الثمر تعتبر كالإكسير السحري. فكيف مضاجعة ماو العظيم! غير ان ذلك كان يتطلّب نفســـا لا تتقـــزّز. إذ ان ماو، في الواقع، لم يكن يهتم بنظافة جســـده. لم يكن يفرك أسنانه أبدا، بل يكتفي بأن يتمضمض بالشـــاي في الصباح، ويمضـــغ الأوراق بعد تجرّع الســـائل. وقد قاوم كل من حاولوا إقناعه بالخضوع لفحص طبيب للأســـنان. يعطينا بانغ ديهواي (Peng Dehuai)، أحد كوادر الحزب ووزير الدفاع الســـابق، فكرة عن مدى

الأضرار: «كأن طبقة من الدهان الأخضر تطلو أسنان الرئيس»[1].

كما أنه لم يكن يستحمّ، معتبرا ذلك ضياع وقت. بدلا من ذلك، كان معاونوه يفركون جسده بمناشف ساخنة رطبة كل مساء، فيما كان يدقّق النظر في الوثائق، أو يقرأ او يتناقش مع أحد. وقد لاحظ طبيبه الخاص انه لم يكن يغسل ايضا أعضاءه التناسلية. وكان يجيب: «إني أغتسل في جسد النساء».

بيد ان ماو كان رجلا سليم الذوق. فلم يكن في الواقع يولي جميع النساء الشابات اهتمامه. كان يشتهي الراقصات. وليضمن توفّرهنّ الدائم، كلّف سكرتيره الخاص[2] بتزويده بنساء من منظمات الفن الشيوعي. كان يستبقيهن هذا الأخير في منزله بانتظار ان تنام زوجة مدير الدفّة. ثم يقودهن خفية إلى غرفته، على ان يتوارين ما أن ينتهي من مضاجعتهن. إذ كان ماو يخشى مشاجرات زوجته.

كان كل شيء معدّا لاختيارهنّ. تنظم حفلات راقصة في قاعة استقبال الشعب. يرقص فيها مئة المدعويين الفوكس تروت (fox-trot) او الفالس (valse). يقال للبنات إنه تمّ اختيارهن ليراقصن ماو خلال الحفل. كان بعض أعضاء الحزب يرون في ذلك شرفا عظيما فيأتون ببناتهم أو بأخواتهم. وقد ذهب ماو إلى تأليف فرقة راقصات خاصة به، كي يتزوّد متى شاء،

---

(1) بانغ دهواي (Peng Dehuai)، *Peng Dehuai nianpu* (تسلسل بانغ دهواي الزمني)، بكين، دار نشر وانغ يان (Wang Yan)، رنمين شوبانش (Renmin chubanshe)، 1998.

(2) ذكريات يا زيلونغ (Ye Zilong's Memoirs)، 2000، مطبعة المحفوظات المركزية (The Press of the Central Archive).

«فرقة العمل الثقافي لوحدة الموقع العسكري المركزي». في 9 تموز 1953، تلقّى الجيش الأمر بانتقاء نســـاء شابات من فرقه الإستعراضية. وباشر بانغ ديهواي، القائد الأعلى (للقوات العســـكرية)، بعمليـــة «اختيار الخليلات الإمبراطوريات».

مع مرور الوقت، لم يعد أحد يغفل عن طبيعة تلك الســـهرات وعن دور بعض الفتيات اللاتي يحضرن فيهـــا. كان ماو يراقصهنّ حتى الثانية فجرا، قبل موافاة زوجته أحيانا.

كان ميـــل ماو إلى الممرّضات الشـــابات وغيرهن مـــن الراقصات يثير سخطها. كانت ترى المرشّحات يتتالين بمناسبة هذه «السهرات الراقصة». وإذا كانـــت جيانغ كينغ تحافظ علـــى مكانتها أمام الملأ، فلم تنخدع. في أحد الأيام راحت تلعن إحدى المجنّدات الجدد، وأسرّت إلى طبيب ماو: «أنـــت لا تعرف الرئيـــس، يا دكتور. إن حياته الجنســـية حرّة تماما. اللذة الجســـدية لديه منفصلة عن نشاطه الفكري، وهناك دائما نساء مستعدّات ليصبحن فريسته».

لم تعد الشكوك تنتاب جيانغ، بل اليقين. بعد حادثة الممرّضة، داهمته اكثر من مرة وهو في الفراش مع نساء أخريات. فشعرت بذلّ مرير، هي التي طالما كان الرجال الذين صادفتهم يشـــتهونها. باتت عاجزة أمام خياناته. في أحد الأيام، وجدها طبيب ماو جالسة على مقعد، تبكي، أمام بوابة منزلها. «طلبت مني ان أقســـم لها أني لن أخبر أحدا عن دموعها. قالت، لا أحد، ولا حتى ستالين (Staline)، يستطيع التغلّب على زوجها في النضال السياسي، كما أنه لا يمكن لأي امرأة ان تحظى بقلبه أبدا». كلّما أصبح ميل زوجها إلى الصبايا يظهر اكثر فأكثر، كلّما انتابها الرعب في أن يتخلّى عنها.

فيما دخلت جيانغ كينغ مرّة المستشفى، تعرّف ماو إلى موظفة جديدة في مكتب الشؤون السرّية. امرأة بشرتها بيضاء، لها عينان سوداوان وحاجبان رفيعان، كما يحبّهما. لفتت تلك المرأة انتباه الرئيس إذ روت له أنها دافعت عنه، في المدرسة الإبتدائية، فيما انتقده رفاقها، وأنها عوقبت على ذلك. بدآ يظهران سوية في كل ساعة من النهار او الليل. حتى انها رافقت ماو في إحدى رحلاته إلى شانغهاي. كانت خليلته الأولى التي لم يحاول ان يخفيها عن جيانغ. الأمر الذي جرحها اكثر. كانت الفاسقة فخورة لكونها سرّيّة ماو، فتتصرّف بودّ ولطف أمام زوجة الرئيس. وكانت جيانغ كينغ تغرّر بها، حرصا منها على دورها السياسي. فقد انتهى بها الأمر إلى التسليم بما ليس منه مفرّ.

في السنوات 1970، انتقمت جيانغ كينغ لنفسها سرًا في المجال الجنسي. عندما اتخذ ماو لنفسه عشيقة اسمها زهانغ يوفنغ (Zhang Yufeng)، وكانت تعمل مراقبة في القطار، تعرّف اليها خلال إحدى رحلاته، تشجعت وراحت تلتقي من وقت إلى آخر ببطل شاب في كرة الطاولة، كوفئ على ذلك بأن شغل منصب وزير الرياضة لفترة وجيزة[1].

كان الزمن حليفها. بدأ ماو يتقدّم في السن، وجيانغ تعيش حياة بذخ وترف. في صيف 1974، تجرّأت علنا، فصرّحت أمام جمهور من النساء، في تيانجين (Tianjin): «لماذا لا يكون للمرأة خُلان؟»

---

(1) كان زهوانغ تسي تونغ (Zhuang Zedong) لاعب كرة الطاولة صيني، ولد سنة 1940. بطل العالم ثلاث مرات في ستينات القرن العشرين، أصبح فيما بعد شخصية سياسية، بفضل وساطة جيانغ كينغ (Jiang Qing).

كان لمـــاو وجيانـــغ كينغ ذوقان مختلفان في الغـــرام. لم يكن ماو في شـــيخوخته يبحـــث عن بنات ذكيـــات او شـــهيرات: كان يكفيه ان يكنّ جميلات مبتدئات. أما جيانغ، فكانت ترغب في ان يمنحها عشاقها أكثر من اللذة الجنســية. كانت تختار عازفا على البيانو او كاتبا شـــابا واعدا. وبذلك ربحت جيانغ معركة الجنس بصبر وطول أناة. في عزّ الثورة الثقافية، كان الزوجـــان قد عزفا منذ زمن طويل عن اي علاقة جنســـية، غير ان ماو لم يشـــكُ من تقصير مع النساء الشابات اللاتي كان يضاجعهن. في ذلك الوقت، كانت فكرة العُنّة تلازمه. وصفت له حقن من مسحوق قرن الأيل. وكان هناك طبيب روماني، الدكتور ليبشينســـكايا (Lepshinskaya) يقترح طريقة علميّة أكثر، ســـمع بها ماو. كانت وصفته، واسمها «فيتامين هـ3»، تحقن يوميا. حقنت الوصفة في الإلية الرئاسية خلال ما قارب ثلاثة أشهر. ويحدّد طبيبه: «وإذ لم نلحظ اي نتيجة، أوقفنا العلاج[1]».

لكن، هل كان من الممكن ان تدوم هيمنة جيانغ كينغ، التي اكتســـبتها بســـوء معاملتها وخيانتها لأصدقائها ولأعضـــاء نافذين في الحزب؟ كانت النزاعـــات السياســـية تحتدّ في قمة التراتبية الصينية. واســـتمرت جيانغ في عمليـــات التصفية في محيط ماو، وكانـــت ترمي إلى أبعد من ذلك. لماذا الإكتفاء بكونها زوجة القائد الأعلى؟ لماذا لا تخلفه؟

الخلافة المشؤومة

مع وفاة شـــو إنلاي (Zhou Enlai)، في 8 كانون الأول 1976، باشرت

---

(1) هذه التفاصيل ايضا أعطاها لي زهيسوي (Li Zhisui)، طبيب ماو، سبق ذكره.

جيانغ كينغ بالمرحلة الأخيرة لمسار جدير بأكبر الخبراء الاستراتيجيين. في غرفة الإنتظار حيث توزّع القادة، لم يتمالك نفسه احد معاونيه القدامى، في التسعين من العمر، إذ رأى جيانغ لينغ لا تكشف عن رأسها أمام سرير الميت، فنهرها قائلا: «ألم تسيئي بعد للناس بما فيه الكفاية؟ وخلال الثورة؟ ألا تذكرين، في يانان (Yanan)، حينما أتيتما أنت وماو لزيارتي في المساء، وتوسلتما إلي لكي أسمح لكما بالزواج، انك قلت أنك لن تتعاطي السياسة قط؟» صمتت جيانغ. ختم البطل العجوز، وهو يختنق غيظا: «لستِ حتى كائنا بشريا[1]».

لم يكن ذاك حكم شيخ خرفان. إذ كان يشاطره إيّاه الشعب، الذي كان يرى في رئيس الوزراء المتوفي رجلا معتدلا، وأبرز عضو في الحكومة، ودرعا واقيا من جنون جيانغ المدمِّر. نزلت في شوارع المدينة مظاهرات تكريم لشو إنلاي، امتازت بالمهابة والجلال. لكن السنوات التي قضتها جيانغ في الدسيسة في بلاط ماو كانت قد أبعدتها عن الشعب وعن مشاعره.

في ساحة باب السلام السماوي، كُتبت على عجلة قصائد تندّد بجيانغ كينغ: «السيدة فلانة (X)، أنت حقا مجنونة. تطمحين إلى ان تكوني إمبراطورة/ خذي هذه المرآة/ وانظري إلى شكلك.../ أنت تخدعين رؤساءك/ وتستغلّين مرؤوسيك/ لكن الأيام السعيدة/ لن تدوم لأمثالك».

ارتكبت جيانغ خطأ إذ أمرت برفع أكاليل الرحمة ونزع النصوص التي زيّنت نصب أبطال الشعب. فكانت النتيجة ان تحوّلت المظاهرة لذكرى الفَقدى، الحماسية ولكن المنظّمة، إلى فتنة دامت أربعة عشرة ساعة،

---

(1) « Shidai piping » ، تايبيه (*Taipei*)، الجزء 24 الرقم 7 : 10.

وضمّت لا أقل من 100000 شخص. أحرقت فيها السيارات ووقع عدد كبير من الجرحى وبعض القتلى.

اســتغلت هذه الفتنة لتتهم منافســا سياســيا آخر لها، دينغ شياوبينغ (Deng Xiaoping)، وراحت تصيح: «يريد دينغ شياوبينغ ان يحتجزني في الجحيم! إنه أسوأ من خروتشوف (Khrouchtchev) بكثير! يريد هذا الرجل ان يتتوّج، أن يعلن نفسه بنفسه إمبراطورا[1]!»

أرادت جيانغ منع تعيين دينغ رئيسا للحكومة بدلا من شو إنلاي. فترمي عصفورين بحجر واحد بأنتتخلّص من الإثنين في الوقت نفسه. صدّق ماو مزاعم زوجته فأقصى دينغ شياوبينغ عن الحكم.

يبــدو أنها أصبحت تمضي أوقاتا طويلة في شــقتها القديمة المتاخمة لشــقة ماو، اكثر مما اعتادت عليه منذ ســنوات عديدة. كان ماو مريضا، يــكاد لا يخرج من منزله ابــدا. ما زاد من تأثير جيانغ عليه. فعزلته تدريجيا عن معاونيه. وضعت خطوط الهاتف تحت المراقبة، وراحت تدقّق في كل الوثائق التي تصله، وبدّلت المترجمين الذين لم يروقوا لها.

بعد موت شو وإقصاء دينغ، ارتاحت جيانغ كينغ لوضعها كخليفة لماو. أقرّ هذا الأخير بشــرعيتها عبر قصيدة أرســلها خلال صيف 1976: «لقد عوملت ســوءا. اليوم ننقســم إلى عالمين. ليكن كل منّا بسلام. في نضال السنوات العشــرة الأخيرة، حاولت ان أبلغ ذروة الثورة، لكني لم أفلح. أما أنت، فيمكنك ان تدركي القمة[2]». لم يعد هناك ما يعترض طريقها.

---

(1) «مسائل ودراسات» (« *Issues and Studies* »)، تايبيه (*Taipei*)، تشرين الثاني 1977.

(2) مانشستر غارديان (*Manchester Guardian*)، 7 تشرين الثاني 1976.

عند وفاة ماو، في 9 أيلول 1976، بدت جيانغ كينغ في الوضع الأفضل لخلافته. لكن كان لها منافسان: هوا غيوفينغ (Hua Guofeng)، الذي عيّنه القائد كخلفه الرسـمي. ودينغ شياوبينغ، الذي فقد حظوته رسميا، غير أنه كان يتمتع بدعم كبير لدى العسـكريين. بادرت بالتحدّث إلى هوا غيوفينغ تطلـب منه ان يدعو اللجنة الدائمة للمكتب السياسـي إلى الإجتماع من أجل فصل دينغ شـياوبينغ عن الحزب. رفض هوا. فكان لا بد من نشوب حرب. التفتت جيانغ سرّا إلى ابن أخيها، ماو يوانكسين (Mao Yuanxin)، فاستقدم إلى بكين 10000 رجل من شمال شرق البلاد.

باشـر الفريقان بالمعركة في نفس الوقت: حشـد هـوا غيوفينغ ودينغ شـياوبينغ بدورهما رجالا. انتشـرت وحدة من المشـاة وفرقتان مدرّعتان قرب السـور الكبير (la Grande Muraille)، وثالثة في ضواحي بكين. دُبِّر لانقلابين. بقي ان يُعرف أيهما سيسبق الآخر.

في النهاية، ألقي القبض على جيانغ كينغ مسـاء 6 تشرين الأول. وكان أقـرب معاونيها قد أوقف قبل ذلك بسـاعة. لم تتأخر ردة فعل الشـعب على نبأ سـجنها. ظهرت في كل مكان صور هزلية، لم يرسـم فيها اسـم جيانغ كينغ بخطوط الفرشـاة بل بعظام هيـاكل. صُوّرت الأرملة في الثانية والسـتين من عمرها بشكل ساحرة خبيثة، تمدّ لسـانها، تمسك الحقيقة بيدها اليسـرى والأكاذيب بيدها اليمنى. كما رُسمت أمام مرآة، لها ذنب حورية ماء، تومئ شـفتاها المفتوحتان قليلا بمصّ ذكر رجل. تظاهر الناس في شوارع بكين يصيحون: «عشرة آلاف سكين في جسد جيانغ كينغ!»

بدأت سـنة 1980 محاكمة الخائنة التـي كان الجميع ينتظرونها بفارغ الصبر. خلال الجلسـة، تبجّحت وأطلقت الشـتائم. عندما بدأ القاضي

يستجوبها عن إيقاف ليو شاوكي ووانغ غانغماي، استرسلت في خطاب مطوّل تبرر فيه شرعيته. توقفت في نصف خطابها وطلبت بأن تقاد إلى المرحاض. تـوارت خلف باب بيت الخلاء ثم أقفلته، ومرّت ربع ساعة ولم تخرج. ما أقلق الشرطيات اللاتي صحبنها: ترى، هل انتحرت؟ أخيرا، ظهرت جيانغ كيتغ من جديد متمهّلة، وأعيدت إلى مكانها[1].

بعد ان تسلّطت أنظار الجميع عليها بفضل هذا الدخول الملحوظ، توجّهت إلى رئيس المحكمة: «لماذا تقاطعني باستمرار؟ فضلا عن أنّ ما تودّ قطعه هو رأسي!»

كان دفاعها عن نفسها على أقل تقدير غريبا:

«لم يكن لي يوما برنامج خاص بي. كل ما فعلته هو أني طبّقت ودافعت عن قرارات وتعليمات اللجنة المركزية للحزب. كل ما فعلته هو أني طبّقت ودافعت عن خط الرئيس ماو الثوري العمّالي. [...] أنتم حقا كمن يبحث عن ظلّه! [...] تتجرأون وتخلطون بين القتلة وبين الذين كانوا ضحيتهم! لا تنسوا أن الضحية التي تدّعون انها قاتلة كانت زوجة الرئيس ماو خلال ثمان وثلاثين سنة، يوما بيوم! عدا عن السنوات التي عشناها معا قبل زواجنا! خلال كل هذه الفترة، كنا معا في الأفراح والأتراح. خلال سنوات الحرب، كنت أنا المرأة الوحيدة التي تبعت الرئيس ماو إلى جبهة القتال! وأنتم، اين كنتم مختبئين آنذاك، هيه؟»

أمام 36 قاضٍ وجمهور مؤلف من 600 شخص، حكم على جيانغ كينغ بالإعدام في 25 كانون الثاني 1981. اتخذ القرار دينغ شياوبينغ،

---

(1) روته في اليوم التالي زهنغمينغ (*Zhengming*)، صحيفة هونغ كونغ (Hong Kong).

الذي كان قد أمسك بزمام الحكم. مُنحت مهلة سنتين للتفكير: فإذا هي تابت، نجت من الموت. رفضت، فاستبدل الإعدام بالحكم عليها بالسجن المؤبد. لربما ساهمت الأيام في عودة هذه الروح المضطربة إلى رشدها. لكن جيانغ كانت قد صممت أن تغادر ببهاء اكبر. أرادت أن تقوم بتمثيل فصل مسرحي أخير. انتحرت في 14 أيار 1991. لكي تُحرم من اي مفخرة جنائزية، لم يعلن دينغ شياوبينغ عن خبر موتها إلا بعد سنتين من تاريخه. وهكذا أخلت المسرح مرورا بالكواليس.

7

إيلانا تشاوتشيسكو (Elena Ceausescau):

ترف وسكينة وجهاز أمن (الشرطة السرية Securitate)

«رومانيا اليوم معروفة في الغرب أكثر من برج إيفل،
ومحترمة أكثر من ملكة إنكلترا.
وكل هذا، بفضل الرفيق وبفضلي أنا».
إيلانا تشاوتشيسكو

حقنة أخيرة للطريق

بوخارست (Bucarest)، يوم عيد الميلاد 1989[1]. في مبنى وزارة الدفاع

(1) حسب المعتقد الرسمي. حسب رادو بورتوكالا (Radu Portocala)، (إعدام الزوجين تشاوتشيسكو *L'Exécution des Ceausescu*، باريس، لاروس، 2009)، جرت المحاكمة في السرّ قبل ثلاثة أيام. رادو بورتوكالا هو الصحفي الذي ترجم وعلّق مباشرة على شاشات التلفزة الفرنسية صور محاكمة وإعدام الزوجين تشاوتشيسكو، التي بُثت منذ رومانيا.

الذي تحوّل باختصار إلى محكمة، يقرأ النائب العام القرار الإتهامي:

«جرائم ضد الإنسانية. لقد اقترفا أفعالاً لا تتفق مع الكرامة الإنسانية والفكر الإجتماعي. لقد تصرّفا بطريقة إستبدادية وإجرامية. لقد دمّرا الشعب الذي ادّعيا أنهما قادته. بسبب الجرائم التي اقترفاها ضد الشعب، أطالب بإسم ضحايا هذين الطاغيتين عقوبة الإعدام للمتهمين[1]».

قبل ذلك بقليل، كان المدعي العام قد اتهم الثنائي نيكولاي (Nicolae) وإيلانا تشاوتشيسكو بتنظيم حفلات فخمة في منزلهما الريفي. قال إن تفاصيل تلك الإحتفالات معروفة: ولائم وألبسة فاخرة مجلوبة من الخارج، «أسوأ مما كانت عليه الحال في عهد ملك رومانيا السابق». وذكّر المدعي العام في الوقت نفسه بأنه، خارج القصر، كان الناس يحصلون على حصة غذائية قدرها 200غرام في اليوم.

تابع يقول:

«كل مواطن شريف يعلم جيداً أن ليس لدينا أطباء وأنكما قتلتما أطفالا وأشخاصاً آخرين بالطريقة نفسها، وأنه ليس هناك ما يؤكل، ولا كهرباء.

كان الثنائي منزوياً في آخر القاعة الخالية من أية زخرفة. وضعت طاولتان في الزاوية ترمزان إلى وضعهما كمتهمين وتشكلان مسبقاً سجناً ضيقاً من حولهما. بدت إيلانا وكأنها أخرجت من سريرها. يلفها معطفها الجلدي السميك الأسمر بقبته الفرو البنية، وزينتها الوحيدة منديل أزرق معقود بعجلة حول العنق، وشعرها معقوص بشكل مهمل. بدت عجوزاً نظرتها شاردة ومذعورة. أما مظهر الدكتاتور المخلوع فكان أكثر مهابة: ما زال

---

(1) نورد بدقة النص الكامل للمحاكمة.

يرتدي بدلة بثلاث قطع ومعطفاً أسود أنيقاً. وحدها ملامحه كانت تعبّر عن خطورة الموقف. كان أمامهما على طاولة الخشـــب المعاكس شيء واحد: مغلف موضوع أمام إيلانا... لم يسعها الإمتناع عن النظر إليه ولمسه، كما لو أنها أرادت التحقق من أنه لا يزال في مكانه.

ازدادت الإتهامـــات وضوحاً ودقة: «من أمر بحمّام الدم في تيميشـــوارا (Timisoara)؟» رفـــض نيكولاي أن يجيب. «مـــن أمر بإطلاق النار على الجمهور؟ قولا لنا!» وشوشـــته إيلانا قائلة: «إنســـهم. ترى أنه يســـتحيل التكلم مع هؤلاء الناس».

تابع النائب العام قائلاً: «حسب علمنا، سقطت 34 ضحية».

انتحبت إيلانا: «ويســـمّون هـــذا إبادة جماعية..». وهزّت برأســـها، ممتعض.

حاول النائب العام أن يقوض اســـتقرار الرفيقـــة الناقمة إيلانا: «لم يعد أحد يريد القيام بأي شـــيء من أجلكما الآن». تمتمت بشيء ما في أذن زوجها. قـــال النائب العام متهكماً: «كانت إيلانـــا تثرثر دائماً، لكنها لا تعرف أن تفعل شـــيئاً آخر. رأيتُ أنها تكاد لا تقرأ بشكل صحيح، وتقول إنها جامعية».

كان نيكولاي موجودا هناك لحمايتها: وضع يده أمام وجهها، فأبعدها رمزيـــاً عن متهِميها وحثّها على عدم الإجابة. ثم دفع بيديه إلى الأمام تعبيراً عن احتقاره التام لهذه المحاكمة «التي ينظمها خونة الغرب».

إيلانا تشاوتشيسكو: «ستسمع نخبة مثقفي هذا البلد بما تتهموننا».

النائب العام: «يعلم العالم منذ الآن ما يجري هنا».

رفـــع نيكولاي إصبعاً متهماً باتجاه القضاة: «أكلمكم كمواطن عادي،

وأقـــول لكـــم إني رئيس رومانيـــا [...] أنا رئيس الشـــعب، لن أتكلم مع مستفِزِّين محرِّضين، كما لن أتكلم مع الإنقلابيين والمرتزقة».

النائب العام: «نعم، لكنك تدفع للمرتزقة».

إيلانا تشاوتشيســـكو: «لا يمكن تصديق هذا الذي يخترعونه، أمر لا يصدَّق».

نيكـــولاي: «هـــل يعقـــل أن نُرهَـــق إلـــى هـــذه الدرجـــة؟» علـــى وجهه عبارة تنازل متعجرف وابتســـامة احتقـــار عريضة لا يفارقاه إلا عندمـــا ينظر إلى إيلانـــا. يحيطها بنظره ويحاول طمأنتها. كان يمســـكها بيدها مرارا ويشد عليها للحظات. وتُستأنَف المبارزة:

النائـــب العـــام: «لنتكلم الآن عن حســـاباتك في سويســـرا يا ســـيّد تشاوتشيسكو «.

إيلانا تشاوتشيسكو: «حســـابات في سويسرا؟ قدموا لنا البراهين على ذلك».

نيكولاي تشاوتشيسكو: «لم نملك حسابات في سويسرا. لم يفتح أحد حسابات. هذا يدل على فداحة خطئكم. يا للتشهير، يا للإستفزازات! إنه انقلاب!»

كانت إيلانا حتى ذاك الوقت مجرّد مشاهدة، لكنها خرجت من سباتها وهددت القضاة بيدها، كما تهدد الأم طفلاً ورشـــاً بالعقاب. ودائماً أمامها هـــذا المغلف الذي لم يغب عـــن انتباهها. ربما كان يحتـــوي على أرقام الحســـابات في سويسرا؟ أو على لائحة بأسماء خونة النظام؟ كان الخناق يشتد. توجه النائب العام إلى إيلانا: «كنت مستعدة دائما للتكلّم، بصفتك عالمة. كنتِ أهمّ مساعدة، والرقم الثاني في الحكومة. هل كنتِ على علم

بالإبادة الجماعية في تيميشوارا؟»

قالت إيلانا تشاوتشيسكو: أية إبادة جماعية؟ على كل حال، لن أجيب على أي سؤال»، وبدّدت بيدها هذه الإتهامات.

النائب العام: «هل كنتِ على علم بالإبادة الجماعية، أو أنك لم تكوني تهتمين إلا بالأجســـام المكثفة، بصفتك عالِمة كيميائية؟ أنتِ العالمة، هل كنت تعلمين؟

أمـــام صمت الرقم الثاني في نظام رومانيا، قرر القاضي أن يمســـها في الصميم، إذ كان يعرف ما هي نقطة ضعفها: ســـمعتها كعالمة. ســـيكون دفاعهـــا عن هـــذا اللقب الذي افتخرت به طيلة عهدهـــا أحدّ وأعنف من المناضلة من أجل حياتها.

النائب العام: «ومن كان يكتب لك أوراقك، يا إيلانا؟»

أجابت إيلانا تشاوتشيســـكو بلغة تقريبية: «يـــا للوقاحة! أنا عضو في أكاديمية العلوم. لا يمكن أن تكلمني بهذه الطريقة!»

النائب العام: «أيعني هذا أنك لم تكوني تعلمين شيئاً بخصوص الإبادة الجماعية، وأنت نائبة رئيس الوزراء؟ [...] أهكذا كنت تعملين مع الشعب وتمارســـين وظيفتك؟ إذن من الذي أعطى الأمر بإطلاق النار؟ أجيبي على هذا السؤال!»

إيلانا تشاوتشيســـكو:»لن أجيب. قلت لك منذ البداية إنني لن أجيب على أي سؤال».

نيكولاي: «أنتم الضباط، يفترض بكم أن تعلموا أنه لا يمكن للحكومة إعطاء الأمر بإطلاق النار. لكن الذين قتلوا الشبان كانوا الإرهابيون».

إيلانا: «إرهابيو نظام أمن الدولة (Securitate).

النائب العام: «إرهابيو نظام أمن الدولة؟»

إيلانا: «نعم».

وتحول الإتهام في النهاية صراحة إلى شتيمة.

النائب العام: «هل سبق وأُصبتِ بمرض عقلي؟»

أثار هذا التعرّض لكرامة إيلانا العقلية غضب نيكولاي. للمرة الأولى منذ بداية المناظرة الكلامية، زأر واحتقنت عيناه دماً.

نيكولاي: «ماذا؟ ماذا يسألنا؟»

النائب العام: «أسالإذا سبق أن أصيب أحدكما بمرض عقلي».

إيلانا: «دعني وشأني!»

النائب العام: «قد يفيد هذا في الدفاع عن نفسك. إذا سبق وأصبتِ بمرض عقلي واعترفتِ بذلك، لن تُعتَبَرا مسؤولين عن أفعالكما».

إيلانا: كيف يمكن لأحد ما أن يقول لنا مثل هذا الكلام؟ كيف يمكن لأحد ما أن يقول مثل هذا الكلام؟»

حان وقت استخلاص النتائج واستمرّ نيكولاي يندد بعدم شرعية هذه المحكمة العسكرية. إلى جانبه، تفكك وجه إيلانا شيئاً فشيئاً وغدت جامدة تماماً، وعيناها زائغتان. إذ أدركت واقع الحال: لقد أصبحا عاجزين.

نيكولاي: «كلا، لن نوقع. لكن لا أعترف أيضاً بالدفاع».

إيلانا: «لن نوقع على أي تصريح. سنتكلم فقط في الجمعية العامة لأننا عملنا بجد من أجل الشعب طيلة حياتنا. لقد ضحينا بكل حياتنا من أجل الشعب. ولن نخون الشعب هنا».

تلا النائب العام أمامها بنوداً من قانون العقوبات الذي لم تفقه إيلانا منه شيئاً. كل شيء في نظرها محال... إلا هو. يتهمونها بأنها اختلست

مليـــار دولار... فيمـــا كانت تعـــدّد أوْجُه الإتهام ببـــطء، بدت تفكر بأن كل شيءمنحرف حقا. «لهذه الأسباب، أطالب بعقوبة الإعدام». تأملت بالقاعـــة وبخصومها، والتفتت إلى نيكولاي: «أنظـــر إليهم، إنهم أبناؤنا، ونحن الذين ربّيناهم». استسلم الدفاع[1].

اشـــتكت إلى الحارس الذي ربط لها يديها وراء ظهرها ليقودها، فقالت لـــه: «يا بُنيّ، أنت تؤلمني». كانت ولم تزل أمّ هذه البلاد وأم كل من يطأ أرض رومانيا. فكيف يجرؤ أولادها هي على رفع يدهم على أمهم؟ حاولت للمرة الأخيرة أن تتخبط، لكن الشـــكل كانت مشـــدودة جداً. ثم توسلت شفقة جلاّديها. انهمرت الدموع على وجه نيكولاي. كانا قد عزما على أن يموتا سوية.

لم يكن لفرقة الإعدام وجه. قبل أن تعدم، لفظت إيلانا كلمات أصبحت مشهورة وأســـطورية. قالت لنيكولاي، في اشتراك أخير بمثابة خاتمة عنيفة لزواج دام 50 عاماً: «نيكولNicule، إنهم يغتالوننا؟ في بلادنا رومانيا؟[2]»

بينمـــا كان الجنود يســـتعدون لإطلاق النار، صـــاح: «تحيا جمهورية رومانيا الإشـــتراكية الحرة المســـتقلة!» تمثلت تضحية إيلانا الأخيرة، وقد

---

(1) أنظر كاترين دوراندان (Catherine Durandin)، موت الزوجين تشاوتشيسكو (*La Mort des Ceausescu*)، باريس، ألبان ميشال (Albin Michel)، 1990.

(2) توماس كونز (Thomas Kunze)، نيكولاي تشاوتشيسكو، سيرة حياته (*Nicolae Ceausescu, O biografie*)، بوخارست، دار نشر فراميا (Vremea)، 2002. بالنسبة للناطقين باللغة الألمانية، يتوفر بالألمانية، لدى كريستوف لينكس فرلاغ (Christoph Links Verlag)، برلين، 2000.

غطّى منديلها وجهها، بأن صرخت: «ألم أكن أماً بالنسبة لكم؟ هيا، أطلقوا النار، يا أولادي![1]»

في المغلف الذي لم تكف عن النظر إليه، لم تُكتشف لا أرقام حساباتها في سويسرا ولا لائحة خونة النظام، بل حقنة احتوت على مقدار من الأنسولين. كان نيكولاي مصاباً بالسكري ومدمناً على الأنسولين. فأمنت له حقنته حتى النهاية. لم يكن ليعيش من دونها.

مسار رفيقة فطنة

بوخارست، 13 آب 1939. الفتاة السمراء، في الثالثة والعشرين من عمرها، ذات الشفتين النحيفتين، لنوتا بترسكو (Lenuta Petrescu) تتهيّأ للذهاب إلى الحفل الراقص الذي يقام في «حديقة الفرح»، حديقة فزيلي (Veselie).

كانت لنوتا متمردة، لا تميل إلى غنج شابات ما بين الحربين. كانت فتاة طلقة اللسان. وقد أثار دهشتها أن انتخبت ملكة حفلة المدينة تحت أنظار عاشقها الجديد، نيكولاي.

كانت ملكة السهرة فلاحة آتية من بترستيPetresti، وهي قرية صغيرة في فالاشيا (Valachie) الشمالية حيث ولدت في 7 كانون الثاني 1916. وقد تلقت فيها لنوتا تربية مختصرة توقفت قبل مستوى الثانوية. تلقت

---

(1) ج-م. لوبروتون (J.-M. Le Breton)، نهاية تشاوتشيسكو (*La Fin de Ceausescu*)، باريس، لارماتان (L'Harmattan)، 1996.

بعض المبادئ الأساسـية في القراءة والكتابة، تخللتها مبادئ احتمالية في الحسـاب. كان الإغواء طريقتهـا في إخفاء هذا النقص فـي التربية الذي شـكّل لديها عقدة. غيـر ان مظهرها الخارجي هو أيضـاً لم يكن نقطة قـوة لديها. لا يهم، فإن لنوتا تعـرف كيف تعوّض عن عدم تأنّقها بعنادها وتشـبثها، فكانت قادرة في سن الثالثة والعشرين من عمرها أن تتكلّم أمام الجمهـور وتخطب في الحشـود. ها هي أيضاً ملكة السـهرة. افتتن بها نيكولاي.

أرسـلها والداهـا إلـى العاصمـة علـى أمـل أن تجـد عمـلاً في الصناعـات الرومانيـة الناشـئة، فتم توظيفهـا في أحد معامل النسـيج. منـذ وصولهـا، أتاحـت لهـا شـخصيتها المتعنتـة والمقرونـة بـروح التمـرّد أن تلفـت الإنتباه فـي الصراعات القائمـة بين العمّـال وأرباب العمل.

تقربت هكذا شـيئاً فشـيئاً من حلقـات العمّال النقابيين وشـاركت باجتماعاتهـم غير الشـرعية بشـكل منتظم. فقد كان الحزب الشـيوعي الرومانـي بالفعل مضطهداً منذ 1936 من قبل الملك كارول (Carol). فجأة وتّرت حرب أسبانيا الجو السياسي في كل أرجاء أوروبا، واشتدّ الكفاح ضد الشـيوعيين فيما ازداد نفوذ الحرس الحديـدي (Garde de fer) في البلاد. فقد أدّت محاكمة أنا بوكـر (Ana Pauker)، الرائدة في الصراع البروليتاري بين الحربين، والحكم عليها بالسجن 10 سنوات، إلى جوٍّ من الإضطهاد. فتخفّى الشيوعيون.

التحقت لنوتا بالمنشقّين عام 1937، وبدأت تشارك بأعمالهم التخريبية، بالرغم من أنه لم يبق لذلك اليوم أي أثر. ربما لأنها كانت تعمل تحت إسم

«فلورينا» Florina[1] المستعار. أو ربما لأن هذا الماضي الناري كان ثمرة خيالها. من أجل أن تصنع لنفسها قدراً، لم تكن تتورّع من هوس الكذب والمبالغة. أدركت لنوتا في وقت مبكر أنه لا يكفي أن تعيش حياتها لكي يكون لها وجود؛ بل يجب خلقها على مقدار طموحاتها. فكانت تحلم أن تكون مشيرة الإشتراكية المتمردة. فتكون أنا بوكر الجديدة!

في أول أيار 1939، أراد الملك كارول أن يستغل مناسبة عيد العمل ليزيد من شعبيته بين العمّال فنظّم عرضاً كبيراً. رافقت لنوتا أخاها مارتن (Martin) إليه. خطأ استراتيجي. وجد اليسار العمالي في ذلك مناسبة للإنتفاض على الإستبداد الملكي، فأخذ العرض المهيب على عاتقه. سارت لنوتا في مقدّمة الموكب، وراحت تصيح بقوة: «نريد خبزاً وعدالة![2]»

التقى نظر شاب بنظرها، فافتتن لتوه بهذا الحماس الفظ نوعاً ما، وهذه الفتاة الجريئة. إنه نيكولاي تشاوتشيسكو. كان قد أطلق سراحه قبل ذلك ببضعة أشهر من سجن دوفتانا (Doftana)، ويعيش منذ ذلك الحين في الخفاء. كان عملاء الشرطة السرية يقفون له بالمرصاد. لكن كان من غير الوارد لديه أن يفوّت المظاهرة.

تقول الرواية الرسمية أن نيكولاي قد حكم عليه منذ ذلك الوقت بسبب مواقفه الملتزمة. في الواقع يبدو أن السكّاف المتمرّن من بوخارست لم

---

(1) Fise bio-politice din fosta Archiva a CC al P. C. R. في « Dosarele Istoriei » 09/1998، س. 36.

(2) كاترين دوراندان، تشاوتشيسكو، حقائق وأكاذيب ملك شيوعي (*Ceausescu, vérités et mensonges d'un roi communiste*)، باريس، ألبان ميشال، 1990.

يكن سوى سـجين حق عام. من المرجح أنه التقى في الحبس بمساجين شيوعيين وتقرّب من أولئك المشـاغبين. على غرار الكثير من الهامشيين، كانت مشـاركته في الحركة الثورية تتّسم بالبطالة. ولد مثل لنوتا في منطقة فالاشـيا في 26 كانون الثاني 1918، وغادر إلى بوخارست في سن العاشرة بحثاً عن عمل. سـنة 1939، فيما كانت الحرب توشك على النشوب، لم يكن بعد سوى شاب لا فكرة له عن المصير الذي ينتظره.

فـي ربيع 1939 عندما التقى بلنوتا، أدرك أنه يشـاركها تقلّب المنشـقّ وإصـرار الذين يريـدون تغيير نظام الكون. فقرّر هـذان «اليتيمان» اللذان دفعتهما الحياة على الطرقات الإرتباط لمواجهة العواصف المقبلة.

هكذا اتسمت بدايات العلاقة الغرامية بعدم اليقين. كان نيكولاي مطلوباً من الشرطة. كان عليهما كل يوم إحباط محاولات المخبرين، والإنتقال من مكان إلى آخر باسـتمرار وعدم الوثوق بأحد. فـي الخريف، حكم عليه غيابياً بالسجن مدة ثلاث سنوات. لكنه لم يسلّم نفسه. كان الإثنان هاربين ومطارديـن. اعتقل نيكولاي فـي حزيران 1940 من قبل رجال المارشـال أنطونسـكو (Antonescu)، وقضى فترة الحرب مسـجوناً في معتقل تارغو جيو (Targu Jiu). كان له هناك لقاء حاسم حدّد معالم مستقبله السياسي. كان جورجيـو داج (Gheorghiu Dej) محتجزا معه، وهو عامل سـابق في سـكك الحديد ورئيس «زمرة السـجن». فأصبح تحت حماية هذا القائد المهاب والمحترم. عندما اجتاح الجيش السوفياتي البلاد في 1944 وفرض دسـتوره على رومانيا، كان جورجيو قد هرب من المعتقل، ولم ينسَ رفيقه الشاب في السجن. أصبح داج رجل البلاد القوي بسبب تقرّبه من الحكم السوفياتي الحديث النشأة. وها هو نيكولاي يعيّن أمينا عاما لاتحاد الشبيبة

الشيوعية هو الذي لم يعقد اجتماعا جماهيريا في حياته.

لم تمح سنوات السجن الأربع ذكرى لنوتا الجميلة التي شاركته معاناته سنة كان يختبئ فيها هرباً من الشرطة. عليه أن يعثر عليها. لقد كونت لنفسها خلال تلك السنوات سمعة فتاة مستهترة. لا يهمّ، فلم يعد من الممكن قطع الروابط التي قامت بينهما سابقا.

فتزوّجا في 23 كانون الأول 1947. أثناء التوقيع على عقد الزواج، أجري تعديل بسيط في وثيقة ولادة العروس نزولا عند طلب نيكولاي المحترس: كان إسم لنوتا الذي يعني حرفياً «الرقيقة الناعمة»، مبتذلا في نظره ولا يوحي بالإحترام. فإذا قدِّر يوماً أن يشغل مناصب رفيعة، لن يليق بالزعيم أن يسمي الناس زوجته «يا رقيقتي». فتحوّلت لنوتا رسمياً إلى إيلانا.

شعرت إيلانا أنها أكثر شباباً مع هويتها الجديدة؛ في الواقع ربحت سنتين في إخراج قيدها المدني: كونها تكبر زوجها بسنتين، تمّ تعديل تاريخ ميلادها لتظهر أصغر منه. هكذا برزت إيلانا تشاوتشيسكو المولودة في 7 كانون الثاني 1919.

القديسة إيلانا من بترستي (Petresti)

ما تريده امرأة...

حزيران 1975، خليج العقبة على البحر الأحمر. الزوجان تشاوشيسكو ضيفان على ملك الأردن حسين الذي استقبلهما في مقر إقامته الصيفية. كانت المرة الأولى التي تصعد فيها إيلانا على متن يخت. هذا الترف

العائم يوافقها تماماً. أثناء قيامهما بنزهة على الشاطئ، بعد العشاء، راحت تجهش بالبكاء: «أريد هذا اليخت. [...] لن أذهب من هنا من دونه[1]». رأى نيكولاي الفكرة مغرية. لماذا لا يمتلك يخته الخاص على البحر الأسود؟ أي بلد شيوعي كبير ستكون رومانيا إذا لم تستطع إهداء قائدها مثل هذا الشيء التافه. كلّف على الفور مترجمه بمهمة فائقة الأهمية: إقناع الملك حسين بالتنازل لهما عن مركبه. في اليوم التالي، تلقى الزوجان اتصالاً هاتفياً من ملك أربكه بوضوح إصرار إيلانا: «يجب أن تفهما أن هذا اليخت هو هدية قدمتُها شخصياً لعلياء [إبنته أميرة الأردن]. «خيّم صمت. كانت القطيعة الدبلوماسية وشيكة. ثم وجدت تسوية: «لكنني سآمر في الحال أن يؤتى بواحد من الولايات المتحدة. وأقترح أن يسمى *صداقة*».

انقضت عشر سنوات وزوجها يشغل المنصب الأول في الحزب الشيوعي. أصبحت أمنيات إيلانا تتحقّق بصورة منتظمة. حتى أقلّها عقلانية: فقد صرحت بثقة قائلة: «لننظر إلى الأمور كما هي. رومانيا اليوم معروفة في الغرب أكثر من برج إيفل، ومحترمة أكثر من ملكة إنكلترا. وكل

---

(1) إيون ميهاي باسيبا (Ion Mihai Pacepa)، آفاق حمراء (*Red Horizons*)، واشنطن، مطبوعات ريغنري (Regnery Publishing)، 1987. تكاد تكون شهادة إيون باسيبا المصدر الوحيد المتوفر لدينا فيما يخص الأحاديث الخاصة للزوجين تشاوتشيسكو. غير انه يجدر أن نأخذ حذرا كبيرا مما يرويه، وهو أمر نسيه الكثيرون : كتب باسيبا، الذي كان قديما معاونا مقرّبا لتشاوتشيسكو، كتب ذكرياته بعد تسع سنوات من انتقاله الى الغرب. فلا نحتفظ إلا بالأحداث او الأحاديث التي تبدو لنا معقولة تاريخيا.

هذا بفضل الرفيق وبفضلي أنا».

خلال رحلات الزوجين الدبلوماسية، كان مضيفوهما يبذلون جهودهم لإرضاء تعطشها إلى الهدايا. تريد إيلانا توسيع خزانة ثيابها؟ الأولاد بحاجة لسيارة سباق جديدة؟ ليس أبسط من ذلك، يكفي التماس المستشارية الفرنسية أوالألمانية. لأن إيلانا اعتمدت قواعد عيش دقيقة: لا ترتدي سوى ثياب فرنسية ولا تقود سوى سيارات ألمانية. قالت يوماً لزوجها أمام الجنرال إيون باسيبا (Ion Pacepa) الذي كان حينذاك مستشار تشاوتشيسكو الشخصي والمسؤول عن جهاز أمن الدولة: «تذكّر الألمانيين، اكتفيت بأن لفظت كلمة سيارة في تلميح ما، حتى أعطانا الجميع سيارات. كم سيارة نلنا حتى الآن؟ الليموزين المرسيدس 600 للرفيق، والـ450 [...] وكوبيه coupé لزويا (Zoia) (إبنة الزوجين) وسيارتي الأودي (Audi) لنيكو (Nicu). وبيت متحرّك مساحته 10 أمتار تقريبا ليكون بمثابة مكتب متنقل للرفيق».

لم يكن كل هذا السخاء كافياً لإشباعها. بدت التبادلات الدبلوماسية كأنها لعبة كانت تتظاهر بأنها لا تبالي بها: «وخذ هذا الأحمق حسين، يا حبيبي! ألا تتذكر قصة اليخت؟»

في الواقع، بعد عام من إقامتهما على البحر الأحمر عند الملك حسين، وصل يخت مماثل إلى اسطنبول تحت حراسة مشددة ووضع في قاعدة مانغاليا (Mangalia) السرية. واليوم، تعرض إحدى وكالات السفر رحلة تعقب لخطى الكونت دراكولا (comte Dracula) في رومانيا وتقترح قضاء سهرة لا تنسى على يخت *الكوندوكاتور (Conducator)*.

شتان بينها وبين صورة القديسة التي نجحت إيلانا في رسمها شيئا فشيئا منذ اعتلائهما سدة الحكم.

غداة ارتقاء تشاوتشيســكو إلى منصب الأمين العام للحزب الشـيوعي الروماني، في آذار 1965، اتبع الزوجان استراتيجية سياسية طموحة. أرادا أن تشع سـلطتهما على كل الصعد في المجتمع. كان لديهما خطة من أجل ذلك، مقطوعة تعزف بأربعة أياد. سـيكون لكل واحد منهما مجال يسيطر فيه: يريد نيكولاي أن تكون رومانيا نافذة على الساحة الدبلوماسية الدولية، وتريد إيلانا اكتساب مصداقية فكرية.

كانت تحرّكات تشاوتشيسـكو الأولى في السـلطة تهدف إلى مسايرة روح الإستقلال لدى الغربيين وذلك بإظهار استقلاليته إزاء جاره السوفياتي. فـأدان الحامي الروسـي مندّدا بقمـع ربيع براغ، سـنة 1968، واصفا إياه «بالخطأ الكبيـر»، عندما اجتاحت الجيوش الروسـية المدرّعة جمهورية تشيكوسلوفاكيا الإشتراكية المشاغبة. تابع تشاوتشيسكو انطلاقته فتحالف مع يوغوسلافيا تيتو وبدأ يتطلع باتجاه العملاق الشيوعي الآخر، صين ماو تسـي تونغ (Mao Zedong). هذا الشـخص اللطيف المتقلب الذي عينه زعماء بوخارست الشيوعيين الجدد لدى خروجه من السجن قد فرض نفسه في وقت وجيز كوسـيط ثمين في الحوارما بين الشـرق والغرب. وقد ظهر بصورة القائد المسؤول المحترم الذي يجدر التكلم معه.

كانت إيلانا تشاوتشيسـكو تتربّع إلى جانب «نابغة جبال الكاربات le génie des Carpates ». بعد أن أقام نيكولاي جسراً باتجاه أوروبا، اختارت هي أن تصبح «عالمة كبرى لها شـهرة عالمية». كان هاجسها الأول دفن «فلورينـا» القديمة، الفتاة المتهتكة الوقحة وغيـر المثقفة التي كانت. لا يمكن أن تطال شـائعات البغاء التي سرت عن العاملة الريفية الشابة عضواً شـهيرا من الأكاديمية. بقي أن تختار المجال الذي يمكنها أن تلمع فيه.

بمـــا أنه كان لها في صباها بعض الخبرة كعاملة مختبر، راحت تنســلّ من خلال هذه الخبرة الهزيلة شيئاً فشيئاً إلى مراكز الحكم.

كانـــت متوارية تماماً في الســنوات الأولى من حكـــم زوجها، لكنها حصلــت على مهمتهـــا العلمية الأولى عام 1967 عندما أصبحت رئيســة قسم الكيمياء في المجلس الأعلى للإقتصاد والتنمية السوفياتية في رومانيا. فبــدأت تنال الألقاب المبهمة، الواحد تلو الآخر، لا قيمة لها إلا بشــهرة الإسم: عضو في لجنة بوخارست البلدية التابعة للحزب الشيوعي الروماني، رئيســة المجلس الوطني للعلوم والتكنولوجيا الذي أنشأه زوجها من أجلها، إلى آخره. لم يكن المنصب هو المهم، بل المهم هو اللقب.

لكن وراء الوظائف كان هناك واقع: فقد وضعت إيلانا يدها بذلك على خطط الدولة الرومانية بأكملها في مجال البحث العلمي والتجهيز الصناعي الطليعــي. كان ظلها يخيّم علــى كل معاهد الأبحاث في البلاد. هي التي كانت تعطي، في النهاية، الأوامر في هذا المجال وتمنح شــخصياً المنح الخاصة بالأبحاث وتحدد مســتقبل الطلاب بشــكل إعتباطي. للأسف، ســرعان ما أصبحت الرفيقة إيلانا موضع ســخرية «أقرانها»: إذ كان عدم كفاءتهـــا فاضحاً. كان علماء الكيمياء الذين يكتبون لها خطاباتها العلمية يُدخلون فيها بعض «الطُــرَف» إذ كان الإيقاع بها يغريهم للغاية. وبالفعل احتــوت الأوراق التي كان عليها أن تقرأها أمـــام الجمهور مرارا على صيغ مختلقة بالكامل. وأفضل مزحة راجت حينها في مختبرات بوخارست كانت لفظها لصيغة ثاني أوكسيد الكربون CO2 التي كانت تقرأ كل وصلاتها، فتأتي النتيجة باللغة الرومانية مضحكة: إذ تلفظ الصيغة بهذه الطريقة «كودوي»

codoï، مـــا يعني «الذنَب»[1]. لم تكن التهكمات لتؤثر على إيلانا البيضاء أو تعيق تقدمها السياســـي. فالتي دخلت إلى الحكومة ســـنة 1973 كانت امرأة مدرّعة بالشهادات.

أصبح إذن بوســـعها حضور كل الإجتماعات شـــرعاً، ليس فقط كزوجة الزعيم، بل كعالمة مرموقة.

لم يكن هذا كافياً. طمحت إيلانا إلى أكثر من ذلك: أرادت أن تعامل مثلمـــا يعامل كبار الموظفين العالميـــن. كانت تعلم وهي تتابع خطتها أن عليهـــا بلوغ قمة الحياة الجامعية قبل أن تتمكن من التوق شـــرعاً إلى أرفع المسؤوليات.

فارتـــأت أن تصبح أســـتاذة. إنما من أجل ذلـــك، كان يجب أن تقدم أطروحة دكتوراه. كانت إيلانا عاجزة تماماً عن القيام بمثل هذا العمل الذي يتطلب سنوات من التضحيات والأبحاث. كان لديها مع ذلك موضوع: منذ أن عملت في مصنع نسيج، نشأ لديها شغف غريب بالجزيئات المضاعفة الأصل. كانت هذه الجزيئات الكبيرة الحجم التي اكتشفت في نهاية القرن الثامن عشر تدخل في تركيبة المواد البلاستيكية. وقد أدركت هي دور هذه الجزيئات الرئيسي في تطور الصناعة.

هكذا قدّمت الرفيقة إيلانا تشاوتشيســـكو عـــام 1975 أطروحة دكتوراه بعنوان: «بلمرة الإيزوبرين polymérisation de l'Isoprène على تثبيت المطاط الإصطناعـــي». كان الجميع ينتظر بفارغ الصبر حضور مناقشـــة الأطروحة لرؤيـــة كيف تتدبر الرفيقة بالإجابة على أســـئلة الحكّام. لكن للأســـف لم

(1) يروي هذه النادرة رادو بورتوكولا، مقابلة مع المؤلفة، شباط 2010.

يحــظ الفضوليون بفرصة رؤيتها تدافع عــن عملها فقد وجدوا الباب مغلقاً عندما وصلوا إلى الجامعة للإســـتماع إليها. كان هناك لافتة تشــير إلى أن المناقشة الشائكة قد جرت في اليوم السابق. وعلم لاحقاً أن هذه الأطروحة كانـــت قد رُفضت بدايـــة لعدم كفايتها من قبل أســـتاذ مرموق في جامعة إيازي (Iasi)، كريســـتوفر سيميونسكو (Christopher Simionescu)، قبل أن يوافق عليها زميل متملق من تيميشـــوارا، كوريولان دراغولســـكو (Coriolan Dragulescu) الذي حيّا من جهته ذكاء الأطروحة وعبقرية كاتبتها. فسرعان ما تم تخفيض رتبة الأستاذ الأول الذي حُرم من نشر مقالاته واختفى إسمه من القاموس، فيما أدخِل إليه إسم الأستاذ الثاني الذي عيِّن رئيساً لجامعته على الفور.

حظي مع ذلك زملاؤها والطلاب الذين حرموا من حضور مناقشة إيلانا لأطروحتها أمام نظرائهـــا بفرصة تذوق عملها. كان موضوع أطروحتها هذه البوليمـــار (الجزيئات المكثفة). وتعني كلمة «مار» (mère) باللغة الرومانية «تفاحـــة»؛ فتحذلق البعض بتبديل عنوان الأطروحة وتحويله إلى «بوليبار» (polypères)، أي حرفياً «عدة إجاصات» (إجاصات تعني السذَّج).

أتـــت الأطروحة على الفـــور بثمارها: تمّ تعيين إيلانا رئيســـة للمجلس الوطني للثقافة الإشـــتراكية والتربية عام 1975. ملكة الإجاص ووزيرة الثقافة، فطوى النســـيان فلورينا الســـابقة الواقفة على المتاريـــس. اجتازت المرحلة الأولى، لكـــن لم يكفِ هذا لجعلها أيقونة حقيقية. فإيلانا لم تكن تطمح إلى مجرّد الإعتراف الفكري أو ممارســـة السلطة السياسية بحد ذاتها. بل أرادت أن تكـــون إمرأة مثاليـــة والنموذج الوحيد للمـــرأة الرومانية، محترمة ومرغوبة، يحسدها الجميع. التكريس الكامل أو لا شيء.

طيران اليمامة البيضاء

بدأ صعود إيلانا في حزيران 1971. حتى ذلك الحين، لم يظهر الزوجان معـا إلا قليلا: من جهـة، كان هناك نيكولاي، القائد الوطني والشـيوعي لرومانيا المتجددة المسـتقلة، ومن جهة أخرى، إيلانا، رمز التقدم العلمي والصناعـي. مع ذلك، وبغض النظر عن الألقاب، بقي دورها شـرفياً فقط. لم تكن تظهر إلى جانب زوجها إلا لتكمل الصورة. هذه الحقبة قد ولّت.

في 2 حزيران 1971، باشـر الزوجان الرئاسـيان برحلة طويلة إلى آسيا، فقصدا الصين ومن بعدها كوريا الشمالية. استقبلهما في بكين ماو وزوجته، جيانـغ كينـغ (Jiang Qing) الرهيبة. كان اللقاء بمثابة اكتشـاف حقيقي بالنسبة للقائد الروماني وزوجته. رأى فيه كل منهما معمودية سياسية.

خلال هذه الزيارة الرسـمية الطويلة، اسـتمع الزوجان تشاوتشيسـكو باهتمام إلى دروس مدير الدفّة الكبير (Grand Timonier) وأعجبا بإشارات الإجلال الذي كان يكنّه له الجمهور من خلال عبادة الشخصية.

منذ وصوله إلى السـلطة أكثر نيكولاي من مبادرات التحدي والتظاهر بالإستقلالية تجاه الحامي الروسي. ما حث هذا الأخير على رفض الإعتراف بنظامـه. كان على الزوجين البحث عن طريق جديد من أجل قيادة رومانيا نحو الحداثة الإشتراكية. فالتفت إذن نيكولاي إلى ماو وسياسته الطموحة.

كانـت الرحلة بالنسـبة لإيلانا بمثابة تدريب مكثف على الإسـتغلال المناسـب لوضعها كزوجة زعيم شـيوعي. شـرحت لها جيانغ كينغ دورها في جمهورية الصين الشـعبية: فهي تقـود الدعاية ببراعة وتعرف كيف تبرز صورتها.

تابع الزوجان زيارتهما فنشـرت في الأيـام التالية في الصفحات الأولى

للصحف الصينية والرومانية صورة تظهرهما برفقة تشو إنلاي (Zhou Enlai) في ساحة تيانانمان (Tiananmen). طبقت إيلانا نصائح جيانغ كينغ: زيادة شعبيتها ومناصريها، وذلك بالظهور إلى جانب زوجها. مع ازدياد نفوذها بهذه الطريقة، سيكون بإمكانها أن تقود البلاد على طريق التغيير، يدها بيد نيكولاي.

الآن وقد ذاقت طعم الإستعراضات الشعبية الكبرى وجلسات الثناء العلني التي يفرضها النظام على الشعب، قرّرت أن تشارك بعد ذلك في كل الزيارات الرسمية.

لدى عودتهما إلى بوخارست في 25 حزيران، تفاجأ المواطنون الرومانيون في الحال بالتغيير الذي طرأ على مظهر إيلانا. كانت أكثر أناقة وشعرها مسرح بعناية وأصبحت مولعة بجلسات التصوير، فباشرت بحياة مستقلة عن زوجها في مجال الدعاية.

منذ 23 آب، ظهرت للمرة الأولى في اجتماع جماهيري كبير. كانت بداية في وضع متراجع، ثم همّت بحركة من يدها قبل أن تتقدم وتحيي الجمهور برأسها المرفوع ونظرتها الواثقة. ثم في 4 تشرين الأول، كرّست صحيفة البلاد الرسمية، *الشرارة* (*Scinteai*)، وضعيتها الجديدة: لم تعد تصفها بزوجة القائد بل بالرفيقة إيلانا، «المهندسة والدكتورة ورئيسة المجلس الوطني للعلوم والتكنولوجيا المحترمة». كانت الخطة بارعة: فبأقل من سنتين، حصلت على أول مقعد لها في الحكومة.

ثورة ثقافية أم جنسية؟

أما نيكولاي فقد تأثر خاصة بالبراعة التي كان يواجه بها ماو الجنس

اللطيف ويسيطر عليه. لا يمكن أن يتمّ تحوّل رومانيا من دون امرأة جديدة. بالنسبة لنيكولاي، كان «شـــرف النساء الأعظم في وهب الحياة وإنجاب الأطفـــال وتربيتهم. لا يمكن أن يكون للمرأة أهداف أخرى غير ان تصبح أماً[1]». الجديد إذن أمر نسبي. يتمنى تقليد ما رآه في الصين، امرأة متحررة من عيوبها ومن ســـلوكها الجنسي الفوضوي: النساء هناك لا تتبرّج بعكس الرومانيـــات المثيرات اللواتي يتزينَّ بإفـــراط. لا يزال لدى الرومانيات هوس رشّ أنفسهن بالعطور الفرنسية. واللواتي لا يملكن الثراء الكافي تفوح منهن رائحة عطر بخس الثمن مســـتورد من بلغاريا. يا للعار! أراد نيكولاي وضع حدٍّ لهذا. ثم إن الصينيات نحيلات القامة ولا يأكلن بشراهة.

لم تكن المهمة بســـيطة: بتوجيه سلوكهنّ الجمالي، نجح ماو بتحقيق ما يســـتحيل تحقيقه، وهو ضبط ســـلوك الصينيات الجنسي. فقد حدّ من الولادات بشكل راديكالي متبعا سياسة تدخلية جداً، نموذجها الأكثر تأثيراً معاقبة من ينجب أكثر من طفلين.

أراد نيكولاي أمـــة كبرى. فاختار الحلّ الأكثر حرْفية: زيادة الســـكان بالتشجيع على الإنجاب. غير ان الرومانيات متخلقات بالأخلاق الأوروبية إلى أقصى حدّ: يجهضن بالســـر ويبتعن حبوب منع الحمل من الخارج أو في الســـوق السوداء. فصمّم نيكولاي وإيلانا على تطهير سلوك الرومانيات الجنسي من الآفات التي ورثنها عن المجتمع الرأسمالي.

حدّد الزوجان تشاوتشيســـكو تواتر العلاقات الجنســـية: ثلاث أو أربع

---

(1) نيكولاي تشاوتشيسكو، *Discursul lui Nicolae Ceausescu la sedinta plenara a Comitetului Central al Partidului Comunist Român*، 1973.

مرّات في الأسبوع تشكل حياة حميمة «طبيعية». ويُسمح بالإفراط فيها خلال الأشهر التي تلي الزواج. خارج هذا الإطار، كل فسق مفرط معرّف على أن له نتائج خطيرة على الصحة (الأرق، التعصيب، الخ.). يحذِّر الأزواج بشكل خاص من ممارسة الجماع الناقص: فهو يؤدّي إلى اضطرابات وظيفية مهمة، كالعجز الجنسي[1].

في أول تشرين الأول 1966، طال أول مراسيم تشاوتشيسكو في الحكم النساء. فهو يعرّف الإجهاض على أنه «عمل خطير يهدّد صحة النساء ويؤثر سلباً على نمو السكان». أُعيدت النساء إلى دورهن الأول: الإنجاب. الإستثناءات الوحيدة المقبولة، الإغتصاب أو سفاح القربى. صنّف هذا المرسوم منذ البداية نظام تشاوتشيسكو إزاء النساء على أنه الأكثر قمعاً في القرن العشرين، أشبه بسياسة الصين وألمانيا النازية. مع أن الشيوعيين كانوا قد أباحوا الـIVG (الإجهاض الإرادي) عام 1957.

لكن اللعينات استمررن باللجوء إلى الإجهاض. كان التفتيش يمارس في بداية الثمانينات على جسد النساء: فقد فرض تشاوتشيسكو عليهن القيام بزيارات منتظمة إلى الطبيب النسائي حيث يتم التحقق من أنهن لم يلجأن إلى عمليات إجهاض غير شرعية. كانت كل امرأة تخضع لفحص نسائي إلزامي كل شهر وهي في مكان عملها.

جعل النظام نساء البلاد يدفعن ثمنا غالياً بأن حدّد لهن هدفاً حياتياً:

---

(1) غايل كليغمان (Gail Kligman)، سياسة المخاتلة : التحكّم بالتناسل في رومانيا تشاوتشيسكو (*The Politics of Duplicity : Controlling Reproduction in Ceausescu's Romania*)، مطبعة جامعة كاليفورنيا (University of California Press)، 1998.

إنجاب 4 أو 5 أطفال للوطن.

سـألت إيلانا أحد السياسيين الشـباب أمام الجنرال إيون باسيبا (Ion Pecepa): - «كم لديك من الأطفال، يا رفيق؟» أجابها: -» طفلٌ واحد، رفيقـة إيلانا». «لهذا السـبب لا يـزداد عدد السـكان. يجب أن يكون لديـك على الأقـل أربعة جنود من أجل الحزب، يـا رفيقي العزيز. أضف إلى تقديراتك 10 إلى 15 بالمئة من عدد السكان، أيها الجنرال. يجب أن يصبح في رومانيا، عام 1984، على الأقل 30 مليون نسـمة. سأسهر على تحقيق ذلك».

ولـم يتأخر الفعـل عن القول. في ما يلي الخطاب الذي كان الأسـاتذة يوجهونه إلى المراهقات: «يجب ألا تعرن اهتماماً لأهلكن الرجعيين بعد اليوم. لا تتأخرن في ممارسـة الجنس، وإذا حملتن، فنعم الأمر، إذ تخدمن الوطن بذلـك. إذا حدث لكنَّ هـذا، لا تخبرن أهلكن، بـل اختبئن جيداً، اتكلن علي، سأنصحكن وأقول لكنّ ما عليكن فعله للتخلص من الطفل، بعد ولادته بالضبط: ستتولى الدولة أمره[1]». وسرعان ما امتلأت دور الأيتام في البلاد.

في عهد نيكولاي، لم يكن يحق لأحد أن يبقى أعزباً. بفضل الضرائب التي كانت تُفرض على العزّاب (الأشـخاص الوحيدين) الذين تخطوا سـن الـ25 عامـاً والأزواج الذين لم ينجبوا أطفالاً، أصبح الجميع يرغبون بإيجاد الشـريك. بهذا التقديس، غدت المرأة بطناً قبل كل شـيء، والمسـاهِمَة الرئيسـية في المجهود السكاني القومي. النسـاء اللواتي رفضن هذا الدور

---

(1) دسبينا تومسكو (Despina Tomescu)، رومانيا تشاوتشيسكو (*La Roumanie de Ceausescu*)، باريس، دار نشر غي أبود (Guy Epaud Editions)، 1988.

اعتبرن خارجات عن القانون، وبلين بنتائج أليمة: 5 إلى 10 سـنوات سجن تحت نظام قاس[1].

عندمـا يطرأ «حادث»، من الصعب العثور علـى إختصاصي يقبل ان يجازف ويقوم بعملية إجهاض. فقد كانتالوشـايات كثيرة، ووجب التصرف بسـرعة فوق طاولة مطبخ. بالنسـبة لليائسات، لم يبق لهن إلا اللجوء إلى صنارات حياكة الصوف أو شـربات تركبها عجائز شافيات، وكانت سموما حقيقيـة تُبلَع كيفما اتفق. كانت هناك عـادة غير مدونة في القانون لكنها شائعة تنتظر اللواتي يبقين على قيد الحياة: منع تقديم أي إسعافات للمرأة التي خضعت لعملية إجهاض إرادي قبل أن توشي بالمتواطئين ممعها.

توجهت أولئك النساء اللواتي سلبت حميميتهن نحو المرأة التي كانت تريد أن تكون مثالاً لهنّ، إيلانا. لماذا لا تساعدهن؟ بصفتها رئيسة البحث العلمـي والتخطيط الصحـي، لا يمكن إلا أن تكون هـي وراء كل تلك الإجراءات. بالنسـبة للرأي العام، كانت هي المذنبة. تكمن مرارة النسـاء الرومانيات إزاء إيلانا في لعب مؤسـف على الكلام سـرى في تلك الأيام في بوخارست عندما ظهر فيها مرض جديد هو السيدا. كان يُسالعمّا تدلّ أحرف هذه الكلمة الفرنسـية، «سيدا»، فيأتي الجواب: «عالم، مهندس، دكتور، وأكاديمي»، وهي ألقاب كانت إيلانا تحب أن تتحلى بها وتريدها بهذا

---

(1) بالنسبة للعقوبات المحتملة، انظر مقال بابان أدريانا (Baban Adriana)، حياة النساء الجنسية وسلوك التناسل في رومانيا في عهد تشاوتشيسكو : مقاربة نفسانية (*Women's Sexuality and Reproductive Behavior in Post-Ceausescu Romania : A Psychological Approach*)، مطبعة جامعة برينستون (Princeton University Press)، 2000.

التتابع. هذه النكتة الخائبة تعكس اتهاماً حقيقياً من الشعب للقديسة إيلانا.

لكنهـا أدارت أذنها الصماء تجاه آلام بنات بلدها. استـمرّ نيكولاي يكرّر أن «الدستـور الروماني يضمن المساواة في الحقوق للنساء والرجال في كل الميادين والنشاطات ومشاركتهم الفعالة في حياة الدولة وكل الحياة السياسـية والإجتماعية في البلاد». كانت المرأة تفرض نفسها بالفعل على الطوابـع وفي المجلات واللوحات الرسـمية أمام أنظـار الجميع بصفتها رمزاً للشـيوعية الوطنية. لكن ليس أية إمـرأة: إمرأة القائد. كان إبراز زوجته استغلالا ذكيا من قبل نيكولاي: أراد أن يجعل الرومانيات يقبلن بمفاهيمه الرجعيـة عن المرأة مع إظهار صورة امـرأة حرة مثقفة ومتحررة، مثل امرأته، أمام أنظارهن. لن تسامح الرومانيات المرأة التي خانتهن.

تجسـد إيلانا التقدم، كونها رمز الرموز. أصبحت فلورينا الوقحة المرأة الكاملة التي يمتدحها الشعراء:

«بوركتِ، أيتها المرأة الخلاقة!
حب الأمة يغمرك،
أنت العالمة والشخصية السياسية والأم في آن معاً.
أنت مثال الجاذبية والحكمة الذي يقتدى به
أنت التي يشعر الجميع بك ويتبعك،
كوني سعيدة دائماً، أصبحتِ الرمز الخالد
للبطلات الرومانيات
يُدفع بك إلى الأمام إلى جانب بطل البلاد
على طول الملحمة الكبرى للشعب الروماني!»

لم يتخلّف أحد مؤرخي القديسين الأكثر حماساً، كورنيليو فاديم تودور

(Corneliu Vadim Tudor)، عـن مدح أفعالها وحركاتها بحيث رأى البعض في ذلك دليلاً عن عشق، أو على الأقل عن حب بريء:

«لم تَر امرأة أعظم منها
في كل أمتنا
إنها في السموات النجمة الأكثر لمعاناً
وهي تتزيا على الموضة الرومانية

إنها إيلانا تشاوتشيسكو
أكثر طهراً هو هدفها الرّنان
وهي أفضل أم لإنقاذنا
آتية بدماغ عالِم

إنجازاتها أكبر الإنجازات
وهي تطمح دائماً إلى أعلى، مرشدتنا
ودعماً لزعيمنا
تقف بفخر إلى جانبه[1]».

الغيرة...

قررت إيلانا المسـتقوية بالتطبيق الناجح للدروس التي تلقتها من جيانغ

---

(1) من نظم كورنيليو فاديم تودور (Corneliu Vadim Tudor)، في 6 كانون الثاني 1984.

كينــغ عام 1971، أن تقتدي بامرأة أخــرى في الحكم لكي تنقي صورتها: إيزابيل بيرون (Isabel Perón). فقامـــت برحلة إلى بوينس آيريس (Buenos Aires) عـــام 1973. بعـــد افتتانها في مرحلة أولى بمشاكســـة جيانغ كينغ السياسية، استلهمت لدى إيزابيل بيرون صورة أم مفعمة بالعطف الذي تفتقر إليه شخصيتها. فقد أدهشها مصير تلك الراقصة السابقة التي أصبحت نائبة الرئيس إلى جانب زوجها أثناء انتخابات أيلول 1973، ثم رئيســـة عند موته بعد ثمانية أشهر.

بالطريقة نفســـها، ارتقت إيلانا في التراتبية الإشتراكية إلى أن أصبحت عام 1980 نائبة رئيس الوزراء، أي الشـــخصية الثانية في النظام. كان النهج يتمثل في تحويل هؤلاء المنافِســـات إلى ملهِمات: «إذا اســـتطاعت باغية في ملهى ليلي في كركاس أن تفعل ذلك، فلمَ لا تفعل امرأة عالِمة؟[1]» كما علقـــت عندما خَلَفَت إيزابيل خوان في الحكم. هل كانت تفكر، في حال رحيل نيكولاي، في أن تخلف زوجها على غرار إيزابيل بيرون؟

إذا وجدت إلهامها السياســـي لدى هاتيـــن المرأتين الرمزيتين، قليل من النســـاء الأخريات كنّ يجدن خلاصهن بمواجهـــة إيلانا التي لا ترحم. لا تقبل امرأة رومانيا الجديدة بأية منافسة محتملة.

كان على رأس الدبلوماســـية الرومانية الطموحة رجل قوي الشـــكيمة، كورنيليو مانيســـكو (Cornelio Manescu)، شـــغل منصب وزير للشـــؤون الخارجية من 1961 حتى 1972. وكان هذا الرجل المحترم ذو الفكر العظيم المفوّق على تشاوتشيسكو كل التفوّق، متزوجا من امرأة جميلة جدا تتميز

(1) ت. كونز (T. Kunze)، سبق ذكره.

برفعة وسمو لا يمكن تجاهلهما. أثناء زيارة فخمة قاموا بها إلى تركيا، ارتكب الرئيس التركي هفوة لا تغتفر. جريمة حقيقية بحق جلالتها، الرفيقة إيلانا. كان الإختلاف بين المرأتين ملفتاً للنظر: بالرغم من أزيائها الوافرة والباهظة الثمن، لم تتألق إيلانا يوماً في الإحتفالات الرسمية، لرداءة ذوقها. كانت عكس السيدة مانيسكو (Manescu) التي طغت بساطتها الأنيقة على الوفد كله. وعليه، فقد اتجه الرئيس التركي نحوها بكل بساطة وحيّاها أولاً، معتقداً أنها زوجة الرئيس الروماني. لم تلق هذهالهفوة على الزيارة الرسمية جوا من البرودة فحسب. إذ تجاوز مانيسكو المتألق كل الحدود بإبرازه امرأة بهذا الجمال. وبعد عودتهم إلى رومانيا ببضعة أيام، نُحِّي الرجل الوقح عن وظيفته.

وقد عانى رئيس دبلوماسية آخر من غيرة إيلانا غير العقلانية: إنه ستيفان أندرايي (Stephan Andrei) الذي شغل منصبه من 1978 إلى 1985، وكان متزوجا من ممثلة شابة اسمها فيولاتا (Violeta). استثقلت إيلانا على الفور «هذه الدمية الصغيرة المدهونة بألف لون» المتغطرسة. أغاظ إيلانا مظهرها كما تصرفها. تم وضع جهاز تنصت لمراقبة العاهرة. سرعان ما اطّلعت الرفيقة السيدة الأولى على خيانات فيولاتا، التي كان يستميلها الشبان الرياضيين والطلاّب. وكانت مهمّة الجنرال باسيبا تبليغ إيلانا شخصيا بنتائج التنصت.

اتخذت القضية طابعاً رسمياً جداً: صباح كل يوم جمعة، كانت تستدعي المخبر إلى مكتبها. فتستقبله وهي جالسة في مقعدها قبالة صورة لتشاوتشيسكو بحجمه الحقيقي. وكان الغرفة تحتوي على مجموع مؤلفات زوجها وكذلك مؤلفاتها الكاملة في 10أجزاء. بالرغم من مجموعة الكتب

الغنية هذه، لا يتذكر الجنرال باسيبا أن رأى كتباً أو ملفات أخرى بجوارها: إذ ان قراءة أعمال الآخرين لم تكن تهمها.

كان علـــى مكتبها، في إطارات من ذهب، صـــور لها اتخذت خلال المناسبات الأكثر مجداً في حياتها. ما من أوراق مبعثرة عليه، إذ يرجى من كل محادث أن يجلب معه ملفاته الخاصة ليطلعها عليها.

أتي الجنرال باسيبا ليطلع إيلانا على ملف فيولاتا أندرابي:

قالت إيلانا على سبيل التمهيد: «أرني، ما الجديد في موضوع فيولاتا؟» فوصف لها الجنرال العلاقة التي تقيمها مع طالب شـــاب. فقهقهت وهي تتلـــذذ: «يا لها من ســـافلة!» ثم كان لها هـــذا التعليق المفعـــم بالحِلم الخســـيس: «أعطاها الحزب أحد أفضل رجالـــه كزوج، لكنها ترفع تنورتها كلما ابتســـم لها أحد القبضايات». بعد اســـتماعها لشريط مسجل يؤكد علاقة الزنى للممثلة الشابة، هلّلت إيلانا قائلة: «عندما تأتي إلى هنا، تمرّر دائماً لسانها على شـــفتيها، أما على الشريط المسجل، فتكاد تصم آذاننا من كثرة صراخها وبكائها[1]». واســـتُبدِلَ ســـتيفان أندرابي بأحد محاسيب إيلانا، إيلي فادوفا (Ilie Vaduva).

كان مكتب إيلانا الســـري يعمل بكامل طاقته. بفضل عمليات تنصت باسيبا، كانت تملك حصرياً صحيفة الفضائح الوحيدة في رومانيا.

وجـــدت لها ضحية جديدة، جورج بانا (Gheorge Pana)، أحد وزرائها.

---

(1) رواه إيون باسيبا (Ion Pacepa)، وأخذه عنه كُتاب السير الشخصية مثل توماس كونز، سبق ذكره. ليس لدينا دلائل أخرى عن الحادثة غير إقالة ستيفان أندرابي (Stephan Andrei) الفعليّة في التاريخ الذي أشار اليه باسيبا.

كان ناشطا ريفيا متواضعا، يبرع في تأليف قصائد المديح التي تمجد مآثر الثنائي، لكنه اقترف هفوة ما تسببت له بإقصاء مؤقت. من شدة اشتياقها للمديح، استدعته إيلانا من جديد وأهدته، تعبيراً عن نيتها الحسنة، بيتاً جميلاً في أفضل حي في بوخارست، زرعته بالميكروفونات. لكن عمليات التنصت لم تكن واعدة بقدر ما توقعت: بقي خطأه الوحيد أنه متزوج من يهودية. لم ترتكب السيدة بانا التي تدرِّس الماركسية في الجامعة أية خيانة وظهرت وفية للرئيس. فلجأت إيلانا عندئذ إلى الإستفزاز وقالت بطريقة يائسة إلى حد ما لباسيبا: «من الأفضل أن تدفع بأحد شرطييكَ تحت تنورتها». ثم أضافت بقرف: «ادعاؤها بأنها مريم العذراء يثير لدي شعورا بالغثيان».

بالرغم من محاولات إيلانا الفاشلة، لم تنبت القرون على جبين بانا؛ وتساالإيلانا باسيبا بقلق: - «هل علقت بالصنارة؟» - «كلا، ليس بعد». - «إنها تتعبني. أمامك ثلاثة أشهر لكي تجعلها تشمِّر تنورتها. ثلاثة أشهر، أريد خلالها أن تسجل أقوالها وتصورها. دعني أراها عارية تحت أحد رجالك. وهي تهز بقفاها إلى أن يبلغا النشوة. ثلاثة أشهر. أتسمع؟ أريد أن أرى بانا خارج اللعبة بعد ثلاثة أشهر».

لم يترتّب على باسيبا إ ملفات إحضار ملفات عن الغانيات الرومانيات فحسب. إذ كانت منافسات أخرى تجتاح الساحة الدولية. كانت إيلانا تملك حينذاك ملفات عن إنديرا غاندي (Indira Gandhi) وغولدا مائير (Golda Meir)، متوهّمة أنها بوضع منافَسَة معهما. كانت زوجة الرئيس الأميركي جيمي كارتر (Jimmy Carter) موضع احتقار خاص، يعود سببه إلى قصة معطف من فرو الفيزون (vison) غامضة.

كان الرئيس الأميركي قد قرر اتباع سياسة تقوم على مبادئ أخلاقية متينة. فخفّت فجأة أصداء عمليات الإبتزاز ونزوات الطغاة في الدبلوماسية الأميركية. طالبت كعادتها بشهادة جامعية فكانت أول بادرة للرئيس كارتر أن رفض إعطاء العالمة ذات الشهرة العالمية دكتوراه شرف من جامعة واشنطن. لم تتفهم الرفيقة هذا الرفض الوقح، الذي أثار لديها على الفور كراهية لمنتج الفستق السابق: «لا يمكن أن تقنعوني بأن السيد فستق (*Peanut*) يستطيع إعطائي شهادة من ولاية إيلينوي (Illinois) وليس من واشنطن!»

انقطعت العلاقات بين رومانيا والولايات المتحدة في عهد كارتر نهائياً. عند ذلك انصب غضب إيلانا واحتقارها على السيدة كارتر. عندما طلبت إيلانا معاطف من الفيزون، أهديت كتاب جيمي كارتر *لم لا الأفضل* (*Why not the best*)، وكذلك مجموعة صور لرومانيا أخذت من الأقمار الصناعية.

قالت للجنرال باسيبا: «أريد معاطف من الفيزون، معاطف طويلة جداً، ومشالح. [...] أنا متأكدة من أن السيدة فستق لا تعرف ما يمكن أن يُصنع من جلد الفيزون. لا أمل في أن أحصل منها إلا على سلة من الفستق، أليس كذلك، يا عزيزي؟»

دافع نيكولاي عن زوجته أمام الإنتقادات التي أثارتها هذه النزوة التافهة. أيجدر أن تكون زوجة زعيم الدولة الرومانية النافذ بمظهر خادمة قذرة هي التي تبذل جهدها ووقتها من أجل خير الشعب؟

تفودي التضارب بالأيدي مع السيدة كارتر. ولكن لم يمكن فعل أي شيء بالنسبة للمشاجرة النسائية التي أوحتها لإيلانا مباراة في كرة القدم.

كان ألكساندرو دراغيسي (Alexandru Draghici) على مدى أكثر

من عشرين سنة منافساً سياســياً لنيكولاي تشاوتشيسكو. تجلّت للجميع منافســتهما خلال مباراة بكرة القدم. واجه فريق ألكســاندرو دراغيســي، «دينامو» (Dinamo)، في ذاك اليوم فريق تشاوتشيســكو، الـCCA. كانت إيلانا تشاوتشيســكو، كما مارتا دراغيســي (Martha Draghici)، جالسة في منصة الشــرف. فاندلعت مشــادة بين المرأتين اللتين تبادلتا الشــتائم بشــكل فظّ. أخذ كل المشاهدين الحاضرين ينظرون إلى المنصة بدلاً من الملعب[1].

...إلى عقدة الإضطهاد

تنتشــر عقدة الإضطهاد عموماً بين كل الذين يحيطون بالمصاب بهذا المرض. الأشــخاص الأكثر قرباً منه هــم أول من يعانون من نوبات الهلع التي تنتاب الذين فقدوا ثقتهم بكل الناس.

لم تنــجُ إبنة الثنائي تشاوتشيســكو، زويا (Zoia)، مــن هذه القاعدة. عندما بلغت ســن العشق الأول، لم تتورع إيلانا عن وضعها تحت المراقبة المشــددة. فعلمت بــأن ابنتها تقيم علاقة مع صحافي شــاب يكتب في مجلة لوميا (Lumea) الرومانية التي تعالج مواضيع السياســة الخارجية. قبل أن تقدم زويا العريس المحتمل إلى والديها، كان في حوزة إيلانا ملفاً كثيفا عنه وعن عائلته. فأقصي نهائياً بســبب أصله الوضيع وأهله الذين تنقصهم الثقافة والأســلوب الراقي. كانت إيلانا تقول وهي تتفحص الصور والأفلام المأخوذة عن أهل الشــاب مــن دون علمهم: «أنظروا إلــى الطريقة التي

---

(1) روى الحادثة توماس كونز، سبق ذكره.

يسيرون بها. أنظروا إلى سيقانهم المقوسة ومؤخرتهم الضخمة وأقدامهم التي تشبه أقدام الحمام».

كان هذا أقل سوءاً مما لحقه. اكتشفت إيلانا صورة غير لائقة: كان قليل الأدب يجرؤ على ارتداء بنطلون دجينز. فصدر الحكم المبرم: «مقرف!» تمهيداً لكراهية شرسة. أمرت إيلانا بالتنصت عليه، فتغذى حقدها مما سمعته من كلمات اللطيفة وتلميحات أخرى عن حياة جنسية ناشئة:

«لا أريد أن أرى هذا الوغد يحوم حولها ولو يوماً بعد الآن. قد أقتله كالبرغشة. في حادث سير أو شيء من هذا القبيل. لكن ابنتي، الغريبة الأطوار، قد تجعل من ذلك مأساة. أريد أن يُرسَل إلى الخارج ويُترَك هناك حتى يفطس». هكذا أمرت باسيبا المخلص. إلى الخارج، لكن أين؟ إلى أي منفى سيذهب ويتعفّن هذا المغرم؟ إلى غينيا (Guinée)؟ قالت أمام أجهزتها الخاصة: «أتتذكرون عندما كنّا في كوناكري (Conakry)؟ كلمنا السفير عن أحد التقنيين الذي انفجر رأسه مثل بطيخة شمّام، وكان مملوءاً بالديدان. تذكروا، قال السفير إن الحشرات تبيض تحت جلدة الرأس. أريد صورة لرأسه مفتوحاً كبطيخة شمّام». لقد قررت أن «السيد بلو دجينز» (Blue Jeans) يجب أن يختفي دون أن يترك أثراً.

لكن الرفيقة كانت تحرص جداً على إخفاء هذا السلوك الظالم الذي كان من طبعها. فتعتني بصورتها من خلال ظهورها المتكرر في وسائل الإعلام: في الصور الفوتوغرافية الرسمية التي كانت توزعها على نطاق واسع المؤسسات الموجودة في كل مكان، كانت تظهر بالأبيض، ترتدي طقماً أو ثياباً أخرى رسمية، يحيط بها الأطفال واليمام.

أثناء الزيارات الرسمية للثنائي إلى القرى أو المصانع، كان في انتظار

كاميرات التلفزة طقس لا يتغيّر: أطفال يستقبلونهما ويقدمون لهما الخبز والملح. وتشكرهم إيلانا بملامسة لطيفة. أصبحت أكثر فأكثر القديسة إيلانا، أم الوطن الروماني وأطفاله.

إذا كان تحرص على صورتها داخل رومانيا، فهي لم تستطع ضبط غرائبها خلال تنقلاتها في الخارج.

الملذات الصغيرة لإيلانا

كانت قدرة إيلانا على الإساءة تظهر بالفعل أثناء المفاوضات الدبلوماسية. تستغل الرفيقة هذه التنقلات لإبراز رهافتها. كانت تفرض أن تدوَّن لوائح طعامها باللغة الفرنسية. والهدف من ذلك بسيط: إظهار تفننها بالطبخ وألفتها للثقافة الفرنسية والأسلوب الفرنسي، فيما كانت لا تفقه فيهما شيئاً.

فمن الثقافة الباريسية، لم تكن تعرف إيلانا إلا الألبسة المخشخشة. فمنذ 1974، تكونت خزانة ثيابها حصريا من الألبسة التي تنتجها صناعة النسيج الجديدة التي أنشأها زوجها. وسرعان ما امتلأت خزائنها بالإبتكارات الرومانية، فكان بحوزتها إحتياطي من الثياب لمدة عام. عندما أصابها الملل من هذه الموضة المحلية، بدأت الرفيقة تغش بإضافة قطع تطلبها خصيصاً من باريس. يمكن تصور الجاذبية التي تنبعث من هذه المرأة الناضجة التي تستقبل المقربين منها وهي ترتدي طقماً ليلكي اللون من الحرير المزين بالأزهار وتنتعل قدماها اليابستان حذاء ملائماً.

خلال عقد السبعينيات، أثرت إيلانا على النفوس في الخارج بفرض نفسها – بواسطة نزواتها وليس أفكارها – أثناء تنقلات زوجها الرسمية.

بفضل ألقاب الشرف التي كانت تنتزعها من القادة الأجانب عن طريق الضغوطات والرشاوى التي كانت توزعها الدبلوماسية الرومانية، حصلت على اعتراف وهمي بها في الخارج. كونها الممثلة الوحيدة للعلم في رومانيا، فهي تجسد التقدم والشرعية الديمقراطية للبلاد. وتفرض هكذا على الرومانيين صورة يحترمها العالم أجمع. أسلوب بارع يكمن في الإيحاء بالثقة خارج بلادها بداية، قبل أن تدفع بنفسها إلى الساحة الداخلية كقائدة لا يستغنى عنها.

امرأة الثمانينات

بلغت إيلانا الهدف الذي كانت قد حددته لنفسها أثناء لقاءاتها مع جيانغ كينغ وإيزابل بيرون: قيادة البلاد إلى جانب زوجها. بدأت الثمانينات بتدشين الإدارة المشتركة للثنائي تشاوتشيسكو.

أقيم أول قداس وطني احتفالا بالقديسة إيلانا في أسبوع ذكرى ميلادها، في 7 كانون الثاني 1979. منذ 6 كانون الثاني، نشرت الصحيفة اليومية سكانتيا (*Scantea*) بالحبر الأحمر «تكريماً حماسياً من الحزب والشعب». كان ذاك أول احتفال عام لزوجة نيكولاي. نوه المقال تبريرا لهذا التكريم بالسمو الذي أبدته «المناضلة على رأس حزبنا ورجل العلم المشهور»، بنت الشعب إيلانا. في اليوم نفسه، نشر معهد الكيمياء مجموعة من مقالاتها الأكثر تأثيراً اتسم عنوانها بالتواضع نفسه: *تكريم من معاونيها*.

في اليوم التالي المناسب لذكرى ميلادها، احتفل بسنواتها الستين وبالسنوات الأربعين من نشاط الرفيقة إيلانا الثوري. أقيمت مراسيم رسمية «للمرأة المثقفة العظيمة». وقُلِّدت نجمة الدرجة الأولى لجمهورية رومانيا

الإشـــتراكية. هكذا تمت مكافأة النعم التي نشرتها هذه القديسة من الطراز الجديـــد، بمثابة «التأكيد علـــى العلم الروماني»، أو «تنشـــيط المجتمع الإشتراكي المتطور من جوانب عديدة[1]».

أكّـــدت الصفحـــة الأولى من الصحـــف الصادرة في 7 كانـــون الثاني علـــى تغيير وضعيتهـــا: أصبحت الآن بطلة. وتم اختيار صـــورة فوتوغرافية اتخذت لها عند تســـلمها دكتوراه الشرف من المعهد الملكي للكيمياء في لندن. وتبعتها برقيات المديح التي أرســـلها كل ما كانت تحويه رومانيا من أكاديميات ومعاهد أبحاث، حتى مجلس النســـاء الوطني. وفي الصفحة الثالثة من الصحف نشـــرت ســـيرتها الذاتية التي عرضت بفخامة شهادات الدكتوراه الســـبعة عشـــر لديها (في نهاية حياتهـــا، كان بحوزتها 74 لقب جامعـــي روماني ودولي). كما تم التذكير بأن أعمالها ترجمت إلى 19 لغة، وقد غمرت آخرها هذه الباحثة الضارية بالســـعادة وزادت العبقرية الرومانية شرفاً: إذ ترجمت للتوّ أعمالها الكاملة في أثينا إلى اليونانية.

تشـــرين الثاني 1979. تم اجتياز مرحلة إضافية في تطوير عبادة شخصية إيلانا. كانت المرة الأولى التي توجَّه فيها المدائح الشـــعبية إلى امرأة. فقد

---

(1) كريستينا ليانا أولتيانو (Cristina Liana Olteanu)، Cultul Elenei Ceauşescu în anii '80 («عبادة إيلانا تشاوتشيسكو في الثمانينات») الذي سيصدر في رومانيا، والمتوفـّر باللغة الرومانية على الإنترنت على الموقع : http://www.scritube.com/istorie/Cultul-Elenei-Ceausescu-in-ani221131121813.php.

دراسة ممتازة، الأولى التي خصصت لإيلانا تشاوتشيسكو. شكرا لرادو بورتوكالا لطول أناته وللحماس الذي يذله من أجل أن يترجم لنا هذا المؤلَّف.

شكر مؤتمر الحزب الشيوعي الروماني الثاني عشر الرفيقة على «النشاط الثوري الضخم»، وعلى «إرساء التعليم على قواعد علمية»، وكل ذلك بفضلها هي. أنتجت بالمناسبة أول وثيقة منهجية للعلم الروماني والصناعة الرومانية: أقرت خطة على خمس سنوات، لكن رؤاها التنبؤية قطرت النصائح لمدة أطول... وصولاً إلى عام 2000.

في بداية 1980، أمسكت مع زوجها بصولجان الرئاسة مدى الحياة الذي استلمه عند تنصيبه. لقد دفعت بها الدعاية الهائلة القائمة على شهرتها كعالمة إلى أرفع المناصب والمسؤوليات بأقلّ من عشر سنوات.

بغض النظر عن اللقب، استطاعت إيلانا إيجاد قطيعة بالنسبة إلى قادة رومانيا التقليديين: فقد فرضت نفسها بفضل صورة كفاءتها. هكذا خلقت وَهْمَ وجود نخبة قيادية موظفة حسب أهليتها. بدا بعد ذلك مسارها لا يقاوم حتما.

ماذا كان يخبئ هذا السيل من الألقاب والشكران؟ إرادة في أن تصبح قائدة بدلاً من القائد؟ تساءل البعض حينذاك إذا كانت إيلانا قادرة على الحكم. في بداية الثمانينات هذه، سرت التكهنات على قدم وساق حول قدرات إيلانا على منافسة زوجها على رأس الدولة. حتى أن الإشاعة ازدادت وضوحاً: قد تشكل إيلانا تحالفاً مع ابنها نيكو (Nicu) للإطاحة بنيكولاي. ربما كان هذا أمل الشعب المسكين الفقير في قدر أكبر من العطف من قبل أمه؟

لم تكتب إيلانا برنامجاً سياسياً – فهي تتفادى الكتابة قدر الإمكان، لتخفي جهلها لقواعد اللغة – لكن تصريحاتها الشعبية في تلك الحقبة تمدنا بمعلومة مفيدة للإجابة على الإشاعات: «لا يمكنني إلا أن أتذكر

أنه كان من حســـن حظي أنني عملتُ مع الرفيق زوجي منذ أيام نشـــاطنا اللاشرعي. إنه مثل أعلى من التصميم والتضحية الكاملة في النضال الثوري، وقد علّمني الإيمان الذي لا يتزعزع بأحقية قضيتنا، وبانتصار الطبقة العاملة وحزبنا».

قدمت الأم إيلانا رســـالة واضحة: طالما بقي نيكولاي على قيد الحياة، ستقف وراءه.

الآن وقد بلغت أرفع درجة إلى جانبه على المســـتوى المؤسساتي، هل يمكن أن تذهب أبعد من ذلك من دون الإطاحة بزوجها؟

وجدت إيلانا وســـيلة حاذقة لتســـتمر في ارتقائها، إذ أوجدت لنفسها قضية وطريقة تعبير خاصة: الســـلام في العالم. مـــن إيلانا العلمية الباحثة عن الطابع الشـــرعي لتبوئها الســـلطة إلى جانب نيكولاي، انتقلنا في بداية الثمانينات إلى امرأة مشعة كدبلوماسية تناضل من أجل السلام.

في الحلقة الدراسية أو الندوة التي نظمتها أكاديمية العلوم في بوخارست في أيلول 1981، حول موضوع «العلماء والسلام»، تجاوزت مجال مؤهلاتها فتكلمت بحرية عن الأسلحة النووية. ها هي مناهضة شرسة للطاقة النووية، تطلق نداء إلى المثقفين وكل دعاة السلام في العالم لتشكيل لجنة من أجل الســـلام تطالب بتفكيك هذه الأســـلحة المدمّرة. لم تقتصر مبادرتها على العالم الشيوعي بل دعت كل الرأسماليين للإنضمام إليها.

وقد أسفرت مداخلتها عن نتيجة. عام 1982 استبدل لقبها كامرأة مثالية بلقب الأم الذي «يبعث الحماس ويعبئ كل رجال العلم ومجمل الشعب».

في إصدار كانون الثاني 1983، وبمناســـبة ســـنواتها الـ 64، كرست لها مجلة المرأة عدداً خاصـــاً. لم يُذكر فيه نيكولاي. كانت هذه المرة الأولى

التي كانت لها الأولوية على زوجها. على صفحات الصحيفة، يُطلعنا بيت شعر ملهم على أن «القوة الرقيقة التي تظهر في ملامحها هي مثال بالنسبة للفنون».

مع ذلك، تقدّم لنا السنوات الأخيرة أكثر فأكثر الأسباب لنصدق الشائعة التي تكشف عن استيلاء مقبل على الحكم وراء تصاعد نفوذ إيلانا: كانت عبادة نيكولاي وإيلانا قائمة على حد سواء. حصلت بدورها على اللقب الأكثر تكريماً في الحقبة الشيوعية: بطلة الوطن. كان على أساتذة مدارس رومانيا كلها الإحتفال بتبجيل إيلانا مع تلامذتهم، أكثر من تبجيل نيكولاي.

أخيراً، عام 1987، بمناسبة ذكرى تحرير رومانيا في 23 آب 1944، وهو تاريخ اختير للإحتفال بالعيد الوطني، نشرت صورتان منفصلتان للثنائي في صحيفة الحزب. وجهت إيلانا للمرة الأولى مديحاً للجيش السوفياتي الذي أنهى النظام الفاشي للماريشال أنطونسكو. بينما كان زوجها ينتقد دائماً الحامي الروسي ويحرص على استقلاله، كانت إيلانا توجه المدائح للإحتلال الذي «أتى بالثورة على أكتافه». شددت أيضاً على أن كوادر الحزب يدينون للإحتلال بتطوير وعيهم الثوري». كانت الوحيدة القادرة على اتخاذ مبادرات خارج إرادة زوجها، خاصة في مجال السياسة الخارجية الشائك والعلاقة مع موسكو.

لم يكن اتخاذ الموقف الواضح هذا من دون هدف. وجب جعل دور رومانيا على الساحة الدولية أكثر قوة. لماذا؟ للحصول على جائزة نوبل، طبعاً! لم تكن لتواضعها حدود، فشعرت بنفسها قادرة على الحصول

عليها، لها أو لزوجها، وفي كل المجالات. اســتغلت ورقة العلم في خدمة الدبلوماسية والسلام، فقامت بعدة محاولات لبلوغ غاياتها.

كانــت الأولى تدخــل رومانيا في الشــرق الأوســط المعقّد. حاول تشاوتشيسكو إحياء الحوار بين اليهود والعرب، متفاخرا بأنه الصديق الأكبر لياســر عرفات. إيلانا هي من دفعت لهذه المحاولة التي لم تكن تتناسب مــع قدرات رومانيا ونفوذهــا، وكانت ترى في هذا التدخل وســيلة جيدة للحصول على جائزة نوبل للسلام لصالح ابنها نيكو.

ثــم مواقفها المناهضــة للطاقة النووية والمؤيــدة لتخفيض عدد القنابل الهيدروجينيــة هي التي أزكت آمالها. لكن دون جــدوى. لم تعترف هيئة التحكيم بجدارة إيلانا.

في المجال العلمي، حاولت إبراز اكتشــافاتها المدوية حول المكثفات من أجل أن تكافأ عن فئة الكيمياء، لكن دون نتيجة.

حاولت أخيراً إبراز الأبحاث الطبية التي تديرها هي أيضاً: موّلت المشاريع الأكثر غرابة ثم قُدِّمت لهيئة المحلفين ومن بينها علاج جديد مريب لمرض السرطان بفضل مستخرج الثوم. رومانيا تشاوتشيسكو المتجددة لم تحصل أبداً على أرفع امتياز لرجال العلم.

ترف وسكينة وجهاز أمن (Securitate)

لا يهــم إذا لم يعترف العالم بأهميتهمــا، فهما يعترفان الواحد بالآخر. معا، خلقا لنفسيهما حميمة آمنة من الترف والسكينة. منزلهما الأبيض في جادة بريمافاري (Primaveri) المحمية بأشــجار الصنوبر، يشكل واحتهما الخاصــة. بين رجال جهاز الأمن الذين يجوبون طرقات الحي دون توقف،

يمكن رؤية قبة المدخل المذهبة التي لا يخفى بريقها على أنظار المارّة. في الداخل، النظافة المطلقة هي من أمسّ الضرورات. لا يجب أن يعكّر أحد السكون الذي يروق لنيكو. كانت إيلانا تبعد عنه المزعجين؛ يقول الرجل السياسي والإقتصادي ألاكساندرو بارلاديانو (Alexandru Barladeanu): «كان لديها ميزة استشعار أعدائها عن بعد كما تفعل الحيوانات المفترسة في الغابات». وكان لها عدو آخر هو الكحول. كانت إيلانا تحاول ان تحدّ من استهلاك زوجها له.

كان طراز المنزل أقرب إلى المشرقيّ وكل زاوية منه مزينة بشكل غني. وضعت على الجدران سجادات بحجم كبير جداً يفترض بها تمثيل قدرة ومواهب البشر الخلاقة. اختارت إيلانا عناصر مبتذلة أخرى للديكور. الإكتشاف الذي كانت تفخر به: الحنفيات المذهبة بشكل البجع في الحمّام والتي تذكّر بهذه الطيور التي تحب إطعامها على ضفة البحيرة.

عندما كان جوّ بوخارست يزداد ثقلاً، كان بإمكانهما اللجوء إلى ضفاف بحيرة سناغوف (Snagov) على بعد ثلاثين كيلومتر من العاصمة، في ذاك المكان الرائع الذي يرتاده كل سكان بوخارست. هناك، كانا يطلقان العنان لهوسهما بالنظافة والنقاء. كان البيت مبنيا كله بالرخام الأبيض، هو أيضاً، ويطل على البحيرة بمياهها المصفاة. وكانا يتسليان بالنزهات في اليخت؛ وتقوم إيلانا مع نيكو بممارسة ملاحة التنزه، بأزياء بيضاء.

هذه الملاعب تنذر بتواضع بما سيكون ابتداء من 1984 قصرهما الرئاسي الذي كان الدليل الأخير على جنون الثنائي. كانت الفكرة الأساسية لبناء هذا القصر جمع المؤسسات الرومانية الأربع الكبرى. فيمكن لرئاسة الجمهورية والجمعية الوطنية ومجلس الوزراء ومجلس القضاء الأعلى عقد

جلساتها في هذا الصرح المبني تمجيدا للطراز الروماني. مبنى واحد بقياسات تتناسب وجنون العظمة، يمكن لنيكولاي تشاوتشيسكو وزوجته السيطرة عليه من غير منازع. قام بناء هذا الصرح الذي يفوق كل المقاييس ويبقى حتى اليوم ثاني أكبر مبنى في العالم - بعد البانتغون - على ذريعة الزلزال الذي دمّر بوخارست عام 1977.

هذا التدمير الوحشي والقاسي صدم تشاوتشيسكو الذي لم يتحمّل رؤية آلاف الجثث المضرجة بالدماء تحت الركام. فوجئ الأطباء الذين زارهم في مستشفى المدينة بالقلق المنبعث من الديكتاتور الذي رفض مصافحة أي كان أو لمس أي شيء. قرّر أن يقي نفسه من مثل هذا المصير.

فأمر بالقيام بدراسة جيولوجية للمدينة تتعلق بالزلازل، واختار هذا العقار الهائل بمساحة 520 هكتار - ما يساوي ثلاث دوائر باريسية - على أنه الأكثر أمناً ليأوي مقره الرئاسي. فتمّ طرد 40000 نسمة ودمرت 30 كنيسة. كما دُكَّ أحد أقدم أحياء بوخارست الذي كان يعود إلى القرن الثامن عشر. عام 1983، بدأت الأعمال الضخمة: مضى 20000 عامل ليلا نهارا في البناء تحت إشراف أنكا بترسكو (Anka Petrescu). بعد سنة ونصف، خرج من الأرض على 45000 متر مربع، مكان للسكن مساحته 350000 متر مربع. في النهاية، نجح نيكولاي في إنشاء منزل حسب ذوقه حيث لا تيارات هوائية ولا جراثيم. كما في منزله السابق، كان القصر مبنياً بالكامل من رخام رومانيا وقد استخرج منه ما يقارب مليون متر مربع. في أجنحتهما الخاصة أمر تشاوتشيسكو وزوجته المهووسان أكثر فأكثر بالنظافة ببناء حمامات عديدة كلها مزينة بطريقة مفرطة. كانت جدران حمّام الجاكوزي (jacuzzi) مغطاة بالسيراميك الأزرق والأبيض ورسوم أزهار. وكان هناك

قاعة أخرى تشبه الحمّامات التركية مزينة بالفسيفساء الليلكية حسب الطراز الفارسـي. وفيها طبعاً بركة داخلية للمياه الساخنةومزينة بفسيفساء ضخمة ألوانها فاقعة تمثل طواويـس وطيوراً أخرى أمام قوس قزح. من مركز القيادة هذا، كانا يعيشـان باكتفاء ذاتي (بالإنطواء على نفسـهما)، مبتعدين شيئاً فشيئاً عن الناس، يسهر الواحد على الآخر ويراعي عصابه (névrose).

من المؤكد أن نيكولاي تأثر في أسلوب وترتيب القصر بقصر بوكينغهام (Buckingham) الضخـم حيث كان قد زار الملكة إليزابيت الثانية. كانت الحكومة البريطانية تريد بيع معدّات عسكرية للجيش الروماني، فاستضافت بكثير من التكريم ذاك الذي كان يبدو مقاوماً في العالم الشيوعي، وأسكنته عند الملكة. لكن نيكولاي لم يسـتوعب بالكامل البروتوكول الملكي. أولاً جاء بشخص ذوّاق إلى مائدة الملكة. ثم، خشية العدوى بالجراثيم، رفض أن يصافحها، مع أنه كان يحمل حراسه باستمرار قوارير صغيرة من محلول السبيرتو ليستطيع تطهير يديه.

لـم يعد هناك حـدود لعصاب نيكـول. أتت مجموعة مـن التلامذة الطليعيين يوماً لتقديم باقة من الزهور لهما، فاختير إثنان من بينهم ليقبلهما الثنائي على مرأى من الجماهير. على سبيل الإحتياط، خضع كل التلامذة لفحـص طبي كامل لكي يتم تحديـد من هما اللذان يمكن تقبيلهما دون التعرض لخطر العدوى.

أما إيلانا، فلم يعد لعقدة الإضطهاد لديها حدود. كان الدكتور شـكتر (Schekter) طبيبها الخاص منذ السبعينات. عند خروجه في أحد الأيام من المقر الرئاسي، أسرّ إلى وزير الصحة بشكوكه حول الصحة العقلية للرفيقة، قائلاً: «يجب إجراء معاينة لصحتها العقلية». في اليوم التالي، وجد الدكتور

شكتر منتحراً، إذ سقط من نافذة مكتبه في مستشفى بوخارست.

أصبحت إيلانا تنوء تحت التكريمات. زوجة وأم وبطلة، أصبحت القديسة إيلانا تجسيداً للإنسان الجديد الذي تتغنى به الإيديولوجيات الشمولية. ومع ذلك لم تكن مطمئنة. وقد طغت حالات القلق لديها على كل همّ آخر. فالخوف الذي كانت تنسبه إلى محيطها قد حجب عنها بالكامل طبيعة الخطر الذي بدأ يلوح في خريف 1989.

كان نظام رومانيا الشيوعي في حينه جزيرة الإستقرار الوحيدة في منطقة ما وراء الستار الحديدي. أدت كل من سياسة *إعادة البنية* الروسية، *البيريسترويكا* (*perestroika*)، وحركة *سوليدارنوسك* (*SolidarnoŚĆ*) التي انطلقت من مدينة دانتزيغ (Dantzig) البولندية إلى انحلال معسكر الشرق. كانت الأنظمة تنهار من حول تشاوتشيسكو، والحدود تنفتح وجمهورية ألمانيا الديمقراطية تعيش لحظاتها الأخيرة.

منذ التاسع من كانون الأول طرأت صدامات أثناء مظاهرة في تيميشوارا، عند الحدود الهنغارية، فتدهور الوضع، ما استتبع عملية قمع غير متكافئة. تسرّب الحدث بواسطة البلدان الشيوعية السابقة المحرّرة. فقد تلقت وكالات الأنباء اليوغوسلافية والهنغارية والألمانية صوراً عن الضحايا الممددة على الأرض واطلع عليها العالم كله. بلغ الإستنكار أوجه، وحكي عن آلاف القتلى. حمل نابغة جبال الكاربات الوضع على محمل الجد فندّد في خطاباته بالمخربين المجهولين والسوقيين الذين أثاروا التمرد. لكنه اعتبر من الحكمة أن يغادر البلاد ويذهب إلى طهران متذرعاً بالتوقيع على عقود تجارية مهمة مع جمهورية إيران الإسلامية.

لدى عودته بعد يومين، في 21 كانون الأول، لم يكن التحرك قد هدأ

بعد. فقد بلغت الإحتجاجات العاصمة، واعتبرت كل محاولات الشـرطة لاستيعاب الجماهير بمثابة استفزازات. شعر الشعب بأن الديكتاتور متردد، فقرّر اسـغلال هذا الضعف. في اليوم نفسـه، اعتلى الثنائي تشاوتشيسكو المنصة في سـاحة اللجنة المركزية الضخمة لإلقاء خطاب كان يفترض أن يهدئ النفوس. وتسـارع بعض الخطباء إلى المنبر كل بدوره لإقناع الحشد بأن كل الأمور على ما يرام. لكن المتظاهرين اسـتمروا في التوافد إلى تلك الساحة المركزية في بوخارست.

في النهاية، تكلّم تشاوتشيسـكو السـاعة الثانية عشرة والنصف ليختم تتالي الخطبـاء. منذ بداية خطابه، عمّت الفوضـى. أخذ الناس يركضون ويصرخون: للمرة الأولى، لم يتم الإصغاء بخشوع لخطاب القائد. لم يكن تشاوتشيسـكو معتاداً على أن يقاطع، فتوقف عن الكلام وبقي مشـدوهاً أمام هذا المشهد غير المتوقع. تجمدت نظرته معبرة عن عدم فهمه العميق لما يجري. كانت زوجته شـاردة منذ البدايـة. على عكس عادتها، حيث كان يلاحظ على وجهها الحماس وهي تصفق بصخب على إيقاع كلمات نيكول، كانت قلقة وقد بقيت في المؤخّرة.

عندما قاطعت الحشـود زوجها، فارقتهـا الطمأنينة نهائياً. انتاب الهلع كل الذيـن كانـوا على المنصـة بدورهم. وتعالت أصـوات مفرقعات من الساحة. فقد رمى المشاغبون المفرقعات، وقد صمموا على زرع الإضطراب بكل الوسـائل. المواطنون الرومانيون الذين لم تفارق أذهانهم تسـجيلات تيميشوارا حيث كانت تسمع طلقات الأسلحة الأوتوماتيكية بطريقة مماثلة، انتابهـم الذعر نهائيا. لم يعد تشاوتشيسـكو يعرف مـاذا يفعل وهو أمام الميكروفون. همس في أذنه أحد مستشاريه «فينيه ساكو» (*Vine Secu*)،

بما معناه أن الأمن مســتعد للتدخل. لم يُبدِ تشاوتشيســكو أية ردة فعل. ردّدت إيلانا هذه العبارة، وقد خنق الخوف صوتها. أخيراً استجاب نيكول والتفت إليها وجعلها تكررها وهو مســبوع. فكررت بهوس: «الأمن مستعد للتدخل». أدرك أن ذلك غيــر مجد. فقاطعها قائلاً: «كلا، يه!» لم يعد الحشد تحت السيطرة. ســقط غرض ما على الشرفة. أفاق تشاوتشيسكو حينذاك من ذهوله وأخذ يصرخ في الميكروفون لوقت طويل: «ألو، ألو، يا رفاق، عودوا بهدوء إلى أماكنكم». اقتربت إيلانا من الميكروفون وخاطبت أطفالها المتجمهرين عند قدميها: «ابقوا هادئين»، بلهجة المعلمة العاجزة عن ضبط الوضع. فانطلقت الشتائم.

قرر «الأطفال» قتل الأب والأم أيضاً. كانت الصور تبث مباشــرة على التلفزة، بعكس التعليمات الواضحة لتشاوتشيســكو. كان داعية ماهرا، يغير دائما توقيت خطاباته بضعــة دقائق، في حال وقعت مثل هذه الأحداث. لكن لم يعد يسيطر على مؤسسة التلفزة فبُثَّ خطابه مباشرة. علمت رومانيا كلها بأن تشاوتشيسكو لم يعد يملي أي شيء على الشعب.

في مكتبه، نَظَّم على عجل اجتماع طارئ، باحثاً عن وســيلة للســيطرة على الحشــود. اجتمع العسكريون وأفراد الشرطة الســرية وحتى المقربون السابقون المستبعدون منذ سنوات للمرة الأخيرة في القصر. حتى أنه حاول جذب شــعراء البلاط الذين كانوا يؤلفون في الأوقات العادية قصائد مديح له ولزوجته، لكي يذكِّروا بعظمة بطل الوطن وشــهرته. لكن هؤلاء كانوا أول من هربوا. عند هبوط الظلام تلقى للمرة الأخيرة زيارة أولاده وإخوته. أمضوا الليل محاولين تنظيم الهجوم المضاد.

عنـــد الفجر، تلقت هيئة أركان الأمن مـــن الجنرال إيوليان فلاد (Iulian Vlad) الأمر بالتوقف عن إطلاق النار على الحشـــود. عندما اســـتيقظ يوم 22 كانون الأول، كان تشاوتشيسكو قد فقد كل سلطة. كونه عاجزاً، أعلن حالة الحرب لكن لم يكن لديه الوقت لتوقيع المرســـوم الذي يؤســـس لها شـــرعياً. في المدينة، وفي الوقت نفســـه، انضم إلـــى صفوف المتظاهرين العمال الذين توقفوا عن العمل.

في الساعة التاسعة والنصف، بلغه نبأ «انتحار» وزير الدفاع، المخلص فازيل ميلايا (Vasile Milea). في محاولة أخيرة، استقبل الملحقَين العسكريَين للحاميين الروسي والصيني. لم يعد الإقطاعيان يحميان عبدهما، فقد تخليا عنه. تجمعت الحشـــود من جديد في المكان الذي ترنّح فيه الديكتاتور. وقف حوالي مئة ألف شخص مقابل مقرّ اللجنة المركزية.

في الســـاعة الثانية عشـــرة، صعد نيكولاي وزوجته علـــى متن مرواحية حطـــت بهمـــا على بعـــد 30 كيلومتـــر مـــن العاصمة، في تارغوفيســـت (Targoviste). أوقفهما على الفور الجنود المتمردون. باء هروبهما جواً إلى فارين (Varenne) بالفشل. كان بإمكانهما مغادرة البلاد بسهولة في مرواحية مزودة بالوقود وإيجاد ملجأ في بلد حليف. لكن أي بلد؟ كان السوفياتيون قد تخلوا عنه أثناء المحادثة الأخيرة التي جرت في الصباح، والديمقراطيات الشـــعبية قد انهارت، وحلفاؤه قد اختفوا. لمـــاذا لم يلجآ إذن للهرب عبر كيلومترات السراديب التي حرص على حفرها تحت المدينة؟

ظهر إيون إلياســـكو (Ion Iliesco) منذ الســـاعة الرابعة عشرة والنصف على شاشـــة التلفزة بصفته محـــرِّر رومانيا وأعلن نهايـــة عملية القمع التي

عجز تشاوتشيسكو عن تنظيمها. بعد يومين، أصدر الرجل القوي الجديد إلياسكو مرسوما لإنشاء محكمة عسكرية إستثنائية كُلّفت بمحاكمة إيلانا ونيكولاي.

كانا يمسكان بيد بعضهما، وهما محصوران في قاعة المحكمة تلك، يواجهان اتهاما لا وجه له ولا إسم. لم يكن نيكول يفهم كيف يمكنهم أن يقللوا من احترامهما ويشتموا أم الكل، الإيديولوجية والعالمة، السيدة الأولى وملكة السهرة التي اختارها منذ عام 1939. كانت تكرر له مرارا عندما توجّب عليه مواجهة معارضيه: «إنهم لا يستحقونك». لا أحد يستحقه سواها.

صدر الحكم بالموت ونصب عمود الإعدام. قال لهما النائب العام بسخرية إنه كان يجدر بهما البقاء في إيران بدلاً من العودة. فكان ردهما على الإهانة ضحكة تحدٍّ. ضحك نيكولاي وإيلانا التي قالت: «نحن لا نذهب إلى الخارج. هنا هو منزلنا»، وغادرا الساحة، نهائياً.

8

فوهرر (قائد/Führer) إسمه الرغبة

«في السياسة، يجب الحصول على دعم النساء؛
أما الرجال، فيتبعوكم لوحدهم».
أدولف هتلر

التربية العاطفية

بإسم الوردة

«تقول النساء دائماً إنهن يردن أن يكنّ جميلات من أجل الرجل الذي يحببن، ثم يفعلن كل ما هو عكس ما يمكن أن يرضيه. فيستعملن كل الوسائل لكسب قلبه، ثم يصبحن بعد ذلك أسيرات الموضة ويعملن فقط على إثارة حسد صديقاتهن[1]».

كان لدى هتلر رأي متصلِّب أو ثابت حول الإغراء الأنثوي. نكاد نقول إنه لم يكن مرتاحاً تماماً مع الجنس اللطيف، في معرض اهتمامنا بغراميات

(1) نرين غون (Nerin Gun)، حب آفا براون المشؤوم (*L'Amour maudit d'Eva Braun*)، باريس، روبار لافون، 1968.

هذا الأرنب البارد جنسياً. كيف يمكن لهذا الرجل المثالي بنظر النساء الشابات الألمانيات في السنوات 1930 أن يتوصّل إلى مثل هذا الموقف الحاسم والخائب الذي يمتزج بشيء من المرارة؟

إنها قرية لينز (Linz) على الحدود بين ألمانيا والنمسا عام 1905. كان هتلر حينها في السادسة عشر من العمر. لم تكن بداية سيرته في المغازلة ناجحة مطلقاً. كان منذ ثلاث سنوات يعيش في الخيال قصة حب مع رفيقة له في المدرسة إسمها ستافاني إزاك (Stefanie Isak). كانت أساليبه بدائية: أدولف الشاب، الزعيم العسكري المقبل للرايخ الثالث، يتدرّب على عمليات الإقتراب غير المباشر. في سعيه للظهور بالصدفة في الأماكن التي تتنزه فيها ملهمته الشابة، يتعقب بعناية تحركاتها ويراقبها محاولاً الإتصال بها.

كان صديق الطفولة لهتلر، أوغوست كوبيزاك (August Kubizek)، أول من راقب المناورات العاطفية لطالب لينز. في أحد الأيام، شدّه أدولف بذراعه وسأله عن رأيه بتلك الصبية الشقراء النحيلة التي تمشي في شارع لاندستراس (Landstrasse) متأبطة ذراع أمها. بالنسبة لأدولف، كل شيء أصبح واضحاً: «يجب أن تعرف، إنني مغرم بها[1]».

كانت ستافاني بالفعل تجذب الأنظار والشهوات بمظهرها الأنيق وقامتها الطويلة النحيلة وشعرها الكثيف الجميل المعقوص. عيناها لامعتان ومعبرتان. هندامها أنيق للغاية وتدلّ مشيتها على أنها بنت عائلة رفيعة

---

(1) أوغوست كوبيزاك (August Kubizek)، هتلر الشاب كما عرفته (*The Young Hitler I knew*)، لندن، غرينهول بوكس (Greenhall Books)، 2006، ترجمة الكاتب.

الشـأن. كان هندام هتلر في تلك المرحلة في غاية الإتقان. عصاً سـوداء عاجية الكعبورة وقبعة سوداء برفرف عريض، وقميص أبيض، وقفازين أسودين من الجلد ومعطف أسـود مبطّن بالحرير. شبيه شخصية أرسين لوبين على ضفاف الشـميدتورك (Schmiedtoreck)، نهر لينز، حيث تأتي الصبية كل يوم في الساعة الخامسة عصراً للتنزه برفقة أمها.

مع أن هتلر كان يتواجد هناك ليتأمل بجمالها دون قيد أو شـرط، فلم يكن يلقي عليها التحية، ولا يجرؤ إلا على تبادل بعض النظرات. سرعان ما انضم أحد الشبان إلى المتنزهات، ما أثار غيظ المعجب الخجول. فاطمأنّ عندما أخبره كوبيزاك أن ذاك الشاب هو شقيق الشابة الجميلة ستافاني. مع ذلك لم يشـرع أدولف بالإتصال بهـا. لكنه أخذ ينظر إليها مطوّلا وكانت هي تبادل أحياناً نظرات هذا المعجب المثابر بالإبتسام. عندما كان يتلقى هذه المكافأة الهزيلة، «كل شـيء في العالم يصبح جيداً وجميلاً وحسن الإنتظام». عندئذ يكون هتلر سـعيداً، في غاية السعادة حقاً. في المقابل، عندما تتجاهله، يسـتولي عليه الإضطراب ويميل إلى تدمير نفسـه وتدمير العالم معه.

كان في ذلـك الحين معجباً بفاغنر؛ فكانت هـي ملهمته الفالكيري (walkyrie) التـي ينسـب لها كل الفضائل فكتب لهـا قصائد لا تحصى منها «نشيد للمحبوبة» الذي قرأه لصديقه وحده. يصفها فيه «كفتاة رفيعة النسـب في ثوب أنيق من المخمل الأزرق الغامق، تعتلي فرساً أبيض فوق مروج الزهور، وشعرها مسترسـل فوق كتفيها بتماوجات ذهبية». معها كل شـيء طاهر، ويشعر هتلر بنفسه مغموراً «بفرح مشـعّ». عندما يقرأ هذه الأبيات القليلة، يشعّ وجه الشاعر الخجول نشوة.

فبدأ يضـع خططاً تتمحور حولها، وعندما سـيتعرّف عليها أخيراً، هو مقتنع أنها سـتعرف كل الأفكار التـي تراوده: «تفهم الكائنات البشـرية الخارقة بعضها البعض بواسـطة الحدس». عندما سأله كوبيزاك بسخرية إذا كانـت أفكاره يمكن أن تنتقل فعلاً بواسـطة نظرات خاطفة لا غير، تلقى جواباً شرسـاً: «طبعاً، هذا ممكن! لا يمكن أن تفسَّر هذه الأشياء. ما هو داخلي هو في داخل ستافاني أيضاً».

كيف يجرؤ صديقه على أن يشـك بقوة عواطفهما؟ كان هتلر غاضباً. فصرخ بوجهه قائلاً له إنه لا يفهم بكل بسـاطة وأنه لا يسـتطيع أن يفهم المعنى الحقيقي لحب خارق.

لا يمكنها إلا أن تحبه، فهو متأكد من ذلك. لم يتردد هتلر في تفسير علامـات عدم الإكتـراث الواضح إزاءه على أنها «تمويـه متعمّد لإخفاء مشاعرها الحميمة الجامحة». كان منذ ذلك الوقت يفسِّر العالم، من زاوية الحـب، على قياس حالات التردد لديه. لكنه لم يزل يرفض الإقتراب منها. ماذا قد يقول لها؟ «مرحبا، إسـمي أدولف هتلر، ليس لدي مهنة»... بدا له ذلك سخيفاً.

أرجأ مشـروعه إلى أجل بعيد: عندما سـيصبح رسّـاماً أكاديمياً. كان مقتنعاً أن سـتافاني لم يكن لديها رغبة أخرى سـوى الإنتظار حتى يعود ليطلب يدها.

ليكسب ودّ حسـنائه، كان على أدولف أن يمرّ بتجربة يتعذّر تذليلها. لاحـظ كوبيزاك أن الفتـاة تحب أن ترقص. فتاة ترقـص الفالس في قاعة للرقـص أمـام «أبله»، بدا له كل هذا متعذراً علـى تصوره، هو الذي يكره الرقـص. حثّه صديقه على أن يجرِّب حظه: «يجب أن تأخذ دروسـاً في

الرقص، يا أدولف». فارتبك المغرم الولهان.

عندئذ أصبح الرقص هاجسه، وتمحورت كل أحاديثه حول ذلك منذ تلك الفترة. بعد وقت ما، توصّل إلى الخلاصة الحاسمة التالية: «تصوّرْ قاعة رقص مزدحمة، وتصورْ أنك أصمّ. لا يمكنك أن تسمع الموسيقى التي يطرب الناس على أنغامها. وتنظر إلى حركاتهم الخالية من المعنى والتي لا تقود إلى أي مكان. ألن يبدو لك هؤلاء الناس أشبه بالمجانين؟»

هذا هو مفهوم الرقص بالنسبة لأدولف هتلر. عالَم سيبقى منغلقاً عنه تماماً طيلة حياته. أمام إصرار صديقه، انفجر غاضباً من جديد. «كلاّ! كلاّ! لن أرقص أبداً، أبداً! هل تفهم؟ إن ستافاني لا ترقص إلا لأن المجتمع يجبرها على ذلك ولأنها مرتبطة به للأسف. ما إن تصبح زوجتي حتى تفقد كل رغبة في الرقص».

بعد ذلك ولدت مشاريع لامعقولة: يفكِّر في مرحلة أولى باختطافها، لكنه لمٍ يكن يعلم إلى أين يقودها ولا بأي شيء سوف يعيشان بعد ذلك. ثم، يفكِّر بالإنتحار الذي سترافقه إليه ستافاني بالطبع. لقد فكّر بكل شيء مسبقاً حتى أنه أملى على كوبيزاك سلوكه لكونه الوحيد الباقي على قيد الحياة في هذه المأساة الإفتراضية.

الحلقة الأخيرة لهذا الحب النظري أثناء مهرجان الزهور في لينز والذي يقام كل سنة في الربيع: قدمت له ستافاني برعم ورد وهي تمر على عربة. فلم يبدو له العالم قطّ بمثل هذا الجمال». إنها تحبني! أرأيت؟ إنها تحبني!» احتفظ بهذه الوردة في منضدته كأنها ذخيرة. عند مغادرته المدينة كانت لديه الشجاعة لكتابة رسالة لها يعلن لها بشكل رسمي سفره إلى عاصمة إمبراطورية النمسا حيث ينوي متابعة دراسة الرسم. كان ذلك عام 1907.

مع ذلك، لم يعد يوماً إلى لينز لأن في فيينا (Vienna) كانت تنتظره حياة التشرّد. تلقّت ستافاني بالفعل هذه الرسالة التي يعرض فيها الزواج بها قريباً...، لكنها أصيبت بالذهول لأنها لم تكن تعرف كاتبها. لم يوقعها هتلر. لم يكن لديها أية ذكرى عنه، عن الرجل الذي كان يتبعها بأناة في شوارع لينز ولم يقترب منها مطلقاً. «قال فيما بعد: «أنا مدين لها بأطهر حلم من أحلام حياتي»». إعتراف صادق بخصوص حب لاواقعي، بناء من الكريستال سريع العطب لم يكن بإمكانه تحمُّل مجابهة الواقع، تحت طائلة الإنكسار إلى ألف قطعة.

فَقَدَ أدولف والدته في العام نفسه بسبب سرطان في الثدي، قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام. كان في حينها في الثامنة عشر من العمر. لقد تخلّت عنه المرأة التي كانت دائماً تواسيه بحب وحضور غير مشروطين. هكذا تفعل النساء. لم يفتأ هتلر بعد ذلك يبحث عن الرفقة النسائية، وتعزية نفسه بالقرب من النساء. فهن بنظره لسن سوى رقة أما الرجال فليسوا سوى قسوة.

رسّام ما قبل الحرب المتمرّن لم ينجح في الإضطلاع بممارسة الجنس كجزء طبيعي من حياته بصفته إنسان راشد. فهو يراه عاراً إذا مورس خارج الزواج، متأثراً بذلك بحَرْفية الأخلاق الكاثوليكية التي نشأ في جوها. إذ يمهد الطريق أمام الدعارة، «هذه الوصمة للبشرية». أليس من البؤس رؤية العديد من «الشبان الذين أجسادهم ضعيفة ونفوسهم منحلّة تحضِّرهم للزواج إحدى باغيات المدينة الكبيرة؟[1]»

ليس باستطاعتنا التأكيد على أن هتلر فقد براءته على يد نساء

---

(1) Mein Kampf (نضالي)، 1924.

محترفـات، إذ يروي لنا كوبيـزاك (Kubizek) كيف أن هتلر اصطحبه يوماً عام 1918 إلى حيّ البغاء في فيينا. فسأله عن سبب هذا المشوار الفكاهي، فأجابه أدولف: «يجب على المرء أن يرى هذا، ولو مرّة واحدة على الأقل فـي حياته». هل استسـلم هذا الجندي الذي لم يعـرف منذ أربعة أعوام سوى جبهة الحرب؟ الأرجح أن «إرادة العيش» كانت ملحة بالنسبة لقارئ شوبنهاور (Schopenhauer) المثابر وأنه لم يكن لديه الصبر لانتظار الزواج.

تحـوّل هتلر مـا بعد الحرب وتـمّ ترويض خوفه من النسـاء. هذا ما لاحظه أميل موريس سائقه في بداية أعوام 1920. حتى قبل دخوله المعترك السياسـي كان يستقبل حسناوات من ميونخ في شقته المتواضعة في شارع ثيارسشستراس (Thierschstrasse). «كان دائماً يهدي الزهور، حتى عندما لم يكن يملك فلسـاً واحداً. وكنا نذهب لنتأمل راقصات الباليه[1]». كانوا يذهبون أحياناً إلى الأكاديمي لتأمل الفتيات اللواتي يجلسـن إلى رسامين يرسـمون العري. كان هتلر يشـعر بالراحة هناك بشـكل تامّ. فأقام بعض العلاقات العابرة والسطحية بالنسبة له، مقتنعاً بأن سيكون عليه القيام بدور سياسـي طليعي. ما هو القاسم المشترك بينهن؟ إنهن في مقتبل الشباب، وجمالهن فتي ويظهرن مفتونات بالأفكار الجذرية للمشاغب هتلر.

معلمات حنونات

كان هتلر مجرّد جندي في ذلك الحين، لم يكن شيئاً مهماً، لكن لديه

---

(1) حديث أجري مع أميل موريس (Emil Maurice)، في نرين غون (Nerin Gun)، سبق ذكره.

طموحاً. كان يعرف حق المعرفـــة أن النماذج العارية اللواتي التقى بهنّ في المحترفات لسن هنّ من سيساعده على تحقيقه. يجب عليه بعد ذلك أن يتثقف ويدخل إلى المنتديات ويكتسب لياقات برجوازية فايمار (Weimar). عليـــه أن يتعلّم إغواء الجماهير كما النســـاء. باختصار، لا زال تنقصه كل المزايا الضرورية للزعيم الذي قرّر أن يصبح. إن النساء هنّ بالتحديد اللواتي قولبن فكر هذا الجندي القديم الشاب في الجيش. غريبات كنّ بالنسبة له، رحماً أنثوياً استمدّ منهنّ الثقة بنفسه التي كانت تنقصه حتى ذلك الحين.

أرنست هانفستانغل (Ernst Hanfstaengl)، أحد أعضاء بدايات الحزب النازي، كان يرافق هتلر بصفته رئيس جهاز الصحافة. لقد كوّن عن أساليبه فكرة واضحة وهو يراقبه عن كثب: «كان هتلر من النوع النرجســـي، والذي تمثل الجماهير بالنسبة له بديلاً عن المرأة التي كان يبدو عاجزاً عن العثور عليهـــا. كان الكلام بالنســـبة له طريقة إرضاء رغبـــة عنيفة ومضنية. عندئذ أصبحت ظاهرة بلاغته أكثر وضوحاً لي. فالدقائق الثمانية أو العشرة الأخيرة من خطاباته كانت أشبه بنشوة من الكلمات[1]».

لـم تســـتمر النســـاء غير مكترثة بهذا الفيض الكلامـــي. خُصِّص مقال فـــي صحيفة مونخنر بوســـت (Munchener Post) الصادرة في 3 نيســـان 1923 للنســـاء «المولعات بهتلر». بينما أصبح منذ سنتين فقط زعيم حزب NSDAP، استطاع جذب الأنظار إليه وإثارة حالات من الشغف الحقيقي

---

(1) أرنست هانفشتانغل (Ernst Hanfstaengl)، هتلر السنوات الغامضة (*Hitler les années obscures*)، باريس، دار نشر ترافيز (Trévise)، 1967. كان قديما رئيس قسم الصحافة في الحزب النازي، وقد انضمَ الى الأمريكيين عندما أعلنت الحرب.

لدى مناصريه. في الواقع كان هؤلاء بشـــكل رئيســـي مناصرات افتتنَّ بهذا الذي يأتي لهن بمثل هذه الأحاسيس القوية.

هكذا، لاني ريافنســـتاهل (Leni Riefensthal) التي كانت تدعي دائماً أنها لاسياســـية، عبّرت عن انطباعها الذي تشـــاركها به العديد من النساء الأخريات: «في اللحظة ذاتها، شـــعرت أن رؤيا كوارثية تجتاحني بشـــكل مذهـــل ولـــن تغادرني بعد الآن أبداً: كان لدي انطباع حســـي بأن الأرض تنفتح أمامي، مثل برتقالة شـــطرت فجأة بوســـطها ونشبت منها نافورة ماء هائلة قوية وعنيفة لدرجة قد تصل إلى ذروة السماء وأن الأرض ستتزلزل من أساساتها[1]». المفردات المختارة لوصف اللقاء غنية بالمعاني المبطنة.

قبل أن يتمكن مـــن «التدفق» على ألمانيا، كان عليه تفضيل تدرُّبه في بلاط نساء العائلات النبيلة. قدمت الأرستقراطية البروسية القديمة وبرجوازية وايمار الخائبة إلى هتلر بشكل عفوي ثروات حقيقية من المال أو الجواهر وحتـــى من الروائع الفنية، والتي بفضلها اســـتطاع تمويل الحزب القومي - الإشتراكي بشكل وافر. جردة غنائم اجتماعاته معبرة جداً: عقد من البلاتين مزين بماسات، وزمردة ترصِّع سلســـلة من البلاتين، ومجموعة من الخواتم مع حبات من الســـفير والماس، وخاتم بماسة مفردة، وخاتم من ذهب 18 قراط مع ماســـات مرصعة في الفضة، وســـجادة حائط من البندقية بالقطبة الغليظة تعود لعدة قرون، وغطاء طاولة من الحرير الأحمر المرصع بمطرّزات ذهبية من أسبانيا.

---

(1) إجتماع 27 شباط 1932، في قصر الرياضة (Sportspalast) في برلين، في لاني ريفنشتال (Leni Riefenstahl)، ذكريات، باريس، غراسيه (Grasset)، 1997.

هكــذا التقى في آذار 1920 فــي برلين امرأة غيّــرت حياته، إنها هلن باشستاين (Helen Bechstein) الزوجة الغنية لوريث آلات البيانو التي ضمن رواجَها عزف المؤلف الموسيقي ليسزت (Liszt) المشهور. كانت قد بدأت تمــوِّل صحيفة أوف غوت دويتــش (Auf gut Deusch)، لأحد رفاق هتلر فيما بعد، ديتريش آكارت (Dietrich Eckart). تأثرت بشــكل عميق بقدرة الخطيب المتحمس على الإقنــاع، فقررت أن تتولى أمره وتمنحه المفاتيح التي ستســمح له بفتح أبواب العالم الواسع أمامه: بدأت بتجديد مجموعة أزيائه. سيكون زيه العسكري الريفي من الآن فصاعداً السموكينغ (smoking) الأســود بالبزة المتصالبة والقبة المكســوة بالأطلس، مع عقدة عنق بشكل فراشــة. كانت هلن تعلمه كيف يختار ثيابه لتتماشى مع المناسبات. حتى ذلك الحين، كان يظهر بمظهر فلاح نمســاوي يرتدي الســراويل الجلدية نفســها في كل الظروف. أصبح يظهر بعد ذلك مرتدياً طقماً أسمر فاتح، كما ربطة عنق وحذاء جلدياً.

ثم درَّبته على السلوك اللائق الراقي - وقد احتفظ من تلك الحقبة بكياسة مصطنعة تدفعه إلى تقبيل أيدي كل النســاء التي كان يلتقي بهن - وعلمته أن يأكل الكركند في المجتمع بطريقة أنيقة ومن دون قذارات عشوائية تزعج صحابته الجديدة الراقية. أخذت هلن تنظِّم من حوله حفلات استقبال في فنــدق الفصول الأربعة في ميونخ، حيث كانــت تلتقي طبقة المثقفين في اليمين البافاري المتطرف. هكذا كان بإمكانه التدرُّب على المحادثة الودية أثناء ولائم العشاء في المدينة. عندما اعتبرت أنه أصبح جاهزاً، أوكلت إليه بمهمة جمع التبرعات في تموز 1921 لصالح الصحيفة اليومية التي أسسها الحزب النازي المقبل للتو، «مراقب الشعب» (Volkischer Beobachte).

كانــت هلن تنــوي أن تجعل من أدولف صهراً لهــا وتزوجه من ابنتها شارلوت البالغة سبعة عشــر عاماً. فأقنعته بذلك. لكن، للأسف لم تأخذ هذه الأخيــرة بالإعتبار محاولات التقرب التي بذلها معشــوق العائلة لأنه «لــم يكن يجيد التقبيل[1]». لم تكن هــذه اللامبالاة مهمة، إذ كان لهتلر لقاء حاسم من داخل حلقة أصدقاء هلن باشستاين. لقاء بالتي كانت لفترة وجيزة «ملكته».

باتجاه منزل فاغنر (Wagner)

قبل الحــرب العالمية الأولى ببضع ســنوات، كان هناك طالبة إنكليزية شــابة في ثانوية برلين متحدرة من عائلة من الفنانين إسمها وينيفراد وليامز (Winifred Williams). بدأت بالظهور في الأوســاط الموســيقية بمواهبها والتقت هكذا بالزوجين باشســتاين. ولدت وينيفــراد وليامز عام 1897 في هاســتينغز (Hastings) إنكلترا من أب كاتب وأم إنكليزية ممثِّلة. أصبحت يتيمة وهي في سن الثالثة ونشأت في عدة مؤسسات خاصة بالفتيات، حيث تدهورت صحتها بسرعة. فنصحها أحد الأطباء بمناخ ألمانيا الأكثر جفافاً. كان لديها أقارب بعيدون يســكنون في برلين. استقبل الزوجان كليندورث (Klindworth) الفتاة وســرعان ما تبنياها. كان كارلKarl الزوج موســيقاراً وأحد أصدقاء ريتشــارد فاغنر، وأحد المقربيــن من ورثته في مدينة بايروث (Bayreuth) حيث كان المؤلف الموســيقي قد أمر بتشــييد فيلاّ واهنفريد

---

(1) في فرنسوا دلبلا (François Delpla)، غاويات الشيطان (Les Tentatrices du diable)، باريس، لارشيبال (L'Archipel)، 2005.

(Wahnfried) الضخمة. بعد فترة من التدريب الموسيقي والسياسي، تعرّفت إلى أرملة فاغنر، كوزيما (Cosima)، التي لم تكن ســوى إبنة فرانس ليسزت (Franz Liszt). أثنــاء حضورها أول حفلة أوبرا لها صيف 1914، التقت في هذه الإقطاعــة العائلية بإبن المعلِّم، ســيغفريد (Siegfried). كان التقارب بينهما ســريعاً وفي أيلول 1915، تمّ قرانهما. لم يكن هذا الزواج ثمرة حب صاعق بينهما. بالفعل كان سيغفريد الذي يكبرها بثلاثين سنة ضيق المنكبين بحيــث يصعب عليه حمل الإرث العائلي الثقيــل. بعد أن فقد والده وهو في ســن الرابعة عشر، عاش حياة متقلبة، يجمع فيها العديد من العشيقات كما العشاق. كان زواجاً ظاهرياً هدفه الوحيد إنجاب الأولاد لعائلة فاغنر. واجب اضطلعت به وينيفرد بشــكل كامل إذ أنجبت أربعة أحفاد لكوزيما التي غمرها الفرح. هكذا احتلت مكانتها داخل عشــيرة فاغنر. هذه المرأة المضمونة ووضعها الجديد كرأس العشــيرة لعائلة فاغنر كان لهما أثر عميق علــى هتلر. لقد أعجــب في صباه بأعمال فاغنر فــي مجال الأوبرا، مثل *السفينة الشبح* أو *المبتزين*. إن مصاحبة أحد أفراد عائلة المعلم كان بالنسبة له نوعاً من الإعتراف النهائي.

تتذكــر فريدليند (Friedelind)، إبنة وينيفريــد، أن أمها «لقطت عدوى حمــى» النازية هذه أثناء إحدى الزيارات إلى عائلة باشســتاين في ميونخ. لا نعلم شيئاً عن طبيعة علاقتهما في تلك الفترة علماً بأنهما أطلاّ معاً إلى العلن بشــكل رسمي في تشــرين الأول من عام 1923 فقط، في واهنفريد (Wahnfried) بمناســبة إحدى زيارات هتلر إلــى عائلة فاغنر. غداة تنظيم اجتماع جماهيري صفّق له آلاف الأشــخاص في بايروث مســاءً، حرص فــي اليوم التالي على زيارة «الأرض المقدّســة» حيث كان المؤلِّف العزيز

قد أنهى حياته. استقبلته وينيفريد وزار المنزل واجتاز الحديقة ليقف متأملاً على ضريح من يعتبره أكبر الرجال الألمان.

وقعت أسيرة السحر منذ ذلك الحين: «لدى هتلر عينان رائعتان»، «جاذبية هائلة»... اغتاظت بعض العمّات العجائز الجرمانيات واللواتي يصعب إرضاؤهن من زيارة هذا الشاب التافه المغرور الذي يرتدي ثياباً مضحكة. تتذكر فريدليند أول زيارة لأدولف: «كان يلبس سروالاً جلدياً على الطريقة البافارية، وجوارب صوفية سميكة وقميصاً بمربعات حمراء وزرقاء، وسترة زرقاء قصيرة تتدلى على هيكله الهزيل. كانت تعلو وجنتيه الشاحبتين والغائرتين عظمتان قاسيتان. عيناه زرقاوان وتلمعان بشكل هائل. كان يبدو جائعاً لكن لديه شيئاً من التزمت[1]».

لكن هذا الزي المضحك وغير المألوف في أوساط البرجوازية العالية لم يكن ملبوساً عن تقصير. لقد وصفه هتلر بشكل مطوّل وتفخيمي وكان مقتنعاً بأن هذا الزي يناسب رجلاً حراً وواثقاً من رجولته: «ما من شك أبداً في أن الثياب الأكثر سلامة هي السراويل الجلدية القصيرة؛ أحذية وجوارب من الصوف. كان وجوب ارتداء سراويل طويلة دائما بالنسبة لي أمراً مأساوياً. حتى في درجة حرارة أدنى من عشر درجات، كنت معتاداً على التنزه وأنا أرتدي سروالاً جلدياً قصيراً. فهو يمنحك شعوراً رائعاً بالحرية. كان الإقلاع عن لبس سراويلي القصيرة أكبر تضحية اضطررت على تقديمها. لم أقدم

---

(1) فاغنر فريدليند (Wagner Friedelind) وكوبر باج (Cooper Page)، إرث النار، ذكريات من بايروت (*Héritage de feu, souvenirs de Bayreuth*)، باريس، بلون (Plon)، 1947.

عليها إلا احتراماً لألمانيا الشمالية[1]».

أدولف الجديد

في التاسع من تشرين الثاني 1923، وبعد خطاب روته كؤوس البيرة الستة المعتادة، أطلق هتلر إنقلاب حانة البيرة في ميونخ. شارك المنتسبون الجدد إلى الهتلرية شخصياً بالأحداث. عندما كان يقيم عرضاً لشُعَب الإقتحام لديه في المدينة، رأى هتلر الشرطة تفتح النار عليه كما على رجاله. أنقذ بمعجزة من الرصاص بفضل تضحية أحد أمناء السر لديه. الطيّار البطل للحرب الكبرى، هارمن غورينغ (Hermann Goering)، أصيب بجروح بليغة.

كانت وينيفريد مأخوذة بحماس ذلك اليوم المجنون: يؤكد أحد الشهود أنه رآها مهتاجة تصعد فوق طاولة في نزل ليب (Lieb) - حُبّ - لتلقي كلمة في مدح هتلر. بالرغم من فشل قائدها الذريع وتوقيفه، استمرت بالإعلان عن تعاطفها مع حزبه، الحزب القومي-الإشتراكي. صرّحت إلى صحيفة محلية قائلة: «أقِرُّ من دون مواربة بأننا متأثرين بسحر هذه الشخصية وبأننا كنا معه في أيام السعد وسنبقى أوفياء له في أيام الشدة هذه».

بقيت وينيفريد فعلاً وفية لمرشدها الروحي الجديد الذي تعجب بخطاباته الطويلة الملتهبة وتبدي اهتماماً كبيراً لكي تجعل إقامة هتلر في السجن أقل قسوة. فكانت توصل إليه طروداً من الأطعمة وترسل إليه رسائل

---

(1) مارتن بورمان (Marin Bormann)، أحاديث هتلر حول المائدة، 1941-1944 (*Hitler's Table Talk, 1941-1944*)، لندن، أنيغما بوك (Enigma Book)، 2000.

ودية: «أنت تعلم أنك معنا بالفكر[1]». فضلاً عن أنها أعطته الورق واللوازم الضرورية لكتابة خواطره التي سرعان ما اتخذت شكل اعترافات متأججة وبرنامج سياسي، هو كتاب «نضالي». كما اعتنت به أيضاً هلن باشستاين (Helen Bechstein) أثناء وجوده في السجن، فسهرت على تسليته بإرسال فونوغراف إليه مع إسطوانات الألحان المفضلة لديه: «فالس، ألحان عسكرية، عدا عن جزء كبير من أعمال فاغنر (Wagner). لم يخرج هتلر من سجنه عام 1924 بهيئة حبيس أو موبوء بالطاعون، بل بالعكس. فقد كانت هناك سيارة برلين مرسيدس براقة بانتظاره. لم يكن عليه قيادتها بما أنها أُرسِلت مع سائقها. كانت هلن متيقظة.

سعى هتلر إلى وضع اليد على قدس أقداس فاغنر بواسطة وينيفريد التي كان قد سحرها على ما يبدو بينما ازدادت العلاقات توتراً بين الزوجين. ذات يوم بادرها زوجها على المائدة وأمام ضيوف أسرعوا في نشر الخبر: «يا ويني، كفي عن التهام كل هذا الطعام[2]». كما بذل قصارى جهده على تفريق العاشقَيْن المحتملين بعد موته: فبهدف الحيلولة دون أطماع هتلر، أوعز بوضع وصية ماكرة تصبح زوجته بموجبها الوريثة الوحيدة، لكن إذا تزوجت من جديد، تعود أملاكه في بايروث إلى الأولاد كما المال الضروري

---

(1) بشأن كتابات وأعمال فينيفريد (Winifried) في تلك الفترة، بريجيت هامان (Brigitte Hamann)، فيانا هتلر (*La Vienne d'Hitler*)، باريس، منشورات سيرت (éditions des Syrtes)، 2001.

(2) كلام رقيق جدا، نقله غيدو كنوب (Guido Knopp)، نساء هتلر (*Les Femmes d'Hitler*)، باريس، بايو (Payot)، 2004.

لأعمال صيانتها. هكذا استُبْعِد هتلر من الميراث وسرعان ما تبخّرت فكرة الـزواج التي راودت المعنيَين لفترة من الزمن: أوضح هتلر بشـدة أنه متزوج من ألمانيا. حتى أنـه صرّح للمعجبة به أن عليه البقاء أعزباً إذا أرادت هي أن تبقـى «ملكته». إنما كان هتلر مغرماً بامرأة أخرى شـغلت أيامه، عام 1927؛ لا بل بامرأتين...

المنتحرات

ميتزي (Mitzi) والذئب

بافاريـا، 1927؛ مضى وقت طويل كانت ماريا خلاله تنتظر أخباراً منه. منذ لقائهما قبل سـنة، في شوارع بارشتسغادن (Berchtesgaden)، تمضي أيامهـا بحياكة جوارب لعـروق الدوالي في دكان القمـاش الذي يملكها والداها، آملة كل يوم بزيارة أو رسالة منه. كان لدى السيد وولف عزبة جبلية ليست ببعيدة، تقع في الريف المجاور، البرغهوف (Berghof). زياراته، كما تصرفاته، لم يكن من الممكن توقعها. هل سـيكون اليوم شغوفاً أم متهرّباً؟ قرأت من جديد الرسـالة التي دسّـها لها أثناء لقائهما الأخير: «يا طفلتي العزيـزة، كم أودّ أن يكون وجهك الجميل أمامي لأقول لك بالصوت الحي ما لا يمكن لصديقك المخلص أن يكتبه لك[1]».

بعد أن تدرّب على يد أمهاته البديلات، أتقن هتلر فن التأثير على قلب النسـاء. لم تحتاج الفتاة ذات السـتة عشـر ربيعاً إلى أكثر من ذلك لتقع

---

(1) في فرنسوا دلبلا (François Delpla)، سبق ذكره.

أسـيرة سحر هذا الرجل الشـديد الذي يتقن المزج بين الرغبة والرومانسية: «ثمّ أودّ بشـدة أن أكـون بقربك وأنظر في عينيك الحبيبتين وأنسـى كل الباقي. ذئبك».

لقـد تخيلت لوقت طويل أول قبلـة لهما التي فاقت آمالها. اصطحبها هتلـر بنزهة على ضفـة النهر، وجلس بقربها. أصبحـت اللحظة حميمة. الإنسان الذي طبق فيما بعد البليتزكريغ (Blitzkrieg) كان لديه تقنية مقاربة خاصة جداً. عمره 37 سنة وعمرها هي 17. كانت تصده أو تتظاهر بصده. ضاعف الإحتمالان معـاً من رغبة أدولف: «كان يضغط علي ويقول لي: «أريد تدميرك!» كان سـيلاً من الشـغف[1]». ربمـا بطريقة مفرطة بعض الشيء بالنسبة للشـابة ماريا رايتر (Maria Reiter). فكان يخيفها ويجذبها في الوقت نفسه.

أرسل لها نسختين موقعتين من كتابه «نضالي» محاولاً طمأنتها: «اقرئيه من أوله إلى آخره، وأعتقد أنك ستفهمينني بشكل أفضل». من غير المؤكّد أن الهجاء الناري طمأن المرأة الشـابة. لم تكن ترغب أبداً بابتلاع السيرة الذاتية التي يصعب هضمها، فلم تسـتطع فهم الشخصية الخفية لعاشقها. وساد بينهما سوء التفاهم.

كانت ماريا تعيش حالة انتظار دائم منذ لقائهما. هل سيأتي اليوم؟ كلا لم يأت. هل سيرسل إليها رسالة صغيرة؟ كلا طبعاً، فهو منشغل مع آخرين.

---

(1) حديث أدلت به الى الصحيفة اليومية شتارن (*Stern*) سنة 1959، واستشهد به نرين غون (Nerin Gun)، سبق ذكره. أفقد المؤرخون زمنا طويلا الإعتبار لشهادة ماريا (Maria)، غير ان الدلائل التي قدّمتها هي اليوم مقنعة.

أو على الأقل هذا ما يقال في بارشتسغادن.

صيف 1927، ســرت إشاعة عن حياة هتلر الخاصة، أحيت آمالها من جديد: إشــاعة زواجه المقبل بفتاة من القرية. كون المعنية لا زالت قاصرة، كان بإمــكان ذلك أن يقود هتلر إلى الســجن مــن جديد. القضية جدية لدرجة كلّفَ نفســه عناء النفي في صحيفة الدعاية للحزب النازي، مراقب الشــعب (Völkischer Beobachter): «تزعم آخــر أنباء لايبزيغ (Leipzig) أنني ســأخطب. إن الخبــر محض اختلاق». حتى أن هتلر أرســل أحد المقربين منه إلى ماريا ليجعلها تشــهد بوثيقة مصــدَّق عليها على أنها لم تضاجعه وأن الزواج لم يكن وارداً. كان هذا بمثابة خيبة مريرة لماريا. وداعاً، يا عجول ويا أبقار، ويا أدولف!

توجهت ميتزي الشــابة بهدوء وقد استولى عليها اليأس نحو فناء المنزل العائلي حيث وجدت حبل غســيل ثبتته بعناية إلى ركيزة ســقف المدخل: فهي تفضل الموت على أن تحيا من دون أدولف: شنقت ماريا نفسها بعد أن أحكمــت العقدة، إذ قررت أن تنهي حياتها. أنقذها والداها وهي تكاد تختنق.

على الحياة أن تســتعيد ســيادتها، على الأقل قســراً إذا لم يكون عن رضى. أرادت ماريا أن تنســى فتزوجت ســريعاً. ها هي متزوجة في الثامنة عشــر من عمرها وتعيش بسلام في الريف الذي تحبه. واستمرت الحياة ما بين الحلو والمر لكن لم تكن كاملة من دون أدولف. كتبت له سراً. ورفض هو أن يجيب على رســالتها، لانشغال باله بالشــؤون السياسية وبمغامراته الأخرى. أرســلت له هدية في عيد الميلاد عام 1928؛ فبذل جهداً ليجيب لكن ببرودة ظاهرة:

«يا طفلتي اللطيفة العزيزة،

لم أدرك كم كنت مخطئاً لعدم مراسلتك لدى عودتي إلا عندما قرأت رسالتك المؤثرة جداً... قبل أن أتكلّم عن محتوى رسالتك الأخيرة هذه، أريد أن أشكرك على الهدية اللذيذة التي فاجأتِني بها. كنت سعيداً بالفعل لاستلامي عربون صداقتك الودية تجاهي. سيذكرني هذا دائماً بوجهك الصغير الوقح وعينيك. أما مخاوفك الدفينة، فتأكدي أنني أكن لك كل التعاطف، لكن لا يجب أن تدعي أي حزن يثقل رأسك الصغير الجميل. [...] مهما كانت السعادة التي يمنحها لي حبك، أطلب منك من أعماق قلبي أن تستمري في إطاعة والدك.

والآن، يا كنزي الغالي جداً، أبعث لك بالخواطر المحبة من ذئبك الذي يفكر دائماً بك. أدولف هتلر».

لم تكن ماريا سعيدة في حياتها الزوجية فطلقت عام 1930، وهي في سن العشرين. كانت لا تزال مغرمة بذئبها الذي استطاعت أن تعيد الإتصال به. بعد أن أصبحت إمرأة، عرفت كيف تخضِع إرادة الرجل. أخبرت الصحافي غونتر بايس (Günter Peis) أن كان لهما في تلك الفترة أول اتصال جنسي. لم يكن لتلك الليلة مستقبل. واختفت ميتزي من حياة هتلر الذي تذكرها بالتفاتة أخيرة في نهاية الحرب: أُرسِلت مئة وردة حمراء لهذه العشيقة القديمة ذات العينين الحنونين والرأس الصغير الوقح أو الصلف.

الخال ألف

كانت مخاوف ميتزي بخصوص مغامرات أدولف الأخرى مُحِقَّة. فمنذ خريف عام 1927، بالفعل، كان يعيش مع المرأة الوحيدة التي» تعرف أن

تضحك بعينيها[1]». لقد التحقت به إبنة أخته، آنجاليكا راوبال (Angelika Raubal) ذات الـ19 ربيعاً، لتعيش معه في شقته الجديدة في ميونخ، لمتابعة دراسة الطب. ربما كانت هذه ذريعة للخروج من حضن أمها - كان والدها قـــد توفى وهي في الثانية مـــن عمرها. وأمها المعلمة ذات الطابع الفولاذي تنظم حياة الشـــابة كما لو كانت لا تزال طفلة. ســـرعان ما أقلعت جالي، تصغير آنجاليكا، عن دراسة الطب لتقرر البقاء بقرب خالها ألفي (أدولف).

جرى أول لقاء بينهما قبل ثلاث سنوات، عام 1924، في سجن لاندسبيرغ (Landsberg) حيـــث كانت في زيارة له برفقة شـــقيقها وأمها. كانت حينها في السادســـة عشر من العمر، فاكتشف فيها مراهقة مرحة وسمينة اتخذت لاحقاً موقعاً كان يعتقد أنه غير موجود في حياته الخاصة (الحميمة).

عاودا الإتصال ببعضهما بمناسبة رحلة مدرسية إلى ميونخ نظمها أستاذ التاريخ في نيســـان 1927. كان هذا الأســـتاذ يحلم بـــدور له في المجال السياســـي، فعندما علم بأن تلميذته جالي هي إبنة شقيقة هتلر المشهور، اغتنـــم الفرصة ودفع بتلامذة صفه إلى المدينة التـــي يمكث فيها معبوده. كانت جالي أثناء ذلك منجذبة إلى شـــخصية خالهـــا أكثر من انجذابها إلى برنامجه السياسي، على حدّ قول ألفريد مالاتا (Alfred Maleta) الرئيس المقبل للمجلس النمســـاوي الذي كان حينها مشـــاركاً بالرحلة: «لم تكن تفهم أي شـــيء. كان هتلر بالنسبة لها مجرّد الخال العزيز، وبالصدفة رجلا سياسياً كبيراً».

---

(1) رونالد هايمان (Ronald Hayman)، هتلر وجالي (*Hitler et Geli*)، باريس، بلون (Plon)، 1998.

أثناء الرحلة المدرسـية، سـكنت عند هلن باشستاين، محسنة هتلر المخلصة، وأعجبت بالترف الذي كان ينعم به وهو يعاشر المجتمع الراقي ويتنقل دائماً بصحبة السائق ومرافقة الحرس. بعد ستة أشهر، وبعد حصولها على شـهادة الدروس الثانويـة، انتقلت لتعيش مع هـذا الخال العزيز في ميونخ.

لم تكـن آنجاليكا مفتونة افتتاناً كاملاً بأدولف. بل كان سـائق هتلر، آميـل موريـس (Emil Maurice)، قد لفت انتباهها. الشـخص الذي كان يقود حينها المرسيدس المكشوفة البراقة كان شاباً وسيماً من أصل فرنسي، تؤثر جاذبيته على كل من يقترب منه. كانت نظرته سـلاحه الرئيسـي، كما هتلر، لكنها أكثر حزناً. ولديه لحية صغيرة مقصوصة بعناية ويحسن تسلية أصحابه.

كانت وجبات الطعام اللذيذة فوق العشب تضفي الفرح على أيام جالي وأدولف وموريس فـي ميونخ. كانوا يأخذون معهـم أغطية صوف مقطعة إلى مربعات، وسـلال مـن الأطعمة. ويخرج موريس قيثارته وينشـد أغان شـعبية إيرلندية. «نحن الفتيات، كنا نبتعد نحو مكان مخفي خلف الدغل لنسـتحمّ... كنا نسبح عاريات ونجفف أجسامنا في أشعة الشمس. ذات مرّة، غطى رفّ من الفراشات على جسم جالي العارية[1]».

بالنسـبة لجالي، كان ذلك بالتأكيد اكتشافها لشـهوانيتها باحتكاكها

---

(1) ذكريات هنريات هوفمان (Henriette Hofmann)، إبنة المصوّر هاينريس هوفمان (Heinrich Hofmann)، الذي كان يرافق مرارا الزمرة الصغيرة في نزهاتها، *Der Preis de Herrlichkeit*، برلين، 1995.

برجلين مختلفين جداً سيتنازعان أحاسيسها فيما بعد.

بالنسبة لهتلر أيضاً، كانت تلك الأوقات الفرحة والريفية من بين أفضل أوقات حياته: «يمكنني أن أتواجد قرب نساء شابات وأبقى بارداً كالثلج. فلا أشعر بشيء لا بل تضايقني. لكن فتيات كالصغيرة [...] جالي، أكون نشيطاً وفرِحاً معها. وعندما أمضي ساعة أستمع فيها إلى ثرثراتها، مهما كانت تافهة، (حتى أنه يكفيني أن أبقى بقربها)، عندئذ أتحرر من كل همّ ومن كل خمول».

سرعان ما عكّرت المنافسة العلاقة ضمن المجموعة الصغيرة. لطالما كان هتلر يشجع آميل على الزواج قائلاً له: «سآتي لآكل عندكما كل يوم إذا أنت تزوجت». لكن صيغة المثنّى هذه لم تكن تعني بنظره الثنائي الذي تشكله إبنة أخته مع رفيق الطريق لديه. انطلق آميل وطلب من آنجاليكا يدها، إذ شجعه ما اعتقد أنها موافقة ضمنية. فكتب يقول: «بالنسبة لي، لم يكن من الممكن أن تكون واحدة أخرى غيرها». فقبلت على الفور. كان يجب إعلان النبأ السارّ للخال ألف الذي ثار غاضباً وأوسع صديقه القديم تأنيباً بعد أن كان لطيفاً حتى الآن. ثم منع جالي منعاً مبرماً من الإقتراب من طالب الزواج.

التاريخ: عيد الميلاد عام 1927. هذا ما أرسلته إلى عزيزها آميل: «عانيت من الألم هذين اليومين ما لم أعانه في السابق. [...] لدي اليوم شعور بأن تلك الأيام ربطت بيننا إلى الأبد. هناك أمر يجب علينا أن نبدأ بفهمه هو أن الخال أدولف يطلب منا الإنتظار سنتين. تصور، يا آميل، سنتان كاملتان لن نستطيع فيها أن نقبِّل بعضنا إلا من وقت لآخر ودائماً تحت مراقبة الخال أدولف! [...] لا أستطيع إلا أن أهديك حبي وأن

أخلص لك دون شرط. أحبك حباً لا ينتهي!»

منــذ ذلك الوقت، أخذ يملي عليها شــروط حياتها اليومية كما حياتها العاطفية. فتخلّت جالي عن حرية اختيارها ووضعت نفســها تحت سلطة أدولــف، وذلك بهدف البقاء فــي ميونخ، قريبة من آميل. «خالي أ لطيف للغاية في الوقت الحاضر. أودّ حقاً أن أفعل شــيئاً يســعده جداً، لكن لا أعرف كيف».

لا تقتصر حيــل أدولف على الحزب: بل كان يتقن فنّ التلاعب داخل محيطه الضيق أيضاً وفرْضَ تضحيات كبيرة على الأشخاص الذين يحيطون به.

الأماكــن التي كان هتلــر يفضل ارتيادها في ميونخ أصبحت شــيئاً فشــيئاً موضــع تفضيل أيضاً لــدى جالي (Geli): مقهــى هاك (Heck) والأوســتاريا بافاريــا (Osteria Bavaria)، المراكز الحساســة للشــبكة النازيــة الناشــئة. أصبحت معبودة وجهاء المســتقبل الذين ســيرتادون هــذه الأماكن حيــث يجتمعون. عندمــا تكون برفقتهم إلــى الطاولة، كل شــيء يتمحور حولها ولم يعد هتلر يســعى إلــى احتكار الكلام. بتصرفاتهــا الطبيعيــة الخاليــة مــن أي إغــواء، تثير بمجــرد حضورها المــزاج المرح لدى الحضور، كما لاحــظ هاينريش هوفمان (Heinrich Hoffmann) المصــور المعتمد لــدى هتلــر: «كان كل الناس مولعين بها».

جرّت جالي خالها أ إلى نشــاطات نســائية مناقضة تماماً لانشغالاته. فكان يرافقها في جولاتها إلــى المخازن ويتبعها إلى محلات بيع القبعات حيث كانت تحب الذهاب، وينظر إليها بصبر وهي تجرّب كل الموديلات

ثم تقرر شراء قلنسوة باسك[1].

في صيف 1928، بعد ستة أشهر من القطيعة مع موريس، لم يعد الحديث يدور عن السائق المتهور. لكن غوبلز (Goebbels) دوّن في مذكراته الإشاعات التي كانت تسري: «تروى أشياء جنونية عن الزعيم. هو وابنة أخته وموريس. إن المرأة لمأساة. هل يجب إذن أن نيأس؟ لماذا علينا أن نتألم كلنا بسبب المرأة؟ أنا أؤمن بهتلر بقوة. أفهم كل شيء. الحقيقي والزائف[2]». (أو الحق والباطل)

لم يكن هتلر ليسمح بانتشار مثل هذه الأقاويل فقرر التخلص من آميل الذي أصبح مزعجاً. فأعلن له تسريحه بفظاظة. بيد أن إغواء إبنة أخت رب العمل لا يشكل جريمة بنظر القانون: رفع آميل موريس دعوى قضائية ضد هتلر. فحصل على تعويض وافر أغاظ الخال أدولف بشكل كامل استطاع بفضله أن يؤسس على حسابه متجراً بصفته ساعاتي. ولم يعد أحد يسمع عنه شيئاً.

بـرّر هتلر موقفه قائلاً إنه أراد منعها من الوقوع بين يدي شخص غير جدير. لا بل يريد أن يتجنب وقوعها بين أيد غير أيديه. آميل موريس قرأ نوايا رب عمله السابق، ربما قبل أن يدركها هو، وفهم حقيقة أمر هـ: «كان يحبها، لكنه كان حباً غريباً وغير مباح به».

توطدت بعد ذلك علاقات سفاح القربى. وبدأ هتلر يرسم ابنة أخته

---

(1) الكتاب نفسه.

(2) جوزيف غوبلز (Joseph Goebbels)، يوميات، 1923-1933 (*Journal, 1923-1933*)، باريس، تالاندبه (Tallandier)، 2006. كلام صدر في 19 تشرين الأول 1928.

متخذاً إياها كموديل وهي عارية. لكن رسـومه لم تكن لا مؤرخة ولا موقعة مـن قبل الذي كان قد أراد الدخول إلى الفنـون الجميلة في فيينّا. إذ كان بالإمكان أن تفسد سمعته، فأودعها في مكان آمن تحت مراقبة رجل كتوم هو فرانز شوارتز (Franz Schwartz) أمين صندوق الحزبNSDAP.

غيّرت جالي مشـاريعها المسـتقبلية جراء احتكاكها برغد هذه الحياة: إذ قررت أن تخوض مجال الغناء. فانطلاقاً من عام 1929، تابعت دروسـاً في الغناء وتحضّرت بشـكل مكثف لاعتلاء خشـبة المسرح. هتلر الذي كانت لديه علاقات عديدة، أقنع قائد الأوركسـترا أدولف فوغن (Vogen) كما هانس سـتراك (Hans Streck) بإعطاء المبتدئة دروسـاً خاصة. هكذا كانت جالي توزع أوقاتها بين تنقلاتها مع خالها ولحظات الإسـترخاء في الأوسـتاريا ودروس الغناء مع نخبة المسرح في ميونخ. «يمكنها أن تعدل عن أي انشـغال أكثر جدية من أجل مصفِّف الشعر أو الهندام أو الرقص والمسـرح. هي لا زالت تقرأ بعض المجلاّت والروايات ليس إلاّ. وتستطيع جالي أن تقرأ في الوقت نفسه المسلسلات المصورة في 12 مجلة وصحيفة مختلفة». هكذا يصف هتلر بنفسه حياة ابنة أخته الطائشة بالقرب منه.

في سـنة 1929 تلـك، كان ينعم فعلاً بنمط عيش ممتـع، إذ بمتناوله ليس فقط هبات الكثير من المحسنين والمحسنات لكنه أصبح أيضاً كاتباً مشهوراً بفضل كتابه *نضالي Mein Kampf* الذي يدرّ له حقوق الكاتب التي تؤمن له حياة مريحة.

جالي التي كانت قد اسـتأجرت غرفة صغيرة في نزل مخصص للفتيات عنوانه 43، شارع كونيغينسـتراس (Königinstrasse)، انتقلت نهائياً لتسكن مع خالها. الشـقة الجميلة والفسـيحة الواقعة في سـاحة البرانس-ريجان

(Prince-Regent) استقبلت مستأجرة جديدة احتلت أجمل غرفة. إنها غرفة زاوية لها امتيازاتها في بداية القرن العشـــرين. وبالنســـبة للديكور، اختارت أثاثاً ريفياً وصت عليه خصيصاً من ســـالزبورغ (Salzbourg). احتلّت لوازمها الأنثوية وأثوابها خزانات وصناديق وصوانات ريفية زينتها بستائر لونها أخضر فاتح بتناغم ماهر في الألوان.

ثم، علّقت على الحائط قطعة رئيسية: لوحة مائية وقعها الجندي أدولف هتلـــر تمثّل منظـــراً طبيعياً من بلجيكا كان قد أعجـــب به أثناء وجوده في الخنادق.

اكتشـــفت الشـــابة الآتية من فيينا بمتعة أكبر البرغهوف. باستطاعتها الإستيلاء على المكان وهي تقوم بدور ربّة فارساي هتلر المصغر هذا. منزل خشـــبي صغير وممتع، مع سقف على شـــكل كنة وغرف متواضعة. غرفة طعـــام وغرفة جلوس وغرف نوم ثلاث. أضفى الأثـــاث الريفي على البيت طابعـــاً برجوازياً صغيراً وثيراً. يدعم هذا الإنطباع قفص مذهّب وكنار بداخله وشـــتلة صبّار[1]. وتوجد صلبان معقوفـــة على التحف. بحماية جدران هذا المقر المنعزل فوق الهضاب أسكن هتلر إبنة أخيه التي بدأ يولع بها جدياً.

تلقى الموظفون الأمر بإرضاء رغبات الفتاة وذلك بسوقها إلى ميونخ أو حتى إلى فيينا كلما أرادت، لشـــراء آخر مبتكرات الموضة. ولم تكن لتحرم نفسها من ذلك. صرّح لهاينريش هوفمان (Heinrich Hoffmann) في تلك الفترة بما يلي: «إنها أثمن ما أملك».

---

(1) ألبرت شبار(Albert Speer)، في قلب الرايخ الثالث (*Au Coeur du Troisième Reich*)، باريس، فايار (Fayard)، 1971.

كانا يستغلان كل الملذّات الشعبية من دون التعرض لمساوئها: يتنزه نهاراً في البرغهوف مرتدياً سراويل جلدية قصيرة، ويذهب مساءً إلى المسرح مرتدياً السموكينغ (smoking). كان يحب اصطحابها إلى الأوبرا لتستمع إلى مؤلفات فاغنر التي تملأه فخراً. نوّه غوبلز في يومياته بما يلي: «إن الزعيم هنا مع إبنة أخته الحسناء التي يودّ المرء تقريباً أن يقع في حبها. بقربه لحضور ذهب الران *L'Or du Rhin*». ثم كانا ينهيان السهرة بصحبة الممثلين في المطعم. كان يهنئ نفسه قائلاً: «كانت سيارتي المرسيدس المضغوط عليها بإفراط تبهر كل الناس».

1930 و1931 هما عامان شهد فيهما الحزب النازي صعوده الكبير وبدأ يضغط بثقله على الحياة السياسية الألمانية. كان هتلر يشعر بأن السلطة بمتناول يده؛ التوتر العصبي لهذا الزعيم المضطرب كان حينها في ذروته. ما لم يكن يعرفه معارضوه هو أنه كان ينعم بالسعادة المنزلية حتى ذلك الوقت بصحبة «جالي الفاتنة». كلما كانت النجاحات الإنتخابية تتتإلى وكلما كان الحزب مستمراً بصعوده الذي لا يخبو، كلما كان هتلر منشغلاً أكثر بنشاطاته السياسية. فكان يكرّس وقتاً أقلّ لجالي. وكانت فترات إقامته في برغهوف تندر وأصبح متحكّماً أكثر فأكثر إذ كان أقلّ انفتاحاً على التفاهات.

أخذ الآن يرفض العديد من نزواتها. بدت الأمور تتدهور بقسوة في 15 أيلول 1931. طالبت جالي بالذهاب إلى فيينا بمفردها لمتابعة دروس جديدة عند أستاذ مشهور والتمتع بعض الشيء طبعاً. لا شك أيضاً للإبتعاد عن وصاية خالها المزعجة. أمام الرفض العنيد لهذا الأخير، اختارت حلاً راديكالياً.

صباح الثامن عشـــر، دخلت خفية إلى غرفة أدولف الشخصية، وسرقت مســـدس والتر 6،35 مم كان يحتفظ دائماً به في درجه بمتناول يده. سمع موظفو هتلر نحو الســـاعة الخامسة عشر ضجة صغيرة لم تلفت انتباههم. عند الســـاعة الثانية والعشرين وجدوا باب غرفة الفتاة مغلقاً. في صباح اليوم التالي، كونهم لم يســـمعوا أية ضجة، قرروا كســـر الباب. كان هتلر يغادر ميونخ عندما لحقته ســـيارة أجرة بأقصى ســـرعة لتعلمه أن عليه العودة إلى المدينـــة على عجل إذ وقع حادث خطيـــر. وقالوا له في اتصال هاتفي أن شيئاً ما حدث لجالي من دون أن يذكروا ما هو.

عندئذ جعل هتلر ســـيارته تزمجر لبلوغ منزله بأقصى ســـرعة. كان يقود بســـرعة مفرطة بحيث صـــدرت بحقه غرامة لدى عمليـــة تفتيش من قبل الشرطة. عند وصوله إلى المنزل، أخبروه بموت إبنة أخته.

يطلعنا تقرير الشـــرطة على المأســـاة. الطبيب الشـــرعي، الدكتور مولر (Müller)، عايـــن أن الوفاة تعود إلى طلقـــة رصاص في الرئتين وأن تصلّب الجثـــة كان قد حدث قبل عدة ســـاعات. كانت الإصابة ناجمة عن طلقة قريبة وملصقة بالجســـم عبرت من فرضة الثوب. دخلت الطلقة فوق القلب من دون إصابته؛ وكان بالإمكان تحسسها تحت الجلد عند الطرف الأيسر من الظهر. حســـب الدكتور مولر، الأمـــر كناية عن عملية انتحار على أي حال. أرادت جالي إطلاق رصاصة على قلبها لكنها أخطأت الهدف ببضعة ســـنتيمترات. لقد خرقت الرصاصة رئتها بالطول فامتلأت الرئة دماً وتوفيت الفتاة جـــراء اختناق بطيء. كان الفعل يهدف إلـــى الموت الفوري، لكنه ســـبّب احتضاراً طويلاً كان بالإمكان إنقاذها منه. لقد وجدوها في قميص نومها الأزرق والمطرّز بالورود الحمراء. حسب الشهادات المتطابقة، سُمِع

إطلاق النار حوالي الساعة الخامسة عشر. حدّد التشريح الوفاة بين الساعة السابعة عشر والساعة الثامنة عشر. لكن حينها لم يخطر ببال أحد[1] أن تفعل جالي هذا.

لأن الدوافع كانت تبدو تافهة للغاية. قالت إحدى الخادمات، أني وينتر (Annie Winter) وهي تتذكر: «كانت قد أخبرتني أن الخال أدولف لم يسمح لها بشراء فستان جديد وكان قد رفض إهداءها رحلة إلى فيينا؛ بالفعل، لم تعد تبتع أثوابها إلا من فيينا أو سالزبورغ». إحدى صديقاتها التي اتصلت بها في ذاك اليوم المشؤوم أكّدت خيبة أملها بالنسبة للفستان الذي وصفته لها مطوّلاً على الهاتف، لكن من دون أن تذكر ما كانت تنوي القيام به.

نشرت إحدى الصحف المحلية بعض التفاصيل الإضافية حول تسلسل الوقائع: «إنتحار. أبلغتنا الشرطة أن طالبة عمرها 23 عاماً أطلقت رصاصة مسدس على قلبها، في منزلها الواقع في حيّ بوغنهاوسن (Bogenhausen). [...] يوم الجمعة بعد الظهر، سمع أصحاب الشقة صرخة، لكن لم يتصوروا أنها صادرة من غرفة المستأجِرة لديهم».

نشرت صحيفة أخرى هي المونخنر بوست (münchener post) بعد بضعة أيام مقالاً طرح من جديد قضية الصرخة التي سمعها الجيران. وأتى على ذكر شجار بين هتلر وابنة أخته لأنه كان يمانع خطبة جالي بالرجل

---

(1) بشأن مسار جالي (Geli) المأساوي، أنا ماريا سيغموند (Anna-Maria Sigmund)، نساء الرايخ الثالث (*Les Femmes du IIIème Reich*)، باريس، ج.- ك. لاتاس (J.-C. Lat-tès)، 2004.

الذي تحبه. وصف هذا الشجار على أنه عنيف مع الإفتراض بأنه سبَّبَ بمقتل جالي. وتؤكد الصحيفة أن أنف المتوفاة كان مكسوراً وعلى جسمها كدمات. لكن الدكتور مولر صرّح أن لا صحة لهذه الإتهامات واستقدمت الموظفتان اللتان أجرتا مراسيم غسل الموتى. فأدلتا بشهادة حاسمة: لم تلحظا مثل هذه العلامات مطلقاً. والغرامة التي تكبدها هتلر اعتبرت بمثابة دليل على براءته: إذ تدلّ على أنه لم يكن موجوداً في المكان حيث وقع الحادث الأليم.

انتحب هتلر كرجل أرمل: «تلعب المرأة في حياة الرجل دوراً أكثر أهمية مما نكون مستعدين للإعتراف به عندما نستغني عنها. لقد تغلّبتُ طبعاً على الحاجة لامتلاك امرأة جسدياً. لكن قيمة يد امرأة محبة بالنسبة لي تقف إلى جانب قلبي وما كان يمثله لي الإهتمام المستمر الذي كانت تحيطني به، هذا ما ألاحظه الآن وقد خسرتها. النقص أكبر والفراغ هائل، هذا ما أشعر به عندما أجلس إلى المائدة صباحاً لتناول الفطور، أو عندما أعود إلى المنزل لتناول الغداء أو العشاء، وأكون وحيداً، وحيداً جداً [...]. حتى عندما كانت تجلس قربي وهي تلعب بالكلمات المتقاطعة بهدوء، كنت محاطاً بالهناء، حلّ محله الآن شعور قارس بالوحدة[1]».

دفنت جالي في فيينا في 23 أيلول 1931. كتب هتلر يقول: «الآن أخذوا مني كل شيء. الآن أنا حرّ تماماً، من الداخل ومن الخارج. ربما

---

(1) كلام نقله أوتو فاغنر (Otto Wagener)، *Hitler aus nächster Nähe. Aufzeichnungen eines Vertrauten,1929-1932*، هنري أشبي ترنر الصغير (Henry Ashby Turner Jr)، فرانكفورت سور له مان (Francfort-sur-le-Main)، أولشتاين (Ullstein)، 1978.

كان من المفروض أن يكون هذا. الآن لم أعد ملكاً إلا للشعب الألماني ولواجبي. جالي المسكينة، ربما ضحّت بنفسها من أجلي».

مع ذلك، سرعان ما وجد هتلر المفجوع أسباباً لاستعادة نشاطه المحموم. في اليوم التالي، أقام مهرجانا في هامبورغ هتف وصفق له أكثر من عشرة آلاف مناصر.

إيفا، بانتظار أدولف

مئة عام من الوحدة

برغهوف، مسكن هتلر الخاص. نيسان 1935. قرع الباب الذي يفصل بين غرفة هتلر ومكتبه. لم يسمع الفوهرر، قرع من جديد، لكن لا جواب. فجأة، ينفتح الباب وتدخل. نظرت إلى دوهرينغ (Döhring)، مديرالمنزل، وقالت له: «أنت لا زلت هنا؟ ماذا تفعل هنا؟» اقتربت منه (من هتلر) متمتمة بعض الكلمات. لا جواب. كلَّمتْه مرة جديدة، وبقي صامتاً. ثم فجأة، ثار قائلاً: «أنتِ هنا مرة جديدة؟! لكن ترين جيداً أن لدي عملاً هنا، عمل رجل مجنون! تأتين دائماً في أوقات غير معقولة، أنت لا تفيدين في هذه الغرفة في الوقت الحاضر[1]». فاحمرّ وجهها من شدة غضبها ورفعت رأسها وحدّقت بدوهرينغ ثم خرجت وصفقت الباب بقوة لدرجة اهتز إطاره. عندئذ اكتشف المدير المنزلي تعبير وجه الفوهرر: ابتسامة ساخرة تعبِّر عن الإنتشاء. هذه الشابة التي سمحت لنفسها بالدخول إلى

---

(1) نرين غون (Nerin Gun)، سبق ذكره.

غرفة هتلر من دون أن تُدعى إليها صراحة والتي يتمتع هو بطردها بغطرسة، لم تكن ســوى إيفا براون (Eva Braun). نعلــم أن هتلر كان يتقن التظاهر بالغضب، خاصة فــي إطار الحياة الحميمة. هذه المشــاحنة، وهي لعبة الثنائي الممســرحة من أجل المراقب دوهرينغ لم تكن قليلة الأهمية. كانت إيفا من جهة المرأة الشــابة التي يحب أن يرهبها لصب غضبه عليها، ومن جهة أخرى كانت المرأة الجريئة التي تصفق الباب بوجه زعيم الدولة النازية الذي لا يعرف الشفقة.

ما لم يقله هذا المشهد هو أنها انهارت ما إن انغلق الباب: «عبثاً غنيتُ دائماً *كل شــيء على ما يرام، أيتها الماركيز* فما من تقدم ملموس. [...] لقد حذف الحب من برنامجه. الآن وقد عاد إلى برلين، خرجتُ قليلاً من تحفظي. لكن كانت أوقات، كما في الأسبوع الفائت، بكيتُ فيها كل ليلة وأنا أخضع «لواجبي». لقد أصبتُ بالغثيان عندما بقيتُ وحدي في المنزل بمناسبة عيد الفصح[1]».

منــذ بداية عام 1935، غدت إيفا متجهمة وكئيبة، هي التي كانت دائماً ضاحكة وملئ بالحيوية والأحلام. مضت ســت سنوات على حبها السري لهذا الرجل الذي يجرفها ويكسحها بأفكاره وكلماته. وبات ضيقها جسدياً وأكثر حضوراً.

في ذكرى ميلادها، الواقع في 6 شــباط، كان لهــا هذا التعليق المرير: «بلغت للتو 23 ربيعاً لحســن الحظ. لكن الســعادة مســألة أخرى.. من المؤكد في الوقت الحاضر أنني لست سعيدة».

---

(1) يوميات، 19 نيسان 1935.

غيابــه المتكرر، وليال من الإنتظــار... ماذا يفعل في لياليه؟ هل يفكر بها؟ لماذا لا يأتي إذن؟ لا بد أنه عثر على بديلة عنها. شابة تجلس أمامه ليرســمها..». لكنه يفضل الأشكال السمينة. إذا كان هذا صحيحاً، لا بد أنه نجح في إفقادها 30 رطل، بســبب كثرة الهموم، هذا إذا لم يكن لديها ميل إلى السمنة في الشقاء[1]».

أصبحت الوحدة التي حبســتها فيها هــذه العلاقة لا تطاق. كانت إيفا محرومة من الحنان بشــكل قاس، وهي تبحث عن كائن بديل تداعبه: «لو كان لدي ولو كلباً صغيراً، لما شــعرتُ بالوحدة». طلبت إيفا من هتلر أن يهديها في عيد ميلادها الثالث والعشرين كلباً زئنياً معوج القوائم. «لا شيء بعد. ربما السنة القادمة. أو بعدها». التريث، هذا ما تعلمته لكثرة الضربات المؤلمة والوعود الكاذبة منذ أن ساكنته. «لا يجب أن أيأس، علي أن أتعلم الصبر». لكن ما من شــيء مستجد. أخذت تتساءل في النهاية: «ربما أنا جاحدة في الحقيقة». كانت تشعر بالذنب بدل أن ترى تقلُّب من تهوى، إنه قانون الحب القاسي الذي كانت تواجهه يومياً.

يوم عيد ميلادها الثالث والعشرين كانت إيفا أكثر تجهماً من أي وقت مضى إذ فقدت كل أمل في الســعادة. ومــع ذلك تحبه. تحبه وهي تزداد وهنــاً. حتى الأزهار التــي أهديت إليها في هذا اليــوم تنبعث منها رائحة الموت. اشترت ورقتي يانصيب كما لو أرادت استدعاء الحظ، وهي مقتنعة بأن معجزة ما ســتحصل وتنقذها من هذا الخَــدَر: «لن أصبح يوماً غنية، لا شــيء يجدي!» بالفعل كل شيء يتفتت من حولها، وشتاء ميونخ هذا

---

(1) يوميات، 10 أيار 1935.

الذي لا نهاية له.

الأمــل هو أصعب ما يمكن قتله عند امرأة مغرمة. ربما ســيغمرها هتلر بالهدايا. فقبل أيام كان قد فاجأها بمجيئه! «كان هنا لكن ليس من أجل الكلب الصغير ولا من أجل الخزانات المحشــوة بالفســاتين. حتى أنه لم يســألني إذا كان لدي أمنية ما بمناســبة عيد ميلادي. إنما ابتعت لنفسي بعــض الحلي بمفردي. العقد والحلق والخاتم وكلــه بـ50مارك. وكله رائع. لنأمل أن يعجبه كل هذا. وإلا، بمقدوره أن يأتي لي بنفسه بشيء آخر».

لــم يأت هتلر. لكن وجدت علــى الأقل بعض العزاء في إمكانية القيام بنزهة برفقة صديقاتها وأخواتها غراتل (Gretl) وهارتا (Herta) وإلســا (Ilse) وموتي (Mutti) إلى تلة زوغســبيتزا (Zugspitze) في جبال الألب البافارية. استنشــاق الهواء وقضاء النهار في دفء الشمس وأشعتها... لكن خطيبها الســري لا يريد أن يسمع بمثل تلك النشــاطات المبهجة: يرفض هتلر أن تلهو بغيابه. الرفض أيضاً بالنسبة للرحلة. ورغبات ألفي هي السائدة.

وعدها بإســكانها في منزل صغير وكان يؤجل دائماً زياراته. فتوكلت إيفا على الله: «يا رب، ليصبح هذا حقيقة فعلية، وليتحقق في وقت قريب».

لا يبــدو أن أحــداً منهما، لا الله ولا أدولــف، يصغي إلى دعواتها. لا يهــمّ. إذا لم يأت ألفي إلى إيفا، ســتذهب إيفا إلــى ألفي. فهي تنوي أن تلحــق به إلى العاصمة، مع أنه منعها من المجيء إلى برلين. وهي تخجل مــن أن تعرّفه إلى صديقاتها. مرضت شــارلي التي كان يفترض أن ترافقها: «ربمــا كان هذا أفضل. أحياناً يتصرّف بطريقة فظة. وقد يجعلها هذا أكثر تعاســة». خيبة أمل جديدة بالنســبة لإيفا إذ أغلق هتلر باب مستشــاريته (ديوانه) بوجهها. يجب أن تبقى إيفا عشيقة له في ميونخ فقط: «ليس لدي

الإذن بأن أكتب له، على هذا الدفتر أن يكون هنا ليتلقى نحيبي». تشعر بالتعاسة حتى الموت وهي مكممة الفم.

كانت لقاءاتهما القصيرة من الحدّة بحيث تنسيها كل شيء آخر». أتى مساء السبت. [...] وأمضيتُ عنده ساعتين رائعتين حتى منتصف الليل».

لا تمضي الحياة بطريقة يمكن توقعها مع مستشار رايخ (Reich) يستعدّ للحرب: «كان قد وعدني بأنني سوف أراه يوم الأحد، لكن بالرغم من أنني اتصلت هاتفياً وسألت عنه في الأوستاريا حيث تركت رسالة تقول إنني بانتظار أخباره، فقد استقلّ الطائرة باتجاه فالدافينغ (Feldafing) (مطار بالقرب من برغهوف). [...] كان باستطاعته إبلاغي بالأمر. كنت أنتظر عند هوفمان على جمر النار، وأتصور أنه سيصل في كل لحظة».

لم يعد هتلر إلا بعد أسبوعين، وحتى ذلك الحين، لم تكن هي سوى انتظار. «لم أعد أنعم بالهدوء»، كما قالت بواقعيتها. إن طرق الفوهرر هي بالفعل غامضة، وتمضي الأيام ملأى بالتساؤلات العقيمة بالنسبة لإيفا المسكينة التي تحاول جاهدة أن تعقلن أمزجة عشيقها الذي لا يرحم. «لا أعلم لماذا هو مستاء مني، ربما بسبب الحفلة الراقصة. لكنه أعطاني بنفسه الإذن... لماذا رحل من دون أن يقول لي إلى اللقاء؟»

كانت أعصاب المرأة الشابة تخضع لمحنة قاسية. إذ هجرها النوم وحرمت من وسائل اللهو. «الآن أشتري من جديد أقراص منومة، لذلك أجد نفسي دائماً في حالة من نصف الجنون ولم أعد أحتاج إلى أن أفكّر كثيراً بهذه الأشياء». أصبح ألفي أكثر من موضوع رغبة، بل هاجساً دائماً لا شيء يستطيع شفاءها منه. «لا أتمنى سوى شيء واحد هو أن تعتلّ صحتي وألا أعود أسمع من يتكلّم عنه لمدة ثمانية أيام على الأقل. لماذا

لا يحدث لي أي شـــيء؟ لماذا عليّ أن أحتمل كل هذا؟ آه، كم أتمنى لو لم ألتقِ به![1]»

يوم الحادي عشـــر من آذار كانت الضربة القاضية. انتظرت إيفا حبيبها مدة ثلاث ســـاعات أمام فنـــدق الكارلتون (Carlton). رأتـــه فجأة يقترب ويشتري زهوراً. ورأت إلى جانبه، وهي ترتعش، ممثلة من أصل تشيكي، هي الحســـناء أنّي أوندرا (Annie Ondra). وذهب ليتعشى مع غنيمته الجديدة. اكتشـــفت الشـــابة إيفا بفطنة في ذاك اليوم من عام 1935 ما سيكتشـــفه سياسيو أوروبا في وقت متأخر جداً: لا يوفي هتلر بوعوده.

كانـــت كل العناصر متوفرة إذن لكي تقرر هذه المرأة الشـــبيهة بينيلوبي (Pénélope) رغمـــاً عنها بأن تقوم بهجمة مجلجلة تجعل هتلر يدرك مدى تقصيره.

اســـتمرّت في سقوطها إذ دوّنت صباح 28 أيار 1935: «أرسلت له للتو رسالة حاسمة بالنسبة لي. هل سيأخذها بعين الإعتبار؟ سنرى. إذا لم أتلقَّ جواباً قبل الســـاعة عشر من هذا المساء، سأبتلع أقراصي النوم الـ25 وسأنام بهدوء كبير». هل هذا هو الحب الولهان الذي كان قد وعدها به؟ مضت ثلاثة أشهر لم يرسل لها خلالها ولا رسالة صغيرة! صحيح أنه كان مشغول البال في الفترة الأخيرة بمشاكله السياسية، لكن لا بد أنه يوجد هناك وقت استراحة.

بنظـــر إيفا، كانت تصفية الأس أSA، واغتيال المستشـــار النمســـاوي دولفوس (Dollfuss)، والتحضير لاتفاق مع إيطاليا موســـوليني، كلها ذرائع

---

(1) يوميات، 11 آذار 1935.

لألفي (Alfi) لكي يبتعد عنهـا. في النهاية، «بعض الكلمات اللطيفة عند هوفمان أو في أي مكان آخر لما كانت ستلهيه كثيراً. أخشى أن يكون هناك شيء آخر وراء ذلك».

كانت إيفا توازن بين مشاكلها العاطفية وسياسة الرايخ الخارجية وتعرف هي أيضاً أن تبدو بالنسبة لهتلر طاغية في المنزل، عن غباوة، عن نزوة، عن حب، أو ربما عن عدم إدراك. وبدل أن تتخلى عنه ببساطة، أرغمته على الإعتراف بأخطائه، وذلك بعرض مشهد موتها أمامه. يوم 28 أيار 1935 ذاك، بما أنها لم تتلقَّ جواباً على رسالتها مع قدوم المساء بتّت بخصوص أسلوب الإبتزاز: «صممت على أخذ 20 قرص. يجب أن يكون المنظر أكيداً كالموت تماماً هذه المرة. أتمنى لو يتصل هاتفياً».

لكن كانت عرّافة قد قالت لها ذات يوم: «سيتكلّم العالم أجمع عنكِ وعن حبِّك».

بعد بضعة ساعات، أختها إلسا (Ilse) وجدت إيفا في حالة غيبوبة في شقتها في ميونخ. كونها مساعدة طبيب، قدّمت لها الإسعافات الأولية واستعانت بربّ عملها، الدكتور لافي ماركس (Levi Marx). وبينما كانت لاواعية مزقت إلسا صفحات يومياتها التي قرأناها للتو. أعادتها إلى إيفا بعد ذلك وقد حرصت على إعادة نسخها مسبقاً. هذه الأوراق هي وحدها التي تمّ الإحتفاظ بها.

كيف أمكن لهذه المرأة الشابة، المرحة والطائشة، والتي تحلم بأن تصبح ممثلة، أن تنهار بهذه الطريقة خلال سنة واحدة؟ ينبغي العودة إلى شهر أيلول 1929. بداية النهاية.

حورية في محترف هوفمان

أيلول 1929، 50، شـارع شـالينغ (Schelling)، فـي ميونخ، محترف المصوِّر هاينريش هوفمان (Heinrich Hoffmann). كان هذا الأخير يساعد هتلر على أخذ وضعيات مناسـبة على الصور السلبية. إنه صديق يمر دائماً به لتناول الغـداء والقيام ببعض التجارب على وضعيات جديدة وزوايا إنارة مجمِّلة. كانت إيفا مساعدة المعلِم هوفمان.

دخـل المعلم ذاك اليوم يصطحبه رجل «في سـن متقدمة نوعاً ما، وله شارب غريب الشكل ومعطف إنكليزي من قماش فاتح ويمسك بقبعة لبّاد كبيرة». نظرت إليهما من على المقعد التي كانت جاثمة عليه، من دون أن تلتفت. لاحظـت أن الرجل كان يراقبها. لم يكن ينظر إلى وجهها بل إلى ساقيها. «كنت ذاك اليوم تحديداً قد قصّرت تنورتي، وكنت منزعجة إذ لم أكن متأكدة من أني أتقنت الحاشية».

عرّف الرجل عن نفسه: السيّد وولف.

المـرأة الشـابة ذات الـ17 عامـاً ولدت في 6 شـباط 1912 من عائلة نموذجية في ضواحي ميونخ، متواضعة من دون أن تكون فقيرة. كان والدها معادياً للأفكار النازيـة الجديدة. وأمها الخياطة كاثوليكية متدينة. كلاهما يشكلان ثنائياً محافظاً. كانت إيفا صغيرة أخواتها الثلاث، وغنوجة العائلة، خاصة الأب. تربّت الفتيات براون في مدرسة دينية حيث أظهرت إيفا أنها تميـل إلى الإغراء أكثر من ميلها إلى العلم. كان من الصعب تلقينها بعض مفاهيم اللغة الفرنسية والطباعة على آلة الداكتلو والمحاسبة وبعض مبادئ الإقتصاد المنزلي لكي تصبح إمرأة صالحة في المنزل.

أبدت الشقيقة البكر، إلسا، اهتماماً أكبر بالمدرسة، لكن إيفا عوضت

عن ذلك بجاذبية أتقنت استغلالها بدراية؛ تقول إلسا في معرض الذكريات» «عاشت كل حياتها في عالم العواطف وانغلقت تماماً عن عالم المعرفة».

توجه اهتمامها بشكل طبيعي نحو الرياضة والموضة وهما محور حياتها. كانت ترى نفسها ممثلة سينما، وتجمع المجلات وصور ممثلي وممثلات العصر وتحب بشكل خاص الأفلام الرومانسية. لاحظ أقرباؤها بوقت مبكر ميلهـا إلى الاهتمام الكبير بمظهرها والدقة في تصفيف شعرها الذي كان هاجساً لديها.

بعد أن أطال السيد وولف هذا، الغامض والأنيق، التحديق بوجهها، أرسلاها لتأتي بالنقانق والبيرة من أقرب حانة. كتبت إلى أختها تقول: «كنتُ جائعة جداً فالتهمتُ نقانقي وشربت إصبعين من البيرة من باب اللياقة. وكان السيد المسنّ يغدق علي بالمديح. تكلمنا عن الموسيقى وعن مسرحية تُقدَّم على مسرح الدولة. لم يكفّ عن التهامي بعينيه. ثم، بما أن الوقت كان متأخراً، غادرتُ بسرعة. رفضتُ عرضه توصيلي إلى البيت في سيارته المرسيدس. هل تتصورين ماذا كان سيفعل أبي!» قبل أن تغادر المحترف، أخذها هوفمان إلى إحدى زوايا المرآب وسألها: «ألم تدركي من هو هذا الرجل؟

- كلا

- إنه هتلر! أدولف هتلر!

- أه...

في الحقيقة، لم يعن لها هذا الإسم شيئاً. حاول هتلر أن يؤثر على «حوريته الجميلة لدى هوفمان»، بحيث لا تنساه أبداً. فأهداها أول زهراتها عام 1929 بمناسبة عيد الميلاد، واحتفظت بها بخشوع كانت زهرة

أوركيديه صفراء.

كان معجبـــاً ببراءة هذه الموظفة الصبية التي تصغره بـ23 ســـنة. كانت تشـــترك بجلســـات التصوير عند هوفمان بصفتها مساعدة، واحتفظت في ألبومها بصورة تصافح فيها الزعيم، وقد كتبت تحتها بشكل إيحائي: لو أن الناس يعلمون كم أنه يعرفني جيداً جداً...»

لكـــن هتلـــر كان لا زال متعلِّقاً بابنة أخته جالي، التي تســـكن معه في ميونخ عام 1929. بقي التواصل بينهما (هتلر وآفا) تلميحياً وســـامياً خلال عدة أشـــهر. عثرت خادمة هتلر، آنّي وينتـــر (Winter)، في منتصف أيلول 1931، على رسالة صريحة جداً وقعتها إيفا وتقول فيها:

«سيد هتلر العزيز، أشكرك مرة أخرى على الدعوى الرائعة إلى المسرح. لن أنسى هذه السهرة في وقت قريب. أنا أشكر لك لطفك. أعدّ الساعات حتى تحين سعادة لقائك من جديد. إيفا».

انتحـــرت جالـــي فـــي تلك الفتـــرة. هل مـــن الممكـــن أن تكون قد شـــعرت بالغيـــرة مـــن هـــذه العاشـــقة الجديـــدة لأدولف والتـــي بدأت تستأثر به؟

يبدو من الواضح أن الســـيد وولف وإيفا الشـــابة لم يصبحا بعد عشاقاً بالرغم من أنهما يعرفان بعضهما منذ ســـنتين تقريباً. بعد خسارة إبنة أخته، تقـــرّب هتلر أكثر من الصبية التي كانت تصغي بورع إلى أحاديثه المطولة، مع أنها أســـرّت إلى صديقة لها أن تلك الأحاديث «كانت تصيبها بملل رهيب» وأنها كانت تضطر دائماً إلى استشارة القاموس لتفهم ما يعنيه.

الفراغ الذي تركتـــه جالي ملأته إيفا تحت رعاية المصوِّر هوفمان الذي لعب دور السمسار. لاحظ دوهرينغ قائلاً: «لقد قدّم له إن صحّ القول إيفا

براون على طبق من فضة إلى أن علق[1]».

يبدو أن العلاقة تمّت في نهاية عام 1931، إذا سلّمنا بما قالته صديقة مقرّبة من إيفا، مارغريت ميتلستراسر (Mitlstrasser): «أعلم تماماً أنهما يشكلان ثنائياً: عندما كان يأتي ليراها وهي في وضع الحيض، كان يعطيها الطبيب شيئاً ما لإيقافه». كانت مارغاريت تعلم عمّا تتكلم بما أنها هي التي كانت تذهب شخصياً لجلب الدواء للعشيقة الشابة. هكذا كان هتلر يملي إرادته على جسد إيفا، ويجب أن يكون زمن رغباته مطابقاً لوضع المرأة الشابة الحميم.

كانت تبدو مضطلعة تماماً بدور البديلة عن المتوفاة وتحب أن تردد «أن وفاة جالي كانت كارثة بالنسبة له، وعليها هي أن تكون بالنسبة له إمرأة إستثنائية». لم يكن هناك أي أثر للحسد إذن. لا بل بالعكس، برز نوع من المحاكاة، بتأثير طبيعي من الصور العديدة والمنحوتات واللوحات لابنة أخته والتي يحيط هتلر نفسه بها. تبنّت إيفا الشقراء تسريحة أقصر، على طريقة جالي، طبعاً مع التصفيفة المحززة التي لا تفارقها.

تذكر شهادات خدم هتلر زيارات متكررة لإيفا مع «حقيبتها الصغيرة الخاصة بالخِدر»، انطلاقاً من 1932. إن الذي يتوصل إلى أن يصرح بما يلي: «لدى النساء تقنية معينة: إنهن لطيفات بداية من أجل اكتساب ثقة الرجل، ثم يبدأن بالشد على الزمام، وعندما يمسكن به بقوة يسيِّرن الرجل حسب رغباتهن»، يقدِّر صحبة هذه المرأة الشابة التي لم يعد لها هدف

---

(1) هربرت دوهرينغ (Herbert DÖhring)، حياة هتلر الخاصة (*Hitler's Private*)، محادثة مأخوذة من فيلم وثائقي، استشهد بها نرين غون، سبق ذكره.

آخر في الحياة إلا لقاؤها المقبل مع حبيبها ألفي.

لكن الصغيرة لا يمكن أن تفيده إلا بشـــكل ظرفي، إذ لديه هدف هو أن يصبح مستشار الرايخ. ولبلوغ هذا الهدف، تصلح كل الوسائل، والصبية تشـــكل دائماً عقبة. إنها تعترض طريقه، وهـــو لا يهتم بها بما يكفي، إذ تحيط به أجمل نســـاء الســـينما والمجتمع الراقي. بالنسبة لإيفا، القاصرة والمفتونة أو المغرَّر بها، إنه الجحيم، لاســـيما أنها لم تكن تستطيع البوح لأحد لأن ألفي يحظِّر عليها ذلك.

إنها حبيبته الفاتنة الســـاذجة التي يستطيع هجرها المدة الضرورية والتي لا تجرؤ لأي سبب من الأسباب أن تعارضه. مع ذلك سرعان ما وجد هتلر نفسه واقعاً في شرك الساذجة.

في أول تشرين الثاني 1932، طبقت إيفا الإستراتيجية التي جعلت منها رفيقـــة الفوهرر. على غـــرار جالي، حاولت أن تطلـــق رصاصة على قلبها. كانت عملية انتحار فاشـــلة، بحيث هي التي جعلت شـــقيقتها تهرع إليها بصراخهـــا؛ ولم يكن مـــن الصعب على الطبيب اســـتخراج الرصاصة التي اســـتقرت في عنقها. لكن نجحت حيلتها: إذ حضر هتلر على الفور ما إن علم بالأمر. أدرك عندئذ أن عشـــق إيفا كامل وشامل وذو جانب مازوشي (masochiste).

أوضحـــت له بشـــكل خاص أن عـــدم الإهتمام ثمنه المـــوت حتماً، مستحضرة شـــبح جالي. كما لم ينسَ هذا الشخص العام أنه لا يمكنه أن يعطي عن نفســـه صورة زارع الموت في تلك الحقبة السياســـية المضطربة – إذ تبـــوأ منصب المستشـــار بعد الحادث بأقل من شـــهرين. يمكن إذن تأويـــل أقواله كمغرم مجروح بعدة طرق: «علي أن أهتمّ بها بشـــكل أفضل

في المستقبل، ولو كان ذلك لتجنب أن تقترف من جديد حماقة كهذه».
هل الحماقة هي أن تموت إيفا، أو أن تلطخ القضية حياته السياسـية؟ لقد أصابـت هتلر ببراءة في نقطة ضعفه: وهـي صورته المتقنة. وجدت طريقة لتبقيه بقربها. واستعملت الحيلة نفسها بعد ثلاثة أعوام، لكنها اختارت هذه المرة الأدوية بدلاً من المسدس.

أدت الأسـباب نفسها إلى النتائج نفسـها: هتلر الذي أصبح مستشاراً أبـدى الكثير من الإهتمام بإيفا بعد محاولتها الثانية. سـمح لها أن تبقى إلى جانبه بصفة سكرتيرة وهمية. في برغهوف، حتى لو بقيت دائماً خارج البروتوكول - تبعاً لإرادة الفوهرر - أصبحت تتصرف بمثابة ربة المنزل. هنا، في محيط ألفـي الخاص، حصلت على الإهتمام والإعتراف اللذين كانت تطالب بهما. لم يكن أدولف يساوم فيما يخص أمراً مهماً: فقد استبعدها عن الحياة السياسية ومعاونيه الذين يجهلون حتى وجودها. لم يمرّ وصولها إلـى مقر اعتكاف هتلر الجبلي من دون صدامات. إذ لقبتها والدة جالي، أي أخت أدولف من أمه، «بالبقرة البلهاء». وسرعان ما نجحت بإقصائها.

في آذار 1936، غادرت إيفا وشـقيقتها الشقة التي كانتا قد استأجرتاها بالقرب من شـقة هتلر في ميونخ، في سـاحة البرانس- ريجان. هو نفسه سـحب من مال مدخراته ليهديها بيتاً صغيراً في الضاحية. فقد وفى بوعده للمرة الأولى. يقع بيت إيفا الجديد على العنوان التالي: 12، فاسربورغرستراس (Wasserbürgerstrasse)، ضاحية بوغنهاوسـن (Bogenhausen). ليس في مظهـر هذا البيت ما يثير الإنتباه، لا بل هو قبيح برأي الزائرين. هذا الكوخ ذو الطابقيـن مبنـي على النمط العصري من إسـمنت رمادي اللون، وبلا هويـة، وخالٍ من الزخرفة وضائع في الضاحية، لكن فيه كل وسـائل الراحة

الممكنة في تلك الحقبة. يكشف داخل البيت على أن ساكنه شخصية رفيعة المستوى: قرّر هتلر أن يزوده بمخبأ ضد الطيران فيه كل وسائل الراحة، ما يدل على أنه ينوي منذ ذلك الوقت إشعال الحرب. الأساسات المتينة تحتوي بالفعل على مخبأ فسيح يغلقه باب مصفّح ومزود بنظام تهوية يتمتع بمواصفات تقنية عالية، ومولّد كهربائي وخزانات تحتوي على مؤن لا تفسد وكميات كبيرة من الأدوية. هناك نفق آخر يسمح بالخروج من المخبأ حتى في حال انهيار المبنى بأكمله. واهتمام مؤثر من قبل ألفي بمحبوبته: توجد سيارة مرسيدس مع سائقها بتصرفها أمام البيت.

صرّح هتلر لغورينغ الذي نقل قوله إلى الصحيفة: «إيفا صغيرة السن وقليلة الخبرة لذلك لا يمكن أن تكون السيدة الأولى. مع ذلك، هي إمرأة حياتي الوحيدة، وبعد الحرب، عندما سأتقاعد، سوف تصبح زوجتي». ربما كان ينوي أن يحيا نهاية حياة هادئة في هذا البيت الصغير في الضاحية مع بلهائه الحنون.

كانت إيفا تفضل البرغهوف إذ تلتقي فيه بمجتمع صغير تستطيع أن تسود عليه ولو وهمياً. أول دليل عن تأثيرها على المكان هو أنها كانت تجلس إلى الطاولة على يمين هتلر، مواجهة للنافذة. ضمن هذه اللياقات الفائقة الدقة، بإمكانها أن ترتب الديكور حسب ذوقها وتهتم بشكل خاص بتنسيق الأزهار. أفضل الممكن. بعكس ولائم العشاء الرسمية حيث كانت مجبرة على التزام الصمت والقيام بدور السكرتيرة، هنا كانت ربة المنزل. المهمة صعبة.

لأن أدولف يفرض لياقات قاسية على ضيوفه. يبدأ العشاء أولاً بجملة طقسية يتفوه بها مدير الخدم طوني دانتزيغ (Tony Dantzig): «الطعام

حاضر، سـيدي الفوهرر». ثم يمسـك سـكرتير هتلر الخـاص، بورمان (Bormann)، بذراعه ويقوده إلى كرسـيه، تفصيل ذو معنى عندما نعلم كم كان الشخصان يكرهان بعضهما. يبدو نظام هتلر الغذائي للكثيرين سخيفاً أو غريباً بعض الشي: فالبطاطس الحلوة المطهوة بالكريما في الفرن والمبللة بزيت الكتان تبقى عالقة في الحلْق ولا يسهل هضمها كثيراً مع نقيع سيقان التفاح المغلي.

لطالما تم التأكيد على أن موت جالي قد جعله نباتياً بشـكل مفاجئ، وهي مقولة خاطئة. قوائم الأطعمة والشـهود يؤكدون أن هتلر كان اسـتثنى من رجيمه اللابركنـود (Leberknöde) وهو طبق من اللحم بصلصة بافارية. كذلك، لم يتوقف عن شـرب الكحول، حتى إذا كان ينظر باستهجان إلى الأشخاص الذين يشربون إلى طاولته. أما هو فكان يكتفي بخمر التفاح أو بالبيـرة المصنّعة خصيصاً له في هولزكيرش (Holzkirch) والتي تحتوي على درجتين فقط من الكحول، ويحتسي القليل من فرنيه-برانكاFernet-Branca لتسهيل عملية الهضم. وحتى كمية صغيرة من الكونياك (cognac) في حال أصيب بالرشـح. كانت وجبات الطعام على طاولته نباتية بمعظمها ويقترح على الجميع أن يشـاركوه أطباقه الخالية من اللحم. وإذا رفض أحدهم - هذا هو الحال غالباً - يسـتحق تلقي عظة حول وحشـية قتل الحيوانات وتقطيعها. أخيراً، مع تمسـكه الشـديد بلياقات المائدة، كان يفرض على ضيوفه أن ينهوا الطعـام الموجود في صحونهم ويمنع مدير الخدم من رفع المائدة إذا بقي بعض الطعام في الأجران أو المعالف.

كما أنه لم يكن يحبذ أن تتبرّج النسـاء الحاضرات فيسـتعمل أسلوب التنديـد نفسـه الذي يسـتعمله إزاء القصابـة. كان يوجه بعنـف المزاح

التالي للنســاء اللواتــي «يدهنّ وجوههــن للذهاب إلى الحــرب»: «لو تعلمن يا ســيداتي أن أحمر الشــفاه مصنوع في فرنسا من دهون نفايات الطبخ!»

كانــت إيفا تتصرف كما يحلو لها: وتســتمر بشــرب الكحول وأكل اللحــوم والتبرج. كانت تهوى آخر موديلات الأحذية لشــدة ميلها للتأنق. خزانة ثيابها كبيرة للغاية، وهي تغير ملابســها ســت مرات في اليوم وتهوى الســفر إلى إيطاليا لتبتاع الفساتين والأحذية لاسيما لدى المصمم فراغامو (Ferragamo) وتجدِّد دائماً دليل ملابسها.

لم يكن وارد بالنسبة لها أن تكون أنيقة الثياب وشعرها سيء التسريحة! فكان في تصرفها إحدى مصففات الشــعر التي ترتب لها شــعرها بطريقة مختلفة كل يوم. ما يســتجلب لها التأنيب نفســه مــن قبل أدولف: «لم أعرفك بتسريحتك الجديدة!»

لــم تكن ملابســها الغريبة تروق لــه أيضاً: بل كان يفضــل أن ترتدي كل يــوم الفســتان الذي يراه هــو الأجمل. لم يكن ألفــي يطيق التغيير، وخاصــة لدى نســائه. مــا الفائدة من ذاك التأنق بالنســبة لمن تســكن فــي أعلى الجبــل ولا يحق لها بالخــروج؟ لا يهم. بدافــع حاجتها إلى الإعتراف بها، تكتفي إيفا بســماكة دليل ثيابها. فعالمها لا يتجاوز خزانة ملابسها.

هي التي لم يكن لديها هواية أخرى ســوى الرياضة إضافة إلى الموضة، فقدت سمنة المراهقة وأصبح لديها جسم نحيل فارع. فكان حكم العشيق: «عندما تعرّفت إليك، كنتِ ســمينة، أما الآن، فأصبحتِ يابســة كسمكة ســاردين». لم تجبْ على ذلك، إذ «من المســتغرب أنها لم تكن متطلبة

إزاءه» على حدّ قول ألبرت شبار[1] (Albert Speer) .

كان ألفي يسترسل أحياناً في دندنة لحنه المفضّل الـDonkeyserenade، وتقاطعه إيفا قائلة: هذا نشـــاز! ويعترض ألفي: «كلا، أبداً». فتذهب إيفا بكل جرأة وتأتي بالإســـطوانة لتبرهن لهتلر أنه ينشز. فيثور غاضباً ويجيب بوقاحة وســـوء نية: «يا حوريتي، المؤلف هو الذي ينشـــز». وهذه مهاترة أخرى بخصوص الموســـيقى: كانت إيفا ذات يوم تستمع إلى أغنية أميركية عندما دخـــل هتلر إلى الغرفة فقال: «كم هو جميل ما تســـتمعين إليه!» أجابته إيفا بـــكل رباطة جأش: «نعم، على كل حال، صديقك غوبلز منع للتو إذاعتها على امتداد الرايخ كله!»

وأخطـــر نكايـــة فرضتها إيفا على أدولف كانـــت صحبة الكلاب؛ فقد حصلـــت أخيراً عنـــد انتقالها إلى البرغهـــوف علـــى الإذن باقتناء كلب، فاختارت كلبَي قنص اســـكوتلانديين أســـمتهما ســـتازي (Stasi) وناجوس (Negus). لكـــن كلبة هتلر بلونـــدي (Blondie) المتباهية كان من الصعب عليهـــا صحبتهما. فحكمت عليها إيفا حكماً مبرماً بعدم الخروج من غرفة هتلر: «كلبتك بلوندي خنزيرة (أو عجلة)». فعلى سبيل الإنتقام رفض هتلر المجروح أن يقف أمام آلة التصوير بصحبة الكلبين الإســـكوتلنديين، كما منع خليلته بشكل قاطع من تصويرهما. وبما أنه كان يصطدم بصخرة (عناد إيفا) كان ينجح أحياناً باســـترضائها مقدِّماً لها حلية جميلة أو هدية أخرى ثمينة. فيسمح عندئذ بأن يطلب منها طلباً غريباً: «هل تسمحين، يا آفي،

---

(1) ذكرته أنجيلا لامبرت (Angela Lambert)، حياة آفا براون الضائعة (*The Lost Life of Eva Braun*)، أروو بوكس (Arrow Books)، 2008.

بأن تجلس المسكينة بلوندي معنا لمدة نصف ساعة؟»

كان باستطاعة المقيمين المؤقتين في البرغهوف أن يقضوا بعض لحظات الإستراحة بصحبة القائد الذي لا يتعب وخليلته، لاسيما في أول يوم في السنة، وهو العيد الوحيد المعترف به في عهد النظام النازي. كان هتلر يرتدي أثناءه الزي الرسمي، كعادته. بذلت إيفا جهدها لإقناعه بأن يكون أنيق الهندام، قائلة: «أنظر إلى موسوليني (Mussolini)، لديه زي جديد! أما أنت فلا تبرح قبعاتك العسكرية!» شنت الحرب على ربطات عنقه القاتمة وأحذيته السوداء، وأمرت الخدم بكيّ ثيابه كل يوم. كانت تؤنبه باستمرار لأن شعره غير مسرَّح -لا تروق لها غرّته - أو لأنه جرح وجهه أثناء عملية الحلاقة؛ فيجيبها هتلر: »يراق الدم أثناء الحلاقة أكثر مما يراق منه في ساحات المعارك أثناء الحروب!»

دعيت إلسا براون، شقيقة إيفا إلى السهرة المنظمة بمناسبة رأس السنة 1939 الجديدة. فاكتشفت أدولف من وراء هتلر، رجلاً يقبل يدها ويحدِّثها بصوت منخفض: «عندما كان ينظر إلي كنت أشعر بنقاط العرق تسيل بين نهديَّ لم أكن أجرؤ حتى على القول شكراً، أنا التي كنت قد عاهدت نفسي على أن ألقي عليه خطاباً طويلاً». كان سحر هتلر يفعل فعله: «لم تكن عينا هتلر زرقاوين بل لازورديتين وكبيرتين تحدقان بإمعان ومؤثرتين لكنهما دائماً جامدتان. وقد خاب انتظاري إذ كنت أتصور رجلاً أكثر ضخامة كما في الصور التي من الممكن رؤيتها في كل مكان. كان يقوم باستمرار بحركات مسرحية بيديه، يدان عصبيتان ولونهما أبيض، كيَدَيْ موسيقار، تنقصهما الرجولة لكنهما جميلتان».

لاحظت إلسا بشكل خاص كميات كبيرة من الكافيار (caviar) على

الطاولـــة. إذ كان يحبـــه هتلر كثيراً. كانت الأحرف الأولى لإســـم أدولف هتلر مطبوعة بالذهب على الأطباق، والملاعق والســـكاكين والشوكات من الذهـــب الخالص. وطبعاً لم يرقص، لقد حاولت إيفا دون جدوى أن تجره إلى مراقصتها ذات يوم كانا فيه بمفردهما. لم يكن يسمح بمثل هذا اللهو.

عندمـــا كان هتلـــر يأخذ عطلة، يرتاح الجوّ بعض الشـــيء. يســـكب الشامبانيا والكونياك بكمية أكبر إلى حدّ ما. وبما أنه لا توجد أوركسترا في البرغهوف، حتى بمناســـبة عيد رأس الســـنة، يتم العزف على الأكورديون. ثم ارتجلت إيفا أخيراً لعبة الكرات الحديدية في القبو. إذ عندما كان هتلر يختفي عن الســـاحة، كانت تظهر إيفـــا أخرى. تصبح من جديد مهضومة ومرحة وحرة.

كان اليوم الأخير من عام زمن الســـلام الذي عاشه البرغهوف. بما أن اتفاقات ميونخ لم تأت بالســـلام الـــذي وعد به هتلر، اندلعت الحرب في نهايـــة الصيف مع اجتيـــاح بولندا. كما العادة، أقصِيَـــتْ إيفا عن أي قرار سياســـي وحتى عن أي نقاش. كون مفاوضات 1938 بين هتلر وشامبرلان (Chamberlain) ودالاديـــه (Daladier)، رئيســـي الحكومتيـــن الإنكليزية والفرنسية، استمرت في شقة هتلر الخاصة الواقعة في ساحة برانس-راجان، كان بإمـــكان إيفا أن تلهو مدة يوم مع إحدى صديقاتها بالنظر إلى صورة لشـــامبرلاين وهتلر على أريكة الصالون: «لو أن شامبرلاين يعرف قصة هذه الأريكة!»

عندما كان يســـتقبل ضيوفاً مشـــهورين، كانت تختفـــي على الفور من المشهد: تحبس في غرفتها ولا يسمح لها بالخروج. كما حدث عند مجيء غالايازو ســـيانو (Galeazzo Ciano)، وزير الشؤون الخارجية الإيطالي، في

تشـــرين الأول 1936. وكعادتها أخذت عـــدة صور من النافذة لدى وصول السـيارة الرسمية. عندئذ لاحظها وزير موسوليني الفاتن. فأصدر هتلر على الفور الأمر بإغلاق الشـبابيك. بالرغم من ذلك، استمرّت في أخذ الصور بواسطة الزوم. دور الحبيسة التي تختبئ خلف شباك كان بالنسبة لها إذلالاً إضافيـاً. يدل على ذلــك الترتيب الذي قامت به في صــور ألبومها: فقد وضعــت إلى جانب الصورة التي أخذتها وهي وراء الســتار التعليق التالي: الأمــر: إغلاق النافــذة! أو كيف يمكن قلب الأشــياء». وعلى الصفحة نفســها، توجد صورة ســيانو وهو ينظر إليها من الأسفل، وقد أخذت في الوقت نفسه من قبل المصور الرسمي هوفمان؛ أضافت تقول بمرح: «هناك في العالي، يوجد شيء تمنع رؤيته: هو أنا».

حرب وسلم

خلال الســنة الأولى من الصراع العالمي، نجحت إيفا في أن تنتزع من هتلر تجهيز شقة صغيرة في مبنى مستشارية الرايخ في برلين. لكن الإنتصار كان مــراً: كان عليها المرور من مدخــل الخدم وتناول وجبات الطعام في غرفتهــا بمفردها. لم يكن لديها الوقت لتعتاد على ذلك، إذ صدر الحكم: «إيفــا، أنت لم تخلقي لمثل هــذه الحياة الإجتماعيــة، أنت غالية علي للغايــة، علي أن أحمي براءتك. برلين هي مدينة الخطيئة. العالم الخارجي قــذر ومبتذل». فعادت إيفا إلى البرغهوف محاطة ببراءتها وعزلتها لتكمل دليلها وتتخيّل سيناريوهات غريبة لما بعد الحرب.

تبلــورت عندئذ أحلامها حول الســينما والشــهرة العالمية في ملحمة افتراضيــة مصــوّرة في هوليوود تروي حبها المشــؤوم لألفــي، هذا الحب

الذي سيكتشـــفه العالم بعد أن يكون الرايخ قد انتصر على أوروبا والإتحاد السـوفييتي والولايات المتحدة. هكذا سوف تبلغ مرتبة المشيرة أو الملهمة لهذا العالم الجديد الذي تسيطر عليه ألمانيا.

لـم يقلقها الصـراع الدائر، يتذكر المدير الأطعمـة الفاخرة التي كانت تطلبها، بينما كان الشعب خاضعاً للتقنين ويتغذى بفضل بطاقات يصدرها النظـام. حتى في البرغهوف، كان الجميع يخضع للتقنين ما عدا إيفا التي لم تقبل التخلي عن أي شـيء. فاسـتمرت بطلب البرتقـال ليس لتأكلها بل لعصرها، ما كان يثير الإسـتغراب. كان طعامها المفضّل الحساء بلحم السلحفاة بالإضافة إلى أطباق أخرى أجنبية.

إذا اطلعنا على ألبوم صورها العائدة إلى سنِيّ الحرب، نتفهم عقلية تلك المرأة الشابة التي عاشـت خارج الواقع التاريخي. عام 1941، بينما بدأت عمليـة باربروس (Barberousse) وأطلق هتلر الإبادة المنظمة لليهود، كانت الآنسة براون تتخذ وضعيات أمام الكاميرا وهي ترتدي أحدث أزياء الموضة وتمـارس رياضة الجبال العالية. وبينمـا كانت الحرب حامية الوطيس على الجبهة الروسـية والمعتقلات مكتظة، كانت هي تسبح في بحيرات بافاريا الرائعة.

بـدا أن علاقاتها مـع ألفي قد تراخت في تلـك الحقبة الأخيرة. يؤكد المدير دوهرينغ (Döhring) أن هتلر شـعر فـي بداية الحرب بالحاجة إلى إلغاء العنصر النسـائي من حياته. مع ذلـك، قال الطبيب الخاص بالثنائي عند اسـتجوابه من قبل القوات الحليفة إنه وصف لهتلر منشطات جنسية خلال تلك الحقبة.

لـم يعد لإيفـا أي احتكاك مع العالم الخارجـي بأمر من الفوهرر، إذ

أبقيت عن قصد في إطار الكذب. علمت ذات يوم من أحد الموظفين أن القصف أسفر عن مقتل 250 قتيل في ميونخ. فلجأ هتلر إلى ردّ رخيص لطمأنتها مؤكداً لها أنه أضيف صفر سهواً ليس إلا: «لقد أسأتِ الفهم، لم يكن هناك سوى 25 قتيل، هذا ما قاله بورمان». لم يعد من الممكن إخفاء الخسائر العسكرية عليها وقتاً أطول. استشعرت بما هو أسوأ فسألت الموظفين الذين يحيطونها بصمتهم: «أتعتقدون أن هذا سينتهي على خير؟»

في نهاية عام 1942، أدركها الواقع فجأة. يقول دوهرينغ متذكّراً: «طبعاً لم أكن أجيب بوضوح. قلت لها يوماً: مرة جديدة لم نبلغ الهدف العسكري. عندئذ، أصيبت بانهيار. ثم حدثت معركة ستالينغراد؛ هذه قضت عليها».

بعد انسحاب القوات الألمانية من الأراضي السوفياتية، أكّدت أختها إلسا علناً أن الحرب خاسرة على كل حال. فكانت ردة فعل إيفا أن صفعت أختها. بإمكان العالم أن ينهار لكن سيبقى البرغهوف. لكي تتعزى شاهدت إيفا فيلم ذهب مع *الريح* مع أنه ممنوع في الرايخ.

كان إلهها الجبلي يخبئ صغيرته إيفي عن العالم لدرجة أن حتى معاونيه الأقرب منه لا يعرفون أي شيء عن علاقتهما. غوبلز الذي يعمل معه هتلر يومياً منذ 20 سنة لا يأتي على ذكرها في يومياته إلا انطلاقاً من 25 حزيران 1943! «أثناء فترة الإستراحة، كانت مناسبة لأتحدث مطولاً مع إيفا براون. وقد تركتْ فيَّ أفضل انطباع. إنها مثقفة جداً وحكمها في المسائل الفنية غاية بالوضوح والنضج، وستكون بالتأكيد بمثابة دعم قيِّم للفوهرر». أحد أقرب معاونين هتلر يكتشف قبل نهاية الحرب بأقلّ من سنتين الفتاة التي تقاسمه حياته منذ أربعة عشر سنة وتشاركه فيلا البرغهوف منذ ثماني

سنوات.

آخر حدث سـعيد قبل الكارثة النهائية: الزفاف الفخم لشقيقتها غراتل (Gretl) التي تزوجت في البرغهوف من الغروبنفوهرر (gruppenfuhrer) أس أس هرمان فجلاين (Hermann Fegelein SS). كانت تحرص بشكل خاص على أن يكون هذا الزفاف ناجحاً واعترفت بطريقة إيحائية لعشـيقها: «أودّ أن يجري كل شـيء كمـا لو كان زواجي أنا». نحن فـي 3حزيران 1944 والأميركيون مسـتعدون للإنزال على شواطئ النورماندي. لكن إيفا تتجاهل ذلك بكبرياء. وحدها الحيـاة العاطفية لروّاد البرغهوف هي الأهم في ذاك اليوم. في نهاية الإحتفال، أسـرّت إلى قريبتها، جيرترود وايسكر (Gertrud Weisker): «أختي الصغيرة هـي الآن إمرأة متزوجة، وأنا، لا أزال الصديقة الصغيرة بعد ستة عشر سنة».

تسارعت الأحداث خلال السـنة الأخيرة. بعد العرس بقليل، انطلقت عمليـة «الفالكيري». في 20 تموز 1944، الحقيبة الملغومة للكولونيل فون ستاوفنبرغ (von Stauffenberg) كادت أن تطيح برأس الإمبراطورية الألمانية. علمت إيفا بالنبأ وهي تستحم في الكونغسي (Königssee). عادت بسرعة وأمـرت مربيتها بأن تحضِّر لها أمتعتهـا، قائلة لها: «أنا ذاهبة إلى برلين». فـكان جواب هذه غير قابل للنقاش: «سـيدتي، هذا لا يمكن أن يكون. قـال لنـا الفوهرر إنـه يجب أن تمكثي فـي البرغهـوف مهما حصل». كانـت نوايا هتلر بالغة الوضوح. سـتبقى إيفا مسـتبعدة حتى النهاية عن القضايا الجدية. فأرسـلت له هذه الرسـالة: «يا حبيبـي، أنا لم أعد كما كنـت. يقتلني القلق، أشـعر أنني أكاد أفقد عقلـي. هنا، الطقس جميل وكل شـيء هادئ لدرجة أنني أشـعر بالخجل... أنت تعلم أنني لا أحيا

إلاّ من أجل حبك. حبيبتك إيفا». كان الاستيقاظ قاسياً، لكن حرص هتلر على طمأنة صديقته العزيزة على الفور: «يا غبيتي الصغيرة الحبيبة. أنا في حال جيدة، لا تحملي أي هم. ربما أنا متعب قليلاً لا غير. آمل أن أتمكن من العودة قريباً وآخذ قسط من الراحة بين ذراعيك».
أرفق هتلر رسالته بهدية أرادها أن تطمئنها، وهي البزة التي كان يلبسها يوم محاولة اغتياله. ثم أخذ يرسل إليها أخباره بانتظام مرة على الأقل كل يوم، وكان ما يزال يمنعها من المجيء إلى برلين. بدأت الأمور تسوء انطلاقاً من كانون الثاني 1945: اقترب السوفياتيون من العاصمة بشكل خطير، والمدينة في حالة حصار. فعصيت الأوامر. روت صديقتها مارغريت ظروف رحيلها: «غادرت بإرادتها إلى برلين المحاصرة في 7آذار 1945، في القطار الخاص. [...] أراد هتلر الذي أصابه الهلع أن يعيدها على الفور. لكن لم يكن بالإمكان إقناعها».

تطلعنا دفاتر ألبرت شبار على الدور الذي لعبته إيفا خلال هذين الشهرين المشؤومين في المدينة المحاصرة: «كانت إيفا براون الشخصية الحقيقية القادرة على مواجهة الموت في ذلك الملجأ المحصّن». برهنت عن هدوء ورواق مثيرين للإعجاب. بينما كان الآخرون يشعرون بحماس بطولي، مثل غوبلز، أو يحاولون إنقاذ حياتهم، مثل بورمان، أو ينطفئون مثل هتلر، كانت إيفا تظهر استرخاء يكاد يكون فرحاً.

في 18 نيسان 1945، كتبت إلى أختها رسالة تثير الدهشة لشدة عماها: «لا زال الطقس بارداً. إعتني بنفسك. اتصلت بك مساء البارحة. تصوري أن الخيّاطة طلبت مني 30 مارك على بلوزتي الزرقاء. إنها مجنونة خالصً! كيف تجرؤ على طلب 30 مارك على لا شيء؟»

أو ربما أرادت إيفا أن تطمئن أهلها؟ إذ في اليوم التالي أعطت صورة أكثر واقعية عن برلين المحاصَرة لصديقتها هارتا: فبعد أن هنأتها بمناسبة عيد ميلادها، وتأسفت لسوء الإتصالات، كتبت لها تقول: «أنا سعيدة جداً لأنك قررت الإقامة مع غراتل في البرغهوف. فمنذ أن قصف تراونستاين (Traunstein) لم أعد متأكدة من أنكما بمأمن. الحمد لله، ستلحق أمي بكما غداً. لم أعد بحاجة لأن أقلق». لقد قصف البرغهوف قبل يوم وعندما وصلت أمها وصديقتها كان النهب قد بدأ.

بالقرب من الملجأ المحصن الذي اختبأ فيه فريق المخلصين لهتلر كانت تسمع طلقات المدفعية الروسية. كانت الغارات الجوية تحصل يومياً. من الغرب، من الشرق، من كل اتجاه. الجميع محرومون من النوم. والمتاخمة (أو الإحتباس) يضغط على النفوس والأجساد: «لكنني سعيدة جداً، خاصة في هذا الوقت بجواره. لا يمر يوم إلا ويطلب مني أن أذهب إلى البرغهوف حيث أكون بمأمن. لكن حتى الآن، كنت أنا الرابحة دائماً»، على حدّ قولها. كانوا يدربون النساء على استعمال المسدس، في حال... «لقد أصبحنا ماهرات بحيث لا يجرؤ أي رجل على أن يتحدانا». الروح الرياضية للآنسة براون تخطت المنطق بالفعل. أو ربما كانت الوحيدة التي لم تتألم من العزلة كونها اعتادت عليها طوال أعوام. بينما كان العالم يهتز، وبينما كان الملجأ المحصن يتهاوى، كانت تبدو هي أكثر هدوءاً من أي وقت: «البارحة تكلمت للمرة الأخيرة على الأرجح بالهاتف. وبعد اليوم لن يكون هناك اتصالات هاتفية. مع ذلك، أؤمن كل الإيمان بأن كل شيء سيتحسن. فلديه آمال أكثر من أي وقت مضى».

زاد خبر إعدام موسوليني وعشيقته من الإضطراب في النفوس. شعر

سـكان الملجأ المحصّن بأنهم لم يعودوا مدعوميـن من الألمان وأن كل خروج لهم منه يشـكل خطراً. لم تكـن إيفا تفكر إلا بالرجل الذي تحبه. «مسكين أدولف، الجميع تركوك، الجميع خانوك».

بعـد ثلاثة أيام، بـدا أن إيفا بدأت تدرك الواقـع، إذ كتبت لصديقتها هارتا تقول: «عزيزتي هارتا الصغيرة، إنها السطور الأخيرة، كما هي الإشارة الأخيـرة للحياة من قبلي». كان هذا الأسـبوع الأخيـر قبل النهاية في 22 نيسـان: «لا أجرؤ على الكتابة لغراتل، لكن عليـك أن تفهميها كل هذا وتحرصي جيداً علـى صحتها». اتخذت إيفا قراراتها. يجب أن يبقى بعد موتها كل هـذا العالم الصغير من الجواهر والأشـياء الثمينة التي جمعتها بعناية: «سأرسل لكِ مصاغي وأرجوك أن توزعيها حسب تعليمات وصيتي الموجودة في الفاسربرغرستراس» (Wasserburgerstrasse) – المنزل الذي أهداها إياه هتلر في ميونخ – أظهرت في هذه الأوقات المأسـاوية الحرجة عـن رباطة جأش لم يكن أحد يظنها لديها، قوة المواجهة: «سـنقاوم هنا حتى النهاية، لكن أخشـى من أن النهاية تقترب اقتراباً حاسماً. لا أستطيع أن أصف كم بإمكاني أن أتألّم وأنا أرى الفوهرر. [...] لا أستطيع أن أفهم كيف حصل ذلك. لـم يعد من الممكن أن نؤمن بالله. هناك رجل ينتظر هذه الرسالة. كل المحبة وأشـياء أخرى طيبة لكِ، يا صديقتي المخلصة. سلامي لأبي وأمي... وسلامي لكل الأصدقاء، أنا أموت كما حييت. ليس هذا بصعب، كما تعلمين. أحبكِ من كل قلبي وأقبلكِ. حبيبتك إيفا».

أخيراً، كانت هذه الرسـالة الأخيرة الموجهة في 23 نيسـان إلى أختها والتي تؤكد على تصميمها: «من البديهي أننا لن ندع أنفسـنا نؤسر ونحن أحياء». تعبر لها عن نيتها بأنها ستتزيّن بالسوار الذهبي المرصع بالحجارة

الخضراء الكريمة الذي أهداها إياه هتلر بعد وقت قصير من بداية علاقتهما. أما الســوار المرصع بالماس وعقد الياقوت وقد أهداهما هتلر بمناسبة عيد ميلادها الأخير، فيعودان لها، أي لأختها.

كلما كانت الأنباء الســيئة تتتالى، تزداد النهاية وضوحاً. في 28 نيسان، أطلق هتلر بلاغين أخيرين: أحدهما سياســي وحاقد، اتهام أخير لليهودية العالمية. والثاني خاص وتتعلق بإيفا: «بالرغم من اعتقادي خلال ســنوات القتال بأنني لم أكن قادراً على تحمل مســؤولية الزواج، فقد صممتُ قبل نهايــة حياتي بقليل أن أتــزوج من المرأة التي أتت بعد عدة ســنوات من الصداقة الحقيقية، لتنضم إليّ في برلين المحاصرة بالكامل تقريباً لتشاركني مصيري. واســتجابة لأمنيتها هي، ســتتبعني في المــوت بعد أن أصبحت زوجتي».

اقتصر الإحتفال على الحدّ الأدنى من المراســم. فمســاء 28 نيسان، اســتُقدِم ضابط مدني من الوحدات المتبقية الموجودة في برلين ليســجِّل موافقة الزوجين. كان الشاهدان غوبلز وبورمان. أحدهما يعرفها منذ أقل من سنتين، والآخر يكرهها بصراحة. بدأت إيفا وهي في ذروة الإنفعال بالتوقيع بإســم عائلتها، أي حرف الباء، ثم شــطبته، وخطّت إســمها الجديد في النهايــة... إيفا هتلر، المولودة بــراون. لم يكد الحبر يجف حتى نوّه هتلر بالإنتحار الذي ينوي إتمامه في الغد.

غداة اليوم التالي، في 30 نيسان، ونحو الساعة الخامسة عشر ونصف، انتهت قصة حب إيفا وألفي. ســمع آخر سكان البونكر طلقة رصاص، ثم عاد الهدوء. تناول كلاهما كبســولة من الحمض السيانيدر وقضماها، وهو سم فوري المفعول. وتزامناً أطلق هتلر عياراً نارياً على رأسه، ليضمن مقتله.

بعد عشـــر دقائق، فتح الأتبـــاع المخلصون بحياء بـــاب غرفتهما في البونكـــر (bunker) ليجدوهما جثتين هامدتين. كان أدولف هتلر جالســـاً على الجانب الأيمن من الأريكة، وصدره منحنٍ ورأســـه إلى الخلف. وإيفا منهـــارة بقربه وعيناها مغمضتان. وليس على وجهها أي تعبير عن خوف أو حزن. وكأنها نائمة.

وفي غرفة مجاورة، كان هناك امرأة أخرى تعدّ نفسها للإلتحاق بالفوهرر في الموت. كانت وحدها تلعب لعبة الصبر بالورق وهي ترسم بعناية سيناريو ساعاتها الأخيرة.

ماغدا (Magda)، السيدة الأولى

برليـــن، 27 نيســـان 1945. المدينة مدمَّرة ومحاصـــرة منذ وقت طويل من القوات الســـوفياتية التـــي أطلقت الهجوم. بدأت حرب الشـــوارع بين جيـــوش ســـتالين المنتصرة وآخر أنصـــار هتلر المتعصبين. تقابل النشـــوة السوفياتية جنون التدمير النازي، لقد فُقِد الأمل لكنهم مازالوا يقاتلون. بعد يومين، ســـيقتل هتلر نفســـه، هنا في البونكر الواقع في 77، ويلهالمستراس (Wilhelmstrasse)، أكثر من ثمانية أمتار تحت مستشارية الرايخ الجديدة، آخر معقل الفوهرر المحاصر.

فـــي هذا الوقت، يقوم بتصرف إحتفالـــي غريب. هو يواجه امرأة وينظر إليهـــا مطولاً. ينتاب وجهه ألف تشـــنّج عضلي. بحركة مفاجئة أدهشـــت الحضور، خلع شـــارة الحزب الذهبية عن سترة بزته. وبالسرعة التي تسمح لـــه بها يداه المرتجفتان، يعلِّق هذا الشـــيء الصغير على ثنية ســـترة ماغدا

المفضّلة على قياسـها. هذه المرأة التي طالما ضبطت نفسـها والمعروفة بالشـقراء الباردة، أخذت تجهش بالبكاء. الشارة الذهبية هي أعلى تقدير في الحزب النازي. وهي مخصصة للأعضاء الذين انتسـبوا إلى الحزب قبل انقلاب 1923، وللموالين. تلقى هذا الوسـام عـدد قليل جداً من الرجال. أما النسـاء! لكن دبوس الفوهرر نفسـه هو الأرفع من بين كل الأوسـمة، إنـه ذخيرة. من هي امرأة اللحظات الأخيرة تلـك، والمهمة بنظر الفوهرر لتستحق مثل هذا التكريم؟

كتبـتْ في اليـوم التالي تقول: «أنا فخورة وسـعيدة. أرجو من الله أن يمنحني القوة اللازمة لأقوم بالعمل الأخير[...]. كوننا نستطيع إنهاء حياتنا معـه هو نعمة من القدر لم نكن نجرؤ يوما علـى أن نحلم بها[1]». بهذا التصرف، أراد هتلر أن يقدم مكافأة أخيرة لامرأة قررت أن ترافقه، هي أيضاً، حتـى إلى الموت. هل أراد أن يبرهن للجميع أن هناك علاقة خاصة تربطه بهذه المرأة؟ أم كان نوعاً من الإعتراف الرسمي المتأخر بالمرأة التي كانت منذ ثلاثة عشر عاماً السيدة غوبلزGoebbels؟

نجم ماغدا

ولـدت يوهانا ماريـا ماغدلانا باهرانـد (Johanna Maria Magdalena Behrend) أول تشـرين الثاني 1901 من علاقة غير شـرعية بين أوغوست

(1) رسالة من ماغدا (Magda) الى ابنها هارالد (Harald)، 28 نيسان 1945، استشهدت بها أنجا كلابوند (Anja Klabunde)، ماغدا غوبلز (*Magda Goebbels*)، باريس، تالانديه (Tallandier)، 2006.

باهراند (Auguste Behrend) وأوسكار ريتشـــيل (Oscar Ritschel). كانت الأم مـــن بيئة متواضعـــة لا بل كانت خادمة. وكان هو مهندســـاً في الرور (Rhur) وينتمـــي إلـــى البورجوازية الكبرى. تزوجا بعـــد ولادة ماغدا بقليل، لكنهمـــا انفصلا بعد أقل من ســـنتين. الأب غير القـــادر على التخلّي عن ابنتـــه ولا عـــن تربيتها كان نصف غائب كل حياته، لكنـــه أبقى عيناً راعية عليها. بدافع حرصه على توفير تربية لها، أدخلها إلى مؤسســـة راهبات في فيلفورد (Vilvoorde) في ضاحية بروكسيل حيث تلقت تعليماً صارماً باللغة الفرنســـية. لقنت الراهبات الفتاة ضبـــط النفس ورباطة جأش انطبعت بهما شخصيتها، وبنت عليهما هويتها فيما بعد.

لم تتحمّل أمها الفراق، فبعد بضعة أشـــهر من وصولها إلى بروكســـيل، التحقت بها وكانت برفقة رجل لعب دوراً أساســـياً في صبا الفتاة. رجلاً لم تكن تعرفه بعد، ريتشـــارد فريدلاندر (Richard Friedländer)، وكان يهودياً غير ممارس. اعتبر ماغدا كابنته ورباها موفراً لها الدفء الذي كان ينقصها. كانت هذه أول خطوة نحو الثقافة اليهودية التي حضنتها بشخص ريتشارد.

عندما اضطروا للهرب من بلجيكا في آب 1914 بعد التحركات المناهضة للألمـــان التي أعقبتْ إعلان الحرب، عادت العائلة إلى برلين. وســـجلت ماغدا في الثانوية التقدمية وارنر فان سيامنز (Werner van Siemens) حيث التقت بشاب جذّاب طلق اللسان جذب انتباهها على الفور.

كان فيكتور أرلوسوروف (Victor Arlosorov) حينها في الخامسة عشر من العمر، تصغره ماغدا بســـنتين. ارتبطت بـــادئ الأمر بعلاقة صداقة مع شقيقته، ثم أصبحت ترتاد منزل هؤلاء اليهود الروس الذين أتوا من كونغسبرغ (Königsberg). هذا الشـــاب الذي يجهل اللغة الألمانية فرض نفســـه مع

ذلك لدى رفاقه بفضل قريحته وموهبته الخطابية. افتتنت ماغدا بحماسه. كان لدى فيكتور شغف بالصهيونية ويحلم بالصعود نحو آرتز إسرائيل (Eretz Israël). فنظّم اجتماعات كان الحضور فيها يتناقشون بحماس ومزاج رائق. كانت ماغدا تشارك في النقاشات وتجمع الهبات في حي شونبرغ (Schönberg). وانضمت إلى مجموعة المخلصين أو الأتباع التي تشكلت حوله، «تيكفات زيون» (Tikvat Zion)، أي تحرير صهيون. كان ذلك عام 1918. أهداها نجمة داوود وضعتها حول عنقها إشارة إلى تبنيها لأفكار صديقها المتحمس.

في خريف 1919، كانت ماغدا حائرة. والدها أوسكار ريتشل اقترح عليها الدخول إلى مدرسة داخلية للفتيات حيث يمكن أن تتعلّم آداب نساء المجتمع المخملي. فكانت مترددة بين خيارين: وجهة الملذات البسيطة التي تتقاسمها مع فيكتور والنزهات الجبلية، وأعمال بيتهوفن وشوبرت (Schubert) والموسيقى التقليدية الروسية التي يتقن الجميع عزفها في عائلة أرلوسوروف. أو خيار إتمام تربيتها الضرورية من أجل زواج جيّد يفتح أمامها طريق البحبوحة التي تطمح إليها في السر.

السهرة الأخيرة التي أمضتها عند عائلة أرلوسوروف أوحت لها بالجواب: لن تستطيع يوماً أن تندمج تماماً بهذه البيئة اليهودية. لم تكن سوى المشاهدة لفولكلور لم تكن عضواً فيه. إلى ذلك، لم تتوصل إلى البوح بحبها لفيكتور، مع أن هذا الحب كان واضحاً لأعين الجميع. بينما كان فيكتور منجذباً أكثر فأكثر إلى الرحيل باتجاه فلسطين، اختارت ماغدا الدخول إلى المدرسة الداخلية للفتيات الميسورات.

الطريق إلى المدرسة الداخلية هو الذي جعلها تحتك بهذا الوسط

التي طالما حلمت به. في القطار المزدحم الذي كان ينقلها إلى غوسلار (Goslar)، لفتت انتباه رجل بعينيها الزرقاوين وهي بين الحشد، فقدم لها مقعداً في الدرجة الأولى.

مجهول القطار السريع

عرّف الرجل عن نفسه بانحناءة غونتر كواندت (Günther Quandt). على الفور، أثارت لياقات الرجل ومظهره الأنيق فضول ماغدا: طقم من التويد مفصل تفصيلاً جيداً، وقميص قبته منشاة وتزينه أزرار أكمام من ذهب، وعطر أنيق. وسط هذه السنوات الصعبة حيث التضخُّم والقلّة ما بعد الحرب، كان هذا النوع من الرجال يؤثر تأثيراً كبيراً، على كل حال بما يكفي ليُسمَح له بحالة الصلع النصفي الذي يحاول إخفاءه تحت خصلة شعر على الجهة الأمامية من الجبين. بالفعل كان غونتر من أصحاب الصناعات، غني نجح في تحويل مؤسسة النسيج العائلية التي ورثها إلى شركة ضخمة منتشرة على الأراضي الألمانية، بالرغم من الأزمة الإقتصادية. كان على رأس إحدى أولى ثروات البلاد.

كتب في مذكراته الحميمة يقول: «كان أمامي ظهور فائق الجمال: عينان زرقاوان، شعر أشقر جميل، وجه بتقاطيع منتظمة وقامة نحيلة[1]». شعرت ماغدا أنه يغازلها فأجرت معه محادثة جذلة طول الطريق. فتكلّما عن المسرح والأسفار خلال قسم من الليل. يعترف غونتر قائلاً: «مرّ

(1) يوميات غونتر كواندت (Günther Quandt) السريّة، لم تنشر، اطلعت عليه أنجا كلابوند، سبق ذكره.

الوقت كالبرق». هذا الأرمل الذي فقد امرأته في السنة السابقة وقع تحت سحرها على الفور. توقف القطار أخيراً في محطة غوسلار نحو الساعة الواحدة صباحاً. اعترفت له بسرها: إنها ذاهبة للإلتحاق بمدرسة داخلية للفتيات. أمام كل هذه الثقة في الحديث وأمام بنية جسدية ناضجة، تصوّر كواندت أنه يتعامل مع امرأة. إنما لم تكن ماغدا قد بلغت بعد سن الرشد إذ كانت في الثامنة عشر فقط من عمرها. لقد افتتن بما يكفي لكي يجرِّب حظه. عندما نزلت في غوسلار، اهتمّ بأمتعتها فكانت له فرصة معرفة عنوانها خلسة.

كتب لها أنه سيتوقف غداة اليوم التالي نحو الساعة الخامسة عشر في غوسلار ليقدم جزيل احترامه لمديرة المدرسة الداخلية. ووضَّح كرجل حذر بقوله: «سأدّعي أنني صديق لوالدك». كان حينها في الثامنة والثلاثين من العمر. أجابته ماغدا على الفور وأعطته بعض التفاصيل لاستمالة المديرة.

عند وصوله إلى غوسلار ابتاع باقة رائعة من ورود «ماريشال نيال»، ليس من أجل الطالبة الصبية بل من أجل مديرتها، وقام بزيارته مسلحاً بالورود. وضح قائلاً: «استقبِلتُ بكثير من الترحاب بصفتي صديق الأب الذي لم أكن أعرفه طبعاً».

بعد نقاش دام نصف ساعة تقريباً، استدعت المديرة الطالبة: «كان سلامنا مفعماً بمشاعر متناقضة: متكلِّفاً كشخصين لا يعرفان بعضهما إلا قليلاً، ووديأ ككائنين يلتقيان من جديد بفرح؛ وحارّة كفتاة مع صديق والدها». هذا اللقاء الثاني زاد في اقتناع كواندت بأنه وضع يده على امرأة إستثنائية. فضاعف جهوده بهدف إغوائها.

عندما عاد من جديد إلى المدرسة الداخلية، اصطحب كل الفتيات

أو التلميذات إلى محلّ حلويات مشــهور في المدينة. فســمحت المديرة الراضية بأن تخرج ماغدا بعض الأحيان مع الصناعي الغني إذ لا تزال تعتقد أنــه مقرب من العائلة. وراء مقود ســيارته الليموزين، كانا يذهبان بنزهة إلى الهارز (Harz) وتبادلا بعد فترة وجيزة أول قبلة. وســرعان ما تطورت العلاقة بينهما.

بعد عدة مشاوير، طلب غونتر منها الزواج. ترددت ماغدا كامرأة عملية. هل عليها البقاء في المدرسة الداخلية لتكمل علمها أو تغتنم الفرصة الفريدة هذه؟ فطلبت من كواندت مهلة للتفكير. بعد بضعة أســابيع، قامت بزيارة إلى أمها. لم تأت طلباً للمشــورة، بل لتعلن قرارها: «يمكنك أن تفعلي ما تشــائين، لن أعود إلى غوسلار». حتى أنها سمحت لنفسها بالتفوه بكلام وقح: «برأيك، ماذا رأيــتُ من الهارز كل ذلك الوقت، أرأيتُ فقط أحذية البنات اللواتي يســرن أمامي؟» فعالجتها على الفور بصفعة مدوية. شــرع غونتر في التالي باستمالة حماة المستقبل: المرأتان المتشاجرتان مدعوتان بودّ إلى زيارة الفيلا الفخمة التي يملكها في بابلســبرغ (Babelsberg) وهو حي فخم في برلين. كان يستمتع بتحدّي خطيبته. إنها حقاً المرأة المناسبة.

كانت أوغوســت معجبــة بأملاك صديق ماغدا الجديــد: المنظر من الصالون للحدائق المشــذبة بدقة على ضفة البحيرة رائع للغاية. وهي واقفة أمــام النافذة الهائلة التي تبدأ من الأرضية حتى الســقف، لم تفوت ماغدا الفرصــة لتضيف: «ماما، لا تتوهمي، لو لم أكــن أحبه لما قبلت بالزواج منه».

في 31 تموز 1920، وفي منزل بابلسبرغ الواسع، تم الإحتفال بعيد ميلاد غونتر التاسع والثلاثين وبخطوبته من ماغدا في آن معاً. كان قد ترك خصلة

الشعر المسروقة من الصلع تنمو للمناسبة وسرحها من اليسار إلى اليمين فوق رأســه الأصلع. ماغدا وأمها سمتا هذه الخصلة الطويلة بالأنشوا (سنمورة). شــاءت الصدفة أن تهب الريح فتبعثر كل شيء. ماغدا الجالسة بمواجهة زوجها المقبل اســتغلت الفرصة لتقول له رأيها بهذه الخصلة الشهيرة: «لن أتزوجك طالما لم تقص هذا الشــيء». في اليوم التالي، يوم الخطوبة، أتى لتناول الفطور من دون خصلته التي قصّها بنفسه بمقص أظافره أثناء الليل.

إن شــرط غونتر على ماغدا لإتمام هذا الزواج كان أكثر إكراهاً. عليها أن تعتنق البروتســتانتية كون العائلة من أقدم المنتسبين إلى الطائفة اللوثرية (luthérienne). إذن حضِّرتْ ماغدا للمراسم على يد قسٍّ خلال ستة أشهر. لم يكن هذا كل شــيء. كانت تحمل إسم زوج أمها الذي يشير إلى أصله اليهودي. فكان يجب أن تحمل إســماً أكثر اتفاقاً مع ألمانيا هذه السائرة نحو المزيد من التطرف. لم يكن كواندت يمارس إغراءه للمرة الأولى. فقرر الإتصال بريتشل، والد ماغدا، لكي يعترف بابنته في النهاية. بدافع شهامته وتأثره بالمســتوى المعيشي للصناعي وبأملاكه، أدرك الأب أن إسم ريتشل ســيقترن بإحدى أكبر ثــروات البلاد. فقبل بالإعتــراف بابنته بينما بلغت التاسعة عشر من العمر.

كان لدى كوانــدت المدقق بقواعد اللياقة فكرة واضحة عن الســلوك الذي يجــب أن تتحلى به زوجته المقبلة. دخلت ماغدا عشــيرة كواندت الخاضعة لقواعد ثابتة لا تتغير. الإنســان الذي كان خلال عشــر سنوات بديــلاً عن أبيها والذي يكِنّ لماغدا محبة حقيقية، لم يُدعَ إلى الزفاف. إذ انفصلــت أمها للتو عن ريتشــارد فريدلاندر الذي أصبح معيقاً جداً. هكذا أســقطت ماغدا جوانب كاملــة من حياتها من دون أن تشــعر بأية حالة

نفســية. مع هذا الدليل على كره كواندت للســامية، دخلت عالماً ألمانياً نموذجياً معادياً لليهود ومرتبطاً بالأوساط الأكثر نفوذاً في جمهورية فايمار (Weimar). لم تكن هذه سوى أولى المراحل.

عندما التقت ماغدا بجوزيف

مــرة أخرى، وبعد أن شــربت ماغــدا أكثر من اللازم، اشــتكت لدى أصدقائها. قالت لهم إنها لم تعد تقوى على التحمّل وإنها تخشــى من أن تفقد عقلها وإنها قد تموت من الضجر. في ذاك المساء، كان عضو العائلة الإمبراطورية، الأمير أوغوســت ويلهالم فون هوهنزولارن(de Hohenzollern Auguste Wilhelm) جالســاً بالقرب منها إلى طاولة الأميرة راوس (Reuss). كان يراقب من خلال دخان سيجارته النساء اللواتي يتحدثن بحيوية. شعر أنــه أصبح بالإمكان مخالطة محيط هتلر هذا أكثــر فأكثر. لذلك انضمّ إليهم... انحنى نحو ماغدا وهو يبتســم: «أنت تتضجّرين، سيدتي العزيزة؟ دعينــي أقترح عليك هذا الحل: إلتحقي بنــا! إعملي لصالح الحزب. ليس عمــلاً مضنياً بالطبع. من يســتطيع أن يطلب من امــرأة بهذا الجمال أن تنهك نفسها في العمل؟ بل نوعاً من المهمة الفخرية، القليل من المساعدة الظرفية. عندئذ يمرّ الوقت بشكل أسرع، وهكذا يزول الملل[1]».

إنهــا نهاية عام 1929. لقد انفصلت ماغــدا عن غونتر في بداية العام.

(1) شهادة والدة ماغدا، أوائل سنة 1930، أوغوست بهرند (Auguste Behrend)، «إبنتي، ماغدا غوبلز» (« Ma fille, Magda Goebbels »)، *Schwäbische Illustriete*، 26 نيسان 1952.

المعيشة المترفة التي وفرها لها زوجها لم تكن تعوِّض عن نشاطه الصاخب. كانت الأحاديث تدور أكثر فأكثر حول مؤسسته، هذا ما أضجرها جداً. كان الباقي يضجرها أكثر، وتتضاءل لديه روح الفكاهة. عندما كانت تنجح في جرّه إلى المسرح، كان يغطّ فجأة في النوم. كانت ذريعة الطلاق مغامرة عاطفية ربطت ماغدا بطالب شاب، أرنست (Ernest)، كانت تخرج معه منذ بعض الوقت. لم تكن تتردد بالسفر وارتياد الفنادق الفخمة بصحبة عشيقها الشاب. وفاوضت على طلاقها بمهارة إذ أبرزت رسائل معجبات كان قد تلقاها كواندت عندما كان أرملاً. فانتفت تهمة الزنا من الحكم وحصلت فوق ذلك على 4000 مارك كنفقة شهري، أضيف إليها شقة فسيحة وأنيقة تقع في 3، ساحة رايخسكنزلربلاتز (Reichskanzlerplatz) في برلين، كما مبلغ 50000 مارك من أجل تجهيز الشقة الجديدة. كما حصلت على حضانة ابنها هارالد (Harald) الذي ولد عام 1921. بما أنها كانت رابحة كلياً بالرغم من غلطتها، حازت ماغدا على الأوراق التي سمحت لها بالإستمرار في تقدمها في المجتمع الراقي وعقد الصداقات مع أفضل العرسان المحتملين.

شكت يوماً لأمها قائلة: «آه، كم أن كل شيء تافه، يا أولاد![1]»، أدركت أمها عندئذ ما هو الداء الذي يتآكل ابنتها: «علمتُ فجأة ما الذي كان يعذِب هذه المرأة الشابة المدللة التي هي ابنتي طبعاً، لكنها بالنسبة لي أكثر غموضاً من أية امرأة مجهولة: كانت ضجرة ولا تعرف ماذا تفعل

---

(1) أورده غيدو كنوب (Guido Knopp)، سبق ذكره.

بنفسها[1]». منذ ذلك الوقت، أخذت ماغدا تتثاءب وهي تعيش حياة امرأة لا عمل لها، تقلق من أن تصبح عابثة وغير نافعة.

ربما كان اقتراح الأمير دو هوهنزولارن مناسبة لجعل حياتها أكثر تشويقاً. فجربت نفسها في مجال السياسة، في هذا الحزب ذي الأفكار الراديكالية والجذابـــة، بعيداً عن تقليدية الطبقة السياســـية الجديدة التي برزت عقب انهيار الإمبراطورية. حصلت على بطاقة الحزب في أول أيلول 1930. كانت المنتســـبة رقم 297442. أغراها هذا الحزب الذي كان يســـتعمل الصليب المعقوف كرمز للحكمة والخلود. هذه المرأة الشـــابة المثقفة تعرف جيداً ما هو معناه. فقد درســـت عن كتب الفلســـفات الهندية وخاصة الحكمة البوذية التي وجدت فيها وســـيلة لمضارعة قيمة الحياة البشرية. بينما كانت مع أبيها يوماً يمارسان رياضة الإبحار مقابل كابري (Capri)، قالت له وهي تشـــير إلى جرف صخري على الشاطئ: «أترى، يا أبي، هذا يشبه حياتي، عندما أكون قد وصلت إلى أعلى، إلى القمة، سأودّ أن أتمكن من السقوط والزوال، إذ أكون قد فعلت كل ما أريده[2]».

ماغـــدا التي اعتنقت حديثاً الأفكار النازية أصبحت رئيســـة خلية برلين واســـتاند (Westend) الواقعـــة في حـــي راقٍ من أحيـــاء العاصمة. لم يكن الحضور مكوناً من الســـيدات بـــل من موظفين صغـــار وبعض أصحاب

---

(1) مقابلة أجرتها مجلة *Schwäbische Illustriete* ، أول آذار 1952، مع أوغوست بهرند (Auguste Behrend)، ماين توختر (Mein Tochter).

(2) كلام نقلته أختها من أمها، أريان ريتشل (Ariane Ritschel)، ذكرته أ. كلابوند (A. Klabunde)، سبق ذكره.

المحلات وحــرّاس المباني الأنيقة في الجوار. أثار الســخط دخول هذه المرأة ذات المظهر الأرســتقراطي إلى العمل السياسي. لم تنجح ماغدا في كســب ثقة رفاقها وتأييدهم. البذخ الملفت لملابسها العديدة أثار غريزياً حذر هؤلاء النساء المتواضعات. وتناولتها الإشاعات بسبب وضعها كامرأة مطلّقة تعيش حياة منحلّة.

كان هذا متطابقاً مع استراتيجية مسؤول الحزب النازي في برلين، جوزيف غوبلز. لقد اختار بالفعل طريق إثارة الفضائح وطريق التحدي لجذب الإنتباه على حركته في هذا المعقل الإشــتراكي. من وجهة النظر هذه، كانت بداية عمل ماغدا السياســي ناجحة. بعد ذلــك، عرض عليها منصبٌ في المقر العام للحزب حيث وضعت معلوماتها اللغوية في خدمة الأرشيف. في ذلك الوقت بالــذات حضرت ماغدا للمرة الأولى في قصر الألعاب الرياضية في برلين اجتماعاً للرجل الذي يتكلمون عنه في المنتديات، جوزيف غوبلز.

بالرغــم من قبح منظره الخارجي، -كان الخطيب قصيراً، بارز العظام، ويعانــي من عرج ناجم عن إصابتــه بالتهاب عظمي نقيي في صباه، وهولا يتنقــل من دون آلة خاصة بتقويم الأعضاء - هذا الرجل الذي كان يحضِّر ســابقاً أطروحة دكتــوراه بعلم اللغات في جامعة هايدلبــرغ (Heidelberg) استحوذ فوراً على نفوس مستمعيه. صوته العميق والمدوي الذي يتركه يمتد علــى المقاطع الأكثــر حدة وحقداً في خطاباته ضمن لــه التأييد الكامل للقاعات التي كان يعتلي فيها المنبر.

شــعرت ماغدا وكأن خطاب جوزيف الثعباني يســلبها لبها. فســعت إلــى التعرّف إليــه. عندما نجحت أخيراً في ذلك، بقــي محتاراً أمام هذه الشــخصية غير الإعتياديــة فدعاها إلى مكتبه. وعيّنهــا تحت إمرته لكي

يتمكن من مراقبتها بانتظام أكبر. يلاحظ باعتدال في يومياته في 7 تشـــرين الثاني 1930: »هناك امرأة حســـناء إسمها كواندت تكوِّن لي أرشيفاً خاصاً جديـــداً». وباحت هي بحماس إلى أمها: «ظننت أنني أحترق تحت هذه النظرة التي كانت تشلني وتلتهمني».

انشـــغلت من دون تأخير بالمهمة التي كلفها بها هذا الرجل ذو العينين الملتهمتين والقدم الأعرج، فساعدته في فرز الصور والأوراق. في 15 شباط التالـــي، كان جوزيف واقعـــاً بهواها، فقد كتب بلهجة المنتصر: «ســـتأتي ماغدا كواندت هذا المســـاء، وســـتبقى وقتاً طويلاً. اكتشفتُ أنها مخلوقة حنون شـــقراء وفاتنة. أنت ملكتي!... امرأة جميلة، جميلة! سأحبها كثيراً دون شـــك. أنا اليوم كأنني في حلم، ممتلئ بسعادة مشبعة. إنه لأمر رائع أن يحبَّ الإنسان امرأة جميلة وأن يكون محبوباً منها».

أصبح عندئذ لا يشـــبع، تستولي عليه الغبطة. كان جوزيف غوبلز مغرماً وتحتفـــظ يومياته بأثر هذا الغرام: «ســـهرة جميلة من الســـعادة الكاملة. إنها امرأة رائعة تمنحني الســـلام والتـــوازن. أنا ممتن لها على ذلك. ماغدا الحسناء!» كتب يقول في الأسبوع التالي: «إنها امرأة فاتنة وطيبة، وتحبني فوق ما يتصوره العقل».

كان قد أســـاء تقدير ماغدا بشكل خطير. فهي لا تزال تعلم أن الرحيل هو أفضل وسيلة لجعل الرجل يتخذ قراراً بالإرتباط، تعرف ماغدا ماذا تفعل لتكون مرغوبة. يبدو أنها انتقلت إلى الهجوم المضاد في 26 شباط: «كتبتْ لي كلمة وداع صغيرة ورحلت باكية. النغمة نفســـها دائماً. اكتشـــفتُ الآن كم هي جميلة وكم أحبها». لقد ابتلع جوزيف الخالي من الشفقة الطعم. هو الذي كان يعرض دونجوانيته (donjuanisme) (ســـعيه للإيقاع بالنساء)

بخفّة مزيفة يتألم من غياب محبوبته الجديدة. كانت تطبّق القاعدة حرفياً: لا اتصال هاتفي، ولا جواب على الرســائل. تركته يسقم وينتظر عبثاً. «لقد اتصلتُ بمنزلها 30 مرة تقريباً، لكن لا جواب. ســأفقد عقلي! أفقد الأمل! تنتابني أشــنع الكوابيس... لماذا لا ترسل لي إشارة ما، هذه الحيرة قاتلة. ينبغي أن أكلمها، مهما كلّف الأمر. سأســتعمل اليوم كل الوسائل للتوصل إلى ذلك. طول الليل، كنتُ مجرّد وجع وصرخة. أودُّ أن أصرخ. قلبي يتمزق داخل صدري!».

نضج الرجل تقريباً. ينقص عنصر أخير على البناء: إثارة غيرته. ردة فعل «الرجل الحديدي» الذي انتزع برلين من الشيوعيين، أمام عودة عشيق سابق متيم بماغدا، تجعلنا نبتسم. دوّن في يومياته لشدة غيظه، بعض التلميحات عن عشــيقات عابرات له. لكن في 22 آذار، اضطــر إلى الإعتراف بواقع الحال: «لم أعد أحب إلا امرأة واحدة».

أصبحت ماغدا إذن العشيقة المحتكرة لغوبلز وكانت تظهر أكثر فأكثر إلى جانبه أثناء نزهاته بين الناس. كان هذا سهولة مفرطة تقريباً.

رجلان، إمرأة...

فــي خريف 1931، التقت أخيراً بالشــخص الذي قرأت ســيرته الذاتية باهتمام بالغ. بعد طلاقها، بالفعل، وبما أن الفلاســفة البوذيين لم يأتوا لها بالحكمة التي كانت تتوقعها، قرأت عن كتب الأدب الراديكالي الذي كان بمتناولهــا: كتاب *نضالي* بعث فيها روح هتلر الحماســية للوطن والعنصر الألماني.

كانت تنتظــر بفارغ الصبر اللحظة التي ســتلتقي فيها بالزعيم. حدث

هــذا اللقاء أخيراً بينما كان هتلر قد أقام مقر الحزب في برلين، متخلياً عن ألمانيـا الجنوبية التي يحب. فقد لتوه عزيزته جالي، وربما كان بحاجة إلى الإبتعـاد عن المدينـة حيث كانت بداياته وحيث كانـت تنتظره مع ذلك عاشقة ولهانة، هي إيفا.

اختار هتلر أن يسكِن الحزب في فندق كبير، الكايزرهوف (Kayserhoff)، الـذي كانت ماغدا ترتاده من وقت لآخر. بينما كانت ذات يوم تحتسـي الشـاي فيـه برفقة إبنها هارالد، علمت أن المرشـد موجـود في الفندق. فشـجعت الصبي ذا العشـرة أعوام على الذهاب وتأدية التحية له. بعد أن أدى التحية التقليدية والمكرسة «هايل هتلر (Heil Hitler)!»، أجرى أدولف هذا الحديث مع الصبي:

- ما اسمك؟

- هارالد كواندت (Harald Quandt).

- كم عمرك؟

- 10 أعوام.

- من خاط لك هذه البزة الجميلة؟

- أمي.

- كيف تشعر وأنت ترتديها؟

انتصب الصبي بكل قامته وقال: «أقوى مرّتين».

اسـتدار هتلر عندئذ نحو الآخرين وقال: «أسمعتم؟ مرتين أقوى بهذه البـزة!» ثم قال للصبي: «هذا لطف منك أن تأتي لتراني. كيف حدث أن وصلتَ إلى هنا؟»

- أمي هي التي قالت لي.

- أين هي أمك؟
- في الأسفل، تتناول الشاي في الصالة.
- إذن أنقل تحيتي إلى أمك، ولا تتردد في المجيء إلي مرة أخرى».

بعد عشـرات الدقائق، طلب غوبلز من الفوهرر أن يسـتقبل إلى طاولته صديقتـه مع المناصر الصغير الذي صادفـه قبل قليل. وحذّره غورينغ على الفور بوصفه السـيدة كواندت السـابقة بأنها «بونبادور» (Pompadour). تساءل هتلر: هل من المناسب أن أستقبل على طاولتي امرأة تثير الفضيحة؟ غورينغ نصح هتلر بأن يكون حذراً: «يجب أن يحذر المرء مع امرأة تشـبه البونبـادور». فلنتعـرف إذن على الغنيمة الجديدة للدكتـور غوبلز الحار. تركت السـيدة بونبادور من النظرة الأولى إنطباعاً ممتازاً. كان المستشـار الإقتصـادي لهتلر، أوتو واغنر (Otto Wegener) موجوداً بين جلاّس المائدة التي تضم ماغدا والخطيب المعجبة به، وروى يقول: «لاحظتُ المتعة التي كان هتلر يشعر بها أمام حيويتها البريئة. لاحظتُ أيضاً كيف أن عينَي هذه المرأة الكبيرتين تتعلقان بنظرة هتلر».

فوصل متأخراً إلى الأوبرا بسـبب ذلك. كتـب واغنر أيضاً: «بدأ رابط صداقة وإعجاب قوي ينشـأ بين هتلر والسيدة كواندت». في المساء سمع بوحـاً من قبل الفوهرر. منذ وفاة جالي، اعتقـد هتلر »أنه لم يعد له علاقة بالعالم». والأوقات التي أمضاها مع ماغدا يصفها بالإلهية ويقارن مشـاعره بالمشـاعر التي كانت جالي تثيرها فيه، لكن «لم يكن يشعر بها مع نساء أخريات».

بالنسبة له، لم تعد الحياة العاطفية تعني له شيئاً، لأنه «قد دفن عواطفه وتابوتها في آن معاً». لكن، أثناء لقائه مع هذه المطلّقة الفاتنة عادت إلى

الظهور بشــكل غير متوقع، ما أثار لديه دهشــة ما بعدها دهشة. بعد أن استعاد رشده في نهاية السهرة، قال هتلر أخيراً بارتياح: «هيّا، لم يكن هذا سوى انتكاسة عابرة. لكن النعمة الإلهية كانت متسامحة معي[1]».

مــع ذلك، تكلّم مــن جديد عدة مرات بلهجة مديح وإشــادة بماغدا تلــك التي التقى بها في فندق كايزرهــوف، واعترف للمقربين منه:»يمكن لهــذه المــرأة أن تلعب دوراً عظيماً في حياتي، حتــى ولو لم أكن متزوجاً منها. فــي عملي، يمكن أن تكــون الجزء الأنثوي الــذي يعادل غرائزي الفائقــة الذكورية». كان معاونوه يبحثون فعلاً عن امرأة «تقيم الإتصال بين هتلر والحياة»، وترافقه إلى الأوبرا، والمســرح لحضور الحفلات الموسيقية واحتساء الشاي معه في أماكن فخمة. بعد أيام قليلة من هذا اللقاء الأول، رســم أوتو واغنر لماغدا صورة الرفيقة المثالية التي يمكن أن تجســد هذا الجانب الأنثوي لهتلر. هي تحدِّق إليه بعينيها الزرقاوين الكبيرتين. شــعرت ماغــدا أخيراً باقتراب الدور التــي تحتاج إلى القيام به لملء حياتها. عندما أعلن لها في ما يشبه الإستنتاج:

«ويمكنك أن تكوني أنت تلك المرأة»،

أدركت أن هناك شرطاً: «لكن يجب أن أكون إذن متزوجة!»

أجابها: «صحيح، ومن الأفضل أن تتزوجي من غوبلز».

كانت تعلم ماذا يبقى عليها أن تفعل. كانت ماغدا حاضرة لمشــاهدة

---

(1) بشأن المحادثات الخاصة بين هتلر وفاغنر (Wagener) بين 1929 و1933، أنظر ذكريات هذا الأخير : هتلر، ذكريات نجيّ (*Hitler, Memoirs of a Confident*)، نيو هافن (New Haven)، مطبعة جامعة يال (Yale University Press)، 1985.

العرض النازي الذي نظِّم في 17 تشرين الأول 1931. **وأعلنت لمعاوني هتلر** الذيـــن أتوا ليقدموا لها الإقتراح أنها توافق عليـــه. هكذا **تزوجت من غوبلز** بســـرعة. بعد الإنتســـاب إلى الحزب بأقل من سنة، أصبحت المرأة الأرفع مقاماً والأكثر بروزاً والشخصية الأكثر تأثيراً على هتلر.

حاولـــت أمها أن تقنعها بالعدول عن ذلك: فغوبلز رجل يعيش عيشـــة فقيرة، وكان في بداية الثلاثينيات سياســـياً هامشـــياً لا شيء ينبئ بترفيعه. وكانت تشـــك في قدرته على الإنفاق على عيشة البذخ التي اعتادت ماغدا عليها. إذ ينصّ طلاقها المربح على أن النفقة التي تستفيد منها سوف تقطع عنهـــا في حال تزوجت مرة ثانية. برهنـــت ماغدا عن حزمها: «إني مقتنعة بأنه لـم يعد هناك إلاّ مخرجيْن ممكنين من أجل قيادة ألمانيا سياســـياً. إمّا أن نغرق في الشـــيوعية أو أن نصبح قوميين إشتراكيين.. إذا قدِّر أن يرفرف العلم الأحمر فوق برلين، لن يعود هناك رأسمالية وسأفقد عندئذٍ النفقة التي يدفعها لي كواندت. لكن إذا وصل حزب هتلر إلى الحكم سأكون إحدى نســـاء ألمانيا الأُوَل». بالنســـبة لعقل مقتنع بعقيدة ما، يكون الخيار دائماً راديكالياً.

جرت مراســـيم الزواج قبل عيد الميلاد ببضعة أيام في مكان غير متوقع: منزل غونثر كواندت، في 19 كانون الأول 1931. ولـم يكن الشـــاهد سوى أدولف هتلر. والأمر المدهش هو أن من أقام المراســـم كان قســـاً، مع أن غوبلز كان كاثوليكياً وماغدا بروتســـتانتية جديدة لا تولي أية أهمية للشعائر أو لأي شـــكل من أشـــكال الطقوس. دلّ ثوبها للمناسبة على إرادتها في التميـــز عن العادات المتبعة مع الإحتفاظ بنوع من الكياســـة: فســـتان من الحرير الأســـود. رمزت مظلة العرس مسبقاً إلى وضع يد الدولة النازية على

هذا القران وعلى حياة الألمانيين، بما أنها كانت كناية عن علم عليه صليب معقوف.

والـــدة كوانـــدت التي كانت حاضـــرة أثناء الزفاف لم تخـــف مرارتها: «تميَّزت الوليمة بالفوضى التي ســـادت عليها. يبدو أن كل أعضاء الحزب كانوا قد أخذوا علماً بالإحتفال. على كل حال، كان يســـتمر توافد الناس الذين يريدون التحـــدث مع هتلر. لم يكن هذا الأخير يرغب في التحدث وحاول أن يضجِّر المرأة الجالســـة بقربه والمعازيـــم. كان يترك الطاولة كل خمس دقائق ويذهب للنقاش في غرفة أخرى».

أحدث الزفاف ضجة كبيرة؛ حتى أن هناك صحيفة يومية كتبت عنوان: «الزعيم النازي الصغير يتزوج من يهودية». بعد بضعة أيام، بداية عام 1932، استقرّ غوبلز في شقة زوجته، بالقرب من المستشارية. من هنا قام بالحملة الإنتخابية التي أدّت إلى وصول النازيين إلى الحكم بعد عام.

كان أدولـــف حاضراً على الدوام. ويشـــعر أنه في بيتـــه، حتى أنه كان باســـتطاعته أن يحصل على أطعمة نباتية تحضرها له ماغدا بشكل خاص. لقـــد تعرّض مؤخراً إلى محاولة تســـميم وأصبح حذراً جـــداً. إذن ملهمته الجديدة هي التي تحضِّر له بنفسها معظم وجبات الطعام.

طوّر هتلر لياقاته باحتكاكه بالسيدة غوبلز الأنيقة: يَعود تذوقه للكافيار إلـــى هذه الحقبة التي كانت فيها ماغدا تُســـمِع المجتمـــع الضيق ألحاناً موســـيقية عصرية، مخرِجة إياه من عالم واغنر الذي يتمســـك به. أنجزت نوعاً مـــا تهذيب هذا الريفي المحدود. كان دور ماغدا معقّداً: كانت آخر الوصيات العطوفات عليه وتلعب في الوقت نفســـه دور المرافقة. هو الذي لم يكن يهادن مطلقاً حول مسألة السجائر والكحول قَبِلَ من دون مناقشة

آفة التبغ والكحول لدى ماغدا.

حملت بسرعة وأنجبت أول طفل لها بعد عشرة أشهر من زواجها. لكن حمل ماغدا لم يمنعها من المشاركة بمبادرات الحزب. قبل يومين من ولادة ابنتها هالغا (Helga) في أول أيلول 1932، عُقِدَ اجتماع مهم في منزلها. في الشـــقة الواقعة على ساحة المستشارية، قرّر هتلر ومن حوله غوبلز وغورينغ وروهم (Röhm) الهجوم الأخير على المؤسسات التي تعتبر فاشلة. لقد فاز الحزب النازي للتو بانتخابات تموز النيابية وأصبح الحزب الأول في ألمانيا، حتى ولو منعه حصار صحي من الديمقراطيين من بلوغ أرفع المناصب.

كانت ماغدا مستمرة بمهمتها التمثيلية لدى غوبلز. كان لإبرازها هدف واضح: يجب أن تكون الناقلة لصوت السياســة القومية- الإشتراكية تجاه النساء. وفي الوقت نفسه، إعطاء بعض البريق للزمرة النازية.

في 16 كانــون الأول 1932، أقامت حفلاً راقصاً في إطار هذه المهمة الجديــدة. الصحافية بيلاّ فروم (Bella Fromm) التي كانت حاضرة وصفتها بعبــارات مادحة: «ماغدا كانت فعلاً جميلة في تلك الســهرة الراقصة. لم تكن ترتدي حلى ســوى سلســلة من اللؤلؤ الأصلي حول عنقها. شــعرها الأشــقر لم يكن مصبوغاً، كان لونه طبيعياً. عيناها الكبيرتان البراقتان اللتان يتغيّر لونهما من الرمادي الفولاذي إلى الأزرق الغامق كانتا تلمعان بتصميم مطلق وبكبرياء خارق[1]». أحد الدبلوماســيين الحاضرين، أندريه فرانسوا- بونســيه (André François-Poncet) خفــف من هذه الصفات قائلاً: لم أر

---

(1) بالا فروم (Bella Fromm)، دماء ومآدب. يوميات برلين الإجتماعية (*Blood and Ban-quets. A Berlin Social Diary*)، لندن- نيويورك، 1942.

يوماً إمرأة بمثل هاتين العينين المجمِّدتين».

لكن بالرغم من هذا الهدوء الظاهر، اهتزت قناعات ماغدا. كان الحزب مفلساً ويغامر بكل شيء. السلطة أو لا شيء آخر. أخذ هتلر يتكلم من جديد عن الإنتحار إذ أدرك ما هما الخياران أمامه. أصبحت أعصاب ماغدا عرضة للعطب.

كان التوتر سائداً لدى الثنائي غوبلز. لقد وجدت أم ماغدا ابنتها أمام زجاجة كونياك نصف فارغة وكانت عيناها جامدتين وتتكلم بطريقة أبطء من المعتاد. قالت لأمها إنها تشرب الكحول لتداوي بها زكاماً أصابها من جراء عملية تنظيف كبيرة للمنزل. إذ كانت مهووسة بالنظافة. كانت تقلب الشقة رأساً على عقب بفترات متقاربة، فتبدِّل مكان الأثاث وتعلِّق اللوحات المجمِّلة على جدران أخرى، وتفرك الأرضية بالمكنسة-الفرشاة وبفائض من المنظفات، كما تفعل أمهر الخادمات. كانت تهذي ذاك المساء. نظرت إلى أمها وابتسمت ورفعت إصبعها: «لقد تأكدتُ من الأمر بعناية. النجوم لا تكذب! سيكون عام 1933 عام النصر».

عشية عيد الميلاد، انهارت أعصابها نهائياً. كتب غوبلز في يومياته: «ماغدا ليست على ما يرام. أوجاع مبرحة. أتى ستوكل (Stoeckel) وأمر بنقلها إلى العيادة الطبية. إن عام 1932 عام سلسلة من الكوارث، يجب أن ننسفه. بقيتُ مستيقظاً ومهموماً إلى وقت متأخر من الليل: كل شيء فارغ وممل للغاية. عندما تكون ماغدا غائبة، يبدو المنزل فارغاً».

في اليوم التالي، كان بقربها. زيَّن شجرة الميلاد في رواق العيادة، وضع عليها الشموع المضيئة وعلّق عليها هدايا ماغدا ثم دفع بالشجرة إلى غرفتها، فضحكت المحبوبة وبكت. كتب يقول: «بقينا كلنا مدة ساعة،

لكن كانت قلوبنا مثقلة بالهمّ».

في 30 كانــون الأول، بينما كان غوبلز يقضي رأس الســنة إلى جانب هتلر في البرغهوف، أجهضت ماغدا. بعد بضعة أيام، تمّ تشخيص إصابتها بتجرثــم الدم. لم يعد بإمكانها تناول الطعام بمفردها. عاد غوبلز إلى برلين بقطــار الليــل إذ طالبت ماغدا به: «هذا الخــوف عليها جعلني أدرك كم أحب هذه المرأة وكم أنا بحاجة إليها». اســتعادت صحتها ببطء حتى 30 كانون الثاني. اتصل بها غوبلز في ذلك النهار ليزف لها النبأ الســار: لقد تمّ تعيين هتلر مستشــاراً. عند سماعها بالخبر، «قفزت إلى السقف» من شدة فرحها.

في 2 شــباط، شفيت فجأة وغادرت سرير المستشفى، لكن كان هناك خيبــة أمل صغيرة بانتظار الثنائي: لم يعيــن هتلر غوبلز في الحكومة. لقد أســاءت له ســمعته كفوضوي حقود، وهو من الصعب معاشرته بحيث لا يمكن تواجده منذ الآن في الحكومة. لكن كان من المقرر إجراء انتخابات فــي الخامس من آذار، فضاعف من عمليــات التلاعب من أجل انتصار حزبه، في 27 شــباط، احترق مبنى البرلمــان، الرايختاغ (Reichstag). فقد نجحــت الدعاية التي أطلقها غوبلز: إذ كان الرأي العام مقتنعاً بأن الحريق هو من افتعال الشيوعيين. في اليوم التالي، تمّ اعتقالهم بالجملة. كان مزاج ماغدا واهنــاً ومتقلباً خلال الحملة كلها، وهــي ضعيفة لدرجة لا يمكنها المشاركة بالضربات الغامضة بشركائها.

النجاح فــي انتخابات آذار حيث حصل الحزب النازي **NSDAP** على 44% من الأصوات أعطى هتلر هامشــاً أكبر من المناورة. أصبح يستطيع تعيين جوزيف في الحكومة وتستطيع ماغدا أخيراً أن تلعب دور المرأة الأولى

في النظام. كونها تتمتع بتكوين جسدي آري نموذجي، فهي تجسد المرأة الألمانيــة الكاملة لدى الفوهرر الجديد. فــي 14 أيار، يوم عيد الأمهات، ألقت خطاباً إذاعياً طويلاً، كان موجزاً حقيقياً عن مناهضة الحركة النسوية:

«كانــت خيرات الشــعب الألماني الأكثر قدسـية تتفــكك [...]. انحدرت قيمة الأم هي أيضاً، وقد جعلتها ضلالات عصر طائش تسقط من المرتبة الرفيعة التي كانت تتبوؤها، دعامة العائلة وحارستها. أصبحت شريكة الرجل، وأصبح هدفها بعد ذلك أن تتســاوى معه في مجالات السياســة والعمــل والأخلاق، أو حتى أن تتجاوزه. لذلك، عندما خرج من الشــعب رجل حامل لعصر جديد ومناضل من أجل أخلاق جديدة وشــرف جديد، لمــاذا نتعجب إذا اصطفت المرأة، لاســيما الأم، إلــى جانبه، وأصبحت المناصرة المتحمســة والمناضلة المتعصبة لأهدافه الفكرية والأخلاقية بعد أن أدركت سموها؟»

عُيِّنَتْ رئيســة شرف لمكتب الموضة الألماني. كونها كانت تأخذ على محمل الجد مهمتها في أن تجعل الألمانيات أكثر أناقة، حاربت الموضة المنمطــة أو الموحدة التي لا تليق بالعنصر المتفوق: «أعتبر أنه من واجبي أن يكون لدي أجمل مظهر ممكن». يجب أن تكون النســاء الألمانيات جميــلات وأنيقات قدر الإمــكان، إلى حدّ إثارة غيرة الباريســيات. كان طموحها كبيــرا: «تحويل المرأة الألمانية على غــراري إلى نموذج حقيقي لعنصرها».

لكن دورهــا في النظام اقتصر على الإســتعراض. كان عليها آنذاك أن تنجب ذرية لأحد شــخصيات النظام الرئيســية. ولدت طفلة ثانية في 13 نيســان 1934، هيلده (Hilde)، التي سببت خيبة أمل كبرى لغوبلز. فرفض

هذا الأخير إرســال الزهور والذهاب لتهنئة الأم في المستشــفى، ولم تكن هذه المرة الأولى التـي يخالف فيها مبدأ الأبوة. لم يذهب الأب الخائب لرؤيــة طفلته وزوجته المنهكة للمرة الأولى إلا عندما قدّم لها هتلر احترامه. في الســنة التالية، أنجبت أخيراً ولداً ذكراً للدكتور غوبلز، ســماه هالموت (Helmut). ثم ثلاث بنات. بعد إنجابها ستة أطفال، سُمّوا كلهم أسماء تبدأ بحرف الهاء، اســتطاعت ماغدا من جديد أن تلعب دورها كأم نموذجية. عام 1937، تم عرض الأطفال في فيلم عائلي صغير بعنوان ضحايا الماضي، يداعبهم فيه العم أدولف.

كانت ماغدا تحرص على أن تكون في منتهى الأناقة بالرغم من حملها المتكرر. فتتزيّن وتغير ملابسها حسب المناسبات وعدة مرات في اليوم إذا لزم الأمر، كانت أزياؤها مفصّلة على قياســها من قبل كبار خياطي العصر، وشعرها مصففاً بطريقة لا عيب فيها وأظافر يديها معنَّمة. كان ضبط نفسِها وصورتِها قوياً بحيث أنها اســتمرّت يوماً في التحدث مع ضيوفها من دون أن يرف لها جفن بينما كان موقد الغاز ينفجر في المطبخ.

كانت تمثل الصورة الســلبية الكاملة للمــرأة الألمانية الطيبة، الخاضعة والكتومــة والتي ترفض التدخين وشــرب الكحول وترتــدي الثياب الريفية. والغريــب في الأمر هو أن تلك المرأة المناقضــة كل التناقض لصورة المرأة المثالية بنظر هتلر هــي التي اختارها لإبرازها. إذ كان يقدرها أكثر من كل شيء.

كتب هربــرت دوهرينغ (Herbert Döhring) يقول: «كان هذا واضحاً، هتلر معها مرتاح للغاية، وهي إحدى النســاء النادرات التي كان يطلب منها النصائح. كان يطَّلع على هذه النصائح وربما يطبقها في عدة ميادين خاصة

بطريقة حكم الناس». لم يجد الفوهرر يوماً إمرأة مثلها تستحق أن يكلمها عمـاّ هو في الحقيقة وعن السياسـة. «كان هتلر يوقِّرها وهي تتملّقه أكثر فأكثـر»، هذا موجز لما كانت عليه قوة علاقتهما؛ كانت ماغدا الحسـناء تستحق بنظره بأن يعرّف عنها على أنها «سيدته الأولى».

لم تكن هذه «السيدة الأولى» تخفي غيرتها إزاء صديقة أدولف الطيبة، إيفا براون. فتصفها «بالشقراء البلهاء» وأصبحت هذه الأخيرة موضع العديد من النكات السـاخرة. كانت إيفا أيضاً تشـكو من «الشقراء المجلدة»: عندما أرسلتْ لها أزهاراً، «شكرتني بواسطة سكرتيرتها، اعتبر هذا التصرف قلـة أدب من قبلها». وامتعضتْ مـرة أخرى حقاً من موقف زوجة الدكتور غوبلـز الحامـل والتي طلبت منهـا أن تعقد لها ربـاط حذائها، كونها لا تسـتطيع الإنحناء. اغتاظـت إيفا من مثل هذا الطلـب، فقرعت الجرس وطلبـت ببرود من الخادمة أن تأتي وتربط حذاء السـيدة غوبلز، وخرجت وهي تسمع صخب غيظها.

ماذا كان رأي غوبلز بهذه العلاقة؟ هل كان على علم بطبيعتها؟ مستشاره الشخصي ويلفريد فون أوفن (Wilfried von Oven) لم يكن مخدوعاً: «ما كان هتلر يقدره عند ماغدا هو انسـجام فكري معيّن. وهذا هو السـبب الـذي من أجله زوجوها لغوبلز، نزولاً عند طلـب هتلر، لكي تكون دائماً بالقرب منه».

كان هتلر يصغي للنصائح السياسية التي تغدقها عليه ماغدا، وبالطريقة نفسـها، كان الوحيد الـذي تقبل ماغدا بالإصغاء إليـه. هكذا كان هتلر يتدخل شـخصياً وبصفته حكماً في مشاجرات الثنائي غوبلز، لكي يهدئ الزوجين ويصلح ما بينهما.

لم يكن غوبلز يضع لنفسه أي حدّ بصفته الرجل الخارق الذي يفترض به أن يكون حينها. وخاصة في الحياة الخاصة. كانت عائلته بمثابة واجهة، لكن في عقله لم تكن كافية لإشباع شراهته الجنسية. فأكثر من المغامرات والعلاقات النسائية، وبطريقة أقل كتماناً. بينما كانت ماغدا يوماً تتناول الفطور، رأت امرأة شـــابة في الشقة. ما من شـــك في أنها خرجت من غرفة زوجها. لم تقم بأية ردة فعـــل عنيفة ولا بإثارة فضيحة أمام هذه المرأة المجهولة. بل دعتها ماغدا بكل ود إلى طاولتها وأرسلت معها أحد موظفيها لمرافقتها إلى المحطة. تلقت بعد ذلك من مخبريها تفاصيل أكثر عن مغامرات زوجها. لقد نسي اتخاذ أية حيطة، وفي أحد الأمسيات، كان يشاهد أوبرا من مقصورة عشيقته بينما كانت ماغدا جالسة في المقصورة العائلية. كانت هذه إهانة علنية.

الأســـوأ من ذلك كانت قصته مع ليزا باروفا (Lisa Baarova). لقد أغرم غوبلز جديّاً بهذه الممثلة التشـــيكية الشابة. حافظت ماغدا على ماء الوجه وحاولت التصالح. ألّفت هي وجوزيف والعشيقة أسرة ثلاثية لبعض الوقت. برّرت نفســـها لدى آلّو (Ello)، بنت حموها السابقة: «إذا تركتُه الآن أفقد زوجي إلـــى الأبد. لكن بتصرفي هذا أحتفظ بجوزيف للمســـتقبل. عندما ســـيصبح عجوزاً، ســـيكون لي أنا بكليته». يمثـــل «زوجها» من دون أي شك، مركزها في النظام. هي محتفظة بالإنتقام لما بعد.

أحـــد مخبريها عن غرامياته خارج نطاق الـــزواج كان الوزير كارل هانك (Karl Hank). عندمـــا وضع في تصرف ماغدا المعلومات البوليســـية التي بحوزتـــه، طفح الكيل لديها. فصفقت الباب وذهبت لتلجأ عند «فارســـها الجديد». لم يقم هذا الأخير بوشـــاياته بدافـــع الإيثارية، فقد عرض على ماغدا أن تصبح زوجته. وهي فكّرت جدّياً بالأمر.

لم يكن وارداً بالنسبة لأدولف أن تطلق سيدته الأولى من وزير الدعاية. سيكون ذلك فضيحة مؤكدة وفرصة أمام معارضيه ليسخروا من كل سياسته القائمة على العائلة. تم إخطار الثنائي المثالي في الرايخ الثالث بأن يتصالح الزوجان. تمّ تثبيت الإتفاق بعقد بنوده هي التالية: عدول غوبلز عن الإتصال بباروفا، ومقابل ذلك، عودة ماغدا إلى البيت الزوجي. ومنعت ليزا باروفا من دخول الأراضي الألمانية، اقتصاصاً منها. وإضافة إلى ذلك حصلت ماغدا على مهلة عامين للتفكير تستطيع في نهايتها أن تقرر الإنفصال عن الذي أذلّها كل هذا الإذلال.

استعمل هتلر المكر أو النفاق. كان يعلم جيداً أن الحرب وشيكة، وأن الطلاق لن يكون وارداً. انطلاقاً من ذلك اليوم، لم يعد هناك سوى علاقة مصلحة تربط الزوجين. كتب غوبلز في يومياته في 17 شباط 1939: «جدال طويل مع ماغدا. كلمتني عن سهراتها الراقصة، واجتماعياتها والله أعلم ماذا. لكن هذا لا يهمني». لم يعد لديها سوى هاجس، وهو أن تبقى بالقرب من هتلر. من أجل ذلك عليها أن تصمد.

كانت تريد الإنتقال إلى المرحلة التالية والبذل من شخصها أكثر فأكثر. أرادت أن تشارك في المجهود الحربي، نوت أن تعمل في شركة التسليح تيليفونكن (Telefunkenà). نشبت الحرب في وقت غير مناسب بالنسبة لهذه المرأة التي أنهكتها المحن التي اجتازتها في الفترة السابقة. خانها جسدها، إذ وهنت جداً نفسياً وجسدياً. كثرت فترات إقامتها في العيادة وبيوت الراحة. إذ قضت فيها أسابيع لا بل أشهراً كاملة. العوارض كثيرة وغامضة. كانت تعاني من أوجاع مبرحة في الحنك من دون أن تتعرّض لأية صدمة. ثم عانت من شلل جزئي في وجهها بسبب نزوة عصب وجهها. كما تعرضت لنوبات قلبية وعانت من حالات انهيار عديدة غيّرت من

شـــكلها. التجأت إلى شـــرب الكحول وهي على شفير الهاوية. عند نهاية الحرب، لم تعد سوى ظلّ نفسها.

بالرغم من اضطراباتها استشعرت ماغدا مع ذلك بوقت مبكر بالهزيمة. كل شـــيء مرتبط في ذهنها: النصـــر أو الهزيمة، البقاء على قيد الحياة أو سقوط النظام، تضحيتها أو انتصارها.

في الأول من شـــباط 1945، توقّع غوبلز بهدوء ما هو أســـوأ وقال في يومياتـــه: «أعلن للفوهرر أن زوجتي مصممة بحزم على البقاء هي أيضاً في برليـــن وترفـــض أن تكلّف آخرين برعاية أطفالنـــا. لا يعتبر الفوهرر أن هذا الموقف هو الأسلم، لكنه يراه مثيراً للإعجاب».

شـــرحت ماغدا بوعي ثاقب لصديقتها آلّو ما يلي: «لقد اشترطنا أشياء مســـتحيلة على الشـــعب الألماني وعاملنا شـــعوباً أخرى بقسوة لا تعرف الشفقة. المنتصرون سينتقمون بطريقة لا ترحم. لا يمكننا التهرّب من ذلك بجبانة. يحق لكل الآخرين الإستمرار بالعيش، لكن ليس نحن».

غامرت ماغدا بكل شيء طيلة حياتها. وأخيراً انهارت الأرض من تحت قدميها. فاستخلصت النتائج بصلابتها المعهودة. قررت أن تبقى إلى جانب أدولـــف حتى النهاية. فالتحقـــت بزوجها ومعلمها فـــي البونكر بعد بداية الهجوم الروسي على برلين بقليل.

تحققت اللحظة التي طالما بحثت عنها عشية تضحيتهم. سلمها هتلر شـــارته الذهبية الحزبية، فكان الأمر بالنســـبة لها ذروة المجد في حياتها، والتأكيد على أنها أتمت واجبها بحماس وأنها استحقت الإنتقال إلى حياة أخرى أفضل. لأن انجذابها إلى الفلســـفات الشرقية تسهل عليها ساعاتها الأخيرة التي تجمع بيـــن التخلي والتضحية والرجاء بالإفتداء. كانت ماغدا

تتحضر لارتكاب ما لا يمكن تصوره، قتل أولادها.

أطفالها الستة الذين أبهجوا اللحظات الأخيرة في البونكر كان مقدراً لهم ألا يعيشوا إلا عمر الرايخ الثالث. سيكون إسم عائلتهم لعنة بالنسبة لهم، وترفض ماغدا أن يدفعوا ثمن الجرائم التي اقترفاها، هي وزوجها. سيرافقها أولادها في التضحية.

انتحر هتلر في 30 نيسان. في اليوم التالي، جمعت ماغدا أطفالها في الغرفة التي يشغلونها منذ أسبوع. وحقنتهم بحقنة منومة وهم يرتدون ثياباً بيضاء. فسرعان ما غرقوا في النوم. عندئذ كسرت ماغدا ببطء كبسولات من السيانور (cyanure) وأفرغت محتواها في فم كل طفل. فعل السم مفعوله الفوري. ثم بانتظار أن يقوم غوبلز بشغله الأخير بصفته مستشار الرايخ، جلست على الطاولة بهدوء وبدأت لعبة تبصير بالورق. كان هذا نشاطاً غريباً اختاره بانتظار الموت. كانت ماغدا مصرة على الحفاظ على مظهرها، مع أنها كانت تذرف الدمع الغزير.

أخيراً، اتجهت نحو مكتب زوجها. وقف جوزيف وماغدا وجهاً لوجه وسط الغرفة. تركت له مهمة قتلها برصاصة مصوبة إلى القلب قبل أن يحوِّل السلاح نحوه. لقد تبعت حتى النهاية الإلتزام الذي كانت قد قطعته على نفسها قبل خمسة عشر عاماً من أجل رجل. مرافقة هتلر في السراء والضراء.

«أحب زوجي أيضاً، لكن حبي لهتلر أقوى. سأكون مستعدة للتضحية بحياتي من أجله. أدركتُ أن هتلر لم يعد يستطيع أن يحب امرأة، باستثناء إبنة أخته جالي، وأن حبه الوحيد كانت ألمانيا كما يقول دائماً. عندئذ فقط، قبلتُ أن أتزوج من الدكتور غوبلز. من الآن فصاعداً، سيكون بإمكاني أن أكون بقرب الفوهرر». وهكذا كان.

كتب شكر موصولة الى :

-أنطوني دابيلا (Antony Dabila) لتعاونه في إعداد هذا المؤلَّف فلولا تواجده وأبحاثه ونصائحه التي لا مثيل لها لم يكن لهذا الكتاب أن يبصر النور.

-جوليات جاكمان (Juliette Jacquemin) وأنجيلا فرناندس (Angela Fernandes) لتعاونهما،

-تياري لانتـــز (Thierry Lentz) وبيار بيـــان (Pierre Péan) ورادو بورتوكالا (Radu Portocala) وســـتيفان كورتوا (Stéphane Courtois) لنصائحهم الوجيهة.

فهرست

المقدمة: رسائل حبّ إلى طاغية 7

1. بينيتو موسوليني، حياة المرشد 33
ثائر يتمتّع بأعضاء جذابة........................... 33
عاشقات الفاشية اليهوديات 42
المرأة والدجاجة، أسطورة موسولينية 73

2. لينين، الثلاثي الأحمر 111
ناديا «الرَنْكة» 111
الثلاثي الآخر 128
طاقم سيّدات في الكرملين 157

3. ستالين، حبّ ومجد ومنزل ريفي 163
الراحلة كاتو 163
مُغوٍ جورجي 170
المنتحرة الفرحة 175
مجهولة يالتا 195

4. أنطونيو سالازار، لُعب محظورة على طالب إكليريكية 201

عذراء فيزو 201

زائرات فندق بورجس 222

الحب يقرع الباب دائما مرتين 243

5. بوكاسا، يوميّات بانغي العفريتة........ 263

حب صاعق في بانغي 263

ملكة هاردريكور 281

فاليري، صديق لا يريد إلا مصلحتك 286

6. ماو، نِمر السيدات........ 305

المرأة بلا رأس........ 305

مسيرة الامبراطور 316

لون الحب أزرق كلون التفاحة 324

7. إيلانا تشاوتشيسكو: ترف وسكينة وجهاز أمن الدولة 359

حقنة أخيرة للطريق 359

مسار رفيقة فطنة 366

القديسة إيلانا من بترستي 370

الغيرة........ 384

8. فوهرر إسمه الرغبة 407
التربية العاطفية 407
المنتحرات 422
إيفا، بانتظار أدولف 437
ماغدا، السيدة الأولى 464

كتب شكر 493
فهرست 494

نساء الطغاة

أسمائهن: إيناسا (Inessa)، كلارا (Clara)، ناديا (Nadia)، ماغدا (Magda)، فليسمينا (Felismina)، جيانغ كينغ (Jiang Qing) إيلانا (Elena)، كاترين (Catherine) . . . . ويُدعون لينين (Lénine)، موسوليني (Mussolini)، ستالين (Staline)، هتلر (Hitler)، سالازار (Salazar)، ماو (Mao)، تشاوتشيسكو (Ceausescu)، بوكاسا (Bokassa). إن كُنَّ من بنات الهوى أو من كبار البرجوازيات المثقفات، إن كنَّ مجرَّد علاقة عاطفية عابرة أو موضع حبّ متقد، يغصبونهنَّ ويعبدونهنَّ، لكنهم يلجأون دوما إليهنَّ. زوجات أو شريكات أو مشيرات أو معجبات، القاسم المشترك بينهنَّ هو أنهنَّ في الوقت نفسه ظافرات ومخدوعات يُضحى بهنَّ. يوهمن رجالهنَّ القاسين العنيفين المستبدِّين بأنهم ظرفاء جذابون مقتدرون. فالجنس من بواعث السلطة المطلقة، والطغاة يحتاجون الى انخراط النساء في مسعاهم الى الهيمنة. يتحكّمن أحيانا بالأمور في الظل، في كنف "مدربهنَّ" (Pygmalion) الذي يرافقنه حتى في الموت.

أما المؤلفة ديان دوكريه(Diane Ducret) فهي طالبة سابقة في جامعة السوربون (Sorbonne) ودار المعلمين العليا، أنجزت عدة أفلام وثائقية ثقافية، و تعكف على إعداد برامج تستمد مواضيعها من علم التاريخ. وفي هذا الكتاب تروي لنا بالتفصيل اللقاءات وكذلك إستراتيجيات الإغواء، والعلاقات الغرامية، وتداخل الحياة السياسية بالمصائر النسائية المختلفة التي كثيراً ... حد معاشرة